

إيان مكيوان

مكتبة بغداد

السبت



روايات الينابيع 10

ترجمة: علي عبد الأمير صالح

الكتاب: السبت

الكاتب: إيان مكيوان

ترجمة: علي عبد الأمير صالح

الطبعة الأولى: ٢٠١٠

تصميم الغلاف: جيهان خير



دار الينابيع

طباعة. نشر. توزيع

سورية - دمشق

جوال ٠٩٣٢٠٦١٧٣٥ ص . ب ٦٣٤٨

E-mail: daralyanabeea@gmail.com

إيان مكيوان

السبت

ترجمة: علي عبد الأمير صالح

رواية

مقدمة المترجم

ولد إيان مكيوان في ألدرشوت بانجلترا سنة ١٩٤٨، وأمضى معظم سنوات طفولته في شرق آسيا وألمانيا وشمال أفريقيا، حيثما كانت تتطلب وظيفة والده بوصفه ضابطاً في الجيش. درس في جامعة سوزيكس وجامعة إيست أنجليا.

أول عمل مطبوع له هو مجموعة قصصية حملت عنوان ((حب أول، طقوس أخيرة)) (سنة ١٩٧٥)؛ نال هذا الكتاب جائزة سومرست موم في سنة ١٩٧٦. أبكر روايتين له هما ((الحديقة الإسمنتية)) (سنة ١٩٧٨) و((راحة الغرباء)) (سنة ١٩٨١). بسبب طبيعة هذين العملين الأدبيين لُقب بـ ((إيان مكابر)) أي ((إيان المرعب أو المخيف)).

عد الكثيرون روايته ((بقاء الحب)) الصادرة سنة ١٩٩٧، عن شخص يعاني من متلازمة دي كليرامبولت، تحفةً أدبية، مع أنها لم تصنف ضمن القائمة المصغرة لجائزة بووكر. في سنة ١٩٩٨ منح جائزة بووكر عن روايته ((امستردام))، التي صدرت عن دار ((المدى)) مطلع سنة ٢٠٠٧.

من رواياته الأخرى: ((الطفل في الوقت المناسب)) (سنة ١٩٨٧)،

((البريء)) (سنة١٩٨٧)، ((كلاب سود)) (سنة١٩٩٢)، ((الكفارة)) (سنة٢٠٠١)، و((على ساحل سيشيل)) (سنة ٢٠٠٧).

كتب مكيوان أيضاً عدداً من السيناريوهات ومسرحية وقصصاً للأطفال وقطعة موسيقية ذات موضوع ديني .

أُعدت عدد من رواياته وأُخرجت سينمائياً، ومنها ((الحديقة الأسمنتية)) (سنة١٩٩٣) و((بقاء الحب)) (سنة ٢٠٠٤) و((الكفارة)) (سنة ٢٠٠٧).

في أحد الحوارات التي أُجريت معه، والمنشورة على شبكة الانترنت، يقول مكيوان: ((لا أستطيع حقيقةً أن أصف نفسي كوني أملك أي شيء خصوصي جداً في ما يتعلق بمشروع اللغة . أشعر انني منهمك في إستقصاء طويل الأمد للطبيعة البشرية .))

كما يقول : ((كنت أود دوماً أن أعين موضع الأشياء بصورةٍ دقيقة وكذلك أن أدمج العوالم المخترعة مع العوالم الواقعية . أصبح ذلك جزءاً جوهرياً من مشروعي . بشكلٍ من الأشكال، الحقيقي تاريخياً، الواقعي، يبدو أنه يفعم المخترع بالنشاط والحيوية . أحب أن أضع أناساً متخيلين في أمكنة واقعية، ومحددة . أحب غالباً أن أمزج شخصيات مخترعة مع شخصيات تاريخية، وهو ما قمت به أول مرة في رواية ((البريء))، حين جعلت من جورج بليك شخصيةً من شخصيات الكتاب . كان ذلك تحول هائل.))

وفي موضع آخر يقول: ((كلما كنتَ ناجحاً أكثر في إغواء قارئك إلى طبيعة القصة وعالمها، ينسى القارئ بسهولةٍ أكثر كل

شيء موجوداً فيها . يجب على بنية القصة أن تعمل بطرائق جميلة غير مرئية.))

كتبت صحيفة ((فاينانشيال تايمز)) عن ((السبت)) قائلةً: ((إن رواية إيان مكيوان الجديدة الجميلة تنتمي إلى تقليد [يوليسيس] و[السيدة دالاوي] في تركيز فعالياتها في يوم واحد وعلى شخصية مفردة .. في [السبت] مكيوان في أفضل كتاباته - عميق التفكير، فصيح، ومع ذلك هو مقيّد . تملك الرواية كل الثقة التقنية لسابقاتها وتوحي أيضاً بحساسية سياسية جديدة وبإنتباه مفرٍ، (جويسي)، إلى الصفات المميزة للطبيعة السوية .))

علي عبد الأمير صالح

مثلاً؟ طيب ، مثلاً ، ماذا يعني أن تكون إنساناً. في مدينة ما. في قرنٍ ما. في تحول. في جمهور ما. متحوَّلاً بواسطة العلم. تحت سلطةٍ منظمة. يخضع الى تحكمات هائلة. في حالةٍ حصلت بسبب المكننة. بعد الفشل الأخير للآمال الراديكالية. في مجتمعٍ لم تكنْ فيه سمات مشتركة وقلّلَ من قيمة الفرد. بسبب النفوذ المضاعف للأعداد التي جعلت الفرد الواحد مهملاً. مجتمع أنفق البلايين العسكرية ضد الأعداء الأجانب لكنه لا ينفق أي نزر يسير منها على حفظ النظام في الوطن. مجتمع سمح للهمجية والبربرية أن تسودا في مدنه الكبيرة. في الوقت نفسه ، ضغط الملايين البشرية التي اكتشفت ماذا يمكن أن تفعل الجهود والأفكار المنظمة والمتفق عليها. مثلما تحدد انفجارات الماء الهائلة الكائنات الحية في قاع المحيط. مثلما يصقل المد والجزر الصخور. مثلما تجوّف الرياح الجروف. الآلات المتفوقة الجميلة تفتح حياةً جديدةً للجنس البشري الذي لا حصر له. هل تنكر عليهم حقهم في الوجود؟ هل تطلب منهم أن يعملوا ويتضوروا جوعاً في حين تمتع أنتَ نفسك بـ(القيم) عتيقة الطراز؟ أنتَ— أنتَ نفسك ابن هذا الجمهور وأخ للبقية كلهم. أم أنتَ بخلاف ذلك مجرد عاق ، هاوٍ للفن ، أبله. هو ذا ، هيرزوج ، فكر هيرزوج ، طالما إنكَ طلبتَ مثلاً ، الأسلوب الذي تجري فيه الأمور.

صول بيللو، ((هيرزوج))، ١٩٦٤

الفصل الأول

قبل الفجر ببضع ساعات استيقظ هنري بيروني، جراح الأعصاب، من نومه ليجد نفسه في حالة تحفز، يدفع الأغطية عن وضع الجلوس، ومن ثم ينتصب واقفاً على قدميه. لم يتضح له متى أصبح واعياً على وجه الدقة، ولا ما إذا يبدو ذلك وثيق الصلة بالموضوع. لم يفعل شيئاً كهذا من قبل، إلا انه لم يشعر بالرعب ولا حتى بدهشةٍ طفيفةٍ، ذلك أن التحفز بسيط، وسار في أطرافه، ويشعر بقوةٍ غير اعتيادية في ظهره وساقيه. يقف هناك، عارياً بقرب السرير- كان دائماً ينام عارياً- متحسساً كامل قامته، واعياً بالأنفاس الصبورة لزوجته وبهواء حجرة النوم الشتوي على جلده. ذاك أيضاً إحساس سار. ساعته الجدارية بجانب السرير تشير الى الثالثة وأربعين دقيقة. ليست لديه أدنى فكرة لما يروم أن يفعله خارج الفراش: ليست به حاجة لأن يريح نفسه، كما انه ليس مضطرباً، عكر المزاج، من جراء حلم أو عنصر ما جرى في اليوم الماضي، أو حتى من جراء حالة العالم. يبدو كما لو انه، واقف هناك في العتمة، قد تجسد من لا شيء، اتخذ شكلاً كاملاً،

وغير معاق. لم يكنْ يشعر بالتعب، على الرغم من الساعة المبكرة أو من جهوده الحديثة، كما انه لم يشعر بأن ضميره أنزعج بفعل أي حالة حديثة. الواقع، هو يقظ وخالي البال ومبتهج بصورةٍ يتعذر تفسيرها. من دون أن يتخذ قراراً، ومن دون أي باعث على الإطلاق، يبدأ بالحركة متجهاً صوب أقرب نافذة من نوافذ غرفة النوم الثلاث ويجرّب راحةً وخفةً كهاتين في مشيه بحيث ظنَّ على الفور انه يحلم أو يسير في نومه. إذا كانت هذه هي الحال، سيكون مخيب الآمال. الأحلام لا تثير اهتمامه؛ الاحتمال الأقوى أن تكون هذه الحال حقيقية. وانه هو نفسه بقضه وقضيضه، هو متيقن من ذلك، ويعرف أن النوم وراءه: معرفة الفرق بين النوم واليقظة، معرفة الحدود بينهما، هو جوهر سلامة العقل.

حجرة النوم واسعة وليست ذات أشياء مكوّمة بغير انتظام. بينما هو ينزلق عبرها ببراعةٍ هزلية نوعاً، مشهد نهاية التجربة أحزنه لمدة وجيزة، عندئذ تلاشت الفكرة. هو الآن بقرب النافذة الوسطى، ساحباً الى الوراء مصاريع النافذة الخشب الطولية القابلة للطي بحذر كي لا يوقظ روزاليند. في هذا الأمر هو أناني فضلاً عن كونه موسوساً. هو لا يريد أن يُوجه إليه سؤال ماذا جرى له؟أي جواب يمكن أن يقدمه، ولماذا يتخلى عن هذه اللحظة في المحاولة؟ يفتح المصراع الثاني، جاعلاً إياه كالأكرديون في داخل الإطار، وبهدوء يرفع إطار النافذة. كان أطول منه بأقدام عدة، إلا انه ينزلق بسهولة الى الأعلى، مرفوعاً بواسطة ثقله الموازن المخفي الذي من الرصاص. يتوتر جلده حين يتسلل هواء شباط (فبراير) من

حوله، إلا أنه لم يشعر بالضيق من جراء البرد. من الطابق الثاني يواجه الليل، المدينة في ضوئها الأبيض الثلجي، الأشجار الشبيهة بالهياكل العظمية في الساحة، وثلاثين قدماً الى الأسفل، الحواجز السود ذوات الرؤوس السهمية بدت أشبه بصفٍ من الرماح. ثمة درجة أو درجتان من الصقيع والجو نقي. وهج مصباح الشارع لم يطمس تماماً النجوم كلها، فوق واجهة مبنى (ريجينسي) على الجانب الآخر من الساحة تدلتْ بقايا كواكب في السماء الجنوبية. تلك الواجهة بالذات هي اعادة تنظيم، مزيج لأساليب فنية عديدة- (فتزروفيا) الحربية أخذت بعض النجاحات من الـ(لوفتوافي)- وفي الخلف مباشرةً برج دائرة البريد، التمتع باستقلال ذاتي محلي وبالٍ نهاراً، لكنه ليلاً، نصف مخفي ومضاء بصورةٍ مقبولة، نصب تذكاري باسل لأيام أكثر تفاؤلاً.

والآن، أية أيام هي هذه؟ مُربَكة ورهيبة، هكذا يفكر في الأغلب حين يأخذ وقتاً من جولته الأسبوعية للتأمل. غير انه لا يشعر بذلك الآن. ينحني الى الأمام، ضاغطاً بكل ثقله على راحتيه الموضوعتين على عتبة النافذة، مبتهجاً ابتهاجاً شديداً في فراغ المشهد ووضوحه. حاسة بصره- الجيدة دائماً- تبدو انها أمست أكثر حدة. يرى ميكة[1] حجارة الرصيف تتلألأ في الساحة المخصصة للمشي، براز حمامة تصلب بفعل البُعد والبرد وتحوّل الى شيء ما ذي جمال نسبي، كنثار من الثلج. هو يحب تناظر أعمدة الصُلب السود وظلالها الأكثر سواداً، والنظام الشبكي للبالوعات المرصوفة بالحصى. سلال الفضلات المبعثرة المتخمة تماماً توحي

بالوفرة ناهيك عن القذارة؛ المصطبات الخالية الموضوعة حول الحدائق الدائرية تبدو منتظرةً بلطف لحركة المرور اليومية الخاصة بها – الحشود المرحة للمكاتب التي تأتي وقت الغداء، الصبيان الوقورون، المولعون بالدراسة من النزل الهندي، عشاق في نشوات صامتة أو أزمة، بائعو العقاقير الناشطون في الغسق، العجوز الهرمة المحطمة بصيحتها المتهورة، والمتكررة. ابعد عني! سوف تصرخ على مدى ساعات في كل مرة، وتطلق بصورة مزعجة أصواتاً عالية حادة، كما لو انها طائر مستتقع أو حيوان في حديقة الحيوان.

واقفاً هنا، ذا مناعة من البرد كما لو انه تمثال رخام، متطلعاً الى شارع (شارلوت)، الى خليط غير منتظم ومقصّر من واجهات المباني، السقالات والسطوح المطلية بالزفت، يفكر هنري ان المدينة عمل ناجح، اكتشاف ألمعي، تحفة بايولوجية– ملايين البشر تزاحموا حول المنجزات المتراكمة طبقة فوق طبقة للقرون الكثيرة، كما لو انهم يتزاحمون حول حيد بحري مرجاني، ينامون، يعملون، يسلون أنفسهم، منسجمين مع بعضهم في الأعم الأغلب، تقريباً كل واحد منهم يريد أن يتحقق. وزاوية عائلة بيروني الخاصة، نصر ذو تناسب ملائم؛ الساحة المثالية التي خطط لها روبرت آدم تطوّق دائرة كاملة من الحديقة– حلم من أحلام القرن الثامن عشر غُسل وعونقَ من قبل الحداثة، وبواسطة ضوء الشارع المنسكب من الأعلى، ومن الأسفل بواسطة (كيبلات) الألياف الضوئية، والماء العذب معتدل البرودة الذي يجري في

الأنابيب، ومياه البالوعات حُملت بعيداً في لحظة نسيان.

ملاحظ فطري لأمزجته الخاصة، يسأل نفسه حول هذا الشعور بالنشاط والخفة، والذي كان طويل البقاء ومشوّهاً. أغلب الظن في الأعماق عند المستوى الجزيئي كانت ثمة واقعة كيمياوية تحدث في أثناء نومه- شيء ما أشبه بصينية مسفوحة من المشروبات، محفزةً المستقبلات الشبيهة بالدوبامين كي تبدأ سلسلة منتظمة رقيقة من الأحداث في داخل الخلايا؛ أو انه مشهد لسبتٍ ما، أو النتيجة ظاهرية التناقض للتعب المفرط. حقيقةً، أنهى هو الأسبوع في حالةٍ من الاستنزاف غير المألوف. عاد الى مسكنه الخالي، ورقد في حوض الاستحمام وبيده كتاب، مرتاح البال لكونه لا يتحدث الى أي إنسان. ابنته المتعلمة، المتعلمة جداً ديزي هي التي بعثت له سيرة داروين الذاتية التي بدورها لها صلة برواية كونراد التي تريد منه أن يطالعها والتي لم يبدأ بقراءتها بعد- السفر بالبحر، مهما كان مشحوناً بالمعنويات، لن يثير اهتمامه كثيراً. حتى الآن ومنذ سنوات خلت كانت تنكب على ما تدعوه هي جهله الصاعق، وتقود عملية تثقيفه الأدبي، موبخةً إياه على سوء ذوقه وانعدام حساسيته. كانت بحوزتها نقطة- بدءاً من مدرسته الابتدائية والثانوية الى كليته الطبية الى الساعات الصاغرة لطبيب حديث العهد، ومن ثم الاستغراق التام في التدريب في مجال الجراحة العصبية الذي اقترن بالأبوة المورّطة- على مدى خمس عشرة سنة قلما مس كتاباً غير طبي على الإطلاق. من الناحية الأخرى، يعتقد هو انه رأى كفايةً من الموت، الخوف،

الشجاعة، والمعاناة، تكفي لتزويد نصف دزينة من الآثار الأدبية. مع ذلك، أذعن لقوائم المطالعة التي قدّمتها له– انها وسائله التي تبقيه في تماس معها بينما هي تنمو بعيداً عن عائلتها لتبلغ أنوثةً غير معروفة في إحدى ضواحي باريس؛ هذه الليلة ستكون هنا في بيت أسرتها أول مرة منذ ستة شهور– وهو دافع آخر من دوافع شعوره بالنشاط والخفة.

كان قد تخلف عن دروسه المفروضة عليه من قبل ديزي. باصبع قدم واحدة يتحكم غالباً بزازٍ عذب من الماء الساخن، يطالع بصورةٍ غير واضحة مقالةً حول اندفاع داروين لإكمال ((أصل الأنواع))، وموجزاً عن الصفحات الختامية، والتي تم تنقيحها في الطبعات الأخيرة. في الوقت نفسه كان يصغي الى أخبار المذياع. كان السيد بليكس متبلد الحس يخاطب الأمم المتحدة ثانيةً– كان ثمة انطباع عام بانه نوعاً ما قوّض المسألة مهيئاً الأجواء للحرب. ثم، متيقناً من أنه لم يتلقَ شيئاً على الاطلاق، أطفأ بيروني المذياع، قلّب الصفحات الى الوراء وشرع يقرأ من جديد. في بعض الأحيان كانت هذه السيرة الذاتية قد جعلته يشعر بنوستالجيا باعثة على الارتياح الى انجلترا المخضوضرة، المسحوبة بالجياد، الحنون؛ وفي أحيان أخرى كان يشعر بكآبة طفيفة بسبب الطريقة التي يتم فيها تضمين حياة كاملة في مئات قلائل من الصفحات– معلبة كصلصة مصنوعة في البيت. وبتلك البساطة التي تستطيع حياة ما، طموحاتها، شبكات العائلة والأصدقاء وكل مادتها الباقية في الذاكرة، والمتلكة بصور متينة، أن تتلاشى وتضمحل

نهائياً. في ما بعد، تمتد على الفراش، كي يفكر ملياً في عشائه، ولم يتذكر شيئاً آخر. لا بد أن روزاليند سحبت الأغطية فوقه حين عادت من عملها. لا بد انها قبلته. عمره ثمانية وأربعون عاماً، يغط في نومه العميق في التاسعة والنصف مساء جمعة ما- هذه حياة مهنية حديثة. يعمل بجد ومثابرة، الجميع من حوله يعملون بجد ومثابرة، وهذا الأسبوع كافح بمشقة أكثر بسبب تفشي الزكام وسط أطباء المستشفى- قائمة عملياته الجراحية كانت ضعف طولها المألوف.

بواسطة الموازنة والمضاعفة، كان قادراً على انجاز جراحة كبرى في صالة العمليات الأولى، ويشرف على مقيم أقدم أنهى إقامته القدمى في الثانية، وينجز اجراءات صغرى في الثالثة. له مقيمان أقدمان في حقل جراحة الأعصاب في شركته بالوقت الحاضر- سالي مادن التي كانت مؤهلة تقريباً ومعوّل عليها كلياً، ومقيم أقدم للسنة الثانية، هو رودني بروني من غويانا، موهوب، دؤوب، لكنه ما يزال غير واثق من نفسه. المخدر الاستشاري لـ بيروني، جي شتراوس، له مقيمه الأقدم الخاص، ويدعى جيتا سيال. على مدى ثلاثة أيام، محتفظاً بـ رودني الى جانبه، تحرك بيروني بين الأجنحة الثلاثة- صوت قبقابيه على أرضيات المجاز الصقيلة وأصوات الصرير والتأوهات المنبعثة من أبواب صالة العمليات الدوّارة بدت أشبه بمصاحبات أوركسترية. كانت قائمة الجمعة نموذجية. بينما كانت سالي تغلق مريضاً مضى بيروني الى الصالة المجاورة ليريح سيدة عجوز من ألم في

العصب مثلث التوائم[٢]، أي التقلص اللا إرادي في عضلات وجهها بخاصة. هذه العمليات الصغرى ما تزال تمنحه السرور- يود أن يكون سريعاً ودقيقاً. دس سبابة مكسوةً بقفاز الى خلفية فمها كي يتحسس المسلك، عندئذ، بنظرةٍ عجلى الى مكثف الصورة، يدس ابرةً طويلةً عبر السطح الخارجي لخدها، صعوداً الى عقدة العصب مثلث التوائم. أقبل جي من الصالة المجاورة كي يراقب جيتا وهو يعيد السيدة الى وعي قصير الأمد. التحفز الكهربائي لطرف الإبرة سببٌ وخزاً خفيفاً في وجهها، وما إن تيقنت وهي نعسانة أن الموضوع كان صحيحاً- بلغه بيروني مباشرةً من أول مرة- كانت قد وُضعت ثانيةً في وضع الرقود بينما كان العصب ((يُطبخ)) بواسطة التخثير الحراري للموجات الراديوية. كان العمل البارع الدقيق هو إزالة ألمها بينما كان يترك لها إدراك اللمسة الخفيفة- ذلك كله تم إنجازه في خمس عشرة دقيقة؛ وانتهى شقاء السنوات الثلاث من الألم المبرّح، الطاعن.

أمسك باحكام بعنق تمدد في الشريان المخي الأوسط[٣] - كان تقريباً استاذاً في المهارة- وأخذ عينةً حيةً من ورم في المهاد البصري في الدماغ لغرض دراستها مجهرياً، وهي منطقة يتعذر إجراء عملية جراحية فيها. كان المريض لاعب كرة تنس محترف عمره ثمانية وعشرون عاماً، يعاني من فقدان ذاكرة شديد. بينما كان بيروني يسحب الأبرة كاملةً من أعماق الدماغ كان بوسعه أن يرى بنظرة عجلى أن النسيج غير طبيعي. علق أملاً قليلاً على المعالجة بالأشعة أو بالمواد الكيمياوية. أتى التوكيد لاحقاً بواسطة تقرير شفهي من

المختبر، وفي ما بعد ظهيرة ذلك اليوم أذاع الأنباء لوالدي الشاب العجوزين.

كانت الحالة المرضية التالية فتح الجمجمة لحالة ورم في الأغشية الدماغية في امرأة يبلغ عمرها ثلاثة وخمسين عاماً، مديرة مدرسة ابتدائية. كان الورم جالساً فوق الشريط الحركي ومحدداً بوضوح، وتدحرج بنعومة قبل أن يسبره بمبضع روتون– وهي حالة علاجية تماماً. أغلقت سالي تلك الحالة فيما مضى بيروني الى الصالة المجاورة لينجز عملية استئصال صفائح فقرية قطنية في مستويات عدة في رجل بدين عمره أربعة وأربعون عاماً، وهو بستاني يعمل في الهايد بارك. تغلغل أربعة إنشات في الدهن الواقع تحت الجلد قبل أن تظهر الفقرات، وكان الرجل يتمايل بصورةٍ لا نفع فيها على الطاولة كلما سلط بيروني ضغطاً الى الأسفل كي يمسك العظم باحكام.

لصديق قديم، اختصاصي في الأنف والأذن والحنجرة، فتح بيروني منطقةً سمعية في غلام ذي سبعة عشر عاماً- انه لشيء غريب كيف يحجم أناس الأنف والأذن والحنجرة هؤلاء عن القيام بشق مسالكهم الخاصة الخطيرة. فصل بيروني جزئياً قطعةً مستطيلةً، واسعة من نسيج عظمي خلف الأذن من موضعها، هذا الإجراء استغرق ما يزيد على الساعة، وأغضب جي شتراوس الذي كان يريد أن يتقدّم في قائمة الشركة. في الختام تكشف الورم لمجهر العمليات الجراحية – ورم شفاني(٤) دهليزي صغير يرقد ظاهراً للعيان ثلاثة مليمترات عن قوقعة الأذن. تاركاً صديقه

الاختصاصي ليقوم بالقطع، أسرع بيروني الى إجراء صغير ثانٍ والذي بدوره سبب له شيئاً من الغضب - امرأة شابة صاخبة ذات سلوك محزون بالفطرة أرادت أن يتم نقل محفزها الشوكي من الخلف الى الأمام. قبل شهر واحد فقط غيّر موضعه بعد أن شكت قائلة انها لا تشعر بالراحة لدى جلوسها. أما الآن فكانت تقول ان المحفز يجعل رقادها في السرير أمراً مستحيلاً. عمل شقاً طويلاً عبر بطنها وأضاع وقتاً ثميناً، ومد ذراعيه حتى المرفقين في جوفها، مفتشاً عن سلك البطارية. كان متيقناً من إنه لن يمضي وقت طويل حتى تطلب منه أن يعيدها الى وضعها السابق.

تناول في وجبة الغداء سندويتش سمك التونة المغلف بالمصنع مع الخيار مع قنينة ماء معدني. في حجرة القهوة الضيقة التي تذكره دوماً معجناتها المحمصة والمعاملة بالأمواج الصغرى بروائح عملية جراحية كبرى، جلس لصق هيثر، السيدة الكوكنية المحبوبة جداً التي تقوم بتنظيف صالات العمليات بين الإجراءات الجراحية. قدمت له وصفاً لاعتقال زوج ابنتها بسبب عملية نهب مسلح بعد أن التقطوه بطريق الخطأ خارج صف الشرطة. إلا أن عذره كان صحيحاً - ففي وقت الجريمة كان عند طبيب الأسنان الذي قلع ضرس العقل العائد له. في مكان آخر في الحجرة، كان الحديث يدور حول تفشي الزكام - إحدى ممرضات التنظيف وممارس متدرب في قسم العمليات يعملان تحت أمرة جي شتراوس أُرسلا الى منزليهما صبيحة ذلك اليوم. بعد خمس عشرة دقيقة عاد بيروني الى العمل. بينما كانت سالي في الصالة المجاورة تعمل ثقباً

في جمجمة رجل عجوز، وهو مراقب مرور متقاعد، كي تخفف من الضغط الناجم عن نزيفه الداخلي – ورم دموي مزمن تحت الغشاء المغلف للدماغ – استخدم بيروني أحدث المستلزمات الطبية في الصالة، وهو نظام الاسترشاد بالصورة مبرمج على الكومبيوتر، كي يساعده في قطع جهة الجبهة الخلفية اليمنى. ثم جعل رودني يتولى مسؤولية عمل ثقب آخر لحالة الورم المزمن تحت الغشاء المغلف للدماغ (الأم الجافية).

كانت ذروة قائمة اليوم إزالة ورم كوكبي الخلايا خلوي شعري[٥] من فتاة نيجيرية ذات أربعة عشر ربيعاً تسكن في بريكستون مع زوجة عمها وعمها، وهو كاهن كنيسة انجلترا. أفضل طريقة للوصول الى الورم عبر مؤخرة الرأس، بواسطة مسلك تحت خيمة المخيخ وفوق المخيخ، ويكون المريض المخدّر في وضع الجلوس. هذا بدوره خلق مشاكل خاصة لـ جي شتراوس، لانه ثمة احتمال دخول الهواء في وريد ما مسبباً انسداداً فيه. كانت أندريا شابمان مريضة صعبة المراس، ابنة أخ صعبة المراس. وصلت الى انجلترا حين كان عمرها اثنا عشر عاماً – الكاهن المفزوع وزوجته عرضا الصورة الفوتوغرافية على بيروني – فتاة ضئيلة الجسم ترتدي ثوباً نسائياً وأشرطة ضيقة وعلى ثغرها ابتسامة خجلى. شيء ما في كيانها كانت حياة القرية الريفية الواقعة في شمال نيجيريا قد أبقته مزرراً وأُطلق سراحه ما إن بدأ يتفتح إدراكها في بريكستون. أُولعت بالموسيقى، بالملابس، بالكلام، بالقيم – بالشارع. كان لها موقف، أفضى الكاهن بينما كانت

زوجته تسعى الى إبقاء اندريا في الردهة. ابنة أخيه تناولت العقاقير، سكرت، سرقت السلع المعروضة في أحد المتاجر، أمضت لياليها خارج المدرسة الداخلية، كرهت السلطة، و ((شتمت مثل بحار سفينة تجارية)). هل كان الورم يضغط على جزءٍ ما من دماغها؟

لا يستطيع بيروني أن يقدم راحةً كهذه. كان الورم بعيداً جداً عن الفصوص الجبهية للدماغ. كان في موضع عميق في الدودة المخيخية العليا[٦]. كانت تعاني من شتى أنواع الصداع الصباحي، ومن بقع مستترة ومن الهزع[٧] – عدم الاستقرار. هذه الأعراض أخفقت في طرد شكها بأن حالتها جزء من مؤامرة – المستشفى، تحالفت مع وصييها، ومع المدرسة، والشرطة– كي يكبحوا عادتها في قضاء لياليها في النوادي. في الساعات الأولى من رقودها في المستشفى كانت في خصام مع الممرضات، ممرضة الردهة ومريضة هرمة قالت انها لا تطيق اللغة الفاحشة. واجه بيروني مصاعب جمة في التحدث إليها عبر دروب الآلام الممتدة أمامه. حتى حين لا يتم استشارة أندريا، كانت تنزع الى التكلم كمغتصب على محطة MTV، مؤرجحةً القسم العلوي من بدنها حين تجلس في السرير، وتقوم بحركات دائرية براحتيها الى الأسفل، مهدئة الجو الواقع أمامها، استعداداً لواحدةٍ من عواصفها. لكنه أُعجب بشجاعتها، وبالعينين الداكنتين العنيفتين، بالأسنان المثالية، وباللسان الوردي النظيف يجلد نفسه حول الكلمات التي كوّنها. كانت تبتسم بابتهاج، حتى حين كانت تصرخ بغضب جلي، كما لو انها كانت تشعر بالرضا بقدر ما تفعله من أمر منكر من غير

أن تتعرض لعواقب وخيمة. تولى جي شتراوس، وهو أمريكي ذو دفء وتوجيه لا يستطيع أي فرد آخر في هذا المستشفى الانجليزي أن يجمعهما، إعادتها الى جادة الصواب.

استغرقت عملية أندريا خمس ساعات. وسارت سيراً حسناً. أُبقيت في وضع الجلوس، وملزمة رأسها مثبتة بهيكل أمامها. تطلب فتح مؤخرة الرأس عنايةً كبيرةً لأن الأوعية الدموية تجري تحت العظم بمسافةٍ قريبة جداً. انحنى رودني بجانب بيروني كي يغسل الثقب بدفق متواصل من سائل ما ويكوي النزف بالآلة ثنائية القطب - في النهاية تكشف خيمة المخيخ- الخيمة - وهي بنية شاحبة رقيقة على قدرٍ من الجمال، أشبه بالدوامة الصغيرة لراقصة ذات خمار، حيث كان الغشاء المغلف للدماغ يجتمع وينفصل ثانيةً. الى الأسفل منها يقع المخيخ. من خلال القطع بعناية، سمح بيروني للجاذبية نفسها أن تسحب المخيخ الى الأسفل - ما من حاجة الى آلات جراحية لإبقاء جانبي الجرح مفتوحين - وكان بالوسع أن نرى أعماق المنطقة حيث تقع الغدة الصنوبرية، مع الورم ممتداً في كتلة حمراء أمامها مباشرةً. كان الورم كوكبي الخلايا محدداً بصورة جلية وتسرّب جزئياً فقط في الأنسجة المحيطة به. كان بيروني قادراً على قطع كل الورم تقريباً من دون أن يلحق الضرر بأي منطقة سليمة.

سمح لـ رودني على مدى دقائق معدودة أن يستخدم المجهر وانبوبة سحب السوائل، وجعله يقوم بالإغلاق. قام بيروني بعمل ضمادة الرأس بنفسه، وحين غادر أخيراً صالات العمليات، لم

يكن يشعر بأي قدر من التعب على الإطلاق. اجراء العمليات الجراحية لا يرهقه أبداً– ما إن ينشغل في داخل العالم المحبوس لشركته، صالة العمليات وإجراءاتها المنظمة، وينهمك بالتقصير الحيوي لمجهر العمليات الجراحية في ما هو يتبع مجازاً الى موقع مرغوب فيه، يجرّب قدرةً فوق بشرية، أشبه برغبة ملحة، في العمل.

في ما يتعلق ببقية أيام الأسبوع، العيادتان الصباحيتان لا تتطلبان أي مجهود أكثر من المألوف. كان قد جرّب طويلاً بحيث انه لن يتأثر بشتى ضروب المحن التي يواجهها – التزامه هو أن يكون نافعاً. كما أن الجولات على المرضى الراقدين في الردهة أو المؤتمرات الأسبوعية المتنوعة هي الأخرى لا ترهقه. كان العمل الورقي في ما بعد ظهيرة الجمعة هو الذي يصرعه، ركام الإحالات المرضية، والإجابات على الإحالات، خلاصتا مؤتمرين، الرسائل التي يكتبها الى الزملاء والمحررين، ومراجعة متفحصة غير كاملة، مساهمات في مبادرات الإدارة، وتغيرات حكومية في بنية (التروست)، فضلاً عن ذلك تنقيحات إضافية لممارسات تعليمية. كانت هناك نظرة جديدة – كانت هناك دائماً نظرة جديدة – الى خطة طوارئ المستشفى. تصادمات القطارات البسيطة لم تعد كل ما يتصوره المرء، وان كلمات على غرار ((كارثة)) و ((وفيات جماعية))، و((حرب كيمياوية وبايولوجية))، و((هجوم واسع)) أصبحت مؤخراً لا تثير الانتباه من فرط التكرار. في السنة المنصرمة صار مطلعاً على مؤتمرات جديدة وتفرخ ومؤتمرات

ثانوية، وخطوط قيادة تمتد الى أعلى وخارج المستشفى، ما وراء السلطات الطبية، صعوداً عبر المراكز المهمة البعيدة لـ (الخدمة المدنية) الى مكتب (سكرتارية المؤسسة).

أملى بيروني برتابة، وبعد أن غادر سكرتيره بوقت طويل طبع التقارير في كوخه المحمى أكثر مما ينبغي في مكتبه الكائن في الطابق الثالث من المستشفى. النقص غير المألوف في السلاسة هو الذي جعله يتأخر. كان يتباهى بسرعته وأسلوبه الأنيق، والظريف. لا يحتاج الأمر الى تروٍ– الطباعة والتأليف هما شيء واحد. الآن كان يتردد. ومع ان اللغة الاصطلاحية الاحترافية لم تهجره– طبيعتها الثانية– تجمع نثره بصورة خرقاء. كلمات منفردة جلبت الى ذهنه أشياء صعبة المأخذ– دراجات هوائية، كراسي طويلة قابلة للطي، مشاجب ستر– منثورة عبر دربه. ألف جملةً في باله، ثم أضاعها على الورق، أو تصوره نفسه في مأزق نحوي وتوجب عليه أن يرهق نفسه في الخروج منه. سواء كان هذا الوهن هو سبب الارهاق أو نتيجته لم يتوقف للتفكير في هذا الأمر. كان عنيداً وشق طريقه حتى النهاية. في الثامنة مساءً انهى الأخير في سلسلة (الايميلات)، ونهض على قدميه من مكتبه حيث كان منحنياً منذ الرابعة عصراً. في أثناء خروجه زار مرضاه زيارةً قصيرةً في وحدة العناية الفائقة. لم تكن هناك مشاكل، وكانت أندريا على مايرام– كانت نائمة وكل علاماتها جيدة. في أقل من نصف ساعة بعد ذلك كان في البيت، في حمامه، وبعدها مباشرةً، هو أيضاً راح في نوم عميق.

هيئتـان بمعطفـين داكـنين كانتـا تعـبران الـساحة بـصورة منحرفة، كانتا تتماشيان من ناحيته الى شارع (كليفيلاند)، كعوب أحذيتهما تتكتك في مصاحبة سمجة – ممرضتان، بالتأكيد، متجهتان صوب البيت، مع ان هذا وقت غريب للعودة من مدة المناوبة. هما لا تتكلمان، ومع ان خطواتهما غير متناغمتين، كانتا تتمشيان قريبتين من بعضهما، كتفاهما متلاصقتان تقريباً بطريقة حميمة، بالغة الرفق والحنان. مرتا تحته مباشرةً، وسلكتا طريقاً ربع دائري حول الحدائق قبل أن تخترقاها. كان ثمة شيء مؤثر في الطريقة التي يرتفع فيها نَفَسهما خلفهما في غيوم منفردة من البخار بينما هما تسيران، كما لو انهما تلعبان لعبةً من لعب الأطفال، مقلدتين القطارات البخارية. عبرتا متجهتين صوب الزاوية البعيدة من الساحة ومع أفضليته في كونه في الأعلى وبمزاجه الفضولي، لم يكن يراقبهما فحسب، بل يحرسهما، يراقب تقدمهما مع الامتلاك البعيد لربٍ ما. في البرد المقفر، كانتا تشقان طريقهما عبر الليل، ماكنتان بايولوجيتان صغيرتان ساخنتان بمهارات ذات قدمين مناسبة لأي حقل، وُهبتا شبكات عصبية متفرعة لا حصر لها غارت عميقاً في عقدة من غلاف عظمي، دفنت الألياف، شعيرات دافئة بوهجها غير المرئي من الوعي – هاتان الماكنتان ابتكرتا مساريهما الخاصين.

كان عند النافذة على مدى دقائق عدة، الابتهاج انتهى، وبدأ يرتجف. في الحدائق، التي كانت محصورة في داخل دائرة من الحواجز العالية، كان ثمة صقيع خفيف يمتد فوق حفر ومرتفعات

المرج المزينة بطريقة هندسة المناظر الطبيعية وراء حافة أشجار الدلب. يراقب سيارة إسعاف، صفارة الإنذار الخاص بها مطفأة، أضواء زرق تومض، تنعطف الى شارع (شارلوت) وتضاعف سرعتها صوب الجنوب، متجهة، أغلب الظن، الى (سوهو). تحوّل عن النافذة كي يتناول مبذلاً صوفياً سميكاً حيث يرقد مِثنياً على كرسي. حتى وهو يبتعد عن النافذة، كان يعي عنصراً جديداً في الخارج، في الساحة أو في الأشجار، ساطعاً إلا انه عديم اللون، مفروشاً عبر رؤيته الخارجية بفعل حركة رأسه. إلا انه لم ينظر الى الخلف فوراً. كان يشعر بالبرد وكان يريد المبذل. التقطه، سلك ذراعاً عبر أحد الكمين، ولم يعد الى النافذة الا حين وجد الكم الثاني وعقد الحزام حول خصره.

لم يفهم على الفور ما يراه، مع إنه يعتقد ذلك. في هذه اللحظة الأولى، في لهفته وحب استطلاعه، يفترض تناسبات على مقياس كوكبي، انه شهاب يحترق في سماء لندن، مخترقاً إياها من اليسار الى اليمين، في الأسفل عند الأفق، مع انه بعيد جداً عن البنايات الأكثر علواً. غير ان للشهب بالتأكيد طبيعة سهمية شبيهة بالأبرة. تراها أنت في ومضة قبل أن تفنيها حرارتها. هذا الشهاب يتحرك ببطء، وبطريقة مهيبة حتى. في لحظة، غيرّ نظرته الى الخارج صوب آلة مقياس النظام الشمسي: هذا الشيء لا يبعد عنا مئات بل ملايين الأميال، بعيداً في الفضاء متأرجحاً في مدار سرمدي حول الشمس. انه مذنب، بلون أصفر فاتح، وذو المركز الساطع المألوف مجرجراً غلافه الناري. راقب مذنب هالي– بوب مع

روزاليند والأطفال من رابية كثيرة العشب في (إقليم البحيرة) وشعر ثانيةً بالوثوب المفاجئ ذاته للعرفان بالجميل لنظرة خاطفة، وراء الإطار الأرضي، تتعلق بما هو موضوعي حقاً. وهذا المذنب أفضل، أكثر سطوعاً، أسرع، مؤثر بدرجة كبيرة بسبب كونه غير متوقع. حتماً فاتتهم التغطية الاعلامية للمذنب. عملوا بجد ومثابرة. كاد يوقظ روزاليند من نومها – يعرف هو أن المشهد سيهزها – لكنه يسائل نفسه الآن ما إذا ستصل الى الشباك قبل أن يختفي المذنب. عندئذ هو أيضاً سيفوته. لكنه شيء رائع جداً ألا يتقاسم المشهد مع روزاليند.

كان يتحرك صوب السرير حين سمع صوتاً مدمدماً خفيضاً، رعداً معتدلاً نامياً في حجم الصوت، وتوقف عن الاصغاء. انه يخبره بكل شيء. نظر من وراء كتفه الى النافذة من أجل إثبات ظنونه بطبيعة الحال، كان المذنب نائياً جداً ومن المؤكد يبدو ثابتاً. مروَّعاً، يعود الى موضعه عند النافذة. يحتفظ الصوت بحجم ثابت بينما هو يغير المقياس من جديد، مزوماً الى الداخل هذه المرة، من الغبار الشمسي والثلج الى الموقع المحلي ثانية. ثلاث أو أربع ثواني انقضت منذ أن رأى هذه النار في السماء وغيرّ رأيه فيها مرتين. انها تسافر على امتداد طريق كان هو نفسه قد سلكه مرات عدة في حياته، وعلى امتداده مرَّ عبر الأعمال الروتينية، مثبتاً ظهر كرسيه وساعته اليدوية، واضعاً أوراقه في مكانها المألوف، يهيمن عليه دائماً حب الاستطلاع ليرى ما إذا كان يستطيع أن ينشئ مسكنه الخاص في الأسفل وسط الانبطاح البرتقالي – الرمادي

الجميل تقريباً؛ من الشرق الى الغرب، على امتداد الضفاف الجنوبية للـ (تايمز)، على ارتفاع ألفي قدم، في الطرق الأخيرة المؤدية الى (هيثرو).

مباشرةً الى الجنوب منه الآن، على بعد ميل لا غير، عاجلاً تمر الى داخل النظام الشبكي الأعلى لأشجار الدلب العارية، ومن ثم خلف برج مكتب البريد، عند مستوى أدنى صحون المايكروويف. على الرغم من أضواء المدينة، الخطوط المحيطية للطائرة لم تكن جليةً في عتمة الصباح المبكر. لا بد أن النار في الجناح القريب حيث يتصل بجسم الطائرة، أو ربما في أحد المحركات المدلاّة في الأسفل. الحافة الأمامية للنار هي كرة بيضاء مسطحة تنتشر في غير اتساق في مخروط أصفر و أحمر، يشبه نيزكاً أو مذنباً أقل مما يشبه انطباعاً رهيباً لفنان عن أي واحد منهما. كما لو بذريعة الحالة السوية، أضواء الهبوط تومض. إلا أن صوت المحرك يفضحها كلها. فوق الهدير العميق والهوائي المألوف، ثمة صوت توتر، اختناق، عويل أنثى(٨) ينمو في حجمه – معاً صرخة وصيحة مؤازرة، ضوضاء بذيئة، قذرة توحي بمجهود ميكانيكي غير مؤازر وراء قدرة الفولاذ المقسى، يتخذ سبيلاً لولبياً الى الأعلى الى نقطة نهاية، بصورة لا مسؤولة يرتفع ويرتفع أشبه بشيء ملازم لرحلة رهيبة في عربة أو قطار بمدينة الملاهي. شيء ما يوشك أن يطلق صوتاً.

لم يعد يفكر في إيقاظ روزاليند من نومها. لماذا يتعين عليه أن يوقظها في خضم هذا الكابوس؟ الواقع، المشهد له ألفة حلم

متكرر. على غرار معظم الركاب، الخاضعين ظاهرياً لرتابة رحلة جوية، كان في معظم الأحيان يترك أفكاره تتراوح عبر الاحتمالات في ما هو جالس، مربوطاً الى الأسفل وطيعاً، أمام وجبة طعام مرزومة. في الخارج، وراء جدار من الفولاذ الخفيف والبلاستك البهيج ذي الصرير، الحرارة ستون درجة تحت الصفر والمسافة نحو الأرض تبلغ أربعين ألف قدماً. مندفعاً بعجلة عبر المحيط الأطلسي بسرعة خمسمائة قدماً في الثانية، تخضع أنتَ للحماقة لأن الآخرين جميعهم يفعلون ذلك. زملاؤك المسافرين تعاد طمأنتهم لأنك والآخرين المحيطين بك تبدون هادئين. اذا نظرت بطريقة معينة– عدد الوفيات في كل ميل يقطعه مسافر– الإحصائيات مسلية. وكيف يمكنك بخلاف ذلك أن تحضر مؤتمراً في كاليفورنيا الجنوبية؟ السفر جواً هو البورصة، خدعة من ملاحظات معكوسة الصورة، تحالف هش من عقيدة مشتركة؛ طالما أن الأعصاب تحتفظ بثباتها وليس ثمة قنابل أو حطامات سفن على الحافة، الجميع يحققون نجاحاً. عندما يكون ثمة فشل، لن تكون هناك أنصاف تدابير. رأوا طريقةً أخرى– عدد الوفيات في كل رحلة – الأرقام ليست جيدة جداً. بوسع السوق أن يقامر بتهور.

الشوكة البلاستيك في يده، كان من دأبه أن يسأل نفسه كيف يمكن أن تكون النتيجة – الصراخ في (الكابينة) كُتم جزئياً بواسطة تلك المخفتة[٩] الصوتية، التلمس في داخل الحقائب بحثاً عن الهواتف والكلمات الأخيرة، طاقم شركة الخطوط

الجوية في ذعرهم يتشبثون بأجزاء تم تذكرها من الاجراءات، رائحة تسوية الخراء. غير أن المشهد الذي فسر من الخارج، من مكان بعيد كهذا، هو مألوف أيضاً. مرَّ حتى الآن نحو ثمانية عشر شهراً منذ أن تمت مراقبة نصف الكوكب، وتمت ثانيةً مراقبة المتيمين غير المرئيين المساقين عبر السماء الى المجزرة، في غضون هذه المدة الزمنية احتشدت هناك حول الصورة الظلية البريئة لأي طائرة نفاثة جمعية غريبة. الجميع يتفقون، إن الطائرات العاملة على خطوط جوية معينة تبدو مختلفةً في السماء هذه الأيام، مفترسة، أو مدانة.

يعرف هنري أن خدعةً بصريةً هي التي جعلته يعتقد أن بوسعه أن يرى خطاً محيطياً الآن، شكلاً أكثر سواداً بإزاء العتمة. عواء المحرك المشتعل يستمر في الارتفاع في طبقة الصوت. لن يدهشه أن يرى الأضواء تأتي عبر المدينة، أو أن الساحة تمتلئ بمقيمين يرتدون المباذل. وراءه روزاليند، التي تمرست كثيراً على إقصاء مشاكل ليل المدينة عن نومها، انقلبت على جنبها. الضجيج في الأرجح ليس أكثر تطفلاً من صفارة إنذار عابرة في طريق (ايوستون). المركز الأبيض الناري وذيله الملون أصبحا أكبر– ما من مسافرين يجلسون في ذلك القسم الوسطي من الطائرة يمكن أن يبقوا على قيد الحياة. ذلك هو العنصر المألوف الآخر– الذعر مما لا يمكن أن يراه. كارثة يمكن ملاحظتها من مسافة أمينة. ليس ثمة دم، لا صرخات، ليس هناك هيئات بشرية على الاطلاق، وفي هذا الفراغ، الخيال اللطيف أُطلق سراحه. الكفاح حتى الموت في ركن

الطيار، حشد من المسافرين الشجعان يتجمعون في حضرة شحنة أمل أخير إزاء التعصب. كي تفلت من حرارة تلك النار التي اشتعلت الى أي جزء من الطائرة يمكنك أن تركض اليه؟ نهاية الطيار ربما تبدو أقل توحداً نوعاً ما. هل هي حماقة مثيرة للشفقة أن تمد يدك الى الخزانة الواقعة فوق رأسك متناولاً حقيبتك، أم إنه تفاؤل ضروري؟ هل ستوقفك عن محاولة ذلك الآن السيدة ذات (المكياج) الكثيف التي قدمت لك بأدب الكعكة الهلالية المحلاة والمربى؟

الطائرة تمر وراء قمم الأشجار. على مدى مدة قصيرة، النار تتلألأ بابتهاج وسط الغصون والغصينات. خطر ببال بيروني أن هناك شيئاً ينبغي له أن يقوم به. في الوقت الذي كانت فيه خدمات الطوارئ قد تم الانتباه إليها والتحول إليها بواسطة ندائه، كل ما سيحدث سيكون قد فات أوانه. إذا كان الطيار حياً فانه سيكون قد تم الاتصال به لا سلكياً بالتوجه الى الأمام. أغلب الظن إنهم غطوا مدرج الطائرات بالرغوة. إنه شيء أحمق في هذه المرحلة أن يترجل ويثبت إنه ذا نفع للمستشفى. مطار (هيثرو) في منطقته غير خاضع لـ (خطة الطوارئ). في مكانٍ آخر، في منطقة أبعد غرباً، في حجرات النوم المعتّمة، الأطباء سوف يرتدون ثيابهم من دون أن تكون لديهم أدنى فكرة عما سيواجهونه. ما يزال أمامهم خمسة عشر ميلاً من الهبوط. إذا انفجرت صهاريج الوقود فلن يكون بوسعهم أن يفعلوا شيئاً.

الطائرة تنبثق من الأشجار، تقطع فجوةً وتختفي وراء برج مكتب البريد. إذا كان بيروني ميالاً الى الشعور الديني، الى

التفسيرات فوق الطبيعية، فبوسعه أن يتلاعب بفكرة إنه تم استدعاؤه؛ إنه أُوقظ في حالةٍ عقلية غير اعتيادية، وذهب الى النافذة من دون سبب، وينبغي له أن يعترف بأمر خفي، اتصال خارجي يريه أو يخبره بشيء ضروري. غير أن المدينة بطبيعتها تهذب المصابين بالأرق؛ إنها هي نفسها كيان قلق لا تتوقف أسلاكها عن الغناء؛ وسط ملايين كثيرة حتماً ثمة أناس يتطلعون من النوافذ في وقتٍ من الطبيعي أن يكونوا فيه نائمين في أسرّتهم. وهم ليسوا القوم أنفسهم في كل ليلة. وإنه يجب أن يكون هو وليس شخصاً آخر في مسألة كيفية. تم تضمين مسألة إنسانية (أنثروبية) بسيطة. التفكير البدائي للشخص الميال للأشياء الخارقة يساوي ما يسميه أصدقاؤه النفسانيين مسألةً، أو فكرةً، عن إلماع. الانهماك بما هو ذاتي، تنظيم العالم في انسجام مع حاجاتك، عدم القدرة على تأمل عدم أهميتك. في نظر هنري تفكير كهذا ينتمي الى نطاقٍ عند حافته البعيدة، مرتفعاً مثل معبد مهجور، يكمن الذهان.

وتفكير كهذا ربما هو الذي سبّب اندلاع النار في الطائرة. رجل ذو إيمان قوي مع قنبلة في كعب حذائه. وسط المسافرين المروَّعين هناك أشخاص كثيرون ربما كانوا يصلون – وهي مسألة أخرى من مسائل الإلماع– لربهم من أجل الشفاعة. وإذا كانت هناك وفيات، فإن الرب نفسه الذي قضى عليهم سوف يتوسلون إليه حالاً بصورةٍ مأتمية أن يمنحهم الراحة. بيروني يعدّ هذا بوصفه مسألة تستدعي العجب، تعقيداً إنسانياً وراء نطاق المعنويات. يتبثق منه، جنباً الى جنب مع الجنون والقتل، الناس

المهذبون والأفعال الطيبة، الكاتدرائيات الجميلة، المساجد، الكنتاتات[10]، والشعر. حتى إنكار الله، ذات مرة كان ذاهلاً وساخطاً كي يسمع كاهناً وهو يناقش المسألة، هو تمرين روحي، شكل من أشكال الصلاة: ليس من اليسير أن يفلت المرء من قبضات المؤمنين. أفضل أمل للطائرة هو إنها عانت من فشل ميكانيكي بسيط، ودنيوي.

مرت وراء البرج وبدأت تتراجع عبر رقعة مفتوحة من السماء الغربية، منحرفةً قليلاً صوب الشمال. بدت النار وهي تتناقص مع المنظر المتغير ببطء. رؤيته الآن تتعلق في الأغلب بالذيل وضوئه الوامض. ضجيج محنة المحرك بدأ يضمحل. هل ان عجلات الهبوط في الأسفل؟ بينما هو يسأل، كان يتمنى ذلك، أو يرغب به. هل هو نوع من الصلاة؟ لم يعد يطلب من أحد أي خدمات. حتى حين انكمشت أضواء الهبوط الى لا شيء، واصل مراقبة السماء في ناحية الغرب، خائفاً من منظر الانفجار، غير قادر على أن ينظر بعيداً. ما يزال يشعر بالبرد، على الرغم من المبذل، يمسح زجاج النافذة كي يجلو عنها تكاثف أنفاسه، ويفكر كم يبدو نائياً الآن، ذلك المزاج العفوي، القوي التي أتى به من سريره. في الختام سوّى مصاريع النافذة ونشرها ببطء كي يخفي السماء.

وهو يبتعد عن الشباك، تذكر التجربة الفكرية ذائعة الصيت التي تعلمها منذ زمن طويل في درس الفيزياء. قط، قط شرودنغر[11]، مخفي عن الأنظار في صندوق مغطى، هو إما ما يزال حياً، أو إنه قُتل بواسطة مطرقة تم تحفيزها عشوائياً كي تضرب

قنينة سم صغيرة. الى أن يرفع المراقب الغطاء عن الصندوق، كلا الاحتمالين، القط الحي، والقط الميت، يوجدان جنباً الى جنب، في كونين متوازيين، وهما حقيقيان بالقدر نفسه. في النقطة التي يرفع فيها الغطاء ويتم فحص القط، ينكمش مقدار من تموج من الاحتمالات. لا شيء من هذا كان له أي معنى بالنسبة له على الاطلاق. ما من مغزى إنساني. أكيد هو مثال آخر على مسألة المِاع. سمع هو إنه حتى الفيزياويون هجروه. بالنسبة لـ هنري يبدو أبعد من متطلبات البرهان: ثمرة، نتيجة، توجد بصورة منفصلة عن العالم، مستقلة عن ذاته، معروفة للآخرين، وفي انتظار اكتشافه. ما ينكمش عندئذ سيكون جهله الخاص. مهما كان الموضوع، يكون مكتوباً بالطباشير. ومهما كان المكان الذي يقصده المسافرون، سواء كانوا خائفين وآمنين، أو أموات، فانهم يصلون الآن.

معظم الناس في استشاراتهم الأولى يلقون نظرةً مختلسةً الى يدي الجراح آملين أن تعيدا طمأنتهم. المرضى بعيدو النظر يفتشون عن الرقة، الحساسية، الثبات، وربما عن الشحوب الذي لا تشوبه شائبة. على هذا الأساس، يفقد هنري بيروني عدداً من الحالات المرضية سنوياً. بصورة عامة، يعرف هو أن ذلك يكاد يحدث قبل أن يقوم به المريض: النظرة المصوّبه الى الأسفل تكررت، الأسئلة المهيئة تبدأ بالتلعثم، التشكرات المغالى في توكيدها خلال التراجع الى الباب. مرضى آخرون لا يحبون ما يرونه لكنهم يجهلون حقهم في الذهاب الى مكان آخر؛ أو انهم لا يبدون أي

شيء؛ وهناك آخرون لا يلاحظون شيئاً، أو لا يشعرون بشيء، أو إنهم غير قادرين على الإفصاح بسبب عجز الادراك الذي أتى بهم الى المقام الأول.

بيروني نفسه لا شأن له بهذا. دع المتخلين عنه يذهبون على طول المجاز أو عبر المدينة. آخرون سيحلون محلهم. بحر التعاسة العصبية واسع وعميق. هاتان اليدان ثابتتان بدرجة كافية، إلا إنهما كبيرتان. هل كان عازف بيانو مميزاً– انه اشتغل عليها بصورةٍ غير حاذقة– شبر النوتات العشر العائد له ربما يكون ذا منفعة. انهما يدان صغيرتان مدورتان، بارزتان مع العظم والوتر عند مفاصل الأصابع، مع سقف من الشعر البني عند قاعدة كل أصبع– أطراف الأصابع مسطحة وعريضة، كأعضاء المص على سطح سمندر. ثمة طول غير متواضع في الإبهامين اللذين ينحرفان الى الخلف، على وفق طراز الموز، وحتى في حالة الراحة تملكان مظهراً ثنائي المفصل، مناسبين أكثر لحلقة السيرك، وسط المهرجين واللاعبين على أرجوحة البهلوان. واليدان، كمعظم أنحاء جسم بيروني، منمشتان بابتهاج في مزيج صبغة الميلانين البرتقالية والبنية الذي يمتد صعوداً الى أعلى مفاصل أصابعه. بالنسبة لطرازٍ معين من المرضى يبدو هذا غريباً، وحتى غير صحي: لعلك لا تحبذ مثل هاتين اليدين، حتى إذا كانتا مقفزيتين، أن تشتغلا في دماغك من دون براعة.

هما يدا رجل طويل القامة، وقوي أضافت له الأعوام الأخيرة وزناً ضئيلاً ورباطة جأش. في عشرينياته كانت سترته (التويد)

تتدلى عليه كما لو كانت على قوائم ضيقة. حين يجهد نفسه في أن يسوّي ظهره يقف عند ستة أقدام وانجين. انحناؤه الطفيف يهبه مظهراً تبريرياً يعدّه مرضى كثيرون جزءاً من سحره. كما انهم يرتاحون للسلوك غير الجازم وللعينين الخضراوين اللطيفتين بتجاعيد الابتسام العميقة عند زواياها. حتى أربعينياته المبكرة، النمش الصبياني على وجهه وجبينه كان له التأثير غير المرعب نفسه، إلا إن النمش في السنوات الأخيرة بدأ يضمحل، كما لو أن منزلة طبيب أرفع مقاماً أرغمته أخيراً على أن يتخلى عن إبراز تافه. سيكون المرضى أقل سعادةً في معرفة انه لا يصغي إليهم دائماً. انه رجل حالم في بعض الأحيان. مثل تنبيه مروري يُبث من سيارة لاسلكية، حكاية ذهنية غامضة يمكن أن تقتحم عنوةً، ملحة ومن تلقاء نفسها، حتى في أثناء استشارة طبية. انه ماهر في تغطية آثار أقدامه، مستمراً في الايماء برأسه علامة الموافقة أو في تقطيب حاجبيه أو في زم فمه حول نصف ابتسامة. حين يفيق، بعد لحظات، لا يبدو عليه أن أشياءً كثيرةً فاتته.

الى درجة معينة، انحناءة الظهر الطفيفة خادعة. كانت لـ بيروني دوماً طموحات فيزياوية وهو معارض لأن يطلق السراح لها. في جولاته على المرضى يقرع الممرات بخطوة واسعة نافدة الصبر تكافح حاشيته في مجاراتها. هو معافى، تقريباً. إذا تأنى، بعد الاغتسال بالدش، في أن يفحص نفسه في مرآة حجرة الحمام التي بالطول الطبيعي، يلاحظ حول خصره تثخيناً أولياً، ورماً جسدياً تقريباً تحت الأضلاع. يتلاشى حين يجعل نفسه منتصباً أو حين

يرفع ذراعيه. بخلاف ذلك، العضلات – عضلات الصدر والعضلات المبعِدة – مع إنها معتدلة، تحافظ على تحديد معقول، بخاصة حين يكون مصباح فوق الرأس مطفأً والضوء يسقط من الجانب. هو ليس مرهقاً حتى الآن. شعر رأسه، مع إنه بدأ يخف، إلا إنه ما يزال بنياً ضارباً الى الاحمرار. فقط في عانته ثمة لفات أولى مبعثرة من الفضة.

في معظم الأسابيع ما يزال يعدو في متنزه (ريجنت)، عبر حدائق (وليم نيسفيلد) المجددة، مروراً بـ طاسة الأسد (ليون تازا) الى تل (بريمروس) ويعود ثانيةً. وما يزال يهزم الأطباء الأصغر منه سناً في لعبة (السكواش)، مركزاً مده الطويل على الـ (T) في وسط الملعب، فمن هناك كان يسدد ضرباته البطيئة التي كانت موضوع تباهيه الخاص. تقريباً نصف الوقت كان يتغلب على المخدرين الاختصاصيين في ألعابهم يوم السبت. لكن إذا كان ثمة خصم جيد بدرجة كافية في معرفة كيف يزيحه عن مركز الملعب ويجعله يركض، عندئذ سوف يكون محكوماً على هنري بالإخفاق في غضون عشرين دقيقة. مستنداً الى الحائط الخلفي، ربما بصورة غير فضولية يفحص نبضه الخاص ويسأل نفسه ما إذا يستطيع هيكله ذو السنوات الثمانية والأربعين أن يحافظ حقاً على معدل مائة وتسعين؟ في يوم استراحة نادر تفوق بمباراتين ضد جي شتراوس عندما تم استدعاءهما– كانت تلك حادثة اصطدام سكة حديد (بادنغتون)، تم استدعاء الجميع– وعملوا اثنى عشرة ساعة من دون انقطاع بثياب التدريب وسراويلهم القصيرة تحت

ثيابهم الخضر. يركض بيروني نصف ماراثون من أجل الاحسان سنوياً، ويقال، بصورةٍ خاطئةٍ، ان كل أولئك الذين تحت أمرته ممن يريدون الترقية يجب عليهم أن يركضوا هذه المسافة أيضاً. الزمن الذي استغرقه في السنة الماضية– ساعة وإحدى وأربعين دقيقة– كان أبطأ بإحدى عشرة دقيقة من أفضل ركضٍ له.

عدم الجزم شيء مضلل، هو موضة أكثر مما هو ميزة – ليس من الممكن أن تكون جراح – دماغ غير حازم. بطبيعة الحال، الطلبة الجامعيون والأطباء الأصغر سناً يرون من سحره أقل مما يرى المرضى. الطالب الجامعي الذي، مشيراً الى المفراس الحلزوني بحضور بيوني، استخدم الكلمات ((الى الأسفل على الجهة اليسرى))، أثار غيظاً استمر لحظةً واحدةً وطُرد مجللاً بالعار كي يتعلم من جديد المصطلحات الاتجاهية. في صالة العمليات الجراحية، تقول عنه شركته، ان بيروني عند الطرف الخالي من المعنى من القياس: ليس ثمة تيار من البذاءات يتصاعد مع ازدياد المصاعب والمخاطر، ما من تهديدات مهسهسة لرمي شخص غير كفء من الحجرة، ليس هناك كلام يقال على انفراد الى أولئك الشبان الخشنين– ((أوهوو، هي ذي دروس الكمان))– التي يعتقد إنها تخفف التوتر. على العكس، في نظر بيروني، حين تكون الأشياء صعبة، الأفضل أن يتم المحافظة على التوتر. يكون ميله وقتذاك إما نحو الهمهمة المهذبة أو الصمت. اذا تلعثم مقيم أقدم في وضع الأداة التي تبعد جانبي الجرح في مكانها الصحيح، أو ان ممرضة التنظيف تضع كلابة نخامية في يده بزاوية خرقاء،

ربما يطلق بيروني في يوم نحس مقطعاً منفرداً ((اللعنة))، معكراً أكثر بسبب ندرته و افتقاده الى التوكيد، وسوف يتوتر الصمت في الحجرة. بخلاف ذلك، هو يحب الموسيقى في صالة العمليات حينما يعمل، في الأغلب الأعمال الموسيقية المعزوفة على البيانو من تأليف باخ – [تنويعات ((غولدبيرغ))]، [البيانو مضبوط درجة النغم][١٢]، [المتواليات الموسيقية][١٣] يفضل هو العازفين أنجيلا هيفيت، مارثا آرجريخ، وغالباً غوستاف لينوهارت. عندما يكون في مزاج جيد فعلاً سوف يذهب الى تفسيرات غلين غولد التي تتمتع بمزيد من الحرية. في المؤتمر، أي مؤتمر، يحبذ الدقة، كل البنود معنونة ومرتبة ضمن الوقت المحدد، ومن أجل هذه الغاية يكون هو رئيساً فعالاً للمؤتمر. الاستغراقات والحكايات الاستكشافية التي يقوم بها زملاؤه كبار السن، يتم تحملها من قبل الأكثرية بوصفها مصادفات مهنية، تجعله نافد الصبر، (الفنتزة) يجب أن تكون حرفة منفردة. القرارات هي كل شيء.

لذا على الرغم من الوضع التبريري، السلوك اللطيف وميل ما الى حلم يقظة عرضي، هو شيء غير متفق مع ميزات بيروني أن يرتجف كما يفعل الآن– انه يقف عند قدم السرير– غير قادر على أن يقرر ما إذا يوقظ روزاليند من نومها أم لا. انه شيء لا معنى له على الإطلاق. ما من شيء يمكن أن يفهمه. إنها نزوة أنانية تماماً. ساعتها المنبهة من المتوقع أن تنفجر في الساعة السادسة وثلاثين دقيقة، وما إن يخبرها بالقصة، لن يكون لها أمل في العودة الى نومها. سوف تسمعها كلها بأي حال من الأحوال. ينتظرها نهار

عسير. الآن مصاريع النافذة مغلقة وهو في العتمة من جديد، يستوعب نطاق اضطرابه العظيم. لأفكاره ميزة مترنحة، وغير واضحة المعالم- لا يستطيع هو أن يستبقي فكرةً مدةً كافيةً كي ينتزع منها المعنى عنوةً. يشعر بانه جدير باللوم نوعاً ما، لكنه عاجز أيضاً. هذه مصطلحات متناقضة، إنما ليستْ متناقضةً تماماً، وإن درجة تشابكها، وطريقتها في التعبير عن الشيء ذاته من زوايا مختلفة، هما ما يحتاج الى فهمه. جدير باللوم في عجزه. جدير باللوم بصورةٍ عاجزة. انه يضيع طريقه، ويفكر ثانيةً في الهاتف. في ضوء النهار، هل سيبدو أمراً متهاوناً في عدم استدعاء خدمات الطوارئ؟ هل سيكون واضحاً إنه ما كان بالوسع القيام بأي شيء، وانه لم يكن هناك وقت كافٍ؟ كانت جريمته هو أن يقف في أمان حجرة نومه، بالمبذل الصوف العائد له، من دون أن يتحرك أو يطلق صوتاً، نصف حالم بينما كان يراقب الناس وهم يموتون. أجل، كان يلزمه أن يتصل هاتفياً، لمجرد أن يتكلم، أن يقيس صوته ومشاعره بازاء صوت إنسان غريب ومشاعره.

ولهذا السبب كان يرغب في ايقاظها، ليس ببساطة كي يعطيها الأنباء، بل لانه مشوش نوعاً ما، وواصل الطوفان بعيداً عن مسار أفكاره. يريد أن يقيد نفسه بالتفاصيل الدقيقة لما رآه، يرتبها أمام ذهنها الدنيوي، القانوني ونظرتها المحدقة الثابتة. كان يحب لمسة يديها – كانتا صغيرتين وناعمتين، ودوماً أكثر برودةً من يديه. مرت خمسة أيام منذ أن مارسا الحب، صباح الاثنين، قبل أنباء الساعة السادسة، في أثناء عاصفة ممطرة، كان هناك فقط

ربما يطلق بيروني في يوم نحس مقطعاً منفرداً ((اللعنة))، معكراً أكثر بسبب ندرته و افتقاده الى التوكيد، وسوف يتوتر الصمت في الحجرة. بخلاف ذلك، هو يحب الموسيقى في صالة العمليات حينما يعمل، في الأغلب الأعمال الموسيقية المعزوفة على البيانو من تأليف باخ – [تنويعات ((غولدبيرغ))]، [البيانو مضبوط درجة النغم][١٢]، [المتواليات الموسيقية][١٣] يفضل هو العازفين أنجيلا هيفيت، مارثا آرجريخ، وغالباً غوستاف لينوهارت. عندما يكون في مزاج جيد فعلاً سوف يذهب الى تفسيرات غلين غولد التي تتمتع بمزيد من الحرية. في المؤتمر، أي مؤتمر، يحبذ الدقة، كل البنود معنونة ومرتبة ضمن الوقت المحدد، ومن أجل هذه الغاية يكون هو رئيساً فعالاً للمؤتمر. الاستغراقات والحكايات الاستكشافية التي يقوم بها زملاؤه كبار السن، يتم تحملها من قبل الأكثرية بوصفها مصادفات مهنية، تجعله نافد الصبر، (الفنتزة) يجب أن تكون حرفة منفردة. القرارات هي كل شيء.

لذا على الرغم من الوضع التبريري، السلوك اللطيف وميل ما الى حلم يقظة عرضي، هو شيء غير متفق مع ميزات بيروني أن يرتجف كما يفعل الآن– انه يقف عند قدم السرير– غير قادر على أن يقرر ما إذا يوقظ روزاليند من نومها أم لا. انه شيء لا معنى له على الإطلاق. ما من شيء يمكن أن يفهمه. إنها نزوة أنانية تماماً. ساعتها المنبهة من المتوقع أن تنفجر في الساعة السادسة وثلاثين دقيقة، وما إن يخبرها بالقصة، لن يكون لها أمل في العودة الى نومها. سوف تسمعها كلها بأي حال من الأحوال. ينتظرها نهار

عسير. الآن مصاريع النافذة مغلقة وهو في العتمة من جديد، يستوعب نطاق اضطرابه العظيم. لأفكاره ميزة مترنحة، وغير واضحة المعالم- لا يستطيع هو أن يستبقي فكرةً مدةً كافيةً كي ينتزع منها المعنى عنوةً. يشعر بانه جدير باللوم نوعاً ما، لكنه عاجز أيضاً. هذه مصطلحات متناقضة، إنما ليستْ متناقضةً تماماً، وإن درجة تشابكها، وطريقتها في التعبير عن الشيء ذاته من زوايا مختلفة، هما ما يحتاج الى فهمه. جدير باللوم في عجزه. جدير باللوم بصورةٍ عاجزة. انه يضيع طريقه، ويفكر ثانيةً في الهاتف. في ضوء النهار، هل سيبدو أمراً متهاوناً في عدم استدعاء خدمات الطوارئ؟ هل سيكون واضحاً إنه ما كان بالوسع القيام بأي شيء، وانه لم يكن هناك وقت كافٍ؟ كانت جريمته هو أن يقف في أمان حجرة نومه، بالمبذل الصوف العائد له، من دون أن يتحرك أو يطلق صوتاً، نصف حالم بينما كان يراقب الناس وهم يموتون. أجل، كان يلزمه أن يتصل هاتفياً، لمجرد أن يتكلم، أن يقيس صوته ومشاعره بازاء صوت إنسان غريب ومشاعره.

ولهذا السبب كان يرغب في ايقاظها، ليس ببساطة كي يعطيها الأنباء، بل لانه مشوش نوعاً ما، وواصل الطوفان بعيداً عن مسار أفكاره. يريد أن يقيد نفسه بالتفاصيل الدقيقة لما رآه، يرتبها أمام ذهنها الدنيوي، القانوني ونظرتها المحدقة الثابتة. كان يحب لمسة يديها – كانتا صغيرتين وناعمتين، ودوماً أكثر برودةً من يديه. مرت خمسة أيام منذ أن مارسا الحب، صباح الاثنين، قبل أنباء الساعة السادسة، في أثناء عاصفة ممطرة، كان هناك فقط

الضوء الضعيف الآتي من حجرة الحمام، عشرين دقيقة منتزعة- هكذا كانا يمزحان في معظم الأحيان- من بين فكيّ العمل. حسن، في منتصف الحياة الطموح يبدو غالباً أنه ليس هناك إلا العمل. بوسعه أن يكون في المستشفى حتى العاشرة، عندئذ يستطيع المستشفى أن يجره من سريره في الثالثة فجراً، ويمكنه أن يعود ثانيةً الى هناك عند الثامنة. عمل روزاليند يستمر بواسطة سلسلة من الازديادات التدريجية البطيئة والانتهاءات المفاجئة في ما هي تسعى الى أن تقود صحيفتها بعيداً عن المحاكم على مدى أيام معينة، حتى أسابيع من دون انقطاع، يستطيع العمل أن يعطي شكلاً لكل ساعة؛ انه المد والجزر، الدورة القمرية التي ضبطا حياتيهما عليها، ومن دونها، يمكن أن يبدو، أن ليس ثمة شيء، هنري و روزاليند بيروني هما لاشيء.

لا يستطيع هنري أن يقاوم إلحاح حالاته المرضية، أو أن ينكر السعادة المتبجحة في مهاراته الخاصة، أو المتعة التي ما يزال يؤويها في تخفيف آلام الأقارب حين ينزل من صالة العمليات كإله، كملاك مع الأنباء السارة- الحياة، وليس الموت. أفضل لحظات روزاليند هي خارج المحكمة، حين يتنازل طرف فعال في الدعوى القضائية بوجه برهان ممتاز؛ أو، في حالة أندر، حين يسير حكم ما في طريقها ويؤسس نقطةً أساسيةً في القانون. مرةً في الأسبوع، عادةً في مساء الأحد، كانا يصفان منظميهما الشخصيين جنباً الى جنب، مثل مخلوقين مجدولين صغيري الحجم، بحيث ان وظيفتيهما يمكن أن تنقلا الى يوميات أحدهما الآخر على امتداد

حزمة أشعة تحت الحمراء. حين يسرقان الوقت لمارسة الحب كانا دائماً يتركان سلك الهاتف مربوطاً. في تزامن معاكس، يرن في كثير من الأحيان حين يكونان قد بدأا تواً. هذا الأمر يحدث في أغلب الأحيان بالنسبة لـ روزاليند وله أيضاً. اذا كان هو من يتوجب عليه أن يرتدي ثيابه ويسرع مغادراً الغرفة– ربما يعود مع لعنة باحثاً عن المفاتيح أو بسبب تبديل ثياب غير دقيق– يقوم بهذا مع نظرة توق الى الوراء، وينطلق من مسكنه صوب المستشفى– عشر دقائق بخطوات سريعة– مع عبثه، وأفكاره المتلاشية المتعلقة بالحب. لكنه ما إن يجتاز الأبواب ذوات الدوران الثنائي، قاطعاً رقاقات مشمع رقعة الشطرنج المهترئة عبر شعبة [الحوادث والطوارئ]، وما إن يتخلص من المصعد متجهاً صوب شقة عمليات الطبقة الثالثة ويكون في حجرة التنظيف، الصابون في يديه، مصغياً الى مصاعب طبيبه الأقدم، اللمسات الأخيرة للرغبة تغادره وحتى إنه لا يلاحظها وهي ترحل عنه. ما من تأسفات. كان مشهوراً بسرعته، بمعدل نجاحه وقائمة مرضاه– يتبنى ثلثمائة عملية جراحية سنوياً. بعضها يفشل، وجفنة من المرضى يتحملون وتكون أضواؤهم مضببة قليلاً، إلا أن معظمها ينجح، وكثير من المرضى يعودون الى العمل بشكلٍ من الأشكال؛ العمل – الشارة المميزة النهائية للصحة.

وبسبب العمل لا يستطيع هو أن يوقظها. متوقع حضورها في (المحكمة العليا) في العاشرة من أجل جلسة استماع طارئة. صحيفتها منعت من تقديم تقرير حول تفاصيل أمر بإسكات

صحيفة أخرى. الحزب الفعال الذي حصل على الأمر الأصلي ناقش بنجاح أمام أحد قضاة المهمة بحيث انه حتى مسألة الإسكات لم يكن بالوسع إفشاء سرها. كانت مسألة حرية الصحافة هي نقطة الخلاف، وكان مطلب روزاليند أن يتم إسقاط الأمر الثاني عند آخر النهار. قبل جلسة الاستماع، والاطلاعات في المكاتب، عندئذ- هكذا أملت- (دردشة) إستكشافية في الممرات مع الطرف الأخر. بعدها سوف تنشر الخيارات أمام المحرر والإدارة. كانت قد أتت في وقت متأخر ليلة أمس من الاجتماعات، بعد أن نام هنري نوماً خفيفاً – من دون عشائه - بوقت طويل. لعلها تناولت الشاي عند مائدة المطبخ وقرأتْ أوراقها من البداية الى النهاية. ربما لاقت صعوبةً في الخلود الى النوم.

شاعراً بأنه مشوش وقلق وغير معقول ومع ذلك ما تزال به حاجة في التحدث اليها، بقي عند قدم السرير، متطلعاً الى شكلها تحت غطاء السرير المحشو بالزغب. تنام هي كالطفل، وركبتاها مسحوبتان الى الأعلى. في العتمة شبه الكلية، كم تبدو صغيرةً في ضخامة السرير. أصاخ السمع الى أنفاسها، التي كانت غير مسموعة تقريباً عند الشهيق، ولافتةً بهدوء عند الزفير. تصدر صوتاً بلسانها، فرقعة رطبة إزاء سقف فمها. منذ سنوات طويلة خلت وقع في غرامها في ردهة أحد المستشفيات؛ في زمنٍ من أزمنة الارهاب. كانت واعيةً به حصراً. معطف أبيض يأتي بالقرب من سريرها كي يرفع الغرزات من داخل شفتها العليا وبعد مرور ثلاثة شهور على ذلك قبّل تينك الشفتين. لكنه يعرف عنها أكثر من

ذلك، أو في الأقل رأى منها أكثر مما يتوقعه أي عاشق محتمل.

الآن يدنو منها وينحني فوقها ويقبل المؤخرة الدافئة لرأسها. ثم يبتعد، يغلق باب الحجرة بهدوء، وينزل الى المطبخ كي يفتح المذياع.

انه شيء مألوف في ما يتعلق بالنسب وعلم الوراثة الحديث أن الآباء لهم تأثير قليل أو لا تأثير على الاطلاق على شخصيات أبنائهم. فأنتَ لا تعرف من ذا الذي ستحصل عليه. الفرص، الصحة، احتمالات النجاح، اللهجة، سلوكيات المائدة – هذه الأشياء ربما تكمن في نطاق قدرتك على تشكيلها. لكن الذي يقرر حقيقةً نوع الشخص الذي سوف يأتي ليحيا معك هو أي حيمن هذا الذي يجد أي بويضة، كيف يتم اختيار البطاقات في علبتين، ثم كيف يتم خلطها من دون نظام، تقسيمها الى نصفين ومزاوجتها عند لحظة التوّحد ثانيةً. مبتهج أم عصابي، عطوف أم طماع، محب للاستطلاع أم غبي، صريح أم خجول أم بين هاتين الصفتين؛ بالوسع أن تكون إهانة تامة لاحترام الذات الأبوي، فقط كم من العمل تم إنجازه. من الناحية الثانية، من الممكن أن يجعلك الأمر تترك الكلاّب. تكون المسألة مرسومةً لك ما إن يكون لك أكثر من طفل؛ شخصان مختلفان تماماً ينبثقان من فرصتيهما المتشابهتين تقريباً في الحياة. هنا في مطبخ الدور التحتاني الكهفي في الساعة الثالثة وخمسة وخمسين دقيقة فجراً، في ضوء بركة وحيدة من الضوء، كما لو على خشبة مسرح، ثيو بيروني، عمره ثمانية عشر عاماً، تعليمه الرسمي أصبح وراءه منذ زمن طويل،

متكئاً على كرسي مطبخ ذي ظهر مائل، ساقاه داخل سروال (الجينز) الأسود الضيق، قدماه في جزمتين من الجلد الأسود اللين (اشتراهما من ماله الخاص) تتقاطعان على حافة الطاولة. لا يشبه شقيقته ديزي بالقدر الذي تسمح به العشوائية. يشرب من كأس كبيرة من الماء. في يده الأخرى يحمل مجلة الموسيقى المطوية الى الخلف التي كان يطالعها. سترة جلد مزودة بأزرار زينية تستقر في كوم على الأرض. قيثارته في علبتها مستندة على صوان. اكتسبت قبل الآن رقع صناديق بواخر قليلة العدد(١٤)— تريستي، أوكلاند، هامبورغ، فال دازيري. ثمة حيز للمزيد منها. من بيانو آلي مجسم مكتنز على رفٍ فوق مكتبة تضم كتب الطبخ يأتي صوت، أشبه برذاذ ناعم، محطة أغاني (البوب) التي تبث طوال الليل.

يسأل بيورني نفسه غالباً، ما إذا، في شبابه، كان بوسعه أن يحدس انه سيكون ذات يوم أباً لمؤلف موسيقي لأغاني (البلوز). هو نفسه كان قد سُيِّر ببساطة، من دون اعتراض أو معاناة، بسلسلة متصلة من المدرسة، عبر الكلية الطبية، الى الاكتساب العنيد للخبرة السريرية، في لندن، الحافة الجنوبية على البحر، نيوكاسل، قسم (بيليفو) للطوارئ في نيويورك ولندن ثانيةً. كيف تسنى له هو و روزاليند، هذاان الطرازان المطيعان، التقليديان، أن ينبتا مثل هذا الشخص الطليق المستقل؟ ذلك الفرد الذي يرتدي، بسخرية معينة، ثياباً على وفق موضة سنوات الخمسينيات البوهيمية، الذي لن يقرأ الكتب ولا يريد أن يقنع نفسه بالبقاء في المدرسة، الذي نادراً ما يغادر فراشه قبل وقت الغداء، الذي يكمن

توقـه في التفـوق في كـل الفروقـات الطفيفـة للعـرف، دلتـا، شيكاغو، ميسيسبي، في فـرص معينـة تـضمر لـه مفتاح الأسـرار كلها، ونجاح فرقته الموسيقية، التي تحمل اسم (نيو بلـو رايـدر). كانت لـه نسخة مكبرة من وجه أمه وعينـان لطيفتـان، مع إنهمـا ليستا خضراوين، إنما بنيتان داكنتان- شبيهتان بلوزتين- بميلان ضئيل وغريب. كانت له نظـرة أمـه الودية المفتوحة على وسـعها- وشـكل مختلـف أقـوى وأكثـر صـلابة لقامـة والـده مـع الهـزال والمصحوب بالعظام الكبيرة. وبصورةٍ مفيدة لخط عمله، كانت له أيضاً اليـدان. في العـالم الـضيق المنهمـك بالقيـل والقـال لأغـاني (البلوز) البريطانية، يتم الحديث عن ثيو بوصفه رجلاً واعداً، وهو ناضج قبل الآن في مسكه للأسلوب المميز في الموسيقى، الذي ربما يتمـشى ذات يـوم مـع المعبـودين، المعبـودين البريطـانيين أي – أليكسيس كورنر، جون ميال، اريك كلابتون. كتب شخص ما أن ثيو بيروني يعزف كملاك.

بطبيعة الحال، يوافق والده، على الـرغم مـن الـشكوك في مـا يتعلق بحدود الشكل. هو يحب أغاني (البلوز) بصورة جيدة بنحـو كافٍ- الواقع هو الذي جعل ثيو ذا الأعوام التسعة يرى كيف يتم العزف الموسيقي. بعد ذلك، اضطلع الجد بالمسؤولية. لكن هل ثمة قناعـة مـدى الحيـاة في أثنـى عـشر فاصـلة موسـيقية لثلاثـة أوتـار موسيقية واضحة؟ أغلب الظن إنها واحدة مـن حـالات عـالم صـغير تلـك الـتي تعطيـك العـالم كلـه. مثل طبـق وجبـة طعـام رئيسـة مـن الخزف السبودي[١٥]. أو زنزانة واحدة. أو، كما تقول ديزي، أشبه

برواية من روايات جين أوستن. حين يعرف العازف والمستمع كلاهما المسلك بصورةٍ جيدة جداً، السعادة في الانحراف، الانعطاف غير المتوقع ضد مزاج المرء. أن ترى العالم في حبه رمل. هكذا هو الأمر، يحاول بيروني أن يقنع نفسه، إمساكه بإحكام لتورم في الأوعية الدموية: تنوع مستغرق للانتباه في موضوع غير متغير.

وثمة شيء في السطوة المهذبة لعزف ثيو ينعش لدى هنري الغواية التي يتعذر تفسيرها لذلك التقدّم البسيط. ثيو عازف قيثارة من الطراز الذي يعزف بنشوة مفتحة العينين، من دون أن يحرك جسده أو حتى من دون أن يخفض بصره ناظراً الى يديه. يذعن فقط بهزة رأس عرضية مستغرقة في التفكير. بين الحين والحين، خلال التلحين ربما يميل رأسه الى الوراء كي يشير للآخرين انه ((يعيد الدورة)) ثانيةً. يتصرف على خشبة المسرح كما يفعل في حوارٍ ما، بهدوء، بصورة منهجية، حاميا سريته من خلال قوقعة الكياسة الودية. إذا حدث أن اكتشف والديه في مؤخرة حشد ما، يرفع يده اليسرى عن عتبِ القيثارة في تحية حيية وخصوصية. هنري وروزاليند يتذكران حينذاك المهد الكرتوني في قاعة الألعاب الرياضية في المدرسة، (يوسف) الوقور ذو الأعوام الخمسة، منشفة الشاي المربوطة الى رأسه بواسطة تاج من الأشرطة المطاطية، ممسكاً بيد (مريم) مبتلاة، ويقوم بالايماءة المختلسة، الحنون ذاتها حين يعين أخيراً موضع والديه في الصف الثاني.

هذا التحفظ، هذا البرد المعتدل يناسب أغاني (البلوز)، أو

نسخة ثيو المعدّلة لها. حين ينتهك قاعدة نصف بارعة، مثل ((الموطن الأثير شيكاغو))، بإيقاعها المنقط المترهل- يقول إنه بدأ يتعب من هذه (البلوز) دائمة الخضرة- سوف يبدأ الرحلة في اللائحة السفلى بمشي عضلي سهل، مثل كائن مفترس أملس، متخلصاً من التعب، ملتهماً أميالاً عدة من البطحاء المكشوفة. ثم ينتقل الى عتب القيثارة ويبدأ الحياء بحمل ذرة من الخطر. طعنة مؤخرة النبر صغيرة على التحول، الضربة الخاطفة لوتر مزيد، نغمة موسيقية تُكبح إزاء فيضان التناغم، نغمة خامسة مسطحة بصورةٍ حكيمة، ونغمة سابقة محنية في نبرات صغيرة حسية. بعدها تنافر عاطفي عابر. كانت له الموهبة المتناغمة في التوقع الذي يصعّد النهاية، وهي طريقة في عزف ثلاث نغمات إزاء مجموعتي نغمتين أو أربع نغمات. كانت لعروضه الغنائية المتواصلة سرعة ونبرة البيبوب[١٦]. هي شكل من أشكال التنويم، شكل من أشكال الغواية العفوية. لم يخبر هنري أحداً، ولا حتى روزاليند، أن ثمة لحظات، وهو يصغي من مؤخرة حانةٍ في الـ (ويست ايند)، حين تهز الموسيقى مشاعره، وفي حالة تمجيد يحس بأن افتخاره بابنه- غير منفصل عن سعادته بالموسيقى- أشبه باحساس قابض في صدره، أقرب ما يكون الى الوجع. يشق عليه أن يتنفس. في قلب أغاني (البلوز) ليس ثمة كآبة، إنما ابتهاج غريب ودنيوي.

قيثارة ثيو تطعنه لأنها أيضاً تحمل تأنيباً قاسياً، تذكيراً باستيائه الخفي في حياته الخاصة، بالعنصر المفقود. هذا الاحساس يمكن أن ينمو حين ينتهي اللحن، حين يقوم جرّاح

الأعصاب الاستشاري بتوديعاته الحنون لـ ثيو وأصدقائه و، بازغاً الى ما فوق الرصيف، يقرر أن يذهب الى بيته مشياً على قدميه وأن يفكر ملياً. ما من شيء في حياته الخاصة يحتوي على هذا الاكتشاف، هذا الطراز بانه حر. تظهر الموسيقى توقاً أو احباطاً غير موصوفين، إحساساً بانه حرم نفسه من طريق مفتوح، حياة القلب المحتفلة بالأغاني. يجب أن يكون للحياة شيء أكثر من إنقاذ الحيوات حصراً. ان إنضباط المسيرة الطبية ومسؤوليتها، تضاعفا ببدئه حياةً عائليةً في منتصف عشرينياته – وغطيا معظمها كوشاح من الارهاق؛ ما يزال هو يافعاً كي يشتاق الى ما هو غير متوقع، وغير مكبوت، وكبير السن بدرجة كافية كي يعرف بأن الفرص آخذة في الضيق. هل هو بصدد أن يصبح ذلك الإنسان، ذلك المغفل الحديث لعمرٍ معين، الذي يجد نفسه يتوقف عند واجهات المتاجر كي يحلق الى الداخل ناظراً الى السكسفونات أو الدراجات النارية الصغيرة، أو مرغماً على أن يجد لنفسه خليلةً بعمر ابنته. كان قد اشترى سيارةً غالية الثمن. عزف ثيو حمل هذا العبء من الندم الى داخل فؤاد والده. هي، على الرغم من كل شيء، أغاني البلوز.

بطريقة ترحيب، يترك ثيو كرسيه يميل الى الأمام مستنداً على قوائمه الأربع ويرفع يداً. ليس من دأبه أن يبدي الدهشة.

((استيقظتَ باكراً؟))

((شاهدتُ تواً طائرة تشب فيها النار، متوجهةً الى هيثرو.))

((أنتَ تمزح.))

يتوجه هنري نحو الـ هاي– فاي[١٧]، عازماً على أن يضبطه من جديد، إلا أن ثيو يلتقط المتحكم عن بعد (الريموت) من طاولة المطبخ ويفتح التلفاز الصغير الذي احتفظوا به بالقرب من الموقد للحظات كهذه، كي يذيع القصص. انتظرا التمهيد المتكلف الجلال لنشرة أخبار الساعة الرابعة أن ينتهي – نابضاً بموسيقى مصطنعة، متخذاً سبلاً لولبيةً، مشعاً خطوطاً بيانية مرسومة بالكومبيوتر، ممتزجة كلها في الصوت والضوء في سلم موسيقي فاجنري (نسبة الى فاجنر) كي توحي بالإلحاح، بالتكنولوجيا، والتغطية الشاملة. عندئذ بدأ المذيع المعتمد المألوف ذو الفك المربع الذي بعمر بيروني تقريباً يعدد القصص الرئيسة لتلك الساعة. انه أمر جلي حالاً ان الطائرة المحترقة لم تدخل بعد الرحم الكوكبي. بقيت حدثاً ذاتياً غير معوّل عليه. مع ذلك، أرهفا السمع لعدد من أحداث القائمة.

((هانز بليكس – حجة مقنعة للحرب؟)) يرتل المذيع المعتمد عبر صوت رتيب، وصور لوزير الخارجية الفرنسي، السيد دي فيلبان، يُصفق له في قاعة مناقشات الأمم المتحدة. ((نعم للحرب، تقول الولايات المتحدة وبريطانيا. لا، تقول الأغلبية.)) بعدها، التحضيرات لمظاهرات مناوئة للحرب في وقت لاحق هذا اليوم في لندن ومدن لا حصر لها في أنحاء شتى من العالم؛ بطولة التنس في فلوريدا عطلت من قبل امرأة تحمل سكين خبز...

يغلق الجهاز ويقول: ((ما رأيك بقليل من القهوة؟)) وبينما كان ثيو ينهض ليؤدي الخدمة، يبلغه هنري بالقصة، قصته الرئيسة لتلك الساعة. لن يدهشه كم قليل ما في جعبته كي يسرده- الطائرة وطرفها المشتعل تقطع حقل رؤيته، من اليسار الى اليمين، خلف الأشجار، وراء برج مكتب البريد، ومن ثم تتراجع الى الغرب. لكنه يشعر إنه كان منطلقاً من غير توقف بصورة مبالغ بها.

((لكن أوه، إذا ماذا كنت تفعل عند النافذة؟))

((أخبرتك. لم يكنْ بمستطاعي النوم.))

((نوع من التزامن.))

((هو ذاك بالضبط.))

التقت عيونهما – لحظة تحرر كامن – ثم راح ثيو ينظر جانباً ويهز كتفيه بلا مبالاة. شقيقته، من الناحية الأخرى، تحب المناظرة المعاكسة- ديزي وهنري يتقاسمان حباً ملهَماً- إدمان مثير للشفقة، روزاليند وثيو يقولان ذلك – لهجوم صاخب وعنيف. في مهاد[١٨] مراهقته المتقدّمة المستخدم في حجرة نومه، وسط المجلات المتخصصة بالقيثارة، القمصان والجوارب المرمية والقناني مصقولة الحاشية، ثمة كتب قلما لُمستْ في موضوع UFOs، وهو مصطلح قابل للتبادل هذه الأيام مع سفينة الفضاء، معترف به من قبل الأجنبي ومندفع بسرعة. نظرة ثيو العالمية، كما يفهمها هنري، تؤوي حساً باطنياً بأنه بشكل من الأشكال كل شيء مترابط، مترابط بصورةٍ ممتعة، وان سلطات معينة، بشكل بارز حكومة

الولايات المتحدة الأمريكية، بمدخل ذي امتياز الى إدراكٍ قائم خارج الأرض، تقصي بقية دول العالم من هذه المعرفة المدهشة بوصفها علماً معاصراً، لكونها (أي الدول) غبية ومتزمتة، لا تستطيع أن تبدأ في الادراك. هذه المعرفة تم إفشاء سرها في كتب ورقية أخرى، هي أيضاً نادراً ما لمسها ثيو. حب استطلاعه، مثلما هو معتدل، تم سرقته بواسطة البائعين المتجولين للزيف والدجل. لكن هل يهم، حين يكون قادراً على العزف على القيثارة كملاك يقرع جرساً، حين يكون في الأقل محافظاً على إيمانه بأشكال المعرفة المدهشة، عندما يكون أمامه متسع من الوقت كي يغير رأيه، اذا كان حقيقةً قد قرر ذلك؟

هو غلام دمث– تلك الأهداب الطويلة، تلكما العينان المخمليتان الداكنتان بميلانهما الشرقي الطفيف، لم يكنْ من الطراز الذي يدخل بسهولة في المناظرات. عيونهما إلتقت، وأبعد نظره مع ان أفكاره الخاصة ظلت سليمة. الكون ربما أظهر لوالده صلةً، علامةً قرر أن لا يقرأها. ماذا يستطيع أي فرد أن يفعل حيال ذلك؟

مفترضاً حادثة من حوادث أحلام اليقظة كحادثته هو، يقول هنري، كي يهبط به الى الأرض، ((لذا راحت تتحطم بعد دقائق من رؤيتي لها وهي تختفي عن الأنظار. في ظنك كم يستغرق الخبر كي يغذي قنوات الأخبار؟))

ثيو، الذي كان عند النضد (الكاونتر) يرشح القهوة، ينظر

الى الخلف من فوق كتفه ويمس بأصابعه شفته السفلى، شفته مكتنزة حمراء قانية، من المفروض ألا تكون قد قُبّلتْ كثيراً منذ عهد قريب. صرف آخر صديقاته بالطريقة التي فعلها بها مع الفتيات الأخريات، من دون أن يقول شيئاً كثيراً وجعلهن يختفين عن الأنظار، من دون دراما. التكلم قليلاً، القلة في مسألة التحايا، التعريفات، التوديعات، وحتى التشكرات، هي (أتيكيت) معاصر. في الهاتف، على أي حال، يفك الشاب أزراره. في كثير من الأحيان ينحني ثيو على مدى ثلاث ساعات على نحو موصول.

يتكلم بصورةٍ مهدئة، كما لو انه يتحدث الى طفل في حالة اهتياج، بسلطة مواطن، وحتى موظف حكومي، عن العصر الالكتروني ((سيكون في نشرة الأخبار المقبلة، أبي. بعد نصف ساعة.))

شيء مؤات بدرجة كافية. عارياً تحت المبذل العائد له- هو نفسه الزي الرسمي للرجل كبير السن والعليل- بالشعر الخفيف المشعث بسبب قلة النوم، صوته، صوت الاستشاري جهير أول (باريتون) بالضبط، الآن خفّ بسبب الكفاح- هنري مرشح لمنصب التهدئة. هكذا تبدأ، العملية الطويلة التي تصبح فيها ابناً لأبنائك. الى أن يأتي يوم ما ربما تسمعهم يقولون، أبتاه، اذا شرعت بالبكاء سنأخذك الى البيت.

يجلس ثيو ويزحف كوب القهوة عبر الطاولة، في متناول والده. لم يعد لنفسه كوباً. بدلاً من ذلك، يرفع بطقطقة غطاء قنينة

نصف اللتر من الماء المعدني. صفاء الشباب. أم انه يتفادى عادةً متخلفةً من الماضي؟ مرَّ وقت طويل على المسألة حين راح هنري يشعر أن بوسعه أن يطرح سؤالاً، أو يعبر عن وجهة نظر.

يقول ثيو، ((أنتَ تحسب أن الارهابيين فعلوا ذلك؟))

((انه إحتمال.))

كانت هجمات أيلول (سبتمبر) قد حثت ثيو نحو القضايا العالمية، لحظةَ تقبل تلك الأحداث وراء الأصدقاء، البيت، والمشهد الموسيقي كانت (أي الأحداث) تثقل حياته بعبئها. في السادسة عشرة، وهو العمر الذي كان فيه وقت حصولها، بدا ذلك متأخراً نوعاً. بيروني المولود قبل (أزمة قناة السويس) بعام واحد، والذي كان يافعاً جداً فيما يتعلق بالصواريخ الكوبية، أو إنشاء (جدار برلين)، أو إغتيال كنيدي، يتذكر انه دمعت عيناه على (أبيرفان)[١٩] في العام ١٩٦٦، مائة وستة عشر من طلبة المدرسة فعلوا مثله تماماً، كانوا قد انهوا صلاتهم تواً في مجموعة مدرسية، اليوم الذي سبق نصف الفصل الدراسي، دُفن تحت نهر من الطين. كان هذا حين ارتاب أول مرة ان الله العطوف الذي يحب التلميذ الذي أطرته بافراط مديرة مدرسته ربما لا وجود له. كما تكشف لاحقاً، معظم أحداث العالم الرئيسة أوحت بالشيء نفسه. أما بالنسبة لجيل ثيو الملحد بإخلاص، المسألة لم تصل الى مرحلة النضج. لا أحد في مدرسته النيرة، البلورية، المتطلعة الى الأمام طلب منه أبداً أن يصلي، أو ينشد ترتيلة مبهمة لا سبيل الى

فهمها. ليس ثمة هوية له كي يرتاب فيها. إطلاعه، أمام التلفاز، في حضرة الأبراج الذائبة، كان قوياً لكنه كيّفه بسرعة. هذه الأيام يعاين بدقة الصحف بحثاً عن تطورات جديدة كما كان يفعل ربما مع مجلات الجداول. طالما ان ليس ثمة شيء جديد، يكون باله طليقاً. الارهاب الدولي، الحصون الأمنية، التحضيرات للحرب– هذه كلها تمثل الحالة المستقرة، المناخ. بازغاً الى وعي إنسان بالغ، هذا هو العالم الذي يجده الآن.

لم يكن بوسعه أن يقلقه أو يُزعجه بالطريقة التي يفعلها مع أبيه، الذي يطالع الصحف ذاتها بتعوّذ مَرَضي. على الرغم من الحشود المجندة في (الخليج)[٢٠]، الدبابات المنتشرة عند (هيثرو) يوم الخميس، إقتحام جامع (متنزه فنزبري)، تقارير حول خلايا إرهابية في أرجاء الوطن، ووعد بن لادن في شريط مسجل بالقيام بـ ((هجمات استشهادية)) على لندن، يحتفظ بيروني على مدى مدة زمنية معينة بالفكرة القائلة إن ذلك كله ضلال، وإن العالم سوف يهدأ بصورة مؤكدة ويكون حالاً خلاف ذلك، وان الحلول كانت ممكنة، وان العقل، بوصفه أداة قوية، كان لا يقاوم، وهو الطريق الوحيد للخروج؛ أو انه على غرار أي أزمة أخرى، هذه الازمة سوف تتلاشى حالاً، مفسحةً المجال للأزمة اللاحقة، وتسير في نفس مسار أزمات (جزر الفولكلاند) و(البوسنة)، (بيافرا) و (تشيرنوبل). إنما مؤخراً، يبدو هذا متفائلاً. على العكس من ميله الخاص، انه يتكيف، بالطريقة ذاتها التي يفعلها المرضى أخيراً عند الفقدان المباغت لحاسة البصر أو استخدام أطرافهم. لا تراجع.

التسعينيات أشبه بعقد بريء، ومن ذا الذي فكر بذلك في حينها؟ الآن نستنشق هواءً مختلفاً. ابتاع كتاب (فريد هاليداي) وقرأ في الصفحات الافتتاحية ما يشبه باستنتاج ولعنة: هجمات نيويورك عجلتْ بحدوث أزمة عالمية سوف، اذا كنا موفوري الحظ، تستغرق قرناً كي تُحل. ((إذا كنا موفوري الحظ.)) عمر هنري، وكل عمر ثيو وديزي. وعمر أولادهم أيضاً. حرب المائة عام.

بصورةٍ غير بارعة، أعد ثيو القهوة بثلاثة أضعاف قوتها إنما بصورةٍ أبويةٍ حتى النهاية، احتساها هنري. الآن سُلّم الى النهار.

يقول ثيو: ((الم ترَ من أي خط من الخطوط الجوية كانت الطائرة؟))

((كلا. كانت بعيدةً جداً، والعتمة شديدة.))

((فقط جاس ذاك يتوقع حضوره من نيويورك هذا الصباح.))

كان جاس عازف السكسفون في فرقة ((نيو بلو رايدر))، عملاق وامض لشاب من (سانت كتز)، كان في نيويورك من أجل أسبوع طائفة موقرة، إسمياً تحت اشراف (برانفورد مارساليز). هؤلاء الأولاد يملكون المواهب، وعيهم بالتخويل يناسب نخبةً. (ري كوودر) سمع ثيو يعزف على قيثارة منزلقة في (اوكلاند). مربوطةً الى مرآةٍ في حجرة نوم ثيو، الصينية الجوّابة[٢١] للبيرة مع تحية ودية من قائد الفرقة الموسيقية اللامع. اذا قرّبت وجهك منها يمكنك أن تميز بخط أزرق بهيئة عقدة، تحت صبغ البيرة، توقيعاً، و(دعها) تسيريا (غلام)!

((انني لا أقلق. العيون الحمر لن تبدأ بالمجيء حتى الساعة الخامسة والنصف.))

((نعم، على ما أعتقد.)) أخذ جرعةً كبيرةً من قنينة الماء. ((أنت تظن أنها من عمل المجاهدين؟))

يشعر بيروني الآن بأنه مشدوه، بصورةٍ سائغة. كل الأشياء التي ينظر إليها بضمنها وجه ابنه، تتراجع عنه من دون أن تغدو أصغر حجماً. لم يسبقْ له أن سمع ثيو يستخدم هذه الكلمة قبلاً. هل هي الكلمة الصحيحة؟ تبدو هي غير ضارة، وحتى طريفة، وهي تُطلق بصوته الصادح (التينور) الخفيف. هذا التعميق في الندي (السوبرانو) الولاّدي هو تقدّم ما يزال هنري غير قادر تماماً على أن يعده صحيحاً، مع أن عمره خمسة أعوام. على شفتي ثيو- يعدّ المشكلة كونها تفعل شيئاً خيالياً مع كلمة ((المجاهدين)) — الكلمة العربية تبدو غير ضارة كأداة موسيقية وترية مراكشية ربما تتبناها الفرقة الموسيقية وتزودها بالطاقة الكهربائية. في الدولة الإسلامية المثالية، في ظل قانون الشريعة الصارم، سيكون هناك حيز للجراحين. عازفو القيثار لأغاني البلوز سيجدون لهم وظيفةً أخرى. لكن ربما لا يحتاج أحد دولةً كهذه. ليس ثمة حاجة الى أي شيء. فقط الضغينة هي التي تم التعبير عنها، نقاء العدمية. بوصفك مواطناً لندنياً، يمكنك ان تحن حنيناً غير سوي الى الجيش الايرلندي IRA. حتى حين تغادر ساقاك جسمك، ربما تهتم بأن تتذكر ان الدافع كان ايرلندا الموحدة. الآن ذلك آتٍ بأي حال من الأحوال، بحسب المبجل ايان بيسلي[٢٢]، عبر طاقة طليعة

المتجولين على أرجلهم. أزمة أخرى تلاشتْ الى داخل سجلات القصاصات[٢٣]، بعد ثلاثين سنة حصراً. الا ان هذا ليس صحيحاً تماماً. الإسلاميون المتطرفون ليسو عدميين حقيقةً – هم ينشدون المجتمع الكامل على الارض، وهو الاسلام. هم ينتسبون الى عرف محكوم عليه بالاخفاق التي يعده بيروني وجهة النظر التقليدية – السعي وراء اليوتوبيا يقتل ترخيص كل شكل من أشكال الافراط أو التجاوز، كل الوسائل عديمة الرحمة لإدراكها. إذا كان الناس جميعاً متأكدين من انهم سيكونون في النهاية سعداء الى الأبد، فأي جريمة ستكون إذا ما ذبحنا مليوناً من البشر أو مليونين الآن؟

((لا أعرف ما أفكر به))، يقول هنري. ((فات أوان التفكير. دعنا ننتظر نشرة الأخبار.))

بدا ليو مرتاحاً. بطريقته اللطيفة، كان مهيئاً لمناقشة المواضيع مع والده، اذا كان هذا هو المطلوب. إنما في الساعة الرابعة وعشرين دقيقة فجراً يشعر بانه أكثر سعادة وهو يقول كلاماً قليلاً. لذا انتظرا في صمت غير متوتر بضع دقائق أخرى. في الشهور المنصرمة جلسا عبر هذه الطاولة ومسا مساً طفيفاً المواضيع كلها. لم يتحدثا بهذا القدر من قبل. أين هو غضب المراهقة، صفق الأبواب، الضراوة التي تم تخفيفها والتي من المفروض أن تكون طقس ثيو في المرور؟ هل غاص ذلك الاحساس كله في (البلوز)؟ ناقشا بطبيعة الحال موضوع العراق، أمريكا والسلطة، الارتياب الاوربي، الاسلام – معاناته ورثائه لذاته، اسرائيل وفلسطين،

الطغاة، والديمقراطية.

ومن ثم أشياء الأولاد: أسلحة الدمار الشامل، عقوبات الوقود النووي، التصوير الفوتوغرافي للقمر الصناعي (الستلايت)، الأشعة الليزرية، وتكنولوجيا الجزء من البليون. عند طاولة المطبخ، هذه هي قائمة الأطعمة المبكرة للقرن الحادي والعشرين، خصوصيات اليوم. في مساء يوم أحد جديد أقبل ثيو بقول مأثور: كلما فكرت بصورة واسعة، يبدو الأمر أكثر هراءً[٢٤]. وحين طلب منه تفسير القول أجاب، ((حين تطوف حول الأشياء الكبيرة، الوضع السياسي، الانفعال الشامل، فقر العالم، هذه كلها تبدو فظيعةً حقاً، وما من شيء يتحسن، وما من شيء يمكن التطلع اليه. إنما حين أفكر قليلاً، الى شيء أقرب الى ذاتي – كما تعرف، فتاة إلتقيتها تواً، أو الأغنية التي سوف نقدّمها مع جاس أو المبيت في الثلج الشهر القادم، عندئذ يبدو التفكير عظيماً. إذاً هذا سيكون شعاري – فكر قليلاً.

متذكراً هذا الآن، وما زالت هناك أمامهما بضع دقائق قبل أن يحين موعد نشرة الأنباء، يقول هنري: ((كيف كان الإنجاز الموسيقي ؟))

((عملنا هذه المجموعة من الأشياء الرئيسة، المدوية في الرأس حقيقةً، تقريباً كلها أشعار جيمي ريد. كما تعرف، مثل هذه....)) راح ينشد بتوكيد ذي محاكاة ساخرة (بوغي)[٢٥] صغيراً ذا شكل جهير. كانت أصابع يده اليسرى تنطبق باحكام ثم ترتجي،

بصورة لا واعية تتخذ شكل الأوتار. ((أصبحوا هائجين بسببها. لم يسمحوا لنا أن نقوم بشيء آخر. حقيقةً هي مثيرة للأسى نوعاً ما، لانها لم تكنْ ما نبتغيه على الاطلاق.)) غير إنه كان يبتسم ابتسامةً عريضةً لدى تذكره.

آن أوان الأخبار. مرةً أخرى، نبضات المذياع، الأصوات الصناعية، المذيع المعتمد دائم النشاط وفكه الجدير بالثقة. وهي ذي، أمستْ حقيقةً أخيراً، الطائرة، منحرفة خلال انطلاقها بسرعة خاطفة، في الظاهر ماتزال سليمة، يحيطها الاطفائيون الذين ما يزالون يرشون الرغوة، الجنود، الشرطة، الأضواء الوامضة، وسيارات الاسعاف معادة الى الوراء وجاهزة. قبل القصة، مديح لا صلة له بالموضوع لأزمنة الاستجابة السريعة الخاصة بخدمات الطوارئ. عندئذ فقط فُسر الأمر. انها طائرة حمولة، (توبوليف) روسية في رحلة لها من (ريغا) الى (برمنغهام). حينما مرتْ بصورة جيدة الى شرق لندن اندلعت النار في أحد محركاتها. اتصل الطاقم لا سلكياً للسماح لهم بالهبوط الى اليابسة، وحاولوا أن يوقفوا تجهيز الوقود عن المحرك المشتعل. انعطفوا غرباً على طول (التايمز) وأُرشدوا الى (هيثرو) وأفلحوا في أن يهبطوا هبوطاً مقبولاً. لا أحد من الطاقم المؤلف من شخصين أصيب بأذى. الحمولة لم تحدد بعد، إلا ان جزءاً منها، يُعتقد أنه مواد بريدية في الأغلب، دُمر. ثم، ما تزال في الدرجة الثانية، الاحتجاجات المناهضة للحرب سوف تبدأ بعد ساعات قلائل. هانز بليكس، رجل الأمس، هو الخبر الثالث.

قط شرودنغر الميت ما يزال حياً على أي حال.

التقط ثيو سترته من الأرض ووقف. سلوكه عنيد.

((إذاً، ليس ثمة هجوم على طريقتنا الصحيحة في الحياة.))

((نتيجة طيبة))، يوافق هنري.

كان يود أن يعانق والده، ليس فقط تعبيراً عن الارتياح، إنما خطر بباله أن ثيو أمسى حقيقةً غلاماً جديراً بأن يُحب. مغادرة المدرسة قامت بالعمل البارع أي حال – السير بجرأة في أمكنة لم يجرؤ والده على السير فيها، بعيداً عن التعليم الرسمي، متولياً أمر العناية بحياته. إنما هذه الأيام هو وثيو عليهما أن ينفصلا اسبوعاً واحداً في الأقل قبل أن يسمحا لنفسيهما أن يتعانقا. كان دائماً غلاماً طبيعياً. حتى حين كان في الثالثة عشرة كان يأخذ يد والده في الشارع. لا رجوع الى ذلك الزمن. فقط ديزي تحافظ على فرصة قبلة وقت النوم عندما تكون في البيت.

بينما كان ثيو يجتاز المطبخ، راح والده يقول، ((اذاً ستكون في المسيرة اليوم.))

((شيء من هذا القبيل. في الروح. عليّ أن أجهز الأغنية.))

((نم جيداً إذاً))، يقول هنري.

((نعم. وأنت.))

في طريق خروجه من الباب يقول ثيو، ((طابت ليلتك إذاً))، وبعد ثواني، حين أرتقى عدداً من درجات السلم إستدرك قائلاً، ((أراك في الصباح))، ومن أعلى الدرجات عاد يقول متردداً، بجرس

سؤال ناهض، ((ليلتك؟)) أجاب هنري على كل نداء، وانتظر التالي. هذه هي تلاشيات ثيو البطيئة المميزة، التلاشيات الثلاثة أو الأربعة أو حتى الخمسة عليه أن يقوم بها وهو يوجه تحاياه التوديعية، الخرافة التي مفادها إنه يجب أن تكون الكلمة الأخيرة له. اليد الممسوك بها تنسل ببطء.

كان لـ بيروني نظرية تقول أن للقهوة تأثير ظاهري التناقض وتبدو كذلك الآن بينما هو يتحرك بتثاقل في أرجاء المطبخ يطفئ الأضواء؛ ليس فقط ليلته المتقطعة، إنما الأسبوع كله، والأسابيع التي سبقته كلها تغلبت عليه. شعر بوهن في ركبتيه، في العضلة رباعية الرؤوس في مقدّم الفخذ، بينما كان يرتقي درجات السلم، مستفيداً من الدرابزون. هكذا سيكون الأمر في عقده السبعيني. قطع الرواق، هدأه الملمس معتدل البرودة للأحجار اللوحية الناعمة تحت قدميه الحافيتين. في طريقه الى درجات السلم الرئيسة، توقف عند الأبواب ذوات الواجهتين. انها تفضي مباشرة الى الرصيف، الى الشارع المؤدي الى الساحة، وفي إرهاقه لاحت أمامه بغتةً مع تضخمها – ثلاثة أقفال (بنهام) متينة، مزلاجان من الفولاذ الأسود قديمان قدم المنزل، سلسلتا أمان من الفولاذ المسقى، ثقب المراقبة مع غطاء من النحاس الأصفر، صندوق الاجهزة الالكترونية التي تشغل نظام هاتف الدخول (الانتريفون)، زر الرعب الأحمر، دثار التنبيه بأرقامه[٢٦] الوامضة برقة. دفاعات كهذه، شرفة مفرّجة[٢٧] أرضية كهذه: احترس من فقراء المدينة، من المدمنين على العقاقير، ومن السيئين بكل ما في الكلمة من

معنى.

في الظلام ثانيةً، واقفاً عند جانبه من السرير، جعل المبذلة ينزل حول قدميه وبصورةٍ عمياء جعل يتلمس طريقه بين الأغطية الباردة متجهاً صوب زوجته. كانت ترقد على ناحيتها اليسرى، وجهها بعيد عنه، وركبتاها ما تزالان مسحوبتين الى الأعلى. وطد نفسه حول شكلها المألوف، وضع ذراعه حول خصرها ودنا منها. حين جعل يقبل مؤخرة عنقها تكلمت من أعماق النوم– كانت نبرة صوتها سارة، مُرضية، غير أن كلمتها غير الجلية الوحيدة، كانت أشبه بحمل ثقيل جداً على الرفع، ولم تتحرك من لسانها. جعل يتحسس دفء جسدها عبر حرير منامتها وهو ينتشر عبر صدره وصدر فخذه. صعود ثلاث مجموعات من درجات السلم نشطه، عيناه مفتوحتان على وسعهما في الظلام: المجهود، ضغط دمه الذي ارتفع بصورةٍ طفيفةٍ جداً، جعل يسبب إثارة موضعية في شبكيته، لذا فإن حشوداً شبحية من اللونين الأرجواني والأخضر المتقزح الألوان جعلت تتجول عبر رؤيته لسهبٍ لا حدود له، ثم راحت تدور على نفسها كي تصبح لفات قماش، قطعاً متأرجحةً من المخمل، تنسحب الى الوراء أشبه بستائر المسرح منفتحةً على مشاهد مسرحية جديدة، أفكار جديدة. لم يكن يرغب بأي فكرةٍ من الأفكار البتة، لكنه الآن يقظ. يومه العاطل عن العمل يتمدد أمامه، طريق عبر السهب؛ بعد لعبة (السكواش) الخاصة به، التي جعلته يتخلص من أرقه، ينبغي له أن يزور والدته. وجهها كما هو الآن يتملص منه. يرى بدلاً منه بطلة السباحة في الاقليم

على مدى أربعين سنة خلت – راح يتذكر من الصور الفوتوغرافية – تلك القبعة المطاط المزدانة بالزهور التي منحتها مظهر فقمة متلهفة للعوم في اليم. كان فخوراً بها حتى حين عذّبت طفولته، مجرجرةً إياه في أمسيات الشتاء الى مسابح محلية صاخبة التي على أرضيات حجرة تبديل الملابس الخرسانية فيها رمت اللصقات المسكنة للألم مع اصبغتها الوردية والضاربة الى اللون الارجواني مسلوقة في بريكات فاترة. جعلته يتبعها الى بحيرات مشؤومة خضر والى (بحر الشمال) الرمادي قبل الأوان. كان ذلك عنصراً آخر، اعتادت أن تقول، كما لو كان ذلك تفسيراً أو اغواءً. ثمة عنصر آخر كان على وجه الدقة هو الذي رفض أن يخفض هيكله النحيف المنمش في داخله. كان الإنقسام بين العناصر هو الذي يسبب الأذى الأكبر، السطح غير الودي، رافعاً الى الأعلى بزاوية حادة مُرة بطنه الغائر المصاب بالقشعريرة بينما كان يتقدّم على رؤوس أصابعه، كي يسرها، الى داخل المياه غير الصافية لساحل (ايزيكس) في الأيام المبكرة من حزيران (يونيو). لم يكن بمستطاعه أن يرمي نفسه في اليم، بالطريقة التي فعلتها، الطريقة التي تريد منه أن يفعلها. الغوص في عنصر آخر، يومياً، جاعلاً كل يوم خصوصياً، هو ما أرادته وفكرت انه يجب عليه أن يفعله. طيب، كان ممتازاً في ذلك الآن، طالما أن العنصر الآخر لم يكن الماء البارد.

هواء حجرة النوم نقي في منخريه، كان نصف مستثار جنسياً بينما هو يدنو من روزاليند. كان بوسعه أن يسمع التحرك الضئيل

الأول لحركة المرور الثابتة في شارع ايوستون (ايوستون رود) كنسيم يمرّ عبر غابةٍ من التتوب. هؤلاء هم الناس الذين يجب عليهم أن يكونوا في مواقع عملهم عند السادسة من يوم السبت. إن التفكير بهم لا يجعله يشعر بالنعاس، كما كان يفعل ذلك عادةً. راح يفكر في الجنس. اذا كان العالم قد تشكل بالضبط على وفق احتياجاته، كان سيمارس الحب مع روزاليند الآن، من دون إجراءات تمهيدية، مع روزاليند الراغبة جداً، وبعدها يقع في خدر خالي البال قريب من النوم. الا إنه حتى الملوك المستبدين، وحتى المعبودين الموغلين في القدم لم يكن بمستطاعهم دائماً أن يحلموا أن يكون العالم على وفق ما يناسبهم. الأطفال فقط، الواقع، الأطفال الوليدون هم الذين يشعرون بأن الرغبة وإكمالها كونهما شيئاً واحداً؛ أغلب الظن إن هذا الأمر هو الذي يمنح الطغاة سيماءهم الطفولية. يعودون الى ما لم يستطيعوا الحصول عليه. حين يلاقون الاحباط، فإن نوبة غضب قتل الانسان لن تكون بعيدة. صدام، في سبيل المثال، لا يبدو ببساطة شبيهاً ببهيمة ذات فك أسفل ضخم. هو يعطي الانطباع بكونه غلاماً نما أسرع ما ينبغي، مخيب الرجاء. ذا مظهر قصير وسمين، مثير للشفقة، وعينين داكنتين مرتبكتين قليلاً بسبب كل ما لم يستطع أن يقيمه. السلطة المطلقة ومسراتها هي وراء المتناول وتواصل تراجعها. يعرف هو إن ثمة جنرالاً متزلفاً آخر أُرسل الى حجرات التعذيب، رصاصة أخرى في رأس أحد الأقارب لن تولد القناعة التي ولدتها ذات مرة.

غيّر بيروني وضعه ومس بأنفه قفا رأس روزاليند، مستنشقاً

الأثر الضعيف للصابون المعطر الممتزج بشذا الجلد الدافئ والشعر المغسول بـ(الشامبو). يالها من ضربة حظ، إن المرأة التي يحبها هي زوجته أيضاً. لكن بأي سرعةٍ تحوّل هو من الحالة الإيروسية الى صدام– الذي ينتمي الى الفوضى، مزيج من مقوّمات كثيرة، من نذير بشرّ وانهماك كامل. أرقاً في الساعات المبكرة، تصنع عشاً من مخاوفك الخاصة– لا بد أن تكون هناك ميزة البقاء في أن نحلم بالنتائج السيئة وأن نرسم خطة لتحاشيها. إن خدعة التفكير الكئيب هي إرث واحد للاختيار الطبيعي في عالمٍ محفوف بالمخاطر. في هذه الساعة المنصرمة كان في حالةٍ من الجنون الهمجي، في حماقة التأويل المغالى به. لم يكن يواسيه أن فرد من هذه الأزمنة، واقفاً عند النافذة في مكانه، ربما كان قفز الى الاستنتاجات ذاتها. ان سوء الفهم شامل في العالم كله قاطبةً. كيف يمكننا أن نثق بأنفسنا؟ يفهم هو الآن التفاصيل التي نصف تجاهلها كي يغذي مخاوفه: ذلك ان الطائرة لم تكنْ مندفعة بسرعة الى داخل بناية عمومية، وكانت تقوم بهبوط نظامي، مسيطر عليه؛ وانها كانت في طريق طيران مستخدم جداً - لا أحد من هذه المخاوف ناسب عدم الارتياح الشامل. أخبر نفسه إنه كانت هناك نتيجتان محتملتان– القط الميت أو القط الحي. إلا إنه كان قد صوّت للميت، عندما كان ينبغي له أن يدركها فوراً– حادثة بسيطة في الصنع– وليستْ هجوماً على كل طريقتنا في الحياة بعدئذ.

نصف واعية به، راحت روزاليند تغيّر موضعها، متململةً

باستدارة ضعيفة من كتفيها بحيث أن ظهرها التصق بحميمية بإزاء صدره. زلجت قدمها على امتداد قصبة ساقه ووضعتْ قوس قدمها على أصابع قدميه. مستثاراً بدرجة أكبر، جعل يتحسس انتصابه معاقاً بإزاء الجزء الصغير من ظهرها وتحرّك الى الاسفل كي يحرر نفسه. راحتْ أنفاسها تستأنف إيقاعها المستقر. هنري يرقد بلا حراك، في انتظار النوم. على وفق معايير معاصرة، على وفق أي نوعٍ من المعايير، إنه شيء غير صحيح كونه لم يتعبْ من ممارسة الحب مع روزاليند، وإنه لم يكن مغوياً بصورة جدية من قبل الفرص التي جرفت طريقه عبر المنطق السخي للسلطة الطبية. حين يفكر بالجنس، يفكر بها. هاتان العينان، هذان الثديان، هذا اللسان، هذا الترحيب. من غيرها بوسعها أن تغرم به بصورة معروفة جداً، بمثل هذا الدفء وهذه الملاطفة المعذبة، أو تجمع ماضياً غنياً معه؟ في عمر واحد لن يكون بالوسع العثور على امرأة أخرى معها يستطيع أن يتعلم أن يكون حراً جداً، امرأة يستطيع أن يرضيها بمثل هذه الحماسة والخبرة. بواسطة حادثة ذات ميزة معينة، حميميتها التي تهيجه أكثر من الجدة الجنسية. هو يشك بأن ثمة شيئاً مُخدَراً أو ناقصاً أو جباناً في كيانه. عديد من أصدقائه الذكور مشوا منحرفين في مغامرات مع نساء أصغر سناً؛ بين الفينة والفينة ينفجر زواج وطيد في خصام غاضب من الاتهام المضاد. يراقب بيروني بعدم الارتياح، خشية أن يكون مفتقراً الى عنصر قوة الحياة الرجولية، والى الميل الفطري الجريء والصحي الى التجربة. أين هو حب استطلاعه؟ ماذا جرى له؟ لكنه لا

يستطيع أن يفعل شيئاً في ما يتعلق بكيانه. التقى النظرة المتسائلة العرضية لأمرأة جذابة ذات ابتسامة لطيفة ورزينة. هذا الاخلاص ربما يبدو كالفضيلة أو العناد، لكنه لم يكن أياً من هذين الاثنين لانه لم يمارس اختياراً حقيقياً. هذا هو ما ينبغي له أن يناله: الامتلاك، الانتماء، التكرار.

كانت فاجعة– مؤكد انه هجوم على طريقتـ (ها) كلها في الحياة– تلك التي أتت بـ روزاليند الى حياته. كانت رؤيته الأولى لها من الخلف بينما كان يجتاز ردهة جراحة الاعصاب المخصصة للنساء في عصر يوم من أيام آب (أغسطس). كانت مذهلةً، هذه الغزارة من الشعر البني– الضارب للإحمرار– تقريباً تصل حتى الخصر- على هيكل صغير جداً. على مدى لحظة ظن انها طفلة كبيرة. كانت جالسةً على حافة سريرها، ما تزال بكامل ثيابها، تتحدث الى الطبيب المقيم الأقدم بصوتٍ أجهد نفسه كي يكبح رعبها. التقط بيروني جزءاً من القصة حين توقف هناك، وفهم البقية لاحقاً من خلال ملاحظاتها. كانت صحتها ممتازة على العموم، إلا إنها كانت تعاني من ضروب الصداع الذي كان يأتي ويزول خلال السنة المنصرمة. لمستْ رأسها كي تريهم موضع الصداع. لاحظ أن يديها كانتا صغيرتين جداً. كان وجهها بيضوياً بشكل كامل، ذات عينين كبيرتين بلون أخضر باهت. كانت تفوتها الدورات الشهرية بين حين وآخر، وغالباً كانت ثمة مادة ما تنزل من ثدييها. في ساعة مبكرة من بعد ظهيرة ذلك اليوم، بينما كانت تعمل في مكتبة قسم القانون في كلية الجامعة، تقرأ في

موضوع الاضرار المقصودة أو غير المقصودة التي تلحق بالاشخاص أو بممتلكاتهم أو سمعتهم – كانت متخصصة في هذه المسألة – بدأتْ رؤيتها، كما قالت، تغدو معتلة. في غضون دقائق لم يعد بمستطاعها أن ترى الأرقام على ساعة معصمها. تركت كتبها، اختطفت حقيبتها ونزلت السلم ممسكةً بالدرابزونات بقوة. كانت تتلمس طريقها على امتداد الشارع الى قسم الحوادث حين بدأ النهار يُظلم. حسبت انه كان هناك كسوف الشمس، وكانت مندهشة من أن لا أحد ينظر الى السماء. قسم الحوادث بعثها الى هنا فوراً، وهي ذي الآن قلما ترى الأشرطة على قميص المقيم الأقدم. حين رفع أصابعه لم يكن بوسعها أن تعدّها.

((لا أريد أن أغدو عمياء))، قالت بصوتٍ ضعيف، مصدوم. ((من فضلك لا تجعلني أصبح عمياء.))

كيف كان ممكناً أن تفقد تلكما العينان الصافيتان الكبيرتان بصرهما؟ حين أُرسل هنري كي يعثر على الطبيب الاستشاري، الذي لم يكن بالمستطاع الاتصال به لا سلكياً، شعر بغصة إقصاء لا مهنية، احساس انه لا يتحمل أن يترك المقيم الأقدم – وهو من الطراز المفترس الناعم– وحيداً مع كائن نادر كهذا. هو، بيروني، أراد أن يفعل كل شيء من أجل إنقاذها، مع انه كان يملك فقط فهماً أولياً لما يمكن أن تكون حالتها.

الطبيب الاستشاري، السيد والي، كان في اجتماع مهم. كان شخصاً عظيماً، بطيء الحركة متثاقلها يرتدي بزة مقلمة

بالدبابيس ذات ثلاث قطع وبساعة يد ذات سلسلة ومنديل حرير ارجواني اللون يبرز من جيب سترته العلوي. كان بيروني يرى في كثيرٍ من الأحيان من مسافة ما الرأس المميز يومض في الأروقة المعتمة. صوت والي المسرحي الهادر كان يُحاكى بصورة ساخرة من قبل الأطباء الأصغر سناً. طلب بيروني من السكرتير أن يدخل ويقاطعه. بينما كان ينتظر، متدرباً على اداء الدور عقلياً، شديد التوق لأن يترك انطباعاً في الرجل العظيم بتقديمٍ بليغ. خرج والي وأرهف السمع بتقطيب بينما بدأ بيروني يحكي له عن صداع الانثى ذات التسعة عشر ربيعاً، البدء المفاجئ لفقدان الحقل البصري الحاد وأحداث ماضية من انقطاع الطمث انقطاعاً غير سويّ ونز الحليب من الثديين.

((في سبيل الله، يا رجل. دورة شهرية غير منتظمة، افراز من حلمة الثدي!)) أعلن ذلك بصوته الشبيه بصوت مذيع يقرأ نشرة أخبار حربية موجزة، لكنه ايضاً كان يجتاز الرواق بسرعة وسترته تحت ذراعه.

جيء بكرسي كي يستطيع أن يجلس مواجهاً مريضته. حين فحص عينيها، بدتْ أنفاسه وهي تتباطأ. راقب بيروني الوجه الجميل الشاحب الذكي وقد مال ناحية الطبيب الاستشاري. كان سيستسلم لها كثيراً كي يجعلها تصغي إليه بتلك الطريقة. محرومةً من المفاتيح البصرية لحل الألغاز، كان عليها أن تثق بكل فارق تغيير طفيف في صوت والي. كان التشخيص سريعاً جداً.

((حسن، حسن، أيتها السيدة الشابة. يبدو أنك تملكين ورما في غدتك النخامية، وهو عضو بحجم حبة البازلاء في مركز دماغك. ثمة نزف حول الورم جعل يضغط على عصبيك البصريين.)) كان ثمة شباك طويل خلف رأس الطبيب الاستشاري، ولابد أن روزاليند كانت قادرة على تمييز خطوطه المحيطية، اذ يبدو أن عينيها كانتا تدققان النظر في وجهه. لزمت الصمت على مدى ثواني معدودات. ثم انبرتْ قائلةً بدهشة: ((حقيقةً يمكن أن أصاب بالعمى.))

((لن تصابي به إذا استطعنا أن لنشتغل عليك فوراً.))

أومأت برأسها علامة الموافقة. أخبر ويلي المقيم الأقدم أن يطلب إجراء فحص مفراس حلزوني توكيدي لـ روزاليند في طريقها الى صالة العمليات. ثم مال الى الأمام وتحدث إليها برقة، بصورة لطيفة تقريباً، شرح لها كيف أن الورم كان يصنع البرولاكتين، وهو هرمون يرافق الحمل والذي يسبب إنقطاع الدورات الشهرية ويجعل الثديين يصنعان الحليب. أعاد طمأنتها بأن ورمها سيكون حميداً وإنه توقع أن تستعيد عافيتها تماماً. كل شيء يعتمد على السرعة. بعد نظرة خاطفة الى ثدييها كي يتأكد من التشخيص كان مرأى هنري قد أُغلق – وقف السيد والي واتخذ صوتاً عالياً، شائعاً بينما كان يصدر التعليمات. ثم غذّ خطاه مبتعداً كي يعيد جدولة أعماله لما بعد ظهيرة اليوم.

رافقها هنري من قسم الأشعة الى صالة العمليات. رقدت على

الحامل المتحرك (الترولي) بكرب. كان رئيس الأطباء المقيمين لمدة أربعة شهور ولم يكن بمستطاعه أن يتظاهر انه يعرف كثيراً عن الاجراء الذي سيُتخذ. انتظر معها في الرواق ريثما يصل الطبيب المخدر. وهما يتبادلان حديثاً قصيراً، اكتشف إنها طالبة قانون وليس لها عائلة قريبة في مكانٍ مجاور. كان والدها في فرنسا، وأمها ميتة. لها عمة موقرة تسكن في اسكتلندا، في (الجزر الغربية). كانت روزاليند دامعة العينين، تكافح ضد انفعالاتها القوية. سيطرتْ على صوتها و، مومئةً صوب مطفئة نار، أخبرته إنه طالما ان هذه هي ربما تجربتها الأخيرة المتعلقة باللون الأحمر، كانت تريد أن تتذكرها. هل بوسعه أن يقرّبها أكثر؟ حتى الآن قلما تستطيع أن ترى. قال لها أن ليس هناك مجال للشك، العملية ستتكلل بالنجاح. إنما بطبيعة الحال، هو لم يكن يعرف شيئاً، وكان فمه جافاً وركبتاه ضعيفتين بينما كان يدفع الحامل المتحرك مقرباً إياه من الجدار. لم يتعلمْ بعد التجرّد السريري. ربما هذا هو الوقت المحدد كي يتعلمه، بدلاً من أن يفعل ذلك لاحقاً في الردهة، حين بدأ يقع في غرامها. الأبواب الدوّارة فُتحتْ ودخلا صالة العمليات معاً، كان يمشي جنب الحامل المتحرك بينما كان العتال يدفع، أما هي فكانت تحرك باستمرار المنديل الورقي في يدها، متطلعةً الى السقف، كما لو انها تواقة للتفاصيل الأخيرة.

التدهور في حاسة بصرها بدأ بصورةٍ مباغتةٍ، في المكتبة، وهي ذي الآن وحيدةً، تواجه تغيراً خطيراً. ثبتت نفسها بأنفاس عميقة، بطيئة. كانت تركز نظراتها على وجه الطبيب المخدر بينما كان

يدس (الكانيولا) في قفا كفها، ويزرقها بمحلول الثيوبنتون المخدر. عندئذ صارت في عالم اللاوعي، وكان بيروني يسرع الى حجرة التنظيف. أُخبر بأن يلاحظ عن كثب هذا الاجراء الجذري. استئصال الغدة النخامية عبر العظم الاسفيني. فذات يوم سيقوم به هو نفسه. نعم حتى الآن، بعد مرور سنوات كثيرة جداً، يشعر بالهدوء حين يفكر كم كانت جريئةً. ويا للعذوبة التي تشكلت بها حياتاهما بفعل هذه الكارثة.

أي شيء آخر استطاع أن يفعله الشاب هنري بيروني كي يساعد هذه المرأة الجميلة التي تعاني من نزف نخامي فجائي غزير أخذ حاسة بصرها؟ قدّم مساعدة في زحزحة جسدها المخدّر من الحامل المتحرك الى طاولة العمليات. مطيعاً تعليمات المقيم الأقدم، دس الأغطية المعقمة في موضعها على مقابض مصابيح العمليات. راقب بينما كانت رؤوس الفولاذ الثلاثة لكلابة الرأس تُثبت بإحكام على رأسها. ثانيةً، بإرشاد من المقيم الأقدم، بينما كان والي خارج الحجرة على مدى مدة وجيزة، دعك هنري فم روزاليند بصابون معقم، ولاحظ كمال أسنانها. في ما بعد، بعد أن عمل السيد والي شقاً في لثتها العليا، أدار وجهها بعيداً عن فتحة الممرات الأنفية، فاصلاً الغشاء المخاطي الأنفي عن الحاجز، ساعد هنري في أن يناور في وضع مجهر العمليات الضخم في مكانه الصحيح. لم تكن هناك شاشة كي يتم مشاهدتها. تقنية (الفيديو) كانت حديثة إبان تلكم الأيام، ولم يتم حتى ذلك الوقت تنصيبها في هذه الصالة. لكن في أثناء العملية سمح له بإلقاء نظرات خاطفة عبر

عدسة المجهر التي ينظر من خلالها المقيم الأقدم. راقب هنري بينما كان والي يتحرك في داخل الجيب الاسفيني، ماراً من خلاله بعد إزالة جداره الأمامي. بعدها وبمهارة قطّع على شكل رقاقات وحفر عند القاعدة العظمية للحفرة النخامية وأظهر، في أقل من خمسة وأربعين دقيقة، الغدة المنتفخة بصورة شديدة والضاربة الى اللون الأرجواني في داخلها.

درس بيروني عن كثب الوخز القاطع للشفرة الجراحية وشاهد جيشان الخثرة الداكنة والورم الذي بلون المغرة بكثافة العصيدة يختفيان في الطرف المستدق لجهاز سحب السوائل الذي يستخدمه والي. عند الظهور المباغت لسائل نقي – السائل الدماغي الشوكي – قرر الجراح أن يأخذ زرعاً من الدهن البطني ليسد التسرّب. صنع حزاً صغيراً مستعرضاً في الجزء السفلي من بطن روزاليند، وبمقص جراحي رفع جزءاً من الدهن الواقع تحت الجلد وأسقطه في طبق كلوي الشكل. برقةٍ كبيرة، مر الزرع عبر الأنف واستقر في بقايا الجيب الاسفيني، وأُبقي في مكانه باستخدام كمادات أنفية.

أناقة الإجراء كله بدت وكأنها تمثل تناقضاً ألمعياً: كان العلاج بسيطاً كاللحام بالرصاص، جوهرياً كنزف مسدود – أُزيل الضغط عن العصبين البصريين وتلاشى التهديد لرؤية روزاليند. ومع ذلك كان اتخاذ مسلك آمن الى هذا الموضع النائي والمخفي في الرأس عملاً فذاً من التفوق التقني والتركيز. كان الدخول مباشرةً عبر الوجه، وإزالة الورم عبر الأنف، وإعادة المريضة الى حياتها، من دون ألم أو تلوث (خمج)، مستعيدةً بذلك

بصرها: معجزة من معجزات العبقرية الإنسانية. تقريباً ثمة قرن من الفشل والنجاح الجزئي وراء هذا الإجراء الوحيد، عبر مسالك أخرى تم تجريبها ورفضها، وعقود من الابتكار الجديد كي يجعله ممكناً، بضمنها هذا المجهر والانارة بالالياف الضوئية. كان الإجراء إنسانياً وجريئاً – روح عمل الخير أُفعمت بالنشاط والحيوية بفعل جرأة السيرك مرتفع السلك. حتى ذلك الوقت، كانت دائماً نية بيروني في أن يغدو اختصاصياً في جراحة الأعصاب نظرية نوعاً ما. اختار الأدمغة بسبب كونها ممتعة أكثر من المثانات أو مفاصل الركب. أصبح طموحه الآن مسألة رغبة عميقة. حين بدأ اغلاق الجروح والوجه، هذا الوجه الاستثنائي، الجميل، أُعيد تجميعه من دون أن تكون هناك علامة مشوّهة واحدة، شعر بالاستثارة في ما يتعلق بالمستقبل وبانه شديد التوق الى اكتساب المهارات. كان قد وقع في حب حياةٍ ما. كان كذلك، بطبيعة الحال، قد وقع في الحب. كان الاثنان لا يفترقان. في ابتهاجه كان له حتى بعض الحب المتروك الزائد للأستاذ نفسه، السيد والي، بينما كان يحني هيئته الضخمة خلال مهمأته متناهية الصغر والدقيقة، متنفساً بضوضاء عبر منخريه من وراء القناع. حين تيقن من انه أزال كل الورم وخثرة الدم خطى خطوات واسعة مبتعداً ليرى مريضاً آخر. ترك للمقيم الأقدم المفترس كي يجمع من جديد ملامح روزاليند الجميلة.

هل كان شيئاً غير مناسب من هنري، أن يحاول وأن يضع نفسه في حجرة الافاقة بحيث يكون هو أول شخص تراه بعد أن تفوق من

التخدير؟ هل كان يعتقد حقيقةً بانها بإدراكاتها الحسية ومزاجها الذي ترعرع في مهد من موجةٍ طويلة وديعة من المورفين، سوف تلاحظه وتغدو مُبهَجة الى أقصى حد؟ كما تكشف لاحقاً، الطبيب المخدر المشغول وفريقه أزاحوا بيروني جانباً. قيل له أن يذهب وأن يكون نافعاً في مكانٍ آخر. لكنه توانى، كان واقفاً على بعد أقدام قليلة خلف رأسها حين بدأت تتحرك حركةً ضئيلة. في الأقل رأى عينيها مفتوحتين، ووجهها يبقى ساكناً بينما كانت تكافح من أجل أن تتذكر مكانها في قصة وجودها، وابتسامتها المحترسة، الموجعة حين بدأت تفهم أن حاسة بصرها قد عادت. ليس عودةً كاملةً حتى الآن، إنما في غضون ساعات سيحصل ذلك.

في غضون أيام قلائل كان نافعاً بصورةٍ أصيلة، يرفع عقد الخيوط من داخل شفتها العليا، ويساعد في إزالة الكمادات الأنيقة. بقي ملازماً لها بعد التحوّلات الى التكلّم اليها. ظهرتْ كشكل بشري منعزل، شاحب من جراء المحنة؛ مستندةً على وسائدها، محاطةً بكتيبات قانون غنية، شعرها بهيئة ضفيرتين كثيفتين لتلميذة مدرسة. لم تزرها سوى الفتاتين المولعتين بالدراسة اللتين كانت تقاسمانها شقةً سكنية. لأن التكلم مؤلم، كانت ترتشف الماء بين الجمل. أخبرته انه قبل ثلاث سنوات خلت، حين كانت في السادسة عشرة، توفيت أمها في حادثة سيارة، وكان والدها هو الشاعر ذائع الصيت جون غراما تيكوس، الذي كان يسكن في عزلة في بيت ريفي ضخم بالقرب من (البيرينيز).

كي تثير ذاكرة هنري، ذكرت روزاليند بصورةٍ نافعة ((جبل فوجي))، القصيدة التي أُنتخبت في كل الطبعات المدرسية إلا انها لم تعرْ اهتماماً كثيراً كونه لم يسمع عنها أو عن المؤلف. كما لم تبالِ كون خلفية هنري أقل غرابةً - شارع غير متغير واقع في الضاحية في (بيريفيل)، الطفل الوحيد في الأسرة، لا يتذكر أباه أبداً.

بعد قصتهما الغرامية بدأت أخيراً بعد ذلك بشهور عدة، بعد منتصف الليل، في قمرة (كابينة) معدّية في معبر كئيب الى (بلباو)، التي عذبته بشأنها، بدأت ((حملته الطويلة والألمعية في الاغواء)). تحفة من تحف السرقة، كانت تسميها أيضاً. الا أن الخطوة والسلوك كانا قد رتبا من قبلها. في وقت مبكر، شعر كم من السهل أن يفزعها. لم تكنْ عزلتها مقتصرةً على ردهة الأمراض العصبية. كان هناك دائماً، احتراس يكبح العفوية، مخفضاً مستويات الإثارة. أبقت الغطاء على شبابها. كان بوسعها أن تتشوش لدى اقتراح مفاجئ بالقيام بنزهةٍ في الريف، لدى وصول غير معلن لصديقةٍ قديمة، لدى بطاقات مجانية للمسرح تلك الليلة. ربما تنهي الموضوع قائلةً نعم للثلاثة جميعاً، الا إن الاستجابة الأولى كانت دائماً رفض القبول وتقطيبه خفية. كانت تشعر بانها أكثر أماناً في تلكم الأيام مع كتب القانون العائدة لها، في القضية المعروفة التي أُغلقت زمناً طويلاً المتعلقة بـ دونوغ مقابل ستيفنسون. كان ارتياب الحياة هذا مصمماً على أن يمتد الى كيانه إذا قام بحركة غير اعتيادية. كانت هناك امرأتان ينبغي أخذهما في

الحسبان، وأن يكسب ثقة الابنة التي ينبغي له أن يعرفها وأن يحب كل شيء يتعلق بالأم. هذا الشبح يجب التودد اليه أيضاً.

لم تكن ماريان غراماتيكوس تحزن كثيراً لدى مخاطبتها باستمرار. كان لها حضور مقيّد ثابت، وهي تراقب ابنتها عن كثب، وتراقب معها. كان هذا سر استبطانية[٢٨] روزاليند واحتراسها. كان الموت لا معنى له كي يتم تصديقه – في وقتٍ متأخر من ليلةٍ ما قفز رجل بسيارته أضواء المرور قرب (محطة فكتوريا) – وبعد تصرّم ثلاث سنوات في مستوى معين، لم تتقبل روزاليند هذا الحدث المروّع. بقيت في تماسٍ صامت مع شخص حميم خيالي. كانت تحيل كل شيء الى أمها التي كانت تُنادى دوماً باسمها الأول، تماماً مثل فتاة صغيرة. تحدثت ايضاً عن كونها حرةً مع هنري، ذاكرةً اياها (أي الأم– المترجم) بصورة عابرة وتتخيل ردود أفعالها. كانت ماريان ستحب ذلك،، ربما تقول روزاليند عن فيلم سينمائي شاهداه تواً وأحباه. أو: أرتني ماريان كيفية صنع حساء البصل هذا، إلا أنني لا استطيع أن أجعله ذا طعم جيد كذلك الحساء الذي تعده هي. أو مشيرة الى غزو (جزر الفولكلاند): الشيء المسلي هو، انها لم تكن ضد هذه الحرب. ببساطة كرهتْ غالتييري بعد مرور أسابيع عدة على صداقتهما – الحنون، المكبوحة جسدياً، حقيقة لم تكنْ أكثر من ذلك – تجرأ هنري فسأل روزاليند ماذا كان سيكون رأي أمها به. فردت من دون تردد، ((كانت ستعبدك)). عدَّ هذا شيئاً ضرورياً، وفي ساعةٍ متأخرةٍ من تلك الليلة قبّلها بحرية غير مألوفة. كانت سريعة

الاستجابة بصورةٍ كافية، مع إنها نادراً ما كانت متحررة من كل قيد، وعلى مدى أسبوع كامل تقريباً ألفت نفسها مشغولةً جداً بالأمسيات بحيث لم تستطع أن تراه. كانت العزلة والعمل تهددان عالمها الباطني أقل مما تفعل القبلات. بدأ يفهم إنه كان في حالة تنافس. بطبيعة الحال كان مصمماً على النجاح، إنما فقط إذا تحرك بخطوات عتيقة الطراز لقرد هندي بطيء.

في القمرة (الكابينة) المتأرجحة للمعدّية، على سرير ضيق غير مريح، تم تسوية المسألة أخيراً. لم يكن ذلك يسيراً بالنسبة لـ روزاليند. كي تغرم به يجب عليها أن تبدأ بالتخلي عن صديقتها الدائمة، أمها. في الصباح حين استيقظت من النوم وتذكرت الخط الذي تجاوزته، صرخت – تعبيراً عن الفرح والحزن بالقدر نفسه، جعلت تحاول بصورةٍ غير مقنعة أن تخبره. بدتْ السعادة أشبه بخيانة للقاعدة، غير أن السعادة كانت محتومةً، ولا مفر منها.

ذهبا وتمشيا فوق ظهر المركب كي يشاهدا الفجر يهبط على الميناء. كان عالماً غير سائغ جمالياً ومغايراً. عواصف مطرية أتت محلقةً فوق بنايات الجمرك الخرسانية الواطئة واندفعتْ بعنف نحو الرافعات رمادية اللون بفعل ريح قارصة ناحتْ وسط القابلوات الفولاذ. على رصيف تحميل السفن، حيث تكوّنتْ أوحال واسعة، كان هناك الشكل البشري المنعزل لرجل عجوز وهو يناور حبلاً ثقيلاً على مربط حبال[٢٩]. كان يرتدي سترة جلد فوق قميص مفتوح العنق. في فمه كانت ثمة سيجارة مطفأة. حين فرغ من عمله، سار بتؤدة صوب سقيفة الجمرك، ذا مناعة من العاصفة.

تراجعا من الجو البارد وهبطا درجات السلم الكثيرة الى الاعماق الرطبة للسفينة ومارسا الحب ثانيةً في حيزهما الضيق، وفي ما بعد رقدا بلا حراك، مصغيين الى وكيل المسافرين في السفينة يعلن أن الركاب المشاة ينبغي لهم أن ينزلوا من السفينة حالاً. مرةً أخرى، كانت عيناها مخضلتين بالدموع، وأخبرته أنها مؤخراً لم تعد تسمع الصفة الخصوصية لصوت أمها. كان من المقرر أن يكون ذلك وداعاً طويل الأمد. لحظات رائعة كثيرة كهذه ينبغي أن يكون لها ظلها. حتى وقتذاك، حين كانا يرقدان مضفورين، يرهفان السمع للأصوات المكتومة للركاب وصيحاتهم المكبوتة تتنقح في الأروقة، فهم جدية ما كان يبدأ بينهما. كونه أقبل بين روزاليند وشبحها[٣٠] لا بد له أن يتولى القيام بالمسؤوليات. دخلا الى خضم عقد لم يتحدثا عنه. إذا ما تحدثنا بوضوح تام؛ فإن ممارسة الحب مع روزاليند يعني انه يجب أن يتزوجها. في مكانه رجل عاقل ربما يكون مذعوراً بالوقار، إلا أن بساطة الترتيب لم تهبْ هنري بيروني سوى السعادة.

هي ذي هنا، بعد نحو ربع قرن، بدأتْ تتحرك حركةً ضئيلةً بين ذراعيه، في أثناء نومها واعية نوعاً ما أن المنبه يكاد يطلق صوته. شروق الشمس– عموماً حدث ريفي، أما في المدن فهو مجرد تجريد– ما يزال يبعد ساعة ونصف. شهية المدينة لعمل يوم السبت قوية. عند السادسة تماماً، يكون شارع (ايوستون) مزدحماً جداً. الآن دراجات بخارية صغيرة ترتفع فوق المجموعة، تعوي مثل منشرات خشب منهمكة. كذلك في نحو هذا الوقت يأتي

(الكورس) الأول لصفارات إنذار الشرطة، يرتفع وينخفض في تغيرات سونار الأوعية الدموية: لم يعد الوقت مبكراً جداً للأعمال السيئة. في الختام، انقلبت على جنبها كي تواجهه. هذا الجانب من الشكل البشري يطلق دفئاً صريحاً. حين يتبادلان القبل يتخيل هو العينين الخضراوين تفتشان عن عينيه. هذه الدورة المألوفة من النوم والاستيقاظ، في الظلام، تحت غطاء خاص، مع مخلوق آخر، حيوان ثديي شاحب ناعم رقيق، جامعين وجهيهما معاً في طقسٍ من طقوس الحب، استقر على مدة وجيزة في الضرورات السرمدية للدفء، للراحة، للأمان، تتقاطع أطرافهما كي يقتربا من أحدهما الآخر- سلوى يومية بسيطة، نوعاً ما جلية جداً، من اليسير أن تتساها عند طلوع النهار. هل حدث أن كتب شاعر في ماضيات الأيام عن هذا؟ ليس بوصفها الحادثة الوحيدة، بل تكرارها عبر الأعوام. سوف يسأل ابنته عما اذا كتب شاعر ما عن ذلك.

تقول روزاليند: ((كان لي احساس انك كنت يقظاً طوال الليل. في داخل السرير وخارجه.))

((نزلت درجات السلم في الرابعة وجلستْ مع ثيو.))

((هل هو على ما يرام؟))

((هم.))

هذا ليس الوقت المناسب كي يحكي لها عن الطائرة، بخاصة الآن بعد أن تلاشتْ ضرورتها تدريجياً. في ما يتعلق بحادث شعوره بالنشاط والخفة، هو لا يملك الابتكارية في هذه اللحظة كي

يصوّره لها. في ما بعد. سوف يفعل ذلك في ما بعد. كانت تستيقظ من نومها بينما كان يغط في النوم. ومع ذلك كان انتصابه يتقدّم، كما لو بواسطة سلسلة من الاستنشاقات، التضييقات اللانهائية. ما من زفير. ربما الانهاك هو الذي جعله ذا حساسية. أو إهمال الأيام الخمسة. الأمر سيان، ثمة شيء مرتب بصورة مألوفة في الطريقة التي هزتْ نفسها مقتربةً منه، مدفئةً إياه بمزيدٍ من حرارة الجسد. هو نفسه لم يكنْ من ذلك الطراز الذي يتخذ زمام المبادرات، مفضلاً أن يعتمد على حظه، على حاجاتها. اذا لم يحدث الأمر، يدعه كما هو. لاشيء يمنعه من أن يغط في النوم العميق. راحت تقبل أنفه. ((سأحاول أن ألتقط أبي فور انتهاء عملي. ديزي ستصل هنا من باريس عند السابعة. هل ستكون هنا؟))

((مم.))

ديزي الحسية، الذكية، صغيرة العظام، الشاحبة واللائقة. أي شاعرة أخرى حائزة على شهادة البكالوريوس، طموحة، ترتدي بذلات مهنة بتنورات قصيرة و (بلوزات) بيضاء جديدة وقلما تحتسي المشروبات الروحية وتؤدي أفضل أعمالها قبل التاسعة صباحاً؟ ابنته الصغيرة، المنسلة بعيداً عنه أنوثة باريسية كافية، تتوقع أول مجلد من قصائدها أن يُطبع في أيار (مايو). وليس بواسطة مطبعة ذات (كرنك) يُدار باليد، بل بواسطة مؤسسة معرّضة للانتقاد في ساحة الملكة (كوين سكوير)، في الجانب الآخر تماماً من المستشفى حيث أمسك بإحكام أول مرة تمدد الأوعية الدموية. حتى جدها المشاكس، الذي بصورةٍ إجمالية لا يحتمل الكتابة

المعاصرة، أرسل من بيته الريفي الضخم رسالة مقروءة بصعوبة بالغة بحيث عند فك مغاليقها تكشفت عن كونها جذلة. بيروني، لا يحكم على مثل هذه الأشياء، وهذا أمر أدخل السرور الى قلبها، بطبيعة الحال، شعر بالوجع بسبب أشعار الغرام الغنائية، بسبب معرفتها الكبيرة جداً، أو كونها تحلم بصورةٍ نابضةٍ بالحيوية بأجساد رجال لم يصادفهم أبداً. مَنْ هذا اللص الذي يشبه انتفاخه ((مرشة مستثارة)) تدنو من ((وردة مميزة))؟ أو الشخص الآخر الذي ينشد تحت ((الدش على غرار اكاروسوا[٣١])) بينما هو يغسل بـ(الشامبو) ((كلتا اللحيتين))؟ ينبغي له أن يفحص هذا السخط- قلما يكون استجابةً أدبية. كان يحاول أن لا يبالي بالتملك الأبوي وأن يفهم القصائد بمصطلحاتها الخاصة. كان قبل الآن يحب المشحونة أقل، لكن مع ذلك بيت مشؤوم في قصيدة أخرى يشير الى أن ((كيف إن كل / وردة نمت على فرعٍ أُبتلي بالتفوق العظيم)). الفتاة اليافعة الشاحبة ذات الورود لم تأتِ الى البيت منذ مدة طويلة. وصولها واحة في النهاية البعيدة للنهار.

((أحبك.))

هذا ليس مجرد رمز حنون، ذلك أن روزاليند جعلت تصل الى الأسفل وقبضت عليه بقوة، ومن دون أن تجعله يفلت، انقلبت على جنبها ومدت يدها خلفها كي تقعد الساعة المنبهة عن العمل، إمتداد غير بارع جعل العضلات ترتجف عبر الفراش.

((أنا سعيد لأنك تفعلين هذا.))

تبادلا القبلات وراحت روزاليند تقول: ((كنتُ نصف مستيقظة على مدى هنيهة، شاعرةً بأنك تصبح أصلب على مؤخرتي.))

((وكيف كان ذلك؟))

راحتْ تهمس، ((جعلتني أشتهيك. غير أنني لا أملك متسعاً من الوقت. لا أجرأ على التأخر.))

يا لهذا الإغراء العفوي! تحققت أمنيته، من دون أن يرفع أصبعاً، حسد المعبودين والطغاة، بُعث هنري من سباته كي يأخذها بين ذراعيه ويقبلها قبلةً عميقةً. أجل، كانت مستعدة. وهكذا انتهت ليلته، وفي هذا المكان يبدأ نهاره، في السادسة صباحاً، مسائلاً نفسه ما إذا كانت كل ماهيات التسوية الزوجية قد اندفعتْ بقوة وبإهمال في لحظة واحدة: في الظلام، في الموضع التبشيري، بسرعة، من دون تمهيد. غير أن هذه هي الأشياء الظاهرية. الآن تحرر من التفكير، من الذاكرة، من الثواني العابرة ومن حالة العالم. الجنس وسط مختلف، يعكس الزمن والإحساس، فضاء مفرط بايولوجي ناء عن الوجود الواعي كالأحلام، أو ناء كالماء عن الهواء. كما دأبت أمه على القول، عنصر آخر؛ هنري، النهار يتغير، حين تسبح. وذلك اليوم مصمم على أن يكون متميزاً عن باقي الأيام كلها.

الفصل الثاني

((ثمة جلال في مشهد الحياة هذا)). جعل يفيق من نومه، أو راح يعتقد إنه يفعل ذلك، على صوت مجفف الشعر الخاص بها وصوت هامس يكرر عبارةً، وفي ما بعد، حين غط في نومه ثانيةً، راح يسمع الخشخشة المتواصلة لباب خزانة ثيابها وهو يُفتح، خزانة الثياب الواسعة، المبنية في داخل الجدار، واحدة من اثنتين، ذات أضواء آلية وداخل معقد من القشرة الخشبية المصقولة وعميق، مختلى معطر؛ في ما بعد أيضاً، بينما كانت تجتاز وتجتاز من جديد حجرة النوم من جانب الى آخر بقدميها الحافيتين، الهمس الحريري لتنورتها، مؤكد التنورة السوداء بنقش التوليب المزأبر[1] التي ابتاعها في ميلانو، ثم النقر الفعال لكعبي جزمتيها على أرض الحمام الرخامية بينما كانت تبدأ آخر تحضيراتها أمام المرآة، واضعةً العطر، ممشطةً شعرها؛ وخلال هذه المدة الزمنية، المذياع البلاستك الذي بشكل دولفين أزرق واثب، المثبت بواسطة قطع مطاط مصاصة الى الجدار الفسيفسائي في الحمام، يطلق (أي المذياع) من غير انقطاع العبارة ذاتها، الى أن بدأ يفهم مضموناً

دينياً كتضخمات دلالتها– ((ثمة جلال في مشهد الحياة هذا))، تقول العبارة، المرة تلو المرة.

ثمة جلال في مشهد الحياة هذا. حين جعل يستيقظ من نومه تماماً بعد مرور ساعتين كانت قد غادرتْ والغرفة ساكنة. ثمة عمود ضيق من النور في المكان الذي كان فيه مصراع ما مفتوحاً جزئياً. يبدو النهار أبيض بصورةٍ قوية. راح يدفع الأغطية جانباً ويرقد على ظهره في جزئها من السرير، عارياً في دفء التدفئة المركزية، في انتظار تقييم العبارة. داروين بطبيعة الحال، من قراءة ليلة أمس في الحمام، في الفقرة الأخيرة لعمله العظيم الذي لم يطالعه بيروني حقيقةً. تشارلس العطوف، المندفع بقوة، غير المستقر في كل تواضعه، يورد ديدان الأرض والمدارات الأرضية كي تساعده بانحناءة وداع. كي يلين الرسالة، استدعى (خالقاً) في الطبعات الأخيرة، إلا أن قلبه حقيقةً لم يكن في الرسالة. تلك الصفحات الخمسمائة استحقتْ استنتاجاً واحداً فحسب: أشكال لا نهائية وجميلة من الحياة، كتلك التي تراها في وشيع[٢] شائع، بضمنها كيانات ممجَدة ككياناتنا، نشأت من قوانين طبيعية، من حرب الطبيعة، المجاعة والموت. هذا هو الجلال. ونوع منشط من العزاء في الامتياز الموجز للوعي.

ذات مرة، في مسيرة راجلة بالقرب من نهر– إيسكاديلي في نور شمس ضعيف ضارب الى الاحمرار، مع نفض رذاذ الثلج– اقتبستْ له ابنته مطلع قصيدة لشاعرها المفضل. ظاهرياً، لم تكن هناك شابات كثيرات يحببن فيليب لاركن كما كانت تفعل هي. ((إذا

ما دُعيتُ /كي أسس ديناً/ فسوف أستفيد من الماء.)) قالت إنها أحبت تلك الـ((دُعيتُ)) الموجزة – كما لو أنه سوف يُدعى، كما لو أن أي فرد يمكن أن يّدعى في أي وقت. توقفا ليحتسيا القهوة من قارورة، وبيروني، راسماً خط أشنة باصبع من أصابعه، قال اذا كان قد نال الدعوة من قبل، فسوف يستفيد من التطوّر، هل ثمة اسطورة خلق أفضل؟ امتداد لا يمكن تصوره من الزمن، أجيال لا حصر لها تفرّخ بواسطة خطوات متناهية الصغر مركب الجمال الحي من المادة الجامدة، مندفعة بقوة بفعل الضراوات العمياء لـ التحول العشوائي، الانتقاء الطبيعي والتغير البيئي، مع تراجيديا الاشكال التي تموت باستمرار، ومؤخراً تساؤل الأذهان يبزغ ومعها (أي الأذهان) الأخلاق، الحب، الفن، المدن– والربح الجديد لهذه القصة صادف أن كان حقيقياً بصورة جلية.

في نهاية هذا الالقاء الظريف بصورة غير تامة– كانا واقفين على جسر حجر عند نقطة اتصال جدولين- قهقهت ديزي وأنزلت كوبها كي تصفق بيديها. ((الآن ذلك دين الزمن – القديم الأصيل، حين تقول أنه صادف أن كان حقيقياً بصورة جلية.))

كان قد افتقدها طوال هذه الشهور الماضية وعاجلاً ستكون هنا. بصورةٍ مذهلة من أجل يوم السبت، وعد ثيو أن يبقى في مكانٍ قريب هذا المساء، في الأقل حتى الساعة الحادية عشرة. خطة بيروني أن يطبخ يخنة السمك. زيارة الى بائع السمك واحدة من المهمات الأصعب التي أمامه: سمك الراهب، الأسماك الصدفية، بلح البحر، الروبيان (القريدس) غير المقشر. لائحة الفجر العملية

هذه، هذه المواد المالحة، التي جعلته يغادر السرير أخيراً ويدخل حجرة الحمام مشياً. ثمة رأي مفاده إنه شيء مخزٍ للرجل أن يجلس ليتبول لأن ذلك هو ما تفعله النساء. هدئ أعصابك! جعل يجلس شاعراً بالذرات الأخيرة من النوم تذوب بينما كان تياره يتحرك بحرية على السلطانية. كان يحاول أن يكتشف مصدراً مختلفاً تماماً لـ العار، أو الذنب، أو شيء معتدل بدرجة أكبر، أشبه بذكرى ارتباك ما أو حماقة ما. مرَّ عبر أفكاره منذ دقائق قلائل خلتْ، والآن ما يبقى هو الشعور من دون أساسه المنطقي. الشعور بكونه تصرف أو تكلم بصورةٍ مثيرةٍ للضحك. بأنه كان مغفلاً. من دون تذكره، لا يستطيع أن يتكلم هو نفسه تعبيراً عنه. لكن من ذا الذي يبالي؟ أفلام النوم الشفافة هذه ما تزال تبطئه – هو يتخيلها كونها تشبه الغشاء العنكبوتي في الدماغ، ذلك الغشاء الرقيق (مخاط الشيطان) الذي يغطي الدماغ والذي عبره كان يقطع بمشرطه بصورة روتينية. الجلال. لا بد انه هلوس العبارة إنطلاقاً من أزيز مجفف الشعر، وخلطه خطأً مع أنباء المذياع. إن ترف كونه نصف نائم، يكشف هدابات الذهان في أمان. لكنه حين وطأ الهواء متجهاً صوب النافذة ليلة أمس كان يقظاً كلياً. هو حتى متيقن من ذلك أكثر الآن.

راح يرتفع ويجري نفايته. في الأقل جزيئة واحدة سوف تسقط عليه ذات يوم كالمطر، بحسب مقالة ساخرة في مجلة مطروحة من حوله في حجرة قهوة صالة العمليات. هكذا تقول إمكانيات الإحصاء غير إن إحتمالات الإحصاء ليست هي الشيء نفسه

كالحقائق. ((سوف نلتقي ثانيةً، لا نعرف أين، لا نعرف متى)). مدندناً بهذا اللحن الحربي، جعل يقطع الأرضية العريضة من الرخام الأخضر– و– الأبيض الى حوضه كي يحلق ذقنه. يشعر بأنه غير كامل من دون هذا الطقس الصباحي، حتى في يوم عطلة. ينبغي له أن يتعلم من ثيو كيفية أن يصرف أمراً كهذا من ذهنه. غير أن هنري يحب السلطانية الخشبية، فرشاة فرو الغُرير[٣]، ماكينة الحلاقة النبيذة[٤] والمتقنة ثلاثية الشفرة، ذات المقبض المقوّس والمضلّع بصورة ذكية الأخضر كالأجمة– ان جرجرة هذه الجوهرة الصناعية فوق اللحم المألوف يشحذ أفكاره. يجدر به أن يختار ما كتبه وليم جيمس لدى نسيان كلمة أو أسم؛ بقايا الشكل المعذب الفارغ، تقريباً وليس تماماً محدداً الفكرة التي احتواها ذات مرة. حتى حين تكافح ضد خدر التذكر البائس، أنتَ تعرف على وجه الدقة ما لا يعرفه الشيء المنسي، جيمس له موهبة إختيار الشيء العادي المدهش– وبرأي بيروني المتواضع، كتب نثراً مشحوذاً بصورة أفضل من الأخ صعب الارضاء، الذي بالأحرى يلف ويدور حول شيء ما بدزينة الطرائق المختلفة بدلاً من أن يدعوه باسمه. ديزي، وسيط تعليمه الأدبي، لن توافق على هذا. كتبت مقالةً طويلةً من مقالات ما قبل التخرج حول آخر روايات هنري جيمس وبوسعها أن تقتبس فقرةً من ((الطاس الذهبي)). هي كذلك تعرف دزينةً من القصائد عن ظهر قلب كانت قد حفظتها في سنوات مراهقتها المبكرة، وهي وسيلة من وسائل كسب المصروف اليومي من جدها. كان تدريبها مختلفاً جداً عن تدريب

والدها. لا عجب أنهما يحبان جدالاتهما. يا للفقرات التي تحفظها ديزي! بحضٍ منها حاول أن يحفظ تلك القصيدة التي تدور حول فتاة تعاني من الطلاق الكريه لوالديها. موضوع واعد، إلا أن (ميزي) المسكينة تلاشت حالاً خلف غيمة من الكلمات، وفي الصفحة ثمانية وأربعين بيروني، الذي بوسعه أن يقف على قدميه سبع ساعات لإجراء عملية جراحية صعبة، الذي كان اسمه مدوناً في قائمة (ماراثون لندن)، هُزم، مستنزفاً. حتى حكاية تسمية ابنته على اسم امرأة أخرى أربكته. ماذا يستنتج إنسان بالغ أو يشعر حول انحطاط ديزي ميللر المتوقع؟ حول كون العالم غير عطوف؟ هذا ليس كافياً. أحنى جذعه الى الحنفية كي يغسل وجهه برفق. أغلب الظن يغدو هو، في ما يتعلق بهذا الشأن في الأقل، أشبه بـ داروين في السنوات المتأخرة الذي وجد أن شكسبير غبي الى درجة الغثيان. بيروني يتكل على ديزي كي تهذب حساسياته.

يقظاً تماماً أخيراً، يعود الى حجرة النوم، فجأةً شديد التوق الى أن يكون مرتدياً ثيابه ومتحرراً من التشابكات المختلفة للغرفة، من النوم والأرق والتفكير المحمي أكثر مما ينبغي وحتى من الجنس. السرير المجعد بمظهره الخرب، الاباحي يجسد كل هذه العناصر. إنه يوضح كونه من دون رغبة. ما يزال عارياً، يقوم بمحاولات سريعة في تسوية الأغطية، يلتقط بعض الوسائد من أرضية الحجرة ويقذفها صوب اللوحة الرأسية، ويذهب الى حجرة تبديل الثياب، الى الزاوية حيث يخزن ملابسة الرياضية. هذه هي

المتعة الصغيرة عند بداية صباح يوم سبت– وعد القهوة، ومجموعة (السكواش) الذاوية هذه. ديزي، كسائة مرتبة، تسميها بولع عدة فزاعته. السروال القصير الأزرق أصبح حائل اللون بفعل رقعة العرق التي تضمحل بالغسل. فوق (تي– شيرت) رمادي يرتدي جوبية[٥] كشمير قديمة ذات ثقوب– عثة عبر الصدر. فوق السروال القصير، السطح السفلي من بذلة الميدان (التراكسوت)، مربوط بحبل الشماع عند الخصر. الجوارب البيض من قماش المناشف المرن الواخز بشريطين أصفر ووردي في الأعلى كي يكون لها شيء من حضانة الأطفال. عدم تعبئتها في صندوق جعلها تطلق عبيراً طبيعياً للملابس المعدة للغسل. كان لحذائي (السكواش) رائحة حادة، مازجةً الرائحة الصناعية مع الحيوانية، يذكره ذلك بالمحكمة، الجدران النظيفة البيض والخطوط الحمر، القواعد غير القابلة للمناقشة للقتال المجالد[٦]، ونقاط المباراة.

انه ادعاء أحمق أن لا نبالي بالنقاط المحرزة في المباراة. خسر مباراة الأسبوع الماضي أمام جي شتراوس، لكنه بينما يقطع الآن أرضية الحجرة من جانب الى آخر بخطوات مهمدة الصدمة، خفيفة الحركة نشيطتها يشعر هنري إنه سوف يفوز اليوم. تذكر كيف انزلق عبر هذا الامتداد نفسه من أرضية الحجرة ليلاً، بينما راح يفتح مصاريع النافذة ذاتها تعود إليه تقريباً الحماقة نصف المتذكرة. إلا إنها تشتت على الفور بفعل فيض نور الشمس الشتائي الضعيف، وبفعل الشغف المباغت بما يجري في الساحة.

عند النظرة الأولى بدتا أشبه بفتاتين في أواخر عهد مراهقتهما،

نحيلتين بوجهين رقيقين شاحبين، وترتديان ملابس تحتانية تحسباً لشهر شباط (فبراير). ربما تكونان أختين، تقفان عند درابزونات الحدائق الوسطية، غافلتين عن عابري السبيل، مستغرقتين في دراما عائلية خاصة بهما. ثم راح بيروني يقرر أن الشكل البشري الذي يواجهه غلام. يشق علينا أن نجزم لأنه يرتدي خوذة دراجة هوائية من تحتها يتجعد شعر بني سميك. كان بيروني قد أُقنع من خلال الوضع، الطريقة التي كانت تُغرس فيها الأقدام بصورة متباعدة كثيراً، وسمك الرسغ بينما هو يضع يده على كتف الفتاة. هزت كتفيها مستهجنةً سلوكه. كانت مهيجةً وتصرخ، ومترددة في حركتها- جعلت ترفع يديها كي تغطي وجهها، لكن حينما تحرك الغلام مقترباً منها كي يسحبها الى ناحيته، راحت تنزل ضربات غير مؤثرة على صدره، كما لو كانت بطلة فيلم هوليوودية عتيقة الطراز. جعلت تصد عنه، لكنها لم تبتعدْ عنه. يظن بيروني إنه يرى في وجهها ما يذكره بوجه ابنته البيضوي الرقيق، الأنف الصغير والذقن الفاتن. تلك الصلة تحققتْ، راح يراقب بصورة حميمة أكثر. هي تريد الغلام، هي تكرهه. مظهره وحشي، جعله التوق أكثر حدةً. هل هو التوق إليها؟ لم يكن يدعها تذهب وطوال الوقت يتكلم، يلاطف، يتملق، يحاول أن يقنعها أو يهدئها. بصورةٍ متكررة، يدها اليسرى جعلت تتجول خلف ظهرها، كي تقحمها تحت (تي- شيرت) ها وتهرش جلدها بقوة. كانت تفعل ذلك بصورة مُكرَهة، حتى وهي تصرخ وتدفع الغلام بعيداً بنصف حماسة. بيت النمل الذي يحث الأمفيتامين[٧]-

النمل الوهمي يزحف عبر شرايينها وأوردتها، التلهف الذي لا يمكن الوصول اليه. أو تفاعل هيستامين[٨] خارجي المنشأ المحدث بفعل المورفين، الشائع بين المستخدمين الحديثين. الشحوب والغلو العاطفي يكشفان الأمر. هذان مدمنان، بصورةٍ مؤكدة. ثمة دافع مفقود بدلاً من مسألة عائلية تكمن وراء محنتها والارتياح عديم الجدوى للغلام.

في كثير من الأحيان يلجأ الناس الى داخل الحديقة كي يمثلوا مسرحياتهم. واضح، أن الشارع، أي شارع، لن يكون مناسباً لذلك. الانفعالات تحتاج الى حيز، الاتساع اللطيف لمسرح. في مقياس آخر، يفكر بيروني، الذي جذبه الآن نور الشمس ويوم جديد الى استغراقه المألوف، يمكن أن يكون هذا جاذبية الصحراء العراقية – المنظر الطبيعي المسطح والذي من المفروض أن يكون خالياً يقترب من خريطة استراتيجي من الممكن ان يطلق سراح ضراوة التناسبات الصناعية عليها. الصحراء، أي صحراء، يقال، هي حلم واضع الخطة العسكرية. ساحة في المدينة هي المرادف الخاص. الأحد الماضي كان ثمة صبي يقطع الساحة ذهاباً واياباً بخطوات واسعة على مدى ساعتين، رافعاً صوته في الهاتف، كان صوته يذوي في كل مرة يتجه فيها جنوباً، ويرتفع في ظلام ما بعد الظهر حين يعود. الصباح التالي، في طريقه الى العمل، رأى بيروني امرأةً تخطف هاتف زوجها وتحطمه على الرصيف. في الشهر نفسه كان هناك شخص ببذلة داكنة جاثياً على ركبتيه، مظلة بجانبه، ظاهرياً رأسه مقحم بين درابزونات الحديقة. الواقع

كان ملتصقاً بالقضبان وجعل ينشج. السيدة العجوز مع الويسكي لن تفلت من صيحاتها وأصواتها العالية الحادة في ضيق شارع ما، ليس على مدى ثلاث ساعات متواصلة. منظر الساحة العمومي يمنح السرية الى هذه المسرحيات الحميمة. أزواج من العشاق يقبلون كي يتحدثوا أو يبكوا بهدوء على المصطبات. ومنبثقين من حجرات، صغيرة في شقق جمعية ما أو منازل على موقع منحدر، ومن الشوارع الفرعية الضيقة، الى مرأى أرحب لسماء واسعة وانتصاب طويل لأشجار الدُلب على الخضرة، مرأى للفضاء والنمو، يتذكر الناس حاجاتهم الضرورية وكيف أنها لم تكن تُشبع.

إنما ليس ثمة نقص في السعادة أيضاً. بوسع بيروني أن يراه الآن، على الجانب البعيد، عند النزل الهندي، حين يذهب كي يفتح المصاريع الأخرى وتمتلئ حجرة النوم بالنور. ثمة إثارة حقيقية في ذلك الجزء من الساحة. شابان آسيويان في ثياب ميدان الرياضة (تراكسوت)– يميزهما هو عن أصحاب أكشاك بيع الصحف والمجلات في شارع (وارين)– كانا يفرغان السلع من شاحنة مقفلة الى عربة يد على الرصيف. إعلانات جدران تكدّست عالياً من قبل، و رايات مطوية وبطاقات أزرار طيات صدر السترات وصفارات، ((وخشخيشات)) وأبواق كرة القدم، قبعات مضحكة وأقنعة مطاط لسياسيين– بوش وبلير في أكداس مترنحة، الوجوه التي في الأعلى تحدّق بنظرات خالية من المعنى الى السماء، تبدو بيضاء فاضحة في شروق الشمس. شارع (غوور) على مبعدة (بلوكات) قليلة شرقاً هو إحدى نقاط بداية المسيرة الجماهيرية،

وبعض الفائض وصل الى المؤخرة هنا. حشد صغير حول العربة يريد أن يشتري السلع قبل أن يكون الباعة جاهزين. الابتهاج العام يجده بيروني محيراً. ثمة عوائل كاملة، إحداها مع أربعة أطفال في أحجام مختلفة من السترات الحمر الساطعة، واضح أنهم تلقوا تعليمات بأن يتماسكوا بالأيدي؛ وثمة طلبة جامعيون، وعربة مليئة بالسيدات اللواتي غزا الشيب شعورهن في سترات رياضية محشوة ومخيطة وأحذية متينة. معهد النساء في الأرجح. أحد الشابين بثياب ميدان الرياضة يرفع يديه باستسلام هازئ، صديقه الواقف في مؤخرة الشاحنة المقفلة شرع يبيع أول سلعة. حمامات الساحة وقد أزاحتها الفوضى، شرعت في الطيران وجعلت تدور وتغوص في تشكيلٍ ما. منتظراً إياها في الأسفل على مصطبةٍ عند صندوق الفضلات المبعثرة ثمة رجل بوجه أحمر راعش ملتف ببطانية رمادية اللون مع شرائح رغيف خبز جاهزة في حضنه. بين أبناء بيروني، ((مُطعِم الحمامة)) مصطلح مترادف مع ضعيف عقلياً. خلف الحشد حول عربة اليد مجموعة من الأطفال بسترات جلد وشعر قصير، ينظرون الى ما حولهم بابتسامات متسامحة. كانوا قد نشروا قبل الآن رايتهم التي تعلن ببساطة، السلام وليس نداءات الحرب!

كان للمشهد سيماء البراءة والخرف الانجليزي. بيروني، الذي ارتدى ثيابه استعداداً لمعركةٍ على أرضية الملعب، تصوّر نفسه بوصفه صدام، ملقياً نظرة عامة راضية على الحشد من شرفة وزارة ما في بغداد: الناخبون الطيبون في الدول (الغربية) الديمقراطية لن يسمحوا لحكوماتهم أن تهاجم بلاده. لكنه

مخطئ. الشيء الوحيد الذي يعتقد بيروني إنه يعرف حول هذه الحرب هو أنها سوف تقع مع الأمم المتحدة أو من دونها. الجند في مكانهم، ينبغي لهم أن يقاتلوا. منذ أن عالج البروفسور العراقي المتخصص بالتاريخ القديم جداً من تمدد الأوعية الدموية، رأى ندوب عذابه وأرهف السمع الى قصصه. كانت لـ بيروني آراء متناقضة أو مشوشة ومتغيرة حول هذا الغزو المقبل. ميري طالب في الأعوام الأخيرة من عقده السادس، رجل ذو بنية نحيلة، بناتية نوعاً، ذو ضحكة عصبية، قهقهة صاهلة ربما لها صلة بمدة محكوميته في السجن. أكمل دراسة الدكتوراه في الكلية الجامعة في لندن ويتحدث بانجليزية ممتازة. حقل تخصصه هو الحضارة السومرية، وعلى مدى ما يزيد على عشرين عاماً عمل بالتدريس في جامعة بغداد، واشترك في مسوحات آثارية مختلفة في منطقة الفرات. جرى اعتقاله في ما بعد ظهيرة يومٍ من أيام الشتاء من عام ١٩٩٤، خارج حجرة المحاضرات حيث كان يهم بإلقاء درسه. كان طلبته ينتظرونه في داخل قاعة الدرس ولم يروا ما حدث. ثلاثة رجال أظهروا تفويضهم الأمني، وطلبوا منه أن يرافقهم إلى سيارتهم. هناك قيّدوه، وفي هذه النقطة تحديداً بدأ عذابه. كانت القيود ضيقة جداً بحيث إنه على مدى ست عشر ساعة، الى أن أُزيلت، لم يكن بوسعه أن يفكر بأي شيء سوى الألم. لحق ضرر دائم بكلتا كتفيه. على مدى الشهور العشرة التالية تم نقله من سجن الى سجن في وسط العراق. لم تكنْ له أدنى فكرة عما كانت تعنيه هذه التنقلات، ولم تكنْ ثمة وسيلة كي يجعل

زوجته تعرف إنه ما يزال حياً. حتى في يوم إطلاق سراحه، لم يكتشف ما هي التهم التي كانت موجهة ضده.

أصغى بيروني في مكتبه الى البروفيسور، وفي ما بعد تحدث إليه في الردهة بعد إجراء العملية له- لحسن الحظ، تكللت بالنجاح التام. بالنسبة لرجل يقترب من عيد ميلاده السبعين، كان لـ طالب مظهر غير اعتيادي- بشرة ناعمة طفولية وأهداب طويلة، وشارب أسود مشذب بعناية- مصبوغ بصورة مؤكدة. في العراق لم تكن له صلة أو شغف بالسياسة، ورفض الانتماء الى (حزب البعث). أغلب الظن كان هذا سبب مشاكله. على حد سواء، ربما الحقيقة القائلة أن أحد أبناء أعمام زوجته، المتوفى منذ زمن طويل، كان ذات يوم عضواً في (الحزب الشيوعي)، أو ربما ابن عم آخر تسلّم رسالةً من ايران من صديق تم نفيه خارج الوطن بسبب أصله الايراني المزعوم؛ أو ان زوج ابنة أخيه رفض العودة للوطن من منصب تدريسي في كندا. ثمة سبب محتمل آخر هو أن البروفيسور نفسه سافر الى تركيا للتشاور حول التنقيبات الآثارية. لم يكن مندهشاً بصورة خاصة من مسألة إعتقاله، ولا حتى زوجته. كلاهما عرف، الجميع عرفوا، أي شخص يتم اعتقاله، يتم حجزه مدةً من الزمن، يتم تعذيبه في الأرجح، ومن ثم يطلق سراحه. الناس يظهرون فجأةً في مواقع عملهم، ولا يتكلمون عن تجاربهم في المعتقلات، وما من أحد يجرؤ على طرح الأسئلة- هناك مخبرون كثيرون جداً في الجوار، وإن حب الاستطلاع غير المناسب ربما يقودك الى الاعتقال. بعض الناس يعودون في توابيت مغلقة

باحكام- كان فتحها محظوراً بصورة صارمة. كان أمراً شائعاً أن تسمع عن أصدقاء ومعارف يقومون بجولات في المستشفيات، ومراكز الشرطة والدوائر الحكومية يحدوهم الأمل أن يسمعوا أنباءً عن ذويهم.

أمضى ميري مدة محكوميته في زنزانات كريهة الرائحة، عديمة التهوية – ستة أقدام في عشرة يتكدّس بداخلها خمسة وعشرون رجلاً. ومن كانوا هؤلاء الرجال؟ قهقه البروفيسور من دون مرح. ليس المزيج المتوقع من المجرمين المألوفين المختلطين مع المثقفين. كانوا في معظمهم أناس اعتياديون جداً، تم حجزهم بسبب عدم إظهارهم لوحة اجازة مركبة، أو أنهم تشاجروا مع رجل تبين إنه موظف في (الحزب)، أو إن أبناءهم وشوا بهم في المدرسة من خلال التملّق فكتبوا التقارير حول إيماءات إساءة آبائهم على مائدة الطعام الى صدام، أو لأنهم رفضوا الالتحاق بـ (الحزب) خلال واحدة من حملات التطوع الكثيرة. هناك جريمة شائعة أخرى هي أن يُتهم أحد أفراد الأسرة بالهرب من الجيش.

كذلك في الزنزانات هناك ضباط أمن ورجال شرطة. كانت الخدمات الأمنية المختلفة حاضرةً في حالةٍ من التنافس العصبي مع بعضها الآخر، وكان يتوجب على وكلاء الأمن أن يعملوا بمزيد من المواظبة كي يُظهروا كم كانوا مجتهدين. فروع كاملة من الدوائر الأمنية يمكن أن تصبح موضع شك. كان العذاب أمراً روتينياً- ميري ورفاقه في الزنزانة كانوا يسمعون الصرخات المنبعثة من زنزاناتهم، وكانوا ينتظرون أن يُنادى عليهم. الضربات

المبرحة، القتل بالصدمة الكهربائية، الاعتداء الجنسي، الغرق الوشيك، جلد أخمص القدمين. الجميع، من أعلى الموظفين حتى كناسي الشوارع، كانوا يعيشون في حالةٍ من القلق، والخوف الدائم. رأى هنري الندوب على أليتيّ طالب وفخذيه حيث ضرب ضرباً موجعاً بما إعتقد إنه غصن شجيرة ذات أشواك. الأشخاص الذي ضربوه فعلوا ذلك من دون بغضاء، إنه مجرد إجراء روتيني- كانوا فزعين من المشرفين عليهم. وذلك الرجل كان خائفاً على منصبه الوظيفي، أو حريته المستقبلية، بسبب هرب سجين قبل عام واحد.

((الجميع يكره ذلك))، أخبر طالب بيروني. ((كما تعرف، الرعب وحده الذي جمع الأمة العراقية معاً، النظام كله يعمل بالخوف، ولا أحد يعرف كيف يوقفه. الآن الأمريكان قادمون، ربما بسبب دوافع سيئة. غير ان صدام والبعثيين سوف يذهبون. ويومذاك، يا صديقي الطبيب، سوف أدعوك لتناول وجبة غذاء على حسابي في مطعم عراقي جيد في لندن.))

المراهقان يقطعان الساحة من ناحية الى أخرى. مستسلمين لـ، أو تواقين لـ، أي مكان كانت تمشي إليه الفتاة، تسمح للغلام أن يضع ذراعه حول كتفها وكان رأسها يتراخى عليه. كانت ما تزال تقحم يدها الحرة، على طول الحزام وفي الجزء المستدق من ظهرها. تلك الفتاة كان يلزمها أن ترتدي سترةً أو معطفاً. حتى من هنا يمكنه أن يرى الآثار الوردية لهرشها جلدها. موضة استبدادية أجبرتها على أن تعري سرتها، الجزء الأوسط من جذعها، لبرد

شباط (فبراير). الحكة توحي أن تحملها للهروين لم يتطور بعد بصورة جيدة. هي جديدة على (الشغلة). ما تحتاجه هو مادة مضادة للمورفين مثل (نالوكسون) كي يعكس التأثير. ترك هنري حجرة النوم وتوقف مدةً قصيرةً عند رأس السلم، مواجهاً ثريا القرن التاسع عشر الفرنسية التي تتدلى من السقف العالي. وساءل نفسه حول اللحاق بالفتاة ووصف علاج لها؛ كان، مع ذلك، قد ارتدى ثياب الركض. لكنها أيضاً تحتاج صديقاً لا يكون مغتنماً للفرص. وحياةً جديدةً. بدأ ينزل درجات السلم، بينما فوقه الأشياء الزجاج المتدلية من الثريا ترن وتتسجم مع اهتزازات القطار النفقي لخط (فكتوريا) أسفل المنزل بمسافة كبيرة وهو يتباطأ في أثناء دخوله محطة شارع (وارين). أزعجه أن يفكر ملياً بالأحداث القوية وتناغمها الدقيق التي تغيرّ المصائر، التأثيرات القريبة والبعيدة، الوقائع المتميزة والظروف التي تجعل امرأة في مقتبل العمر في باريس تحزم حقيبة نهاية الأسبوع الخاصة بها مع البروفة الطباعية للمجلد الأول من قصائدها قبل أن تلحق بالقطار المتجه الى بيت يرحب بها في لندن، وامرأة شابة أخرى في العمر نفسه يقودها غلام متملق الى جنة كيمياوية لا تدوم إلا لحظةً واحدةً بحيث تربطها بإحكام بتعاستها كما يُربط المستحضر الأفيوني الى مستقبلاته الخاصة بالمسكرين.

طبيعة الصمت في المنزل تكاثفت، لا يقوى بيروني على التفكير اللا علمي، بحسب الحقيقة المتعلقة بـ ثيو النائم نوماً عميقاً في الطبقة الثالثة، وجهه مخفض الى الأسفل تحت الغطاء

المحشو بالزغب لسريره المزدوج. بضع ساعات منسية ما زالت أمامه حتى الآن. حين يستيقظ من نومه سوف يرهف السمع للموسيقى المغذاة عبر جهاز الـ (هاي فاي) العائد له عبر (الانترنت)، سوف يأخذ دشاً، ويتكلم في الهاتف. الجوع لن يزحزحه من حجرته جتى ساعة مبكرة من ما بعد الظهر، حين يهبط درجات السلّم الى المطبخ ويجعله مُلكاً له، يرتب مزيداً من الاتصالات الهاتفية، مشغلاً الأقراص الليزرية، محتسياً باينت[٩] واحداً أو اثنين من العصير ومن دون ترتيب يعد سلطةً أو طاساً من اللبن الرائب (الزبادي)، التمور، العسل، الفواكه والجوز المقطّع. هذا الطعام يبدو لـ هنري في خصام مع (البلوز).

واصلاً الى الطبقة الأولى، يتوقف قليلاً خارج المكتبة، أكثر الحجرات جلالاً في المنزل، منجذباً كل لحظة بالطريقة التي كانت فيها أشعة الشمس، مترشحةً عبر الستائر الطويلة الشفافة المصنوعة من دقيق الشوفان، تغسل الحجرة بضوءٍ جدي، بني وكتبي. كانت مجموعة الكتب قد جمعتها ماريان. لم يكن هنري يتصور انه سينتهي به المطاف في السكن في منزلٍ ذي مكتبة. انه طموحه أن يقضي نهايات أسابيعه كلها هناك، ممدداً على واحدة من كنبات (كنول)، ابريق القهوة بجانبه، مطالعاً تحفة ذات منزلة عالمية أو أخرى، ربما من خلال الترجمة. لم يكن في باله كتاب معين. يعتقد انه لن يكون شيئاً سيئاً أن يفهم ماذا كان يعني، ماذا تعني ديزي بالعبقرية الأدبية. لم يكن متيقناً ما إذا كان قد جرّبها من قبل مباشرةً، على الرغم من المحاولات

المختلفة. لا بل هو نصف مرتاب بوجودها. غير أن وقت فراغه هو متشظي دائماً، ليس فقط بفعل المهمات والالتزامات العائلية والألعاب الرياضية، بل بفعل عدم الاستقرار الذي يرافق جزر الحرية هذه، الجزر الاسبوعية. لا يريد هو أن يقضي أيام عطله مضطجعاً، أو حتى جالساً. كما إنه لا يريد حقاً أن يكون متفرجاً على حيوات الآخرين، على حيوات خيالية - مع إنه خلال هذه الساعات المنصرمة قُذف في عدد غير مألوف من الدقائق محدّقاً من خلال نافذة حجرة النوم. وانه شيء يثير اهتمامه بصورةٍ أقل من إعادة اختراع العالم؛ كان يريد أن يتم تفسير ذلك. كانت الأزمنة غريبة بدرجة كافية. لماذا يخترع الأشياء؟ يبدو إنه لا يملك التفاني كي يقرأ كتباً كثيرةً من الغلاف الى الغلاف. فقط في العمل يكون مخلصاً، في وقت الفراغ، يكون جد نافد الصبر. كان يندهل بما يقوله الناس حول منجزاتهم في أثناء أوقات فراغهم، ينفق أربع أو خمس ساعات يومياً أمام شاشة التلفاز كي يحافظ على المعدلات القومية. خلال ركود مؤقت في أثناء عملية جراحية الأسبوع الماضي - أخفق جهاز السونار الملون الصغير جداً الخاص بالأوعية الدموية وكان يجب أن يتم التعويض من صالة عمليات أخرى- جي شتراوس نهض من شاشات ماكينة التخدير خاصته وأقراصها المدرجة و، ماطاً ذراعيه ومتثائباً، قال انه كان يقظاً في بواكير الصباح، منهياً مطالعة رواية بثمنمائة صفحة من تأليف معجزة أمريكية جديدة. كان بيروني قد تأثر، وانزعج - هل كان هو نفسه ببساطة يفتقر الى الجد؟

الواقع، بتوجيه من ديزي طالع هنري ((أنا كارنينا)) و ((مدام بوفاري)) بصورة كاملة، وهما تحفتان معترف بهما. على حساب إبطاء عملياته الذهنية وساعات كثيرة من وقته الثمين، أسلم نفسه للتعقيدات المتغيرة لهاتين القصتين فائقتي الجمال والممتعتين عقلياً. ما الذي أدركه، على الرغم من كل شيء؟ ذلك الزنا مفهوم لكنه خاطئ، بأن نساء القرن التاسع عشر كان لهن وقت عسير منه، أن موسكو والريف الروسي وفرنسا المحلية (الخاصة بالأقاليم) كانت هكذا ذات يوم. إذا، كما قالت ديزي، كانت العبقرية تكمن في الروي بتفصيل، عندئذ كان هو لا مبالياً. كانت التفاصيل ملائمة ومقنعة بصورةٍ كافية، إنما بصورة مؤكدة ليس من العسير جداً أن تنتظمها إذا كنتَ نصف يقظ وكان لك الصبر في تدوينها كلها. هذان الكتابان كانا ناتجي تراكم مستمر، بارع.

كان لهما الفضل، في الأقل، في تمثيل واقع فيزيائي ممكن ادراكه، لا يمكن أن نشير به الى ما أُصطلح على تسميتهم بـ الواقعيين السحريين الذين اختارت أن تدرسهم في السنة الأخيرة من دراستها الجامعية. ماذا كان يفعل هؤلاء المؤلفين المشهورين– رجال بالغون ونساء بالغات من القرن العشرين– وهم يمنحون طاقات خارقة لشخصياتهم؟ لم يستطع أن يتقدم مباشرةً عبر أثر واحد من تلك الآثار البارعة المضجرة. وكونها مكتوبة للبالغين، وليس الأطفال. في أكثر من أثر واحد، الأبطال والبطلات ولدوا وولدن بأجنحة أو أنبتت لهم ولهن– رمز، بحسب مصطلح ديزي، لما هو

هند عتبة الشعور الخاص بهم؛ بصورةٍ طبيعية، تعلّم الطيران أصبح مجازاً للطموح الجريء. الآخرون مُنحوا إحساساً سحرياً بالشم أو إنهم تشقلبوا من دون ضرر خارج طائرة تحلق عالياً. إنسان حالم شاهد عبر نافذة حانة والديه كما كانا بعد الحمل به بأسابيع، يناقشان إحتمال إجهاضه.

إن الإنسان، الذي يسعى الى تخفيف تعاسات المقدرات العقلية المضعفة بواسطة إصلاح الأدمغة مجبر على احترام العالم المادي، وحدوده، وما يمكن أن يعززه– الوعي، ليس أقل. بالنسبة له هو ليس شيئاً يتعلق بالإيمان، إنه يعرف بوصفه حقيقةً يوميةً، المقدرة العقلية هي ما ينجزه الدماغ، المادة حصراً. إذا كان ذلك يستحق الرهبة، فهو يستأهل حب الاستطلاع أيضاً؛ الواقعي، وليس السحري، هو الذي يجب أن يكون التحدّي. قائمة القراءة هذه أقنعتْ بيروني بأن الخارق كان خيالاً غير كافٍ، نبذاً للواجب، تملصاً من مصاعب وعجائب الشيء الواقعي، إعادة التمثيل المطلوب لما هو معقول ظاهرياً.

((لا مزيد من الطبالين الأقزام السحريين))، ناشدها من خلال البريد، بعد أن عرض خطبته المسهبة. ((من فضلك لا مزيد من الأشباح، الملائكة، الشياطين أو المسوخات. حينما يحدث أي شيء، لا شيء يعني كثيراً. هذا كله بالنسبة لي سقط المتاع.))

((أنتَ مغفل))، وبختته في بطاقة بريدية، ((أنتَ غرادغرايند Gradgrind.[١٠] انه أدب، وليس علم الفيزياء!))

لم يواصلا واحداً من جدالاتهما العديدة التي كان يخوضانها عبر البريد. رد عليها في رسالةٍ: ((قولي هذا لـ فلوبيركِ وتولستويكِ. ليس بينهما انسان مجنح واحد!))

أجابت من خلال البريد، ((أنظر الى مدام بوفاري الخاصة بك ثانيةً)) – تلا ذلك مجموعة من المصادر احتلت صفحةً. ((كان فلوبير يحذر العالم من أناس [على شاكلتك])) الكلمتان الأخيرتان تم تأكيدهما بصورة جدية.

حتى الآن، قائمة القراءة التي وضعتها ديزي أقنعته أن الأدب القصصي متصدِّع بصورةٍ إنسانية جداً، جد متمدد في غير اتساق ويصيب حيناً ويخطئ حيناً كي يلهم إعجاباً غير معقد بعظمة الابداع الانساني، بعظمة المستحيل الذي تم انجازه بصورة مذهلة. ربما الموسيقى وحدها التي تملك نقاءً كهذا. قبل الآخرين جميعاً يعجب بـ باخ، بخاصة موسيقى لوح المفاتيح؛ يوم أمس استمع الى متواليتين موسيقيتين في صالة العمليات بينما كان يعمل في ورم الخلايا النجمية في دماغ اندريه. ومن ثم كان هناك المشتبه بهم المألوفين – موزارت، بيتهوفن، شوبرت. ومعبودو الجاز الخاصين به، ايفانز، ديفز، كولترين. سيزان بين رسامين مختلفين، كاتدرائيات معينة زارها هنري في أيام العطل. ما وراء الفنون، تتضمن قائمة إنجازه السامي ((النظرية العامة)) لـ آينشتين، التي أدرك رياضياتها بصورة موجزة في الأعوام المبكرة من عشرينياته. ينبغي له أن يصنع تلك القائمة، جعل يقرر بينما كان يهبط درجات السلم الحجرية العريضة الى الطبقة الأرضية، مع إنه يعرف أنه لن

يفعل ذلك. العمل الذي لا تستطيع أن تبدأ بالتخيل بأنك تحققه بنفسك، الذي يصوّر عنصراً عديم الرحمة، نوعاً ما لا إنسانياً من الكمال المنطوي على نفسه – هذا هو رأيه في ما يتعلق بالعبقرية. هذه الفكرة الشخصية الخاصة بـ ديزي، القائلة أن الناس لا يستطيعون أن ((يعيشوا)) من دون قصص، هي ببساطة لا واقعية. هو (أي بيروني) برهان حي.

عبر الباب الأمامي يلتقط البريد والصحف. يهبط ماشياً الى المطبخ، يقرأ العناوين الرئيسة. بليكس يخبر (الأمم المتحدة) أن العراقيين بدأوا يتعاونون. رداً على ذلك، رئيس الوزراء يُتوقع أن يؤكد في حديث في (غلاسكو) اليوم الدوافع الإنسانية للحرب. في رأي بيروني، هذه الحالة وحدها التي تستحق الفهم. إلا أن تحوّل موقف رئيس الوزراء يبدو ساخراً. يأمل هنري أن قصته هو، التي بدأت في الرابعة والنصف، ربما وصلت تواً الى الطبعات الأخيرة للصحف في لندن. إنما لم يكن هناك شيء.

لم يكنْ أحد في المطبخ منذ أن غادره. على الطاولة كأسه، قنينة الماء المعدني الفارغة الخاصة بـ ثيو، بجانبها، آلة التحكم عن بعد (الريموت كونترول). ما تزال مدهشةً بصورة طفيفة، هذه الدقة الصارمة للأشياء، تارةً تعيد الطمأنة، وطوراً منحوسة. يتناول آلة التحكم عن بعد، يفتح جهاز التلفاز ويضغط على زر تخفيض الصوت – دقائق قلائل ويحين موعد نشرة الساعة التاسعة – ويملأ الغلاية. أي اضافات خارجية بسيطة جلبتها هذه الغلاية المتواضعة الى أوج الشكل المحسن هذا: الشبيهة بابريق من أجل

الفعالية، اللدائنية (البلاستيكية) من أجل الأمان، ميزابها العريض كي تكون مريحةً في الملأ، ومنصتها الصغيرة المعدنية كي تلتقط مصدر الطاقة. لم يشكُ من الموضة القديمة – غطاء القصدير اللزج، التجويف (السوكت) السميك الأسود الانثوي الذي ينتظر أن يصدم بالكهرباء اليدين الرطبتين ظهرا أنهما من طبيعة الأشياء. إلا إن شخصاً ما فكرّ في هذا بعناية، والآن ليس ثمة تراجع. يجب أن يأخذ العالم الملاحظة الآتية: ليس الأشياء كلها آخذة في السوء.

جاءت الأنباء بينما كان يطحن حبوب البن. المذيعة المعتمدة الجديدة هي امرأة سوداء البشرة جذابة، كان حاجباها منتوفي الشعر، المقوسين تقويسةً، يعبران عن الدهشة في أن يتحديا أيضاً صباح آخر جديداً. أولاً، جاءت صور من جسر لطريق السيارات الخاص بمنطلقات الحافلات التي تجلب المتظاهرين الى وسط المدينة لما يُتوقع أن يكون أوسع عرض لاحتجاج شعبي شوهد حتى الآن. عندئذ ظهر مندوب وسط تجمع مبكر من المتظاهرين عند (السد). كل هذه السعادة في العرض مشتبه بها. كان الجميع مستثارين بأن يكونوا معاً في الشوارع– الناس يهنئون أنفسهم، على ما يبدو، فضلاً عن تهنئة أحدهم الآخر. اذا كانوا يظنون– وربما يكونون على صواب– أن العذاب المتواصل والاعدامات العاجلة، التطهير العرقي والابادة الجماعية لطائفة ما بين حين وآخر هي افضل من الغزو، سيكونون كئيبين في رأيهم هذا. الطائرة، طائرة هنري، هي الآن الفقرة الثانية في النشرة. الصور

ذاتها ، وثمة تفاصيل أكثر قليلة العدد لا غير: خلل كهربائي يُتوقع أن يكون سبب إندلاع النار. واقفين مع عدد من رجال الشرطة، الروسيان– الطيار، وهو شخص ذابل ذو شعر دهني، ومساعده، ممتلئ الجسم ومرح بصورة غريبة. ظهرا مسفوعين بأشعة الشمس، أو ربما كانا ينحدران من الجمهوريات الجنوبية. الفرص الحياتية المتضائلة لقصة أخبار مخيبة للآمال– لا أنذال، لا موتى، ليس ثمة نتيجة معلقة– أُعيد إليها النشاط بفعل جرعةٍ من الجدل المصطنع: خبير طيران تم العثور عليه كان يتهيأ للقول إنه كان عملاً طائشاً أن يتم الاتيان بطائرة محترقة الى منطقة كثيفة السكان عندما تكون هناك خيارات أخرى. ممثل لسلطة المطار يقول لم يكن هناك تهديد لسكان لندن. لم تعلق الحكومة بعد على هذا الحادث.

أغلق التلفاز، سحب (ستولاً) ورفع معنوياته مع القهوة والهاتف. قبل أن يستطيع سبته أن يبدأ ، ثمة مخابرة متابعة عليه أن يقوم بها الى المستشفى. كان قد أوصل هاتفياً بالعناية المركزة وطلب أن يتحدث الى الممرضة المسؤولة. بينما كان شخص ما يأتي بها جعل يصغي الى همس الخلفية المألوف، استطاع أن يميز صوت عامل خدمة (معين)، كتاب أو مطوية (فولدر) يُقذف بقوة على الطاولة.

بعدها راح يسمع النبرة الخالية من التعبير لامرأة مشغولة تقول (وحدة العناية الفائقة).

((ديردريه؟ ظننتُ أن تشارلس كان في نهاية الأسبوع هذه؟))

((سيد بيروني، انه غائب لإصابته بالزكام.))

((كيف حال أندريه؟))

((مقياس غيبوبة غلاسكو خمسة عشر، التزوّد بالأوكسجين جيد، ليس مشوشاً.))

((ماذا عن مصرّف البطين الخارجي ؟))[11]

((ما يزال يسيل تدريجياً حول خمسة سنتمترات. أفكر الآن بإعادتها الى الردهة.))

((ذلك رائع اذاً))، قال بيروني. هل يمكنكِ أن تجعلي الطبيب المخدر يعرف بأنني سعيد بذهابها الى الردهة.)) كان على وشك أن يقطع الاتصال الهاتفي حين أضاف، ((هل تسبب لكِ المريضة أي عناء؟)).

((سُحقنا جداً بالأمور كلها، سيد بيروني. نحن نحبها هكذا.))

أخذ مفاتيحه وهاتفه وآلة التحكم عن بعد (الريموت كونترول) الخاصة بالمرآب من صحن فضة بالقرب من دفاتر الوصفات الطبية. محفظة الجيب خاصته في معطف في غرفة خلف المطبخ، خارج أقبية النبيذ. مضرب (السكواش) العائد له في الطبقة العليا في الطبقة الأرضية، في خزانة صغيرة في حجرة غسل الملابس. ارتدى كتلة ناعمة قديمة من الصوف مخصصة للنزهات الراجلة، وكان على وشك أن يشغل جهاز التنبيه الخاص بالسطو الليلي حين تذكر أن ثيو في الداخل. حين جعل يخطو الى الخارج و

ينعطف بعد اغلاق الباب، وراح يسمع صراخ النوارس الطويل الحاد وهي تأتي الى الجزء الداخلي من البلاد من أجل فتات المدينة الجيد. الشمس ضعيفة وفقط نصف الساحة– نصفه هو– مغمور بنور شمس كامل. جعل يمشي بعيداً عن الساحة على طول رصيف ندي يُعمي العيون، مندهشاً بطراوة النهار. نكهة الهواء نقية تقريباً. كان له انطباع بأنه يخطو خطواتٍ واسعةً على طول سطح طبيعي، على طول برية ساحلية، على بلاطة ناعمة لمر بازلت مرتفع (عبر أرض سبخة) يتذكره بصورة مبهمة من عطلة من عطلات عهد الطفولة. لا بد أن صراخ النوارس هو الذي أعادها الى باله. بوسعه أن يتذكر نكهة رذاذ بحر أزرق– أخضر مضطرب، وبينما كان يصل شارع (وارين) ذكّر نفسه أن عليه أن لا ينسى الذهاب الى مخزن بائع السمك. منشطاً بفعل القهوة، وبفعل الحركة أخيراً، فضلاً عن إمكانية التقدّم في اللعبة والملاءمة المريحة للمضرب المغلّف في يده، جعل يحث خطاه.

تكون الشوارع المحيطة بهذا المكان خاليةً عادةً عند نهايات الأسابيع، لكن قُدماً الى الأمام على طول طريق (ايوستون)، ثمة حشد كبير يشق طريقه شرقاً صوب شارع (غوور)، وفي الطريق نفسه، متقدّمةً ببطء في الأزقة المتجهة شرقاً، كانت هناك الحافلات المصطفة في رتل طويل التي شاهدها في نشرة الأخبار. كان الركاب مضغوطين على الزجاج، يتوقون لأن يخرجوا هناك وينعموا بالراحة. كانوا قد علّقوا راياتهم من نوافذ الحافلات، مع وشاحات كرة القدم وأسماء المدن الواقعة في قلب انجلترا –

ستراتفورد، غلوسستر، ايفيشام. من حشود الرصيف نافذة الصبر، ثمة تجارب بالأدوات المحدثة للضجيج – وآلة المترددة (الترومبون)، بوق سيارة بهيئة كرة مضغوطة، طبل لامبغ lambeg. هناك نبرات تمرين رتيبة مغيظة لم يستطع في بادئ الأمر أن يفهمها. تمتمي تمتمي توم. لا تهاجموا العراق. اعلانات جدران لم تكنْ حتى الآن في الخدمة محمولة بصورة مائلة، بزوايا غير متقيدة بالعرف والرسميات فوق الأكتاف. (ليس بإسمي) كلمتان راحتا تتكرران دزينة من المرات. احترام الذات المتخم الخاص بها يقترح عالماً مشرقاً جديداً من الاحتجاج، مع المستهلكين صعبي الارضاء لـ (الشامبوات) والمشروبات غير المسكرة التي مطلوب منها أن تكون جيدة أو لذيذة. هنري يفضل الاعلان الضعيف، (يسقط الشيء من هذا النوع). هكذا يقول إعلان جداري لإحدى المجاميع المنظمة – الجمعية البريطانية للمسلمين. هنري يتذكر تلك المؤسسة جيداً. شرحت منذ وقت قريب في صحيفتها إن الارتداد عن الإسلام كان إثماً يعاقب عليه بالموت. في الخلف تأتي راية تعلن عن (جوقة نساء سوافهام)، ومن ثم، اليهود يعارضون الحرب.

في شارع (وارين) انعطف يميناً. الآن هدفه الشرق، صوب (طريق محكمة توتنهام). هنا حشد أكبر، تضخم بفعل المئات الذين أفرغتهم المحطة النفقية. الشمس الواهنة خلف ظهورهم، هيئات مظللة انفصلت واندمجتْ في حشد أكثر قتامةً، غير إنه ما يزال بالإمكان رؤية كشك كتب أُستخدم بوصفه بديلاً مؤقتاً وكشك لبيع (سندويتشات) لقانق ساخنة، نصبا بوقاحة بالضبط

خارج مطعم (ماكدونالد) في زاوية الشارع. إنها اعجوبة، فهناك عدد من الأطفال، والأطفال الصغار في كراسٍ وباليد. على الرغم من شكوكيته، بيروني في حذائي التدريب بالقاعدتين البيضاوين، ممسكاً بمضربه بمزيد من الإحكام، يشعر بغواية وإثارة خاصتين بأحداث كهذه؛ حشد جماهيري يسيطر على الشوارع، عشرات الآلاف من الغرباء يتجمعون بغاية واحدة تتقل إلماحاً بالسعادة الثورية.

أغلب الظن كان بالوسع أن يكون معهم، بالروح في الأقل، ذلك أن لا شيء سيمنعه عن مباراته، اذا لم يكن البروفيسور طالب بحاجة الى أن يتم تطويق تمدد في شريانه الدماغي الوسطي. بعد شهور من تلك الحوارات، تحوّل بيروني الى قراءة ملزمة حول النظام السياسي في العراق. قرأ عن المثال الموحي إلى ستالين، وشبكة الولاءات العائلية والعشائرية التي ساندت صدام، والقصور التي أُعطيتْ بوصفها مكافآت. تعرّف هنري على التفاصيل الباعثة على الغثيان للابادات الجماعية في شمال العراق وجنوبه، التطهير العرقي، النظام الواسع من المخبرين، وأساليب التعذيب الغريبة والشاذة، وميل صدام الى أن يكون منهمكاً شخصياً في ذلك، والعقوبات الغريبة التي تحوّلت الى قانون – الوسم بوصمة العار وأنواع شتى من بتر الأعضاء. بطبيعة الحال، تابع هنري عن كثب مقالات تتعلق باجراءات أُتخذت ضد الجراحين الذين رفضوا القيام بهذه التشويهات. استنتج أن الأعمال الشريرة قلما كانت أكثر ابتكاراً أو نظاميةً أو انتشاراً. كان ميري على صواب، كانت

حقيقةً جمهورية الخوف. طالع هنري أيضاً كتاب كنعان مكيّة ذائع الصيت. بدا جلياً ان القاعدة التأسيسية لـ صدام هي الرعب.

يعرف هنري إنه حين تشن امبراطورية قوية – آشورية، رومانية، أمريكية– حرباً وتدّعي مجرد سبب لها، لن يكون ثمة تأثير قوي على التاريخ. كان كذلك يقلق بأن الغزو أو الاحتلال سيكون فوضى. المتظاهرون ربما على صواب. وجعل يعترف بالطبيعة العرضية للآراء، لو أنه لم يلتقِ بالبروفيسور طالب ويعجب به، فلربما فكر بطريقة مختلفة، بصورةٍ أقل تناقضاً، بالحرب المقبلة. الآراء هي تدحرج النرد؛ بالتحديد، لا أحد من الناس الذين يتحركون في غير نظام حول المحطة النفقية لشارع (وارين) حدث أن عُذب من قبل النظام العراقي، أو يعرف ويحب الشعب الذي عانى من شتى ضروب العسف، أو حتى يعرف الكثير عن البلد على الاطلاق. في الأرجح غالبيتهم قلما دونوا المذابح في الجزء الكردي من العراق، أو في الجنوب الشيعي، والآن يجدون أنفسهم مهتمين بولع بحيوات العراقيين. هم يملكون دوافع جيدة لآرائهم، بينما يقلقون على سلامة أنفسهم. يقال إن (القاعدة) التي تشمئز من صدام الكافر والمعارضة الشيعية، سوف تُحرِّض بواسطة الهجوم على العراق كي تنتقم من المدن الضعيفة لـ (الغرب). المصلحة الشخصية دافع مقبول كافٍ، إلا أن بيروني لا يستطيع أن يشعر، كما يستطيع المتظاهرون أنفسهم أن يفعلوا، بأنهم يملكون سيطرة حصرية على الفطنة الأخلاقية.

حانات (الساندويتش) على طول الشارع مغلقة بسبب نهاية

الأسبوع. فقط مخزن (الفلوت) ومحل بيع الصحف والمجلات مفتوحان. خارج مطعم (رايف خوجه)، المالك يستخدم دلو الزنك كي يغسل الرصيف، موضة باريسية. متقدّماً صوب بيروني، ظهره للحشود، رجل بوجه وردي في عمره هو تقريباً، بقبعة (بيسبول) وسترة (دي– غلو) صفراء، مع عربة يد، يكنس البالوعة في جانب الطريق من أجل المجلس البلدي. يبدو هو منكباً بصورة غريبة على إنجاز وظيفة جديدة، يخز زاوية مكناسته بصورة قوية الى داخل زوايا الحاجز الحجري عند حافة الطريق، ملاحقاً النفايات. مراقبة نشاطه واجتهاده شيء غير مريح، إتهام هادئ في صبيحة يوم سبت. أي شيء يمكن أن يكون عقيماً أكثر من هذا العمل المنزلي المدرج المديني ذي الربح القليل عندما تكون خلفه، في النهاية البعيدة من الشارع، علب الكرتون وكؤوس الورق منتشرة بصورة كثيفة تحت أقدام المتظاهرين المحتشدين خارج مطعم (ماكدونالد) في ملتقى الشارعين. والى ما ورائهم، عبر العاصمة، عاصفة يومية من الفضلات المبعثرة. بينما كان الرجلان يمران، التقت عيونهما بصورةٍ موجزة، عصبية. بياضا عينيّ الكناس مهدبان بتدرج لوني من صفار البيض الى اللون الأحمر على طول الأجفان. على مدى لحظة متقلبة يحس هنري بأنه مكبل الى الرجل الآخر، كما لو أنه على نواسة[١٢] معه، مثبتة الى محور يمكن أن تقلبهما معاً فيصبح كل منهما في حياة الآخر.

جعل بيروني يشيح بصره ويتمهل قبل الانعطاف الى الشوارع الخلفية حيث كانت سيارته قد أُرئبت. كم كان ذلك مريحاً

حتماً، في عصر آخر، حينما تكون ثرياً وتعتقد أن القوة الخارقة العارفة بكل شيء وزرعت الناس الى محطاتهم في الحياة. وحينما لا ترى كيف خدم هذا الاعتقاد ثروتك الخاصة- شكل من أشكال الـ anosognosia، وهو مصطلح نفساني مفيد يتعلق بانعدام وعي المرء بحالته الخاصة. نحن نعتقد الآن إننا نفهم، كيف تبقى الأشياء؟ بعد التجارب الهدامة للقرن الذي مات مؤخراً، بعد سلوك خسيس جداً، وفيات كثيرة جداً، لا أدرية مسببة للغثيان استقرتْ حول هذه القضايا- قضايا العدالة والثروة التي تم إعادة توزيعها. لا مزيد من الأفكار الكبيرة. العالم يجب أن يتحسن، اذا لم يتحسن بصورةٍ مطلقة، فأنه يتحسن بدرجات صغيرة جداً. الناس في الأغلب يتبنون رأياً وجودياً- ينبغي لهم أن يكنسوا الشوارع من أجل حياة شبيهة بخط سيء بسيط. هو ليس عصراً وهمياً. الشوارع تحتاج الى أن تكون نظيفة. دع غير المحظوظ يتطوع لنصرة قضية ما.

يهبط انحداراً ضعيفاً من كبار الحصى الملوثة بالشحم الى حيث كان أصحاب منازل كمنزله يبقون جيادهم. الآن، أولئك القادرين على شراء السيارات يدللونها هنا مع السيارات المتوقفة بعيداً عن الشارع. زر الأشعة تحت الحمراء متصل بحلقة مفتاحه الذي يضغط عليه كي يرفع غطاءً متحركاً مقعقعاً من الفولاذ. كشف في رجات آلية، الأنف الطويل والعينين المتألقتين عند باب الاصطبل، التي كانت تكافح مغتاضة كي تتحرر. (ميرسيدس) فضية (أس ٥٠٠) ذات تتجيد (كريمي)- ولم يعد متورطاً بسببها.

لم يكن أيضاً يحبها– إنها ببساطة جزء حسي مما يعدّه حصته مفرطة السخاء من بضائع العالم. ان لم يمتلكها هو، يحاول أن يخبر نفسه، لفعل ذلك إنسان آخر. لم يقدها في بحر أسبوع، إنما في ظلام المرآب الجاف عديم الغبار جعل المحرك يتنفس دفئاً حيوانياً نابعاً منه. راح يفتح الباب ويجلس في السيارة. هو يحب أن يقودها مرتدياً ثيابه الرياضية البالية. على مقعد الراكب الأمامي نسخة قديمة من ((مجلة جراحة الأعصاب)) تحمل تقريراً له عن مؤتمر في روما، يقذف مضرب (السكواش) العائد له فوقها. إنه ثيو الذي استنكر بشدة، قائلاً انها سيارة طبيب، كما لو أن هذه كانت الكلمة الأخيرة في الشجب. ديزي من الناحية الأخرى، قالت إنها تعتقد أن هارولد بنتر[١٣] كان يملك سيارةً شبيهة بها، الأمر الذي جعلها رائعةً بكل معنى الكلمة بالنسبة لها. شجعته روزاليند على شرائها. تعتقد هي أن حياته متقشفة بصورة آثمة جداً، وإن عدم شراء الملابس أو النبيذ الجيد أو لوحة تشكيلية واحدة هي صبغة طنانة. هو ما يزال يحيا كطالب أكمل دراسته الجامعية. آن الأوان بالنسبة له كي يسد الحاجة.

على مدى شهور عدة قادها بصورة تبريرية، نادراً بسرعة، كارهاً لتجاوز السيارات الأخرى، ملوحاً بيده عندما يمر بسيارته في استدارة الى اليمين، دقيقاً في إتباع الأوامر في السماح للسيارات الأرخص أن تأخذ حيزها من الطريق. تم شفاؤه أخيراً بواسطة رحلة صيد السمك الى شمال– غرب اسكتلندا صحبة جي شتراوس. أغواه الطريق المفتوح واحتفاء جي المبتهج بـ ((العبقرية اللوثرية))،

تقبل هنري نفسه أخيراً كونه مالك سيارته وسيدها. الواقع، كان أبداً وبهدوء يعد نفسه سائقاً جيداً، كما في صالة العمليات صارماً، دقيقاً، دفاعياً الى الدرجة الصحيحة. هو وجي اصطادا في الجداول والبحيرات المحيطة بـ (توريدون) بحثاً عن السلمون المرقط البني. ذات مرة في ما بعد ظهيرة ندية، محدّقاً فوق كتفه بينما كان يرمي صنارته، رأى هنري سيارته التي على مسافة مائة ياردة، تم ايقافها في زاوية على ارتفاع الطريق، قطفت ضوءاً ناعماً بإزاء ستارة خلفية من البتولا، نبات الخلنج الأحمر المزهر وسماء سوداء راعدة – تحقق رؤية رجل اعلان – وشعر أول مرة بسعادة انتشاء لطيفة تتعلق بالتملك. بطبيعة الحال، انه شيء ممكن، مباح، أن تحب شيئاً عديم الحياة. غير أن هذه اللحظة كانت أوج القضية، منذ ذلك الزمن استقرتْ مشاعره متحولةً الى سعادة معتدلة، عريضة. السيارة تهبه قناعةً مبهمةً حين يقودها؛ في بقية الوقت نادراً ما كانت تخطر بباله. كما صمم صانعوها ووعدوا، أمست جزءاً منه.

إلا أن أشياءً معينةً ما تزال تثيره بصورةٍ خاصة، مثل الطريقة التي تعطل فيها السيارة من دون اهتزاز، وحده عداد دوران المحرك يؤكد أن المحرك يدور. يشعل المذياع الذي كان يطلق تصفيقاً مؤزاراً، دالاً على الاحترام بينما كان يقود السيارة خارج المرآب، ويجعل الستار الفولاذ المتحرك يهبط خلفه، ويدخل الشوارع الخلفية ببطء وينعطف يساراً، عائداً الى شارع (وارين). يقع نادي (السكواش) الخاص به في شارع (هنتلي) والذي كان في ما مضى

داراً للممرضات– لم يكن يبعد مسافةً على الاطلاق، لكنه يقود السيارة لأن له مهمات بعد المباراة. بصورةٍ مخزية، كان على الدوام يتمتع بالمدينة من داخل سيارته حيث يكون الهواء مرشحاً وموسيقى (الهاي– فاي) تمنح الشفقة بواسطة أكثر التفاصيل تواضعاً– ثلاثية شوبيرت تبجل الشارع الضيق الذي كان ينزلق فيه الآن. انه يتوجه الى اثنين من (البلوكات) جنوباً كي يستدير جهة الشرق عبر (شارع محكمة توتنهام). جرت العادة أن يكون شارع (كليفيلاند) معروفاً بالمؤسسات الصناعية الصغيرة الخاصة بالملابس التي تستخدم العمال بأجور منخفضة وأحوال غير صحية وما الى ذلك ومشهور أيضاً بالمومسات. الآن له مطاعم يونانية، تركية وايطالية، النوع المحلي لا يُذكر في الأدلة– ذوات شرفات حيث يتناول الناس طعامهم في الخارج صيفاً. ثمة رجل يصلح أجهزة الحاسبات (الكومبيوترات) القديمة، مخزن قماش، محل مصلح أحذية (اسكافي)، وفي مكان أقرب الى منتصف الشارع، ثمة مركز تجاري للشعر المستعار، يزار كثيراً من قبل أولئك الذين يرتدون ثياب الجنس المعاكس كشكل من أشكال التحول الجنسي. هذا هو التجسيد الواضح لمظهر ثانوي من مظاهر المدينة الداخلية– متعدد الأشكال، واثق بنفسه، وغامض. وفي هذه النقطة تحديداً يتذكر هو منبع إحساسه المبهم بالعار أو الارتباك: استعداده لأن يقتنع بأن العالم تغير الى ما بعد التذكر، بحيث أن الشوارع عديمة الضرر كهذا الشارع والحياة المتسامحة التي تجسدها يمكن تدميرها بواسطة العدو الجديد– جيد التنظيم،

مجسي، مليء بالكراهية والحماسة المركزة. كم تبدو رؤيوية بصورة حمقاء تلك الادراكات في ضوء النهار، حين يكون الواقع البديهي للشوارع والناس فيها هم تبريرها الخاص. لم يتغير العالم بصورة جوهرية. الحديث عن أزمة المائة عام هو تساهل. كانت هناك دائماً أزمات، وان الارهاب الاسلامي سوف يستقر في مكانٍ ما، جنباً الى جنب مع الحروب الحديثة، التغير المناخي، سياسة التجارة العالمية، نقوصات (جمع نقص) الأرض والماء العذب، الجوع، الفقر وما الى ذلك.

راح يصغي لثلاثية شوبيرت وهي تتلاشى تدريجياً وترتفع بصورة عذبة. الشارع جميل، والمدينة، الانجاز الرائع للأحياء والأموات جميعاً الذين سكنوا هنا من قبل، جميلة أيضاً وقوية. هي لا تسمح ببساطة لنفسها أن تُدمر. إنه شيء جيد جداً أن نطلق سراحها. الحياة فيها تحسنت باستمرار على مدى قرون بالنسبة لغالبية الناس، على الرغم من وجود مدمني المخدرات والشحاذين الآن. الهواء أفضل وسمك السلمون يتواثب في (التايمز)، وثعالب الماء تعود. على المستويات كلها، المادية، الطبية، الفكرية، الحسية، بالنسبة لمعظم الناس تحسنت. المدرسون الذين يثقفون ديزي في الجامعة حسبوا أن فكرة التقدّم عتيقة الطراز ومضحكة. بسخط، يمسك بيروني موثق العجلة بيده اليمنى. يتذكر بعض السطور من تأليف ميداوار[١٤]، وهو رجل يكن له الاعجاب: ((أن تسخر من آمال التقدم فهي الحماقة المطلقة، الكلمة الأخيرة في فقر الروح وبخل العقل.)) أجل، انه مغفل كي يُخدع بواسطة إدعاء

المائة عام ذاك. في فصل ديزي الدراسي الأخير أمضى يوماً حراً في كليتها. المحاضرون الشبان هناك يحبون أن يمسرحوا الحياة الحديثة بوضعها سلسلة من النكبات. انه طرازهم، طريقتهم في أن يكونوا أذكياء. لن يكون شيئاً هادئاً أو مهنياً أن تعدّ استئصال مرض الجدري بوصفه جزءاً من الحالة الحديثة. أو الانتشار الأخير للديمقراطيات. في المساء أعطى أحدهم محاضرة حول التوقعات بالنسبة لتحضرنا الاستهلاكي والتقني: ليست جيدة. إنما إذا ما أُزيلت الادارة الحالية الآن، سوف ينظر إلينا المستقبل بوصفنا معبودين، بالتأكيد في هذه المدينة، معبودين موفوري الحظ ممجدين من قبل وفرات (السوبرماركت)، سيول المعلومات سهلة المنال، الثياب الدافئة التي لا ترهق ابداً، معدلات الحياة المتطاولة، والمحركات العجيبة. هذا عصر المحركات العجيبة. الهواتف النقالة قلما تكون أضخم حجماً من أذنك. مكتبات موسيقية كاملة محملة في شيء بحجم كف طفل. كاميرات يمكنها أن توجه لقطاتها حول العالم. من دون مجهود، نظّم البدعة التي يركبها الآن عبر أداة على مكتبه بواسطة شبكة المعلومات الدولية (الانترنت). النظام ذو التكتيك المجسم المتحكم به بواسطة الحاسوب (الكومبيوتر) الذي استخدمه أمس حوّل الطريقة التي يقوم فيها بأخذ عينة من النسيج الحي لغرض فحصها مجهرياً. التسلية الرقمية جمعتْ ذينك الصينيين اللذين يسيران يداً بيد، يصغيان عبر (سوكت) على صورة حرف Y الى (الستريو) الخاص بهما. وكانت تقريباً تثب فرحاً، تلك الفتاة النحيلة مفتولة

العضل ببذلة قصيرة ضيقة خلف كرسي دفع بثلاث عجلات أرضي بكل معنى الكلمة. الواقع، كل شخص يمر به الآن على طول هذا الشارع الرث بصورة سارة يبدو سعيداً بدرجة كافية، في الأقل راضياً مثله. لكن بالنسبة للأساتذة الجامعيين بدرجة بروفيسور في الأكاديمية، بالنسبة للصفات البشرية عموماً، التعاسة أكثر عرضةً للتحليل: السعادة صمولة أصلب من أن تتصدع.

في مزاج احتفال مغامر للأزمنة، يوجه بيروني (المرسيدس) شرقاً صوب شارع (مابل). يبدو أن رفاهيته تحتاج الى كينونات شبحية كي تعارضها، الى هيئات من إبتكاره الشخصي بوسعه أن يهزمها. يكون غالباً أشبه بهذا قبل مباراةٍ ما. هو لا يشبه بصورة خاصة نفسه في هذا الإطار، إلا أن الغسل ثانية بثانية لأفكاره هو فقط جزئياً عائد له كي يحكم السيطرة- الركام المختلط، الضجيج الأبيض للتفكير المنعزل تم دفعه بعنف بواسطة حالته العاطفية. ربما هو ليس سعيداً فعلاً على الاطلاق، إنه يحلل نفسه. كان يمر من أمام المبنى الكائن أسفل (برج دائرة البريد)- هو أقل قبحاً هذه الأيام بمدخله الألمنيوم، بكساءاته الزرق والكتل الهندسية للنوافذ وحواجز القضبان المتصالبة الخاصة بالتهوية الشبيهة بـ (موندريان). إنما في مكان أبعد الى الأمام، حين يصبح (فيتزروي) (شارع شارلوت)، المنطقة المجاورة محتشدة بـ (بلوكات) مكاتب مقترة وشبابيك قرض الطلبة مكيّفة بصورة سيئة، طموح ضعيف، لا يستمر جيداً. في المطر، وفي المزاج المناسب، يمكن أن

تتخيل نفسك وقد عدتَ الى (وارشو الشيوعية). فقط حين يتم تهديم عدد كاف منها، هل سيكون بوسعنا أن نبدأ بحبها.

هنري الآن موازٍ لـ شارع (وارين) وبلوكين جنوبه. هو ما يزال منزعجاً من حالته الذهنية الخاصة، من هذه السعادة المقطوعة بالعدوان. بينما كان يدنو من (شارع محكمة توتنهام)، جعل يبدأ وتيرةً مألوفةً، واضعاً قائمةً بالوقائع الأخيرة التي ربما شكلت مزاجه. كونه هو و روزاليند مارسا الحب، وإنه صباح السبت، وإن هذه سيارته، وإن أحداً لم يمتْ في الطائرة وان أمامه مباراة رياضية وان حالة فتاة (الشابمان) والمرضى الآخرين مستقرة، وأن ديزي آتية– هذا كله جيد. وماذا عن الناحية الأخرى؟ في الناحية الأخرى، كان يمس المكبح (البريك). كان هناك شرطي دراجة نارية يرتدي سترة صفراء، في وسط (شارع محكمة توتنهام)، ماكنته على منصتها، مقدماً ذراعه كي يوقفه. بطبيعة الحال، الشارع مغلق بسبب المسيرة الجماهيرية. كان لا بد له أن يعرف. إلا أن بيروني أستمر في المجيء، مبطئاً السرعة طوال هذه البرهة، كما لو إنه يتظاهر بعدم المعرفة، من الممكن أن يتم استثناءه– مع ذلك، هو يريد فقط أن يعبر هذا الطريق، وليس قيادة سيارته فيه؛ أو في الأقل، سوف يتسلم دَينه: دراما صغيرة من المقايضة بين شرطي حازم إنما تبريري ومواطن متسامح بوقار.

يتوقف عند نقطة اتصال الطريقين. وفي الحقيقة، الشرطي يأتي نحوه، مع نظرة عبر الشارع الى المتظاهرين وابتسامة متسامحة مزمومة توحي بأنه هو نفسه ضرب العراق بالقنابل منذ زمن طويل،

وبلدان أخرى كثيرة فضلاً عن ذلك. بيروني، مسترخياً عند عجلة القيادة، كان من الواجب أن يستجيب بابتسامة فم مسدود مميزة لطلاب كلية ما خاصة به، إنما جرى شيئان، تقريباً في الوقت ذاته. خلف رجل الدورية، على الجانب البعيد من الطريق، ثلاثة رجال، اثنان طويلا القامة، وواحد قصير وبدين ويرتدي بذلة سوداء، كانوا يسرعون خارجين من نادي رقص- الطية، (السبيرمنت راينو)، تقريباً يتعثرون في سعيهم الى عدم الركض. حين داروا حول الزاوية الى الشارع الذي كان بيروني يريد أن يدخله، لم يعودوا مكبوتين جداً. مع الرجل الأقصر متباطئاً في الخلف؛ كانوا يركضون الى سيارة متوقفة في الجانب القريب.

الشيء الثاني الذي حدث هو أن الشرطي الذي كان في غضون ذلك غافلاً عن الرجال، يتوقف فجأةً في طريقه نحو بيروني ويرفع يداً الى أذنه اليسرى. يومئ برأسه ويتحدث في (الميكروفون) المثبت أمام فمه ويلتفت ناحية دراجته النارية. بعدها، متذكراً ماذا كان ينوي أن يفعل، راح ينظر الى الخلف. إلتقى بيروني عينه، وبنظرة استنكار للذات، استفهامية، يشير عبر الطريق الى شارع (الجامعة). يهز الشرطي كتفيه، ومن ثم يومئ برأسه، ويقوم بايماءة بيده تقول، (افعلها بسرعة إذاً). ياللجحيم. المتظاهرون ما يزالون في الأغلب في الطرف الآخر، وكان بحوزته تعليمات جديدة.

لم يتأخر عن مباراته، ولا هو شديد التوق الى أن يكون على الجانب الآخر من الطريق. يحب سيارته، لكنه لم يكنْ مولعاً

بتفاصيل إنجازها، تسارعها من بداية راكدة. يفترض هو إنها تترك انطباعاً قوياً، لكنه لم يضعها أمام الاختبار. كان أكبر سناً بكثير من أن يترك أثراً لمطاط العجلات عند علامات المرور الضوئية. بينما هو يتدحرج الى الأمام، راح ينظر بإتقان الى كلا الاتجاهين، مع إنه تدفق باتجاه واحد صوب الشمال؛ يعرف هو أن المشاة يمكن أن يأتوا من أي من الاتجاهين. اذا شاء له أن يتحرك بخفة عبر عرض أربعة– أزقة للشارع، فإن هذا خارج التفكير بالنسبة لرجل الشرطة الذي كان قد بدأ يستخدم دراجته النارية. لا يريد بيروني أن يزج الرجل في مشكلةٍ مع الأعلى منه منصباً. وشيء ما يتعلق بإيماءة اليد أفشى بالحاجة الى الإسراع. في الوقت الذي قطعت فيه (المرسيدس) الستين أو السبعين قدماً الى مدخل شارع (الجامعة)، حيث كان يغيرّها الى السرعة الثانية، ربما كان يسير بسرعة عشرين ميلاً في الساعة. خمسة وعشرين ربما. ثلاثين من دون انقطاع. وتقريباً على الفور، كان يتحرر من الهم، مفتشاً عن المنعطف الأيمن قبل شارع (غوور)، الذي كان مغلقاً أيضاً.

والحركة الأمامية هي عمل عاجل، تعيده حالاً الى قائمته، الى السببين الأقرب والبعد لحالته العاطفية. إن ثانيةً يمكن أن تكون زمناً طويلاً في الاستبطان. طويلاً بالنسبة لـ هنري كي يقدم الملامح السلبية للمناقشة، بالتأكيد وقت كاف بالنسبة له كي يفكر، أو يفهم، من دون أن يفض الفكرة الى بناء الجملة وكلمات، تلك هي في الواقع حالة العالم التي تزعجه كثيراً،

والمتظاهرون هناك كي يذكروه بها. في الأرجح تغير العالم بصورةٍ جوهرية والمسألة يتم تناولها بطريقةٍ غير متقنة، بالأخص من قبل الأمريكيين. ثمة أناس هنا وهناك، مرتبطون بصورة جيدة ومنظمون، يريدون أن يقتلوه هو وأسرته وأصدقاءه كي يحققوا غايةً ما. إن مقياس الموت المتوقع لم يعد نقطة خلاف؛ ستكون هناك وفيات أكثر على مقياس مشابه، في الأرجح في هذه المدينة. هل هو خائف جداً كونه غير قادر على مواجهة الحقيقة؟ التوكيدات والأسئلة لا توضح نفسها بتعابير لا لبس فيها. راح يجريها بصورةٍ أكثر كلامبالاة عقلية أعقبتها ذبذبة استفهامية. هذه هي اللغة ما قبل اللفظية التي يسميها اللغويون لغة ذهنية خاصة ببلدٍ ما. هي قلما تكوّن لغة، هي بدرجة أكبر رحم لأنماط متحولة، تدمج المغزى وتضغطه في أجزاء الثانية، وتمزجه بصورةٍ منفصلة بصبغتها العاطفية المميزة، التي هي نفسها بالأحرى أشبه بلونٍ من الألوان. أصفر سقيم. حتى مع موهبة شاعر في التكثيف، بوسعها أن تستلزم مئات الكلمات ودقائق كثيرة لوصفها. لذا حين يعبر وميض أحمر رؤيته الجانبية اليسرى، أشبه بشكل على شبكتيه في حالةٍ أقرب ما تكون الى الأرق، تكون قد امتلكتْ قبل الآن صفة فكرة ما، فكرة جديدة، غير متوقعة وخطيرة، إلا أنها تعود له كلياً، وليست للعالم الذي ما وراء كينونته.

هو ذا يقود السيارة بخبرة لا واعية الى الطابور الضيق من الحيز المؤطر في ناحية اليمين بواسطة درب للدراجات الهوائية مطوّق بحاجز حجري عند الجانب، وفي ناحية الشمال بواسطة طابور

السيارات المتوقفة. من هذا الطابور تحديداً تنبثق الفكرة، ومعها، حركة سريعة خاطفة لمرآة الجناح التي جُزتْ بصورة نظيفة وعواء سطحي ألواح الفولاذ المنزلقين بفعل الضغط حين انسكبت سيارتان في فجوة تتسع لسيارة واحدة. قرار بيروني الفوري في لحظة الصدمة هو أن يزيد السرعة بينما هو ينحرف يميناً. هناك أصوات أخرى- الخشخشة المتقطعة للسيارة الحمراء على جانبه الأيسر تسمى مساً خفيفاً نصف دزينة من المركبات الراكدة، وضربة الكونكريت على المطاط، أشبه بصفعة مضخمة بيد واحد بينما كانت (المرسيدس) ترتقي درب الدراجات الهوائية ذي الحاجز الحجري. عجلته الخلفية تضرب الحاجز الحجري أيضاً. عندئذ يصبح أمام الداخل عنوةً ويضغط على الفرامل. السيارات المسلوخة تقف على بعد ثلاثين ياردة عن إحداها الأخرى، محركاتها مطفأة، وعلى مدى لحظة هيمن صمت، وما من أحد يخرج منها.



بحسب معايير حوادث حركة مرور الشارع المعاصرة- عمل هنري ما مجموعه خمس سنوات في شعبة (الحوادث والطوارئ)- هذه مسألة عادية جداً. لا أحد يمكن أن يلحقه الأذى، ولن يلعب هو دور طبيب في المشهد. قام بمهمته مرتين في السنوات الخمس الماضية، كلتاهما بسبب نوبات قلبية، مرة في أثناء طيران الى نيويورك، والمرة الأخرى في صالة عمليات (لندن) الخالية من الهواء الطلق في أثناء موجة حر في حزيران (يونيو)، كلتا المناسبتين غير

مقنعة ومعقدة. لم يكنْ في حالة صدمة، لم يكن هادئاً أو مبتهجاً أو فاقد الحس بصورةٍ غير إعتيادية، لم تكن حاسة بصره حادةً بصورةٍ غير مألوفة، ولم يكن يرتعش. يصغي الى طقطقة المعدن الحار وهو يتقلص. ما يشعر به هو السخط المتنامي يكافح حيال الحذر الدنيوي. توّجب عليه ألا ينظر- تحطم أحد جانبي سيارته. كان يدرك سلفاً حقيقة أسابيع، شهور من العمل الورقي، المطالب والمطالب المضادة للتأمين، النداءات الهاتفية، التأخيرات في المرآب. شيء أصيل وغير مفسد سُرق من سيارته، ولا يمكن تعويضه، مهما كان التصليح جيداً. كان هناك أيضاً الصدمة على المحور (الأكسل) الأمامي، على المحامل، على تلك الأجزاء الغامضة التي تستحضر جوهر العذاب المطوّل- (ترس صغير تتداخل أسنانه في ترس كبير). سيارته لن تكون هي نفسها ثانيةً. تغيرتْ بصورةٍ هدّامة، وهكذا هو سبته. لن يمارس مباراته الرياضية.

فوق كل شيء، تتضخم هناك بداخله عاطفة حديثة بصورةٍ خاصة- إستقامة سائق السيارة، يلحم لحاماً بقعياً ولعاً بالعدالة إستجابة لرعشة الضغينة، في خدمتها عبارات بالية عديدة تقلبت عبر افكاره، أُعيدت لها الحياة، تطهرت من القوالب الجاهزة (الكليشهات): فقط سُحبتْ الى الخارج، ليس ثمة إشارة، ابن زنا مجنون، حتى لم ينظر، ما فائدة مرآته، (ابن زنا) ملعون. الشخص الوحيد الذي يكرهه في العالم يجلس في السيارة التي وراءه، وينبغي لـ هنري أن يتحدث إليه، يواجهه، يقايض تفاصيل التأمين معه - هذا كله حين يستطيع أن يلعب (السكواش). يشعر انه

أصبح في المؤخرة. ويبدو إنه يدرك الأمر: الذي يتراجع بصورة غافلة في شارع جانبي هو الشخص الآخر، في الأرجح نسخة معدلة منه، مثل عم غني متواري عن الأنظار، مستبطن[١٥] وسعيد، يقود مركبته خالي البال عبر سبته، تاركاً إياه وحيداً ويائساً، في مصيره الجديد، يبعد الاحتمال، الذي لا مفر منه. هذا شيء حقيقي. إنه يخبر نفسه إنه هكذا يكشف كم قليل إيمانه به حتى الآن. يلتقط مضربه من أرضية السيارة ويضعه ثانيةً على سطح ((المجلة)). يده اليمنى على مقبض الباب. لكنه لم يتحرك بعد. انه ينظر في المرآة. ثمة أسباب لأن يكون حذراً.

هناك، كما توقع ثلاثة رؤوس في السيارة التي خلفه. يعرف إنه عرضة لافتراضات غير مدروسة، ويحاول أن يدرسها الآن. بقدر ما يعي هو، رقص- الطية هو مهنة قانونية. لكنه إذا شاهد الرجال الثلاثة يسرعون، حتى بصورة مختلسة من الـ(تروست ويلكم) أو (المكتبة البريطانية) فلربما كان قد ترجل من سيارته. كونهم يركضون يجعل من الممكن انهم كانوا مستثارين أكثر منه بسبب التأخير. السيارة هي سلسلة من الرقم (٥) بي أم دبليو (BMW)، وهي مركبة يربطها ذهنياً لسبب غير جيد مع العمل الإجرامي، تجارة المخدرات. وإن هناك ثلاثة رجال وليس واحداً. أقصرهم في مقعد الراكب الأمامي، والباب في ذلك الجانب كان ينفتح بينما هو يراقب، مباشرة بعد أن كان باب السائق ينفتح، ومن ثم الباب الخلفي في الجانب الخاطئ. بيروني، الذي لم يكن عازماً على الوقوع في شرك التكلم من وضع جلوس، يخرج من

سيارته. التوقف الذي استغرق نصف دقيقة أعطى الموقف صفة (مباراتية) أُخذتْ فيها الحسابات قبل الآن. الرجال الثلاثة لهم أسبابهم الخاصة في التوقف ومناقشة حركتهم التالية. إنه شيء مهم، راح بيروني يفكر بينما هو يستدير الى مقدمة سيارته، أن يتذكر انه في جهة اليمين، وإنه غاضب. يجب عليه أيضاً أن يكون حذراً. إلا إن هذه الأفكار المتناقضة ليستْ نافعةً، وجعل يقرر إنه سيكون في حال أفضل أن يلغي تلمسه لطريقه صوب المواجهة، بدلاً من أن يزعج نفسه بقواعد إجرائية معدة لتناسب حالة معينة. حافزه عندئذ هو أن يتجاهل الرجال، يبتعد عنهم، ماشياً حول مقدّمة (المرسيدس) كي يرى الجانب المتضرر. لكنه حتى وهو يقف، يداه على وركيه، في وضع اعتداء مالكي، جعل يبقي الرجال، الذين يتقدمون الآن كمجموعة، على حافة المشهد المرئي.

بنظرة محدقة، يبدو أنه ليس ثمة ضرر البتة. مرآة الجناح سليمة، ليس هناك إنبعاجات في الأجزاء المحاطة بأطر؛ بصورةٍ مذهلة، الطلاء المعدني الفضي ما يزال نظيفاً. جعل ينحني الى الأمام كي يلتقط الضوء من زاوية مختلفة. بأصابع مبسوطة، مرر برفق كفاً فوق الهيكل، كما لو إنه عرف حقاً ماذا كان ينوي أن يفعل. لا شيء هناك. ولا شائبة. في مصطلحات مباشرة، (تكتيكية)، يبدو أن هذا سوف يتركه في وضع غير مؤاتٍ. لم يكنْ له شيء يكشفه بسبب غضبه. إذا كان هناك أي ضرر بأية حال، فإنه بمنأى عن الأنظار، بين العجلتين الأماميتين.

توقف الرجال كي ينظروا الى شيء ما في الطريق. الرجل القصير بالبذلة السوداء يمس بطرف حذائه مرآة الجناح المجزوزة للـ (بي أم دبليو)، يقلبها كما يحتمل أن يفعل المرء مع حيوان نافق. واحد من الاثنين الآخرين، وهو شاب طويل القامة بوجه طويل حدادي لحصان، يرفعها، يهزها بكلتا يديه كما لو إنه يهز طفلاً في مهد. خفضا عيونهم ناظرين إليها معاً ومن ثم، بملاحظة من الرجل القصير، أدارا وجهيهما صوب بيروني في الوقت نفسه، بفضول غير متوقع، كغزال أُعيق في غابة. أو مرة، خطر بباله إنه ربما يكون في نوعٍ ما من الخطر. رسمياً مسدود في كلا الطرفين، الشارع مهجور تماماً. خلف الرجال، في (طريق محكمة توتنهام)، رتل مبدد الشمل من المحتجين يشق طريقه كي يلتحق بالجزء الرئيس. راح بيروني ينظر من فوق كتفه. هناك، وراءه في شارع (غوور) بدأ طقس المسيرة. آلاف احتشدوا في طابور كثيف وحيد يتقدّمون صوب (بيكاديلي)، راياتهم في زوايا مائلة الى الأمام بصورةٍ طوليةٍ، كما في ملصق ثوري. من وجوههم، أيديهم وملابسهم كانوا يطلقون اللون الصارخ، تقريباً أشبه بالدفء، وهو لون خاص بالبشر المدمجين. من أجل تحقيق تأثير دراماتيكي، يسيرون في صمت إستجابةً لنقر مأتمي آتٍ من طبول المسيرة.

الرجال الثلاثة استأنفوا اقترابهم. كما في السابق، الرجل القصير– أغلب الظن طوله خمسة أقدام وخمسة انجات أو ستة– في الأمام. كانت مشيته مميزةً، مع التواء جازي (نسبة الى الجاز)

صغير وانحناء في جذعه، كما لو أنه يدفع بنطاً[١٦] بمجذاف على طول امتداد رقيق من نهر ما. السائر بنطاً من الـ(سبيرمنت راينو). ربما كان يصغي الى المجسم (الستريو) الخاص به. بعض الناس لا يذهبون الى أي مكان، حتى في أثناء نزاعاتهم، من دون المسجل الصوتي. الآخران لهما سلوك تابعين، صديقين حميمين. كانا يرتديان أحذية تدريب، (تراكسوتين) وغطائي رأسين مختلفي اللون– العملة المتداولة للشارع، شائعة جداً بحيث لا تكون موضة على الاطلاق. يرتدي ثيو بعض الأحيان بهذه الطرقة كي، هكذا يقول، لا تُتخذ القرارات حول مظهره. الشخص بوجه الحصان ما يزال يحمل مرآة الجناح بكلتا يديه، من المفترض أن يحقق غايةً ما. الخفقان الصارم للطبول غير مفيد للموقف، وإن الحقيقة القائلة أن أناساً كثيرين جداً بالقرب منه، غير واعين به، تجعل هنري يشعر بمزيد من العزلة. الأفضل أن يستمر في الظهور بمظهر المشغول. انحنى قريباً من باب السيارة، ملاحظاً علبة (كوكي) مسحوقة تحت العجلة الأمامية من ناحيته. هناك، كما يرى الآن، بارتياح وسخط معاً، منطقة غير منتظمة في الباب الخلفي حيث تضاءل اللمعان، كما لو أنها مدعوكة بقماش صقل ناعم. مؤكد نقطة التماس، مقتصرة على رقعة بقياس قدمين. كم كان مصيباً، حين كان ينحرف مبتعداً قبل أن يضرب الكابح (الفرامل). يشعر الآن أنه أكثر ثباتاً، مقوماً جذعه كي يواجه الرجال وهم يتوقفون أمامه.

على خلاف بعض زملائه– المضطربين عقلياً بسبب الجراحة–

هنري حقيقةً لا يستسيغ المواجهة الشخصية. هو ليس من الطراز الذي يستخدم المنجل ببراعة. إلا إن الخبرة السريرية هي، بين الأشياء الأخرى كلها، عملية كاشطة، مخشنة، مؤكد إنها تُبلى تبعاً لحساسياته. المرضى، الأطباء الأصغر سناً، الذين فقدوا آباءهم مؤخراً، الادارة بطبيعة الحال - بصورة محتومة في أثناء عقدين من الزمن، أتت اللحظات التي كان مطلوباً منه في أثنائها أن يقاوم وضعه الحرج، أو يفسر، أو يسترضي في مواجهة الارتفاع العاطفي المفاجئ الصاخب. كان هناك بصورة مألوفة أشياء كثيرة في حالة الرهان- بالنسبة للزملاء، مسائل التسلسل الهرمي والفخر المهني أو الموارد الضائعة للمستشفيات، بالنسبة للمرضى فقدان العضو الجسدي، بالنسبة لأقاربهم، زوج أو طفل يموت موتاً مفاجئاً- قضايا أعظم شأناً من سيارة مخدشة. بخاصةً حين تشمل المرضى، هذه اللحظات تملك صفتي النقاء والبراءة؛ كل شيء يتجرّد الى أصول الكينونة- الذاكرة، الرؤية، القدرة على تمييز الوجوه، الألم المزمن، الوظيفة الحركية، وايضاً الإحساس بالذات. ما يكمن في الخلفية، متوهجاً بصورةٍ باهتة، هي مواضيع المعرفة الطبية، المعجزات التي تنجزها، الايمان الذي تلهمه، ومقابل ذلك، جهل الدماغ المتناقص ببطء لكنه ما يزال ضخماً، وجهل العلاقة بين الاثنين. إن ثقب الجمجمة بصورةٍ منتظمة بنجاح معتدل هو مغامرة حديثة نسبياً. تحصل حتماً في بعض الأحيان خيبة أمل، وحيث تأتي، تكون المكاشفة مع أقارب المريض في مكتبه، لا أحد يحتاج لأن يحسب حساب كيف يتصرف أو ماذا

يقول، لا أحد يشعر بأنه مراقَب.

بين معارف بيروني أولئك الأطباء الذين لا يتعاملون مع الدماغ، إنما مع العقل فقط، مع أمراض الوعي؛ هؤلاء الزملاء يعتنقون تقليداً، مجموعة من الأهواء فقط قلما يُعبر عنها في يومنا هذا، بأن جراحي الأعصاب حمقى متغطرسون متخبطون ذوو أدوات غير حادة، مجبرو عظام أطلق سراحهم على أعقد شيء في الكون المعروف. حين تخفق عملية جراحية، يميل المريض أو أقاربه الى الموافقة على هذا الرأي. إنما فات الأوان. ما يقال آنذاك مأساوي ومخلص. مهما كانت هذه التعهدات النابعة من القلب مروّعةً، مهما يعرف نفسه كثيراً بكونه أُفتري عليه بواسطة ذاكرة مريض فقيرة أو خادمة لنفسها في الكيفية التي تم فيها اختصار المخاطر، مهما كان اليقين الذي أنجزه في صالة العمليات فضلاً عن المعرفة الحديثة والتقنيات التي تسلم به، يأتي بيروني ليس مشذباً فقط– يبدو انه أخفق ظاهرياً استجابةً لآمال أدنى– إنما منقى بصورةٍ مبهمة: كان يملك تبادلاً إنسانياً رئيساً، جوهرياً بطريقته الخاصة كالحب.

إنما هنا في شارع (الجامعة) من المستحيل أن لا يشعر المرء بأن انتحال شخصية أخرى على وشك أن يبدأ. يرتدي كالفزاعة، جزةً ناعمة بالية من الصوف، كنزته الصوفية بصفها من الثقوب، سرواله الملطخ بالأصبغة مسنوداً بحبل محبوك، يقف عند محركه النشيط. كان قد اختير له دور ليمثله، وما من سبيل للهرب. هذه، كما يحب الناس أن يقولوا، مسرحية مدينية. قرن من الأفلام

السينمائية ونصف قرن من التلفاز جعلا المسألة مرائية. انها حيلة خالصة. هي ذي هنا السيارات، وهاهم أولاء المالكون. هاهم الرجال، الغرباء، الذي كان احترامهم لذاتهم على الحد الفاصل. شخص ما سوف يفرض إرادته ويفوز، والآخر سوف يستسلم. الثقافة الشعبية أنهكت هذه المسألة فجعلتها ناعمة بالتكرار المضجر، هذا الإرث الوراثي الموغل في القدم الذي يرفق أيضاً مكائد الضفادع، والديكة الصغيرة، والمهور غير المروضة. وعلى الرغم من الشيفرة الكسائية المتنوعة والعرضية، هناك قواعد مدروسة على غرار كياسة محكمة (فرساي) بحيث لا تستطيع أن تعبر عنها مجموعة كاملة من الجينات. بدءاً، لم يكنْ مسموحاً فيما هم واقفون هناك أن يسلموا بالوعي الذاتي بالحدث، أو بتهكمه المتغطرس: من أعلى الشارع، يمكنهم أن يسمعوا المشي بثقل على الأقدام وأصوات الطبول القبلية لبائعي السلام. الأكثر من ذلك، لا شيء يمكن التنبؤ به، إنما كل شيء، حالما يحدث، سوف يبدو ملائماً.

((سيجارة؟))

هكذا على وجه الدقة. هكذا يجب أن يحدث الأمر.

بايماءة عتيقة الطراز، قدّم السائق الآخر العلبة بحركة خاطفة من الرسغ، مرتباً السجائر غير المسوسة كأنابيب الارغن. كانت اليد الممسكة باحكام الممتدة نحو بيروني ضخمة، فضحتْ طول قامة الرجل، وذات شحوب ورقي، مع الشعر الأسود الملتف في

القفا، ويمتد الى المفاصل الأبعد الواقعة بين السلاميات. الارتعاش المتواصل جذب ايضاً انتباه بيروني المهني. أغلب الظن يجب إعادة التأكد من عدم ثبات المسكة.

((لا أدخن، شكراً.))

أشعل واحدةً له وجعل ينفخ الدخان مروراً بـ هنري الذي خسر الآن نقطةً واحدةً – فهو لم يكن رجلاً بدرجة كافية كي يدخن، أو بصورة جوهرية أكثر، كي يقدم الهبات. الشيء المهم أن لا يكون خاملاً. كان يجب أن يقوم هو بهذه الحركة. قدّم يدّه للمصافحة.

((هنري بيروني.))

((باكستر.))

((سيد باكستر؟))

((باكستر.))

يد باكستر ضخمة، يد هنري أكبر جزئياً، غير أن أياً منهما لم يحاول أن يظهر قوته. كانت مصافحتهما خفيفة وموجزة. باكستر هو واحد من اولئك المدخنين الذي كانت مسام جسمه تفرز عطراً، جوهراً زيتياً لعادته. الثوم يؤثر في أناس معينين بالطريقة ذاتها. من المحتمل إن الكلى متضمنة في المسألة. كان شاباً متململاً، صغير الوجه بحاجبين كثيفين وشعر بني قاتم مقصوص بماكينة الحلاقة قريباً من الجمجمة. الفم بصلي الشكل، مع الظل المحلوق بنعومة للحية ضخمة يضيف الى مظهر

كمامة. السيماء القردية العامة مضاعفة بواسطة الكتفين المنحدرين، والعظمان الناتئان في الرسغين عند قاعدتي الابهامين يوحيان بالاوقات التي أمضاها في ممارسة الجمباز، معوّضاً عن طول قامته في الأرجح. بذلة موضة الستينيات – فصال ضيق، طيتا صدر السترة عاليتان، سروال بواجهة مسطحة بالٍ من جهة الورك – تأخذ (أي البذلة) بعض الشد حول زر السترة الوحيد المغلق. هناك أيضاً ضيق في القماش حول العضلة ذات الرأسين في أعلى الذراع. يدور نصف دورة ويميل بعيداً عن بيروني، ثم يميل الى الوراء. يعطي الانطباع بتوق مضطرب، بطاقة مهلكة تنتظر أن يطلق سراحها. ربما كان على وشك أن يندفع بعنف. بيروني حسن الاطلاع على بعض الآثار الأدبية المعاصرة التي تتناول العنف. هو ليس دائماً حالة مرضية؛ الكائنات الاجتماعية ذوات المصلحة الشخصية تجد أنه من المنطقي أن يكون المرء عنيفاً في بعض الأحيان. وسط منظري الألعاب الرياضية والباحثين الراديكاليين في علم الجريمة، رأسمال توماس هوبز[١٧] يواصل الصعود. اخضاع الجامحين، قطاع الطرق، الى المراقبة هو ((السلطة العامة)) الشهيرة كي نبقي الأفراد جميعاً في رهبة– قوام الحكومة، ذراع من أذرع الدولة، وهبت الاحتكار الحرية في الاستخدام الشرعي للعنف. غير أن تجار المخدرات، القوادين، وسط كثيرين ممن يحيون خارج القانون، لا يميلون الى تزويل الرقم تسعة– تسعة– تسعة طالبين (اللوياثان)[١٨] ؛ انهم يسوون خلافاتهم بطريقتهم الخاصة.

يفكر بيروني، الذي كان تقريباً أطول من باكستر بقدم

واحد، بأنه إذا وصل الأمر الى الشجار سيكون من الحكمة أن يحمي خصيتيه. لكنها فكرة سخيفة، ذلك أنه لم يخض قتالاً إلتحامياً منذ أن كان في الثامنة من عمره. ثلاثة مقابل واحد. هو ببساطة لن يدعه يحدث.

ما إن تصافحا، حتى راح باكستر يقول: ((توقعت إنك متهيأ بكل معنى الكلمة لتقول لي كم أنتَ متأسف بصدق.)) راح ينظر للوراء، مروراً بـ (المرسيدس) الى سيارته حيث أُوقفت عند فاصلة مائلة عبر الطريق. خلفها خط غير منتظم، ثلاثة أقدام عن الأرض، كُشط على طول جانبي نصف دزينة من السيارات الموقوفة عند مقبض باب الـ (بي أم دبليو). إن ظهور فقط مالك واحد غاضب في الشارع الآن سيكون كافياً لتفجير شلال صغير من مطالب الضمان. هنري، الذي يعرف مقداراً كبيراً من العمل الورقي، بوسعه أن يفهم سلفاً ضرره طويل الأمد. الأفضل بكثير أن يكون واحداً من ضحايا كثيرين على أن يكون الآثم الأصلي.

يقول، ((أنا متأسف حقيقةً كونك مررتْ من دون أن تنظر.))

أذهل نفسه. هذه الـ ((حقيقةً)) المنمقة، المهجورة بصورةٍ ضعيفة لم تكن على العموم جزءاً من قاموسه. نشرها يستلزم القرارات؛ هو لن يتظاهر بلغة الشارع. إنه يستند إلى الوقار المهني.

يضع باكستر يده اليسرى على اليمنى، كما لو إنه يهدئها. يقول بصبر، ((لا حاجة الى أن أنظر، أليس كذلك؟ [شارع محكمة توتنهام] مغلق. ليس من المفروض أن تكون هناك.))

يقول بيروني، ((قواعد الطريق غير معلّقة. علي أي حال، رجل شرطة لوّح لي عبر الشارع.))

((رجل شرطة؟)) باكستر ينفصل ويتكئ على المعنى جاعلاً إياه يبدو طفولياً. يلتفت الى أصدقائه. ((هل رأيتما رجل شرطة؟)) وبعدها يعود الى بيروني، بأدب هازئ، ((هذا نارك، وهذا نايجيل.))

حتى الآن، كان الاثنان واقفين عند أحد الجانبين، خلف باكستر مباشرةً، يصغيان من دون تعبير. نايجيل هو الرجل بوجه الحصان. رفيقه ربما يكون شرطياً مخبراً، أو مدمناً على المخدرات أو، مانحاً مظهره الغيبوبي، مبدياً حالة خدار(١٩).

((ليس ثمة شرطة في هذه المنطقة))، يشرح نايجيل. ((انهم مشغولون جميعاً بحثالة المتظاهرين.))

تظاهر بيروني بتجاهل كلا الرجلين. قضيته هي مع باكستر. ((هذه هي اللحظة التي نقايض بها تفاصيل الضمان.)) الثلاثة كلهم قهقهوا لدى سماع ذلك، لكنه استطرد قائلاً، ((إذا لم نستطع الاتفاق على ما جرى، سوف نتصل هاتفياً بالشرطة.)) نظر الى ساعته. جي شتراوس سيكون في الملعب، يحمي الكرة. لم يكن الوقت متأخراً جداً كي يتم تسوية المسألة وأن يواصل طريقه. لم يظهر رد فعل من باكستر عند ذكر الاتصال الهاتفي. بدلاً من ذلك، يأخذ مرآة الجناح من نايجيل ويعرضها أمام ناظري بيروني. الأخاديد الشبيهة بشبكة العنكبوت في الزجاج تظهر

السماء في فسيفساءات من اللون الأبيض والأزرق الأشعث التي تومض مع الاهتياج في يد باكستر. نبرة صوته لطيفة.

((لحسن حظك، لي صديق حميم يؤدي عمل السمكرة، بأجر زهيد. لكنه يقوم بعمل جميل. أعتقد انه سوف يخفض لي سبعة جنيهات ونصف.))

نارك ينهض نفسه. ((ثمة نقطة أوراق مالية عند ملتقى الشارعين.))[٢٠]

نايجيل، كما لو انه ذهل بصورة سارة بالفكرة، يقول: ((أجل. يمكننا أن نتمشى الى هناك معك.))

هذان الاثنان غيرّا موضعهما بحيث إنهما تقريباً، إنما ليس كلياً، أحاطا بـ هنري. باكستر في غضون ذلك يخطو الى الوراء. كانت المناورات مدروسة بطريقة غير متقنة، كباليه أطفال سيء التدريب. إنتباه بيروني، إحترامه المهني، يستقر مرةً ثانية على يد باكستر اليمنى. لم يكن ببساطة إرتعاشاً، إنه قلق متململ يتضمن عملياً العضلات كلها. تأملها هدأه، حتى وهو يشعر أن كتفي كلا الرجلين تضغطان برفق عبر جزته الصوف. وعلى العكس، لم يعدْ يشعر هو نفسه بأنه في أي خطر كبير. يشق أن نأخذ الثلاثة على محمل الجد، فكرة الأوراق المالية لها صفة صبيانية، كاذبة. كل شيء قيل يبدو أشبه باقتباس من شيء ما شاهدوه جميعاً دزينةً من المرات قبلاً ونصف منسي.

على صوت بوق يُعزف عليه ببراعة، التفت الرجال الأربعة كي

يراقبوا المسيرة. انها سلسلة معقدة من تعاقبات موسيقية متقطعة تنتهي بنغمة موسيقية عالية متناقضة تدريجياً. لعلها كانت مقطعاً من (كانتاتا) لـ باخ، لأن هنري راح يتخيل فوراً صوت سوبرانو وسيماءً كئيبةً بصورةٍ جميلة، وفي الخلفية فيلونسيل (جلو) ساند ينشر بصورة متقنة. في شارع (غوور) مفهوم مسيرة مأتمية تأنيبية لم يعد مستمراً. كان عسيراً أن تبقى مع آلاف من البشر المحتشدين في طابور يمتد فوق مئات الياردات. الآن الأناشيد والتصفيق ترتفع وتهبط في الحجم بينما كانت أقسام مختلفة من الحشد تتحرك مارة بنقطة الاتصال مع شارع (الجامعة). كانت نظرة باكستر الثابتة عليه بينما كان يمر، قسمات وجهه تشوهت بدرجة طفيفة، وتوترتْ بفعل الأسف. تعبير موجز من كتاب منهجي خطر ببال هنري بالطريقة نفسها تقريباً كلحن (الكانتاتا)– ارتفاع متواضع في مستوى الادرينالين في جسمه يجعله ترابطياً[٢١] بصورة غير مألوفة. أو أن ضغوطات الأسبوع المنصرم لن تحرره من العادات، من المباراة الفكرية للتشخيص. التعبير الموجز هو، ((إحساس زائف بالتفوق)). أجل، يمكن أن يُكبح الى تغير طفيف في الشخصية، متقدماً على الارتعاشات الأولى، نوعاً ما دون تلك الحالات الأخرى المتعلقة بعلم الأعصاب، مضعفاً إياها بصورةٍ أقل– العظمة المتكلفة، أوهام الفخامة. لكنه ربما يتذكر بصورة خاطئة. علم الأعصاب ليس حقله. في ما كان باكستر ينظر الى المتظاهرين، جعل يقوم بحركات صغيرة جداً برأسه، إيماءات بالرأس واهتزازات. مشاهداً اياه وهو يختفي عن الأنظار على مدى ثواني

قليلة، يفهم بيروني فجأةً– باكستر غير قادر على أن يبدأ أو يقوم بحركات عين متقلبة– تلك التغيرات المضطربة لوضع العين من تثبيت الى آخر– كي يمسح الحشد بنظراته، عليه أن يحرك رأسه.

كما لو أنه في تثبيت العماد، بدير كل جسده صوب بيروني ويقول بصورةٍ لطيفة، ((حشد رهيب. ينظفون باسفنجة: البلد الذي يكرهونه.))

يعتقد بيروني انه يفهم بدرجة كافية عن باكستر إذ يتوجب على الأخير أن يغدو واضحاً. غير مبالٍ بـ نايجيل ونارك الواقفين بجانبه، راح يستدير ناحية سيارته. ((لن أعطيك نقداً))، يقول برفض. ((إني أعطيك تفاصيلي إن لم ترغب باعطائي تفاصيلك، فهذا شيء رائع. رقم تسجيلك سوف يفي بالغرض. سأكون في طريقي.)) بعدها يضيف قائلاً، بصورة صادقة (بالكاد)، ((تأخرت عن اجتماع مهم.))

إلا أن معظم هذه الجملة طمس بواسطة صوت واحد، صيحة غيظ.

حتى وهو يستدير للوراء صوب باكستر في دهشة، وحتى وهو يرى، أو يحس، ما كان يأتي نحوه في سرعة كهذه، يبقى هناك في جزءٍ من أفكاره خبير بتشخيص الأمراض، متكاسل، وراجل يلاحظ ضبط النفس الهزيل، القدرة العاطفية، المزاج المتفجر، الموحي بالمستويات المنخفضة من حامض غاما أمينو بيوترك[٢٢] وسط مواقع الربط المناسبة في الخلية العصبية المخططة. هناك

كثير من المسائل الإنسانية التي يمكن تفسيرها على مستوى الجزيئة المعقدة. من بوسعه أن يحسب حساب الضرر الذي ألحق بالحب والصداقة وكل تمنيات السعادة من خلال فرط أو استنزاف هذه المرسلة العصبية أو تلك؟ ومن ذا الذي يجد فضيلةً، أخلاقاً وسط الانزيمات والحوامض الأمينية حين يكون الميل العام هو نحو النظر الى الاتجاه الآخر؟ في سنتها الثانية في (جامعة أوكسفورد)، منذهلةً بمدرس أحمق مليح، حاولت ديزي أن تقنع والدها أن الجنون مُنشأ اجتماعي، مثل مبتذل بواسطته ابتز الغني- ربما فهم هذا خطأً- الفقير. الأب والبنت انهمكا في واحد من نقاشاتهما الفعالة الذي انتهى مع هنري، بانقلاب بلاغي، وهو يقترح عليها جولة في جناح مغلق خاص بالطب النفسي. بتصميم، قبلتْ الاقتراح، وبعدها نسيت المسألة.

على الرغم من التركيز البصري المعطل لـ باكستر، ورقاصه[٢٣]، تلك الحركات السريعة، المتشنجة، الضربة التي استهدفت قلب بيروني وكونه يراوغ فقط جزئياً، هبطتْ على عظم الصدر (القص) العائد له بقوة جبارة، بحيث بدت له، واغلب الظن كانت الحالة فعلاً كذلك، تجيش هناك عبر أوصال جسده حافة حادة، موجة صدمة، من ارتفاع ضغط الدم، رعشة ارتجاجية تحمل معها وجعاً ليس بالكثير مثل رجة كهربائية من الذهول وقشعريرة مميتة موجزة ذات مكوّن بصري من العمى، الابيضاض الثلجي.

((حسن))، يسمع باكستر يقول: هذه الكلمة كانت أمراً لرفيقيه.

أمسكا هنري من مرفقيه وساعديه، وحينما كانت رؤيته تتضح جعل يرى انه دفع عبر فجوةٍ بين سيارتين متوقفتين. معاً عبرا الرصيف بسرعة. أداراه ودفعا ظهره بصخب على باب ثنائي مغلق بسلسلة في تجويف ما. جعل يرى على الجدار الى شماله صفيحةً مصقولةً من النحاس الأصفر تقول [مطفئة حريق، سبيرمنت راينو]. في أعلى الشارع حانة تحمل اسم (جيريمي بنثام). اذا كانت مفتوحة في هذا الوقت المبكر، فان شاربو الخمر هم جمعاً في الداخل وسط الدفء. بيروني يملك أسبقيتين فوريتين ضرورتهما تستمر بينما كان وعيه التام يعود. الأولى أن يحافظ على وعده لنفسه ألا يخوض المعركة. كانت اللكمة قد أخبرته الآن مقدار الخبرة التي تنقصه. الثانية أن يبقى على قدميه. رأى عدداً كبيراً من اصابات الدماغ بين أولئك الأفراد غير المحظوظين بدرجة كافية يهوون أرضاً أمام مهاجميهم. القدم، على غرار مدينة ريفية فظة، هي مقاطعة بعيدة جداً من مقاطعات الدماغ، متحررة بفعل المسافة من المسؤولية. ان الركلة أقل صميميةً، أقل تأثيراً، من اللكمة، وان ركلةً واحدةً لا تبدو كافيةً تماماً. سابقاً في الأيام الملحمية لعنف كرة القدم المنظم حين كان مقيماً أقدم، تعلّم كثيراً حول الأورام الدموية تحت غشاء الدماغ[٢٤] الناجمة عن جزمة الدكتور ماتينز[٢٥] ذات الرأس الفولاذي.

يقف في مواجهتهم في كهف صغير من الطابوق المبيّض بماء الكلس لتجويف ماء، بعيداً عن انظار المسيرة الجماهيرية. ضخم البناء الصوت الخشن لأنفاسهم. أخذ نايجيل حفنةً من جزة صوف

بيروني وباليد الأخرى جعل يفتش عن محفظة الجيب البارزة العائدة له التي كانت في الجيب الداخلي ذي (السحّاب).

((كلا))، يقول باكستر. ((لا نريد نقوده.))

من خلال هذا يفهم بيروني أن الاجلال، يجب تعويضه من خلال ضرب موجع شامل. كما حصل مع تفاصيل الضمان، يرى المستقبل الحزين أمامه. أسابيع من التفاهة الموجعة. ربما ذلك شيء متفائل. نظرة باكستر المحدقة مسلطة عليه، نظرة لا يمكن تحويلها ما لم يحرك كل رأسه الثقيل الحليق. وجهه ينبض بالحيوية مع ارتعاشات صغيرة، لا تشكل تماماً تعبيراً ما. انه تململ عضلي سوف يصبح ذات يوم – هذه هي فكرة بيروني المتأملة – athetoid[٢٦]، مبتلى بالحركات اللاإرادية، المتعذر ضبطها.

ثمة إحساس بين الثلاثة يتعلق بالتوقف المؤقت من أجل التقاط الأنفاس، بالاستقرار قبل انجاز العمل. كان نارك قد ضمّ قبضته اليمنى الآن. رأي بيروني ثلاثة خواتم في السبابة، الوسطى والبنصر، أطواقاً من الذهب عريضة مثل رصاص منشور. يملك، يظن هو، ثواني قليلة أمامه. باكستر في منتصف عشرينياته. هذه ليست لحظة السؤال عن تاريخ عائلته. إذا كان أحد الأبوين يملك المرض، فأنت تملك فرصة خمسين بالمائة في الاصابة به أيضاً. الكروموسوم الرابع. سوء الحظ يكمن في داخل مورِّثة (جينة gene) واحدة، في تكرار مفرط لسلسلة واحدة- السايتوسين الأدينين الغوانين[٢٧]. هنا حتمية بايولوجية في أنقى أشكالها. أكثر

من أربعين تكراراً لتلك الشيفرة الصغيرة، ويُحكم عليك. مستقبلك ثابت ويمكن التنبؤ به بيسر. كلما كان التكرار أطول يكون الهجوم أكبر وأكثر قسوةً. يستغرق إكمال المسار مدةً تتراوح بين عشرة الى عشرين عاماً، من التغيرات الطفيفة الأولى للشخصية، الارتعاشات في اليد والوجه، الاضطراب العاطفي يتضمن- بصورة بارزة جداً- التغيرات المفاجئة، التي يتعذر السيطرة عليها للمزاج، الى الحركات العاجزة الشبيهة برقصة متشنجة، التخريب الفكري، إخفاق الذاكرة، عدم المعرفة، العمه الحركي[٢٨]، الجنون، الفقدان التام للسيطرة العصبية، التصلّب غالباً، الهلوسات الكابوسية والنهاية الخالية من المعنى. هكذا تكون الكيفية الآلية الرائعة للكينونة مهملةً من قبل أصغر الأجزاء الثانوية الخاطئة، الهمس الماكر للدمار، فكرة سيئة واحدة مودعة في كل خلية من الخلايا، في كل كروموسوم رابع. لا شيء نفقده من خلال التخمين. يتكلم هو عن إنفعال باكستر.

يسحب نارك الآن ذراعه اليمنى التي ينوي الضرب بها. يبدو نايجيل راضياً في أن يدعه يذهب أولاً. سمع هنري أن الهجوم المبكر يميل الى أن يتهم المورّثة الأبوية. لكن من المحتمل الا يكون ذلك صحيحاً. لا شيء نفقده من خلال التخمين. يتكلم هو عن انفعال باكستر.

((كان والدك يملكه. الآن أنت تملكه أيضاً.))

كان له انطباع عن ذاته بوصفه طبيباً مشعوذاً يوجه لعنةً. التعبير البادي على وجه باكستر يشق أن نحكم عليه. يقوم بحركة مبهمة، حُمية (متعلقة بالحمى) بيده اليسرى كي يكبح رفيقيه. هيمن صمت بينما كان يبتلع ويشد الى الأمام، مقطباً، كما لو أنه يهم بإزالة انسداد عن حنجرته. عبرّ بيروني عن نفسه بصورةٍ غامضة. ((كان)) التي قالها من السهولة أن تُظن بوصفها ((الآن)). ووالد باكستر، حياً أو ميتاً، ربما لا يكون معروفاً من قبل ابنه. الا أن بيروني يعد باكستر عارفاً بحالته. إذا كان يعرف، لن يخبر نايجيل أو نارك أو أياً من أصدقائه. هذا هو عاره السري. ربما يكون في حالة إنكار، عارفاً وليس عارفاً؛ عارفاً ومفضلاً عدم التفكير بشأنه.

حين راح باكستر يتكلم أخيراً، كلن صوته مختلفاً، حذراً ربما.

((هل كنت تعرف والدي؟))

((أنا طبيب.))

((أنت كاللعنة، بلباسك هذا.))

((أنا طبيب. هل شرح لك أحدهم ما الذي سيحدث؟ هل تريدني أن أخبرك ما أعتقد انها مشكلتك في الأرجح؟))

يؤدي غرضه، الابتزاز بالتهديد يؤدي غرضه. ينفجر باكستر بالغضب بغتةً. ((أي مشكلة؟))

وقبل أن يرد عليه، يضيف قائلاً بضراوة، ((وأنت سوف تغلق

اللعنة.)) بعدها، بسرعة، جعل يخمد، وينصرف. كانا معاً، هو وبيروني، في عالمٍ ليس طبياً، إنما سحري. عندما تكون مريضاً ليس من الحكمة أن تسيء معاملة الشامان[٣٠].

يقول نايجيل، ((ما الذي يجري؟ ماذا كان يملك والدك؟))

((اخرس.))

كانت لحظة الضرب عابرةً وراح بيروني يشعر ان الطاقة تمر إليه. مختلى الإفلات من النار هذا هو حجرة الاستشارة الطبية الخاصة به. حجمه الحقير يعيد الى ذهنه صوتاً يسترد الجرس الكامل لسلطته. يقول:((هل ترى أحداً ما في ما يتعلق به؟))[٣٠]

((عماذا يتكلم، باكستر؟))

يدفع باكستر مرآة الجناح المكسورة بين يديّ نارك. ((اذهب وانتظر في السيارة.))

((أنتَ تمزح.))

((أنا أعني ذلك. كلاكما. اذهبا وانتظرا في السيارة اللعينة.))

كان جلياً بصورةٍ يُرثى لها، يأس باكستر من فصل صديقيه عن الرجل الذي يقاسمه سره. تبادل الشابان النظرات وهزا أكتافهما بسخرية. بعدها، من دون أن يلقيا نظرة على بيروني، انطلقا عائدين الى الشارع. يصعب علينا أن نتصوّر أنهما لا يعتقدان أن شيئاً خاطئاً حصل لـ باكستر. غير إن هذه هي المراحل المبكرة من المرض، وتقدّمه بطيء. ربما لم يكونا يعرفان منذ زمن طويل. وان سيراً جازياً (نسبة الى الجاز)، ارتعاشاً ممتعاً، الوميض الرياني

العرضي لتأرجح المزاج ربما في بيئتهما يحدد رجلاً ذا شخصية. حين يصلان الـ (بي أم دبليو) يفتح نارك باباً خلفياً ويقذف مرآة الجناح في داخل السيارة. جنباً الى جنب، استندا الى مقدمة السيارة يراقبان باكستر وبيروني، أذرعهما مطوية كأغطية الفيلم السينمائي.

يلح بيروني قائلاً بوداعة: ((متى توفي والدك؟))

((اترك الأمر.))

لم يكن باكستر ينظر إليه. كان يقف متململاً مديراً كتفيه، كطفلٍ متجهم الوجه ينتظر أن تتم ملاطفته، غير قادر على أن يقوم بالحركة الأولى. هنا توقيع الأمراض المحرضة للأعصاب الكثيرة جداً– الانتقال السريع من مزاجٍ الى آخر، من دون احتراس أو ذاكرة، أو فهم كيف يبدو للآخرين.

((هل أمك ما تزال حيةً؟))

((ليست حية بقدر تعلق الأمر بي.))

((أأنت متزوج؟))

((لا.))

((هل اسمك الحقيقي باكستر؟))

((هذه المسألة تخصني.))

((حسن. من أي مدينة أنت؟))

((نموتُ في فولكيستون.))

((وأين تسكن الآن؟))

((في شقة والدي القديمة. كنتش تاون.))

((هل لديك مهنة، تدريب، كلية؟))

((لم أستمر في الدراسة. ماذا يعنيك هذا الأمر؟))

((وماذا قال لك طبيبك حول حالتك المرضية؟))

هز كتفيه بلا مبالاة. لكنه تقبل حق بيروني في استجوابه. انزلقا الى دوريهما وتابع بيروني استجوابه.

((هل ذكر أحد لمرض هنتنغتون[٣١] لك؟))

صوت خشخشة ضعيف وممل، كصوت أحجار مهتزة في علبة صفيح، يصل إليهما من المسيرة. باكستر ينظر الى الأرض. عدَّ بيروني صمته برهاناً على صحة ما قاله.

((هل تريد أن تخبرني من هو طبيبك المعالج؟))

((ماذا يلزمني أن أخبرك؟))

((بوسعنا أن نحيلك الى زميلٍ لي. انه طبيب جيد. بوسعه أن يجعل الأشياء أسهل لك.))

عند هذه اللحظة يدير باكستر رأسه ويميله جانباً في سعيه الى أن يرسخ صورة الرجل الطويل في نقرته، ذلك المنخفض الصغير في الشبكية التي تكون فيها الرؤية حادة جداً. لم يكن ثمة شيء يمكن أن يفعله أي فرد بشأن جهاز الحركة المتقلبة للعين الذي لحق به الضرر. وعموماً، لم يكن هناك ما يقدم على الاطلاق لهذه الحالة المرضية، ما وراء ترويض الصفات الموروثة. غير إن هنري يرى الآن في تقاسيم باكستر المستثارة طمعاً مفاجئاً، توقاً للاطلاع أو الأمل. أو ببساطة حاجةً للتكلم.

((ما الذي يجعل الأشياء أسهل؟))

((التمارين. عقاقير معينة.))

((تمرين...)) عبّر عن دهشته من الكلمة. كان على حق في أن يختار حماقة، ضعف الفكرة. جعل بيروني يتابع.

((ماذا قال لك طبيبك؟))

((قال لي انه لا يوجد شيء، صحيح.))

يقول هذا بوصفه تحدياً، أو استدعاءً لإثم؛ بيروني أُنقذ مؤقتاً من شرٍ ما، وبالمقابل توّجب عليه أن يأتي بسبب للتفاؤل، إن لم يأتِ بعلاج. يريد باكستر أن يتم البرهنة على إن طبيبه مخطئ.

إلا أن بيروني جعل يقول، ((في اعتقادي إنه على صواب. كان هناك عمل ما في زرع خلية جذعية[٣٢] في أواخر التسعينيات لكن...))

((كان ذلك براز.))

((نعن، كان مخيباً للآمال. الأمل الأفضل الآن ظاهرياً هو تداخل الـ RNA[٣٣]))

((أجل. إسكات المورّثة. ذات يوم في الأرجح. بعد وفاتي.))

((إذاً أنتَ راضٍ على هذا.))

((أوه شكراً، دكتور. ولكن ما هذا الذي تقوله عن بعض العقاقير؟))

بيروني مطلّع على هذا الحافز عند المرضى، هذا السعي لأكثر الأدلة هزالاً. إذا كان ثمة عقار، باكستر أو طبيبه سوف يعرف

عنه. إنما من الضروري لـ باكستر أن يراجع. ويراجع ثانيةً. شخص ما ربما يعرف، شيئاً لا يعرفه هو. كلما يمر اسبوع بالوسع أن يكون هناك تطوّر جديد. وعندما ينتهي الخط في هذا المجال، يبقى الرجال في انتظار المخيف، مقدّماً غذاء نواة المشمشة، رسالة النسيم، طاقة الصلاة. من فوق كتف باكستر يستطيع بيروني أن يرى نايجيل ونارك. لم يعودا يتكئان على السيارة، إنما راحا يتمشيان ذهاباً وإياباً أمامها، يتحدثان بصورةٍ نابضةٍ بالحيوية، مومئين الى أعلى الشارع.

يقول بيروني، ((انني أتحدث عن إزالة الوجع، إنه يساعد في حالات فقدان التوازن، الارتعاشات، والكآبة.))

يحرك باكستر رأسه من جانب الى آخر. العضلات في خديه نابضة بالحيوية بصورةٍ مستقلة. يحس هنري تحوّلاً وشيكاً للمزاج. ((أوه تباً))، يواصل باكستر مهمهماً لنفسه. ((أوه تباً.)) في هذا الطور الانتقالي من الحيرة أو الحزن، التقاسيم المبهمة الشبيهة بالقرد خُففتْ، وحتى أصبحت جذابة. هو رجل ذكي، ويعطي الانطباع، ناهيك عن المرض، كونه أضاع فرصه، ارتكب أخطاءً كبيرةً وانتهى به المطاف في الرفقة السيئة. في الأرجح كف عن الذهاب الى المدرسة منذ زمن طويل وندم على ذلك. ليس له والدين من حوله. والآن، أي موقف أسوأ من هذا يمكن أن يجد نفسه فيه؟ لا سبيل له للخروج من هذا المأزق. ما من أحد يستطيع أن يقدّم له يد العون. غير ان بيروني يعرف نفسه كونه غير قادر على الشفقة. التجربة السريرية انتزعتْ ذلك منه منذ زمن طويل. وان

جزءاً منه لا يكف عن الاعتقاد كم عاجلاً يستطيع هو أن ينهي بأمان هذا اللقاء غير المتوقع. فضلاً عن ذلك، المسألة أبعد ما تكون عن الشفقة. ثمة طرق كثيرة جداً يستطيع فيها الدماغ، أي دماغ، أن يخذلك. مثل سيارة غالية الثمن، هو معقد، لكنه مع ذلك واسع الإنتاج، أكثر من ستة ملايين في الحساب.

بصورةٍ صائبة، يعتقد باكستر إنه خُدع بواسطة عنف قليل وتمرين سلطة قليلة، وكلما يفكر في المسألة أكثر، يغدو أكثر غيظاً. تغير سريع آخر في المناخ العقلي، مسلك مزاج جديد يدنو الآن، وهو مضطرب. كف عن الهمهمة وتحرك مقترباً بصورةٍ كافية بالنسبة لـ بيروني كي يشم نكهةً معدنيةً في أنفاسه.

((أنتَ شريط من البول))، يقول باكستر بسرعة بينما هو يضغط على صدره. ((أنتَ تحاول أن تضايقني. أمام ذينك الاثنين. أتعتقد أنني أبالي؟ حسن تباً لك. إنني أستدعيهما ثانيةً الآن.))

من موقعه، وظهره الى مخرج مطفئة الحريق، بوسع بيروني أن يرى أن لحظةً سيئةً تنتظر باكستر. يتحنى جانباً عن بيروني ويتمشى في وسط الرصيف كي يرى نايجيل ونارك يبتعدان ماشيين عن الـ (بي أم دبليو)، عائدين ثانيةً الى (طريق محكمة توتنهام).

يقوم باكستر بدورة صغيرة في اتجاههما ويصيح ((أووي!))

ينظران الى الوراء، ونارك، نشيطاً بصورةٍ غير مميزة يعطيه المؤشر. بينما كانا يسيران، يقوم نارك بإيماءة رافضة مرنحة

للرسغ. كان الجنرال غير حاسم، الجنود يفرون من الجندية، الإذلال تام. بيروني أيضاً يرى أن فرصته حانت كي ينسحب مبتعداً. جعل يقطع الرصيف، يمشي في الطريق وحول سيارته. مفاتيحه في أداة الاشعال. حين بدأ يشغل المحرك شاهد باكستر في مرآة المنظر الخلفي، مرتجفاً بين الحزينين المغادرين، صائحاً على كليهما. وجعل بيروني يسير بهدوء الى الأمام، من أجل الزهو، لا يريد أن يظهر مستعجلاً. الضمان غير متصل بالموضوع، ويذهله الآن إنه لم يسبق له أن ظنه مهماً. يرى مضربه على المقعد الأمامي جنبه. هذه يقيناً لحظة الانسلال، بينما يبقى احتمال إنه يستطيع أن ينقذ مباراته.

بعد أن أوقف سيارته، وقبل أن يترجل منها، اتصل هاتفياً بـ روزاليند في مقر عملها– أصابعه الطويلة ما تزال ترتجف، وهي تتلمس المفاتيح الصغيرة جداً. في هذا اليوم المهم بالنسبة لها لا يرغب هو أن يصرف انتباهها بقصته مع الأشخاص الثلاثة التي اقتربتْ من الضرب. وهو لا يحتاج الى التعاطف. ما يريده شيء أساسي أكثر– ضجيج صوتها في مقايضة يومية، استئناف الحياة الطبيعية. أي شيء يمكن أن يكون سهلاً بصورةٍ تعيد الاطمئنان أكثر من زوج وزوجة يناقشان تفاصيل وليمة هذه الليلة؟ راح يتكلم الى ما يسمونه في مكتب روزاليند مكتبي متحمس، ويفهم منه أن اجتماعها مع المحرر بدأ في وقت متأخر وما يزال مستمراً. لم يترك رسالةً، وراح يقول انه سوف يعاود الاتصال في وقتٍ لاحق.

انــه شــيء غــير مــألوف أن تــرى ملاعــب (الــسـكـواش) ذوات الواجهات مهجورةً في يوم السبت. راح يتمشى على طول الصف، على سجادة زرقاء ملطخة، ماراً بزجاجة (الكوكي) العملاقة وبموزعي قطع مستطيلة من (الشوكلاته) التي تمنح الطاقة، ووجد طبيب التخدير الاستشاري في النهاية البعيدة في الرقم خمسة، يضرب الكرة محدثاً دوياً في ضربات سريعة متكررة واطئة على طول حائط مائل الى جهة اليسار، معطياً مظهر رجل يتخلص من مزاج شيء. إنما، تكشف لاحقاً، إنه كان ينتظر منذ عشر دقائق لا غير. كان يسكن عبر النهر في (واندزورث)؛ أرغمته المسيرة على أن يترك سيارته عند الـ (الفيستفال هول). غاضباً مع نفسه بسبب تأخره، مشى الهوينى عبر (جسر واترلو) وشاهد الى الأسفل منه عشرات الآلاف من البشر يتدفقون على طول (السد) صوب (ساحة البرلمان). كان جد صغير السن في أثناء الاحتجاجات على حرب فيتنام، لم يرَ في حياته أناساً كثيرين جداً في مكان واحد. على الرغم من آرائه الخاصة، تأثر بصورةٍ ما. قال في قرارة نفسه إن هذه هي العملية الديمقراطية، مهما كانت غير مناسبة. راقب المشهد على مدى خمس دقائق، ثم جعل يمشي الهوينى نحو (كنغزوي)، ضد تدفق الأجساد. راح يصف كل هذا بينما كان بيروني يجلس على المصطبة وأسفل (التراكسوت) العائد له، ويكوّم محفظته اليدوية، مفاتيحه وهاتفه كي يخزنها في إحدى الزوايا عند الجدار الأمامي– هو وشتراوس لم يكونا جديين بدرجة كافية كي يصرا على ملعب خالٍ من الشوائب.

((انهم يكرهون رئيس وزراءك، لكن يا غلام هل ان هؤلاء الملعونين يشمئزون من رئيس جمهوريتي.))

جي هو الطبيب الأمريكي الوحيد الذي يعرفه بيروني الذي تحمّل قطعاً كبيراً في الراتب وفي أسباب الراحة كي يعمل في انجلترا. يقول إنه يحب النظام الصحي في بريطانيا. وأحب كذلك امرأةً انجليزيةً، وله منها ثلاثة أطفال، طلقها وتزوج وردةً انجليزيةً تشبهها وتصغرها باثنتي عشرة سنة وأنجب منها طفلين آخرين– ما يزالان يمشيان بخطى قصيرة قلقة وثمة طفل ثالث ما يزال جنيناً في رحم أمه. إلا ان إجلاله لـ (التطبيب المشترك)[٣٤] أو حبه للأطفال لم يجعلاه نصيراً لقضية السلام. يجد بيروني أن الحرب المقترحة عموماً لا تشطر الناس بصورة يمكن التنبؤ بها، ان رزمةً معروفةً من الآراء ليستْ دليلاً موثوقاً به. بحسب رأي جي، المسألة شديدة الوضوح: طريقة تعامل المجتمعات المفتوحة مع وضع العالم الجديد سوف تقرر كيف سيبقى مفتوحةً. هو رجل الحقائق غير المعكرة، شديد التوق للحديث عن الدبلوماسية، أسلحة الدمار الشامل، فرق التفتيش، والبراهين على الارتباطات مع (القاعدة) وهلم جراً. العراق دولة نتنة، حليف طبيعي للارهابيين، مصمم على أن يسبب الأذى في نقطة ما وربما أيضاً تم إزالة هذا الأذى الآن بينما تشعر القوات المسلحة التابعة لـ (الأمم المتحدة) بالغطرسة بعد افغانستان. كان يصر على القول انه يعني بالإزالة تحرير البلد ودمقرطته. يتوجب على الولايات المتحدة أن تكفر عن سياستها الخطيرة السابقة– في الأقل هي مدينة بهذا للشعب العراقي. في كل مرة

يتكلم فيها جي، يجد هنري نفسه يميل الى المعسكر المناهض للحرب.

شتراوس رجل نشيط، راسخ، قصير قوي ممتلئ الجسم، حنون بطبيعته، فعال، صريح في سلوكه- بالنسبة لبعض زملائه الانجليز. هو هكذا بصورة مملة. كان أصلع تماماً منذ أن كان في الثلاثين من عمره. يتدرب أكثر من ساعة يومياً، ويبدو أشبه بمصارع. حين يشغل نفسه حول مرضاه في حجرة التخدير، مهيئاً إياهم للنسيان، تتم إعادة الطمأنينة اليهم من خلال رؤية العضلات المنحوتة على ساعديه، الحجم الكثيف لعنقه وكتفيه، ومن خلال الطريقة التي يتكلم بها إليهم- الواقع، هي طريقة بهيجة، ومن دون تنازل. المرضى القلقون يمكنهم أن يصدقوا أن هذا الأمريكي القصير والثخين يضحي بحياته كي يوفر عليهم الألم.

عملا معاً ستة أعوام. قدر الأمر بـ هنري، جي هو مفتاح نجاح شركته. حين تسير الأشياء في الاتجاه الخاطئ، يصبح شتراوس هادئاً. في سبيل المثال، إذا توّجب على بيروني أن يقطع وعاءً دموياً رئيساً كي يقوم بتصليح ما، يواصل جي أداء حركات توقيعية على وفق نغم ما بطريقة مسكنة، منهياً إياها بدمدمة، ((بحوزتك دقيقة واحدة، أيها المدير، بعدها تكون خارج هذا المكان.)) في مناسبات نادرة حين تسير الأمور بصورة سيئة فعلاً، عندما يتعذر الرجوع، سوف يجده شتراوس في الخارج في ما بعد، وحيداً في إمتداد هادئ من الممر، ويضع يديه على كتفيه، يعصرهما باحكام ويقول، ((حسن هنري. دعنا نثرثر الآن. قبل أن تبدأ

بصلب نفسك.)) هذه ليستْ هي الطريقة التي يتكلم بها عادةً طبيب التخدير، واستشاري أيضاً، الى جراح. وكنتيجة طبيعية لذلك، كان لـ شتراوس عدد كبير فوق المعدل من الأعداء. في مؤتمرات معينة، صان بيروني ظهر صديقه العريض من خناجر الزملاء المختلفة. بين الحين والحين يجد نفسه يقول لـ جي شيئاً ما على غرار، ((أنا لا أبالي بما تفكر به. كن لطيفاً معه. تذكر اعتمادنا المالي للسنة القادمة.))

بينما كان هنري يؤدي تمارين مط العضلات، يرجع جي الى الملعب كي يبقي الكرة دافئةً، يقذفها بسرعة بالغة على حائط الجهة اليمنى. يبدو أن هناك لكماً اضافياً اليوم في رمياته المنخفضة، وأن سلسلة الطيرانات السريعة للكرة مخطط لها يقيناً كي ترعب الخصم. هي طريقة ناجحة. يشعر بيروني بالضربة المدوية لطلقة بندقية ذات صدى للكرة بوصفها غماً؛ ثمة تيبس غير اعتيادي في عنقه فيما هو يستمر في روتينه، دافعاً يده اليسرى على مرفقه الأيمن. عبر الباب الزجاج المفتوح، يرفع صوته كي يشرح سبب تأخيره، لكنه تقرير مختصر، تركز في الأغلب على الكشط نفسه، الطريقة التي مرت فيها السيارة الحمراء، وكيف انحرف هو، وكيف كان ضرر الدهان خفيفاً بصورةٍ عجيبة. راح يتخطى البقية، قائلاً فقط إنه استغرق برهةً من الوقت كي يصنف. لم يكن يشأ أن يسمع نفسه يصف باكستر وصديقيه. سوف ينالون اهتمام شتراوس بقدرٍ كبير جداً، ويحفزون أسئلة لا يشعر بالرغبة في الإجابة عنها حتى الآن. يشعر الآن بعدم ارتياح

متنامي بشأن اللقاء غير المتوقع، بانزعاج لا يستطيع حتى الآن أن يحدده، مع ان الذنب هو عنصر بصورةٍ مؤكدة.

يشعر هو أن ركبته اليسرى تصر حين يمط أوتار باطن ركبته. متى يحين أوان التخلي عن هذه المباراة؟ عيد ميلاده الخمسون؟ أم عاجلاً. يتخلى عنها قبل أن يمزق رباطاً أمامياً صليبي الشكل، أو ينهار بشكل مفاجئ على الباركية[٣٥] من جراء انسداده التاجي الأول. إنه يشتغل الآن على أوتار ساقه الأخرى، شتراوس ما يزال يضرب الكرة بسرعة النار من دون أن يجعلها تمس الأرض. يشعر بيروني فجأةً أن حياته الشخصية بوصفها هشة وثمينة. تبدو له أطرافه مثل أصدقاء قدامى مُهملين، طويلة بصورة مضحكة وقابلة للكسر. هل هو في حالة صدمة معتدلة؟ قلبه سيكون بكل معنى الكلمة قابلاً للعطب بعد تلك النخسة. صدره ما يزال يؤلمه. لديه واجب حيال الآخرين بأن يعالجهم ويبقيهم على قيد الحياة، وينبغي له ألا يعرّض حياته للخطر من أجل مجرد مباراة، يضرب الكرة على الجدار محدثاً دوياً. وليس ثمة شيء كهذا مثل مباراة وديعة في (السكواش)، بخاصة مع جي. بخاصة مع نفسه. كلاهما يكره أن يخسرها. ما إن ينجحا في البدء بممارسة المباراة، حتى يشرعان في خوض معركة لاحراز النقاط وكأنهم مجانين. يجب عليه الآن أن يختلق الأعذار وينسحب، وألا يغضب صديقه. ثمن تافه. حين قوّم جذعه، خطر ببال بيروني أن ما يرغب به فعلاً هو أن يذهب الى البيت ويرقد في حجرة النوم ويفكر بهدوء في مسألة الخلاف في شارع (الجامعة)، ويقرر كيف كان

يتوجب عليه أن يتعامل معها، وما هو الخطأ الذي ارتكبه.

لكنه حتى حين يفكر في هذا الأمر، كان يرتدي منظار الوقاية[٣٦] ويخطو الى داخل ساحة اللعب ويغلق الباب وراءه. جثا على ركبتيه كي يرتب اشياءه الثمينة في زاوية الجدار الأمامي. ثمة زخم لكل يوم، مباراة صباح السبت في (السكواش) مع صديق حميم وزميل، ليس له قوة الارادة في مقاطعتها. يقف على الجانب المائل الى اليسار من ساحة اللعب، شتراوس يرسل كرةً خفيفة، وديةً الى وسط الساحة، بصورةٍ آلية يعيدها بيروني ثانيةً على طول مسارها. وهكذا بدءا الأعمال الروتينية للإحماء. الكرة الثالثة أخطأ ضربها، قذفها بصوتٍ عالٍ الى داخل علبة الصفيح. بعد ضربتين يتوقف كي يعيد شد أشرطة حذاءيه الرياضيين. لا يستطيع أن يستقر. يشعر بأنه بطيء ومعاق وأحس بأن قبضته أخطأت اصطفافها، مفتوحة جداً، مسدودة جداً، لا يعرف على وجه الدقة. يضيع الوقت مع مضربه بين الضربات. مرت أربع دقائق وحتى الآن لم يكن بينهما تبادل مقبول. لم يكن هناك أي شيء من ذلك الايقاع البسيط الذي يشكلهما في مباراتهما. راح يلاحظ أن جي يبطئ سرعته، مقدّماً زوايا أسهل كي يحافظ على الكرة في نطاق أسلوب اللعب. في الختام، يشعر بيروني بأنه مرغم على القول إنه جاهز. بما انه خسر مباراة الأسبوع الماضي– هذا هو اتفاقهما– فعليه أن يستهل ضرب الكرة.

اتخذ موضعه في صندوق الاستهلال الواقع في ناحية اليمين. من ورائه على الناحية الأخرى من ساحة الملعب، يسمع جي يدمدم،

((حسن)). السكون تام، من ذلك النوع المهسهس الذي قلما يُسمع في مدينةٍ ما؛ ما من لاعبين آخرين، ما من أصوات شارع، ولا حتى من المسيرة. على مدى ثانيتين أو ثلاث ينظر بيروني الى الكرة السوداء الكثيفة في كفه اليسرى، موصياً نفسه أن يضيق نطاق أفكاره. يستهل المباراة بكرةٍ مقذوفة ببطء في خط أشبه بالقوس العالي، ذات وضع جيد فيما هي تتخذ مساراً مقوساً عالياً جداً بالنسبة لكرة، ويمس الجدار الجانبي في الخلف. لكنها حتى حين كانت تغادره، يعرف هو إنه ضربها بقوة. عادت من الجدار الخلفي بشيء من السرعة المتبقية، تاركاً لـ جي حيزاً كبيراً كي تندفع بعودة مستقيمة مع الجدار الجانبي الى مسافة جيدة. الكرة تخمد في الزاوية، مقطرةً على الجدار الخلفي حين يصل بيروني إليها.

بتوقف مؤقت قصير الأمد، ينتزع جي الكرة كي يستهل الضرب من الصندوق الأيمن. بيروني، مقيساً مزاج خصمه، يتوقع ضربةً عنيفةً منجزةً برفع الذراع فوق الكتف وانحنى الى الأمام، مستعداً لتلقي ضربة الكرة قبل أن تحز الكرة الجدار الجانبي. إلا إن شتراوس إتخذ حساباته الخاصة بشأن المزاج. مستفيداً من خط جسده اللين، مال بزاوية عمودية على كتف بيروني اليمنى. إنها الرمية الصحيحة التي يجب لعبها مع خصمٍ متردد. خطا للوراء، لكن متأخراً جداً وليس بعيداً بدرجة كافية و، عند نقطة ما في تشوشه، تختفي الكرة عن انظاره. الكرة المرتجعة تسقط في مقدمة ساحة الملعب ويدفعها شتراوس بعنف الى الزاوية اليمنى. كانا يلعبان أقل من دقيقة، فقد بيروني استهلاله في ضرب

الكرة، وهو أقل بنقطة ويعرف الآن أنه فقد السيطرة. وهكذا تستمر المباراة، بصورةٍ عديمة الشفقة على مدى النقاط الخمس المقبلة، حيث يستحوذ جي على مركز ساحة اللعب، وبيروني، دائخاً ومتخذاً وضعاً دفاعياً، لا يستهل شيئاً على الاطلاق.

عند الشوط الودي السادس، يرتكب شتراوس أخيراً خطأً غير قسري. يستهل بيروني ضرب الكرة قاذفاً إياها كما في السابق في خط أشبه بالقوس العالي، إلا إنها هذه المرة تسقط بصورة جميلة وراء الجدار الخلفي. أحسن شتراوس صنعاً في سرقتها، إلا أن الكرة راحت تجلس على الخط القصير وأذهل بيروني نفسه بضربة سريعة وصحيحة في مسافة ميتة. مع تلك النشوة الصغيرة من الشعور بالنشاط والخفة تأتي القدرة على التركيز. أحرز النقاط الثلاث اللاحقة من دون عناء، وفي آخر هذه النقاط حسم الأمر بواسطة اسقاط الكرة، وراح يسمع جي يشتم نفسه بينما هو يمشي الى مؤخرة الملعب. الآن، النفوذ السحري، وكل المبادرات هي لـ هنري. راح يستحوذ على مركز الملعب عاجلاً خصمه يعدو من الأمام الى الخلف. وفي الحال تقدّم الى سبعة– ستة وهو متيقن من أنه سوف يحرز النقطتين التاليتين. حتى وهو يفكر في هذا، يقوم برميةٍ لا مبالية عبر الملعب التي ينقض عليها شتراوس و، بضربة نظيفة منحرفة، يُسقط الكرة في الزاوية. يستطيع بيروني أن يقاوم اغراء كره الذات فيما هو يمشي الى ملعب الناحية اليسرى كي يتسلم إستهلال ضرب الكرة. لكن بينما كانت الكرة تطفو بعيداً عن الجدار الأمامي نحوه، أفكار غير مرغوبة

كانت تهتز عند تركيزه. جعل يرى الهيئة المثيرة للشفقة لـ باكستر في مرآة المنظر الخلفي. هذه هي بالضبط اللحظة التي يجب عليه فيها أن يخطو الى الأمام من أجل ضربة بقفا اليد- بوسعه أن يصل الى الكرة باستمرار- لكنه يتردد. الكرة تضرب الحز، نقطة الاتصال بين الجدار والأرض- وراحت تتدحرج بصورةٍ مهينة فوق قدمه. هي رمية محظوظة، وفي انزعاجه جعل يتوق الى أن يقول هذا. سبع نقاط لكل منهما. لكن ليس ثمة نزاع حتى النهاية. يشعر بيروني بأنه يتحرك عبر ضباب عقلي، وأحرز جي النقطتين الأخيرتين في تعاقب سريع.

لا أحد منهما كانت له أوهام بشأن مباراته. هما لاعبا نادٍ مقبولان تقريباً، كلاهما يقترب من الخمسين عاماً. اتفاقهما هو انهما بين المباريات – يلعبان كأفضل اثنين من اللاعبين الخمسة- يتوقفان توقفاً مؤقتاً كي يجعلا معدلات نبضيهما تستقر. هما غالباً ما يجلسان على الأرض. اليوم، المباراة الأولى لم تكنْ شاقة، لذا قطعا ببطء ساحة اللعب ذهاباً وإياباً. الطبيب المخدر يريد أن يعرف حول فتاة الـ(الشابمان). خرج عن طوره كي يعقد صلة صداقة معها. سلوك الشارع الذي تتصف به الفتاة لا يتحمل الكلام الذي سمعه بيروني مصادفةً، وهو يجتاز الرواق؛ الكلام المشجع الذي كان يطلقه شتراوس. ذهب الطبيب المخدر الى الردهة كي يقدمّ نفسه. وجد ممرضةً فلبينية تذرف الدمع بسبب سوء معاملة تلقتها. جلس شتراوس على حافة السرير وقرّب وجهه من وجه الفتاة.

((اسمعي عزيزتي. تريدين منا أن نقوّم رأسك الذي يرثى له، عليك أن تساعدينا. أتسمعين؟ إذا كنتِ لا تريديننا أن نقوّمه، إذاً يلزمك أن تتجهي الى البيت. لنا كثير من المرضى الآخرين ينتظرون أن يشغلوا سريركِ. انظري، هي ذي لوازمك في الدولاب المقفل. أتريدين مني أن أبدأ بوضعها في حقيبتك؟ حسن. ها نحن نبدأ. فرشاة الأسنان. الحاسبة الشخصية. فرشاة الشعر..لا؟ أيهما تفضلين؟ رائع. حسن. انظري، إنني أخرجها من الحقيبة ثانيةً. لا، انظري، انني فعلاً أخرجها. إن ساعدتنا، نساعدك. اتفقنا؟ دعينا نتصافح بالأيدي.))

أعلن بيروني أن تقدماً جيداً حصل في سلوكها هذا الصباح.

((أحب تلك الطفلة))، يقول جي. ((تذكرني بنفسي في ذلك العمر. ازعاج في الاتجاهات كلها. ربما تودي بنفسها الى الهلاك، ربما تفعل شيئاً ما مع نفسها.))

((حسن، سوف تساعدنا على اجتياز هذه المرحلة الصعبة))، يقول بيروني في ما هو يتخذ موضعه في تلقي رد فعلها. ((في الأقل سيكون قرارها الخاص إذا ما حصل إنهيار مفاجئ. دعنا نذهب.))

تكلّم في وقت مبكر جداً. استهلال جي في ضرب الكرة وقع عليه، إلا أن كلمتيه ((انهيار مفاجئ))، تسحبان بتثاقل ذكريات الليل فضلاً عن ذكريات النهار، شظايا في دزينة من التداعيات. كل شيء حصل له مؤخراً يحدث له في وقت واحد. لم يعد في الحاضر. الساحة الثلجية المهجورة، الطائرة وازعاجها الصغير بالنار، ابنه في المطبخ، زوجته في السرير، ابنته في طريقها من

باريس، الرجال الثلاثة في الشارع – انه يحتل إحداثيات الزمن الخاطئة، أو يكون فيها كلها في وقتٍ واحد. الكرة تذهله – كما لو انه غادر ساحة الملعب على مدى لحظة واحدة. يأخذ الكرة متأخراً، يجرفها من الأرض. فجأةً ينبثق شتراوس من الـ ((T)) من أجل تسديد الرمية القاتلة. وهكذا تبدأ المباراة الثانية كالأولى. إنما هذه المرة يجب على هنري أن يبذل قصارى جهوده كي لا يخسر. استعد جي كي يجعل التجمعات الحاشدة تستمر فيما هو يحتل وسط الملعب ويتحرك ببطء وتثاقل الى الوراء، ويهبط الى الأمام، ويجد رمياته المائلة. بيروني يعدو حول خصمه كمهر سيرك. يتلوى للوراء كي يرفع الكرات من الزوايا الخلفية، ثم يندفع بسرعة الى الأمام وباستمرار كي يتصل مع الرميات الساقطة. التغير الثابت للاتجاه أتعبه بقدر كره الذات المتنامي في داخله. لماذا تطوّع من أجل هذا الإذلال، هذا العذاب، مع إنه توقعه بسعادة؟ في لحظاتٍ كهذه في مباراةٍ ما تتكشف العناصر الأساسية لشخصيته: ضيقة الأفق، عديمة الفعالية، غبية – ومن الناحية الأخلاقية كذلك. تصبح المباراة استعارة ممتدة لخلل الشخصية. كل خطأ يرتكبه يكون نموذجياً لنفسه بصورة عميقة، بصورةٍ مثيرةٍ، مألوفاً بإلحاح، كتوقيع، كندبة نسيج أو تشوه ما في موضع خاص. حميمياً وبديهياً كاحساسه بلسانه في فمه. فقط بوسعه أن ينحو منحىً خاطئاً في هذا المسار تماماً، ويستحق هو فقط أن يخسر بهذه الطريقة تحديداً. في ما كانت النقاط تهبط جعل يسحب طاقته المتبقية من بركةٍ معتّمةٍ للعنف.

لم يقل شيئاً، لنفسه أو لخصمه. لن يدع جي يشتم نفسه فيسمعه هو إلا أن الصمت نوع آخر من المرض. كانت نقاطهما ثمانية مقابل ثلاثة. يضرب جي الكرة عبر الملعب، لعل ضربته خاطئة لأن الكرة تُركتْ حُرةً، جاهزة لاعتراض سبيلها. يستقبل بيروني فرصته. اذا كان بوسعه الحصول عليها، فيمكن إدراك جي خارج الموضع. واعياً بذلك، يتحرك جي بعيداً عن ضربته نحو وسط الملعب، ساداً مسار بيروني. في الحال يطالب بيروني بضربة من الضروري اعادتها. يتوقفان عن اللعب ويميل شتراوس للتعبير عن دهشته.

((هل تمزح ؟))

((من أجل اللعنة))، يقول بيروني عبر أنفاسه المثارة، ويشير بمضربه الى الاتجاه الذي كان يتقدّم إليه. ((دستَ عليّ.))

اللغة تجفل الاثنين كليهما. يوافق شتراوس في الحال. ((حسن. حسن. إنها ضربة من الضروري اعادتها.))

في ما هو يذهب الى صندوق الاستهلال ويحاول أن يهدئ نفسه، لم يتمالك بيروني نفسه عن التفكير بأنه عند نتيجة ثمانية – ثلاثة، والمباراة ما تزال مستمرة، فانه شيء بخيل من جي أن يشك في هكذا طلب واضح. البخيل كريم. القرار لن يساعده في أن يتخلى عن الاستهلال الذي يحتاج اليه، ذلك إن هذه فرصته الأخيرة في العودة الى المباراة. الكرة تذهب بعيداً جداً عن الجدار بحيث يكون جي قادراً على أن يسير الى ناحيته اليسرى ويسدد ضربةً عنيفةً سهلةً تكون فيها راحة اليد ممالة في إتجاه حركة اليد. استعاد استهلال ضرب الكرة، وانتهت المباراة في غضون نصف دقيقة.

ان امكانية اجراء محادثة قصيرة في ساحة اللعب على مدى دقائق قلائل تبدو الآن غير محتملة. ينزل هنري مضربه، ينزع نظارته الواقية ويتمتم بشيء ما عن حاجته الى الماء. يغادر ساحة اللعب ويذهب الى حجرة تبديل الملابس ويشرب من النافورة هناك. المكان مهجور عدا شخص غير مرئي في الحمامات. ثمة جهاز تلفاز في موضعٍ عالٍ من الجدار يرينا محطة أخبار. يرش الماء على وجهه عند حوض الاغتسال ويريح رأسه على ساعديه. يسمع نبضه يقرع في أذنيه، العرق يتقطر من عمود الفقري، وجهه يشتعل وكذلك قدماه. هناك شيء واحد فقط في الحياة يريده هو. تخلى عن كل شيء آخر. عليه أن يفوز على شتراوس. يحتاج الى أن يكسب ثلاث مباريات متتالية كي يحقق غرضه في الفوز. إنه شيء عسير بصورةٍ معقولة، إلا إنه في اللحظة الراهنة يرغب بهذا ولا يستطيع أن يفكر في شيء آخر سواه. في هذه الدقيقة أو الدقيقتين فقط، عليه أن يفكر بعناية بشأن مباراته، ينقطع الى الأمور الجوهرية، يقرر ما هو خطأه ويثبته. كان قد فاز على شتراوس مرات كثيرة من قبل. يتوجب عليه أن يكف عن أن يكون غاضباً مع نفسه وأن يفكر بمباراته.

حين يرفع رأسه، يرى في مرآة حجرة الاغتسال، ما وراء الوجه المخضب بالاحمرار، إنعاكاساً لجهاز التلفاز الصامت وراءه يعرض الصورة القديمة ذاتها لطائرة البضائع في المدرج. لكن عندئذ، بإيجاز، بصورة لافتة، رجلان بسترتين فوق رأسيهما– يقيناً الطياران– يقادان بالأغلال الى شاحنة مغلقة تابعة للشرطة. تم

اعتقالهما. حصل شيء ما. مراسل صحفي خارج محطة شرطة يتحدث الى الكاميرا. عندئذ المذيع المعتمد يتحدث الى المراسل الصحفي. بيروني يغيّر موضعه بحيث تختفي الشاشة عن الأنظار. أليس من الممكن أن نتمتع بتجديد يستمر ساعةً من دون هذا الغزو، هذه العدوى من المُلك المشاع؟ يبدأ برؤية المسألة تُحل في مصطلحات بسيطة: ان الفوز في مباراته سوف يكون تأكيداً لخصوصيته. له الحق بين حين وآخر – الجميع يملكونه – في أن لا تعكره أحداث العالم أو حتى أحداث الشارع. حين هدأ بيروني في حجرة الخزانات التي يمكن غلقها، بدا له إنه كي ينسى، كي يلغي كوناً كاملاً من الظواهر العمومية بغية التركيز هو حرية جوهرية. حرية التفكير. سوف يعتق نفسه من خلال فوزه على شتراوس. مستثاراً، يتمشى جيئةً وذهاباً بين مصاطب حجرة تبديل الملابس، يحوّل بصره عن مراهق بدين بصورةٍ متموجة، أقرب الى الفقمة منه الى كائن بشري، بزغ من الحمام من دون منشفة. لم يكن هناك مزيد من الوقت. عليه أن يكيف مباراته على وفق تكتيكات بسيطة، مستغلاً ضعف خصمه. طول قامة شتراوس خمسة أقدام وثمانية انجات، من دون مقدرة كبيرة وهو ليس لاعب كرة رائعاً. يصمم بيروني على الكرات العالية المقذوفة الى الزوايا الخلفية. هكذا هو الأمر بكل بساطة. يواصل قذف الكرات العالية الى الوراء.

حين يعود ثانية الى الملعب، يقبل اليه المخدر الاستشاري مباشرةً.

((هنري أأنتَ على ما يرام؟ هل كنتَ غاضباً؟))

((أجل. مع نفسي. إنما عليّ أن أبرهن أن الضربة التي توجب إعادتها لم تنفعني في شيء.))

((أنتَ مصيب. كنتُ خاطئاً. أنا آسف. هل أنتَ مستعد الآن؟))

يقف بيروني للقيام بحركة بسيطة، إجراء قياسي فعلاً: سوف يضرب الكرة في الاستهلال قبل أن تمس الجدار الجانبي، وبعد أن يضربها سوف يعبر الى الـ ((T)) في وسط الملعب ويقذف الكرة عالياً. شيء بسيط. آن الأوان كي يزيح شتراوس.

((جاهز.))

يضرب شتراوس كرة إستهلال سريعة، وثانيةً في اتجاه الجسد مستهدفة الكتف مباشرةً. يستطيع بيروني أن يدفع مضربه عبر الكرة، وتذهب الكرة تقريباً مثلما يتمنى، وهو ذا الآن في موضعه، في الـ ((T)). شتراوس يضرب الكرة ضربةً رقيقةً من الزاوية، وتعود على طول الجدار الجانبي ذاته. يتقدّم بيروني الى الأمام ويضرب الكرة ثانيةً. نصف دزينة من المرات تسافر الكرة ذهاباً واياباً على طول الجدار الأيسر، الى أن يجد بيروني الحيز الكائن خلفه كي يرفعها عالياً الى الزاوية اليمنى. لعبا على ذلك الحائط بضربيات شديدة مباشرة، راقصين داخل وخارج مسار أحدهما الآخر، بعدها راحا يتعقبان الرميات في كل أنحاء الملعب، مع الأفضلية تتوزع بينهما.

كان لهما مثل هذا النوع من السباق من قبل – باعثاً على اليأس، مجنوناً، لكنه أيضاً مرح، كما لو أن الصراع الحقيقي

هو أن يرى المرء أن الذي يدّمر هو الذي يضحك أولاً. غير إن هذا شيء مختلف. إنه شيء عديم الدعابة، وأطول، ومنهك، لأن الأفئدة في هذا العمر لا تستطيع أن تعدو أكثر من مائة وثمانين ضربة في الدقيقة على مدى زمن طويل، ففي الحال سوف يتعب المرء ويتلعثم. وفي هذه المباراة التي لا شهود لها، غير الملائمة نوعاً ما، الاجتماعية حصراً، كلا الرجلين إكتسب إحساساً ملحاً بأهمية النقطة. على الرغم من الاعتذار، الضربة غير المحسوبة المتنازع عليها تتدلى بينهما. يخمن شتراوس أن بيروني وبخ نفسه كثيراً في حجرة تبديل الثياب. اذا كان كفاحه من جديد يمكن أن يُقاوم الآن، فسوف يكون هو مُربَكاً في غفلةٍ من الزمن وسوف يكسب شتراوس المباراة في ثلاثة تسجيلات متصلة. في ما يتعلق بـ بيروني التزم هو حرفياً بمبادئ اللعبة، الى أن كسب استهلال الكرة، لم يكن بمستطاعه أن يبدأ بتسجيل النقاط.

من الممكن في سباق طويل أن تصبح كائناً غير واع فعلاً، مقيماً في أضيق جزء من الحاضر، تتفاعل حصراً، تأخذ رميةً واحدةً في كل مرة، تحيا فقط من أجل الاستمرار. بيروني الآن في تلك الحالة، يحفر عميقاً، حين يتذكر إنه من المفترض أن يكون له خطة مباراة. كما يحدث الآن، عندئذ فقط تسقط الكرة بمسافة أقصر ويكون قادراً على أن يصبح الى الأسفل منها كي يقذفها عالياً الى الزاوية الخلفية اليسرى. يرفع شتراوس مضربه كي يضرب الكرة، ثم يغيّر رأيه ويركض اللوراء. يضرب الكرة متباهياً، ويقذفها بيروني عالياً الى الناحية الأخرى. الركض من

زاوية الى أخرى من أجل الامساك بالكرة عندما تكون متعباً عمل شاق. في كل مرةٍ يضرب فيها الكرة ينخر شتراوس بصوتٍ أعلى قليلاً، ويتم تشجيع بيروني. يرفض هو الرمية القاتلة لأنه يعتقد إنه سوف يخطئ الضرب. بدلاً من ذلك، يستمر هو في قذف الكرة عالياً، خمس مرات متتالية، مُرهقاً زميله. المسألة انتهتْ في الجولة الخامسة حين راحت كرة شتراوس الضعيفة تسقط بوهن على علبة الصفيح.

انتهت المباراة بالتعادل. أنزلا مضربيهما، ووقفا منحنيين، لاهثين، أيديهما على ركبهما، يحدقان بعمى في الأرض، أو يضغطان راحاتهما ووجهيما على الجدران البيض معتدلة البرودة، أو يتجولان من دون هدف في أرجاء الملعب ماسحين حواجبهما بـ(تي شيرت) يهما غير المثبتين ومتأوهين. في أزمنة أخرى سيكون لهما فحص الجثة بعد الوفاة في نقطة كهذه، إلا أن أياً من الرجلين لم يتكلم. متحمساً ليغذ خطاه، بيروني مستعد أولاً وراح ينتظر في صندوق استهلال ضرب الكرة ضارباً الكرة على الأرض. وجعل يستهل ضربها فوق رأس شتراوس مباشرةً والكرة، التي أصبحت أكثر برودة وليناً الآن، جعلت تخمد في الزاوية. واحد كل، ولم يضعْ مجهود. هذه، بدلاً من النقطة السابقة، ربما كانت المباراة المهمة. يملك بيروني الآن علوّه وطوله الآن. النقطة التالية تذهب في طريقه، وكذلك التي تليها. يغدو شتراوس مغضباً، بواسطة سلسلة من الاستهلالات المتماثلة، ولأن السباقات موجزة أو غير موجودة، تبقى الكرة باردة وهامدة، كالمعجون، من العسير أن يتم

اصطيادها من حيز مضغوط الى أبعد حد. وحينما يصبح أكثر انزعاجاً، يصبح جي أقل اقتداراً. لا يستطيع الوصول الى الكرة في الهواء، ولم يستطعْ أن يكون الى الأسفل منها حالما تسقط. ببساطة يبتعد عنها في استهلالين، ويذهب الى الصندوق كي ينتظر الاستهلال التالي. إنه التكرار، الزاوية ذاتها، العلو المستحيل ذاته، الكرة الخامدة ذاتها التي كانت تذهب اليه. وفي الحال خسر ست نقاط.

يود بيروني أن يقهقه بتهور – وهو حافز يخفيه كما لو أنه سعال. لم يكنْ متأملاً في رضا، أو مبتهجاً بالنصر – من المبكر جداً أن نقول ذلك. هذا ابتهاج الإدراك، الضحك العاطفي. إنه يشعر بالتسلية لأنه يعرف على وجه الدقة كيف يشعر شتراوس. هنري مطلع بصورة جيدة جداً على الحلزون النازل للسخط واللابراعة، والنشوات الصغيرة للاشمئزاز من الذات. انه شيء مرح أن ندرك كيف أن شخصاً آخر يشابه كلياً ذاتك الناقصة. ويعرف كم مزعج هو استهلاله. لن يكون قادراً على ارجاع الكرة هو نفسه. إلا أن شتراوس كان عديم الشفقة حين كان على القمة ويحتاج بيروني الى إحراز النقاط. لذا واصل المرة تلو المرة، معوّماً الكرة فوق رأس خصمه ومنطلقاً الى اليمين كي يأخذ الكرة، ما من مجهود على الاطلاق، تسعة كل.

((اني أحتاج الى التبوّل))، يقول جي، ويغادر ساحة اللعب، وهو ما يزال يرتدي منظار الوقاية الخاصة به ويحمل مضربه.

بيروني لا يصدّقه. مع إنه يفهم إنها حركة حساسة، الطريقة الوحيدة لقطع نزيف النقاط، ومع ذلك فعل الشيء ذاته قبل أقل من عشر دقائق، وما يزال يشعر بأنه مخدوع. كان بوسعه أن يأخذ المجموعة التالية أيضاً باستهلاله المغيظ. الآن شتراوس سوف يغطس رأسه تحت الحنفية ويعيد التفكير في مباراته.

هنري يرفض إغراء الجلوس. بدلاً من ذلك يخطو كي يلقي نظرةً على مباريات أخرى– انه يأمل دوماً أن يتعلّم شيئاً من اللاعبين المتفوقين أكثر. إلا إن المكان ما يزال مهجوراً. أعضاء النادي هم إما يحتشدون ضد الحرب، أو إنهم غير قادرين على أن يجدوا طريقاً عبر وسط لندن. بينما كان يعود عبر ساحات اللعب، يرفع الـ (تي شيرت) الخاص به ويعاين صدره. كانت هناك كدمة سوداء كثيفة الى يسار عظم القص العائد له. يشعر بالألم حين يمدّ ذراعه اليسرى. النظر الى جلده الذي تغيّر لونه يساعده في تركيز مشاعره المقلقة حول باكستر. هل تصرف هو، هنري بيروني، بصورةٍ لا مهنية، مستخدماً معرفته الطبية كي يتلف تدريجياً صحة رجل يعاني من اعتلال عصبي – انحلالي؟ أجل هل أن هذا الورم الدموي، الذي بلون باذنجانة، وبقطر خوخة– هو فقط مقدار قليل مما يحتمل أن أصيب به – يقول نعم، لقد غفر له. فقط الأحمق، أي أحمق يمكن أن يقف هناك وينال ركلة عندما كان هناك طريق الى الخارج. إذاً ما الذي يقلقه؟ بصورةٍ غريبة، في ما يتعلق بالعنف، نوعاً ما أحب باكستر. أي إذا ما تم صياغة العبارة بصورةٍ قويةٍ جداً. كان قد خُدعَ من قبله، من قبل وضعه

الميؤوس منه، ورفضه الانسحاب. وكان ثمة ادراك حقيقي هناك، ورعب من أنه كان يعيش الحياة الخاطئة. وكان هو، هنري، مرغماً، أو مجبراً، على أن يسيء استخدام سلطته – إلا أنه سمح لنفسه أن يُوضع في ذلك الموضع. كان موقفه خاطئاً من البداية، دفاعياً بصورةٍ غير كافية؛ ربما بدى سلوكه متسماً بالغرور، أو ازدرائياً. استفزازياً ربما. كان بالوسع أن يكون ودياً أكثر، وكذلك جعل نفسه يقبل سيجارةً؛ كان بوسعه أن يكون مسترخياً، من موقع القوة، الذي بدلاً منه كان ساخطاً ومستعداً للقتال. من الناحية الأخرى، كان هناك ثلاثة منهم، طلبوا أوراقه المالية، وكانوا تواقين للعنف، كانوا يخططون له قبل أن يخرجوا من سيارتهم. كان فقدان مرآة الجناح غطاءً لمهاجمته من الخلف بقصد السلب.

يصل الى الخلف خارج الملعب، كان عدم ارتياحه سليماً، في ما كان يظهر شتراوس. كانت كتفاه السميكتان قد تبللتا من جراء الوقت الذي أمضاه عند حوض الاغتسال، واستعاد دعابته الحسنة.

((حسن))، يقول حينما يذهب بيروني الى صندوق الاستهلال. ((ما من مزيد يا أيها الشاب الجميل.))

يجده بيروني شيئاً مقعداً عن العمل، أن يُترك وحده مع أفكاره؛ قبل أن يستهل ضرب الكرة، يتذكر خطته للمباراة. إلا أن المباراة الرابعة وقعتْ في طرازٍ غير واضح. يأخذ نقطتين، بعدها يدخل

شتراوس في المباراة وينتزع قُدماً، ثلاثة – اثنان. كانت هناك سباقات طويلة، مشاكسة، مع سلسلة من الأخطاء غير الاضطرارية من كلا الطرفين التي أوصلت النقاط الى سبعة – كُل، التي تعين على بيروني أن يستهلها. حاز النقطتين الأخيرتين من دون عناء. كل منهما فاز في مباريتين.

أخذا استراحتين قصيرتين كي يستجمعان قوتيهما من أجل المعركة الأخيرة. بيروني لم يتعب – ان كسب المباريات كان مطلوباً جسدياً أقل من خسرانها. إلا إنه يشعر انه مفرّغ من تلك الرغبة العنيفة في التغلب على جي وسيكون سعيداً حين يدعوه انسحاباً وأن يكسب ساعات يومية. طوال الصباح كان في نزاعٍ من نوعٍ ما. غير إنه لم تكن هناك فرصة لكي يحنث بوعده. شتراوس يتمتع باللحظة، يتلاعب بها، ويقول في ما هو يذهب الى موضعه، ((القتال حتى الموت))، ((وليس ثمة pasaran!))

إذاً، مع تنهدة مكبوتة، يستهل بيروني ضرب الكرة و، لأنه انتهى من الآراء؛ يتراجع الى ضربة الكرة العالية القديمة ذاتها. الواقع، في اللحظة التي يضرب فيها الكرة، يعرف أنها كاملة– تقريباً، تتقوس عالياً، هُيئت كي تسقط في الزاوية. غير أن شتراوس في مزاج خاص، مبتهج وراح يقوم بشيء استثنائي. بوثبة قصيرة مُرهَقة من جراء الركض، جعل يقفز قدمين، ربما ثلاثة أقدام في الهواء، وبمضرب ممدود تماماً، تقوّس ظهره العضلي، السميك بصورةٍ رشيقة، اسنانه ظاهره للعيان، رأسه مقذوف الى الخلف وذراعه اليسرى مرفوعة من أجل التوازن، يمسك الكرة

مباشرةً قبل ذروة مسارها المنحني باصطدام عنيف بظاهر اليد أشبه بجلدة السوط الذي يرسل الكرة بسرعة الى الأسفل، كي تضرب الجدار الأمامي بأقل من الانج فوق علبة الصفيح – رمية جميلة، مُلهَمة، غير قابلة للإرجاع. بيروني، الذي قلّما تحرك عن موضعه، يقول كذلك فوراً. رمية خرافية. وعلى حين غرة، والاستهلال الآن بيدي خصمه، مرةً أخرى، يريد أن يفوز.

كلا الرجلين يقوّي مباراته. كل نقطة هي الآن مسرحية، مسرحية قصيرة من الانقلابات المفاجئة، وتم استئناف كل جدية وضراوة السباق الطويل للمباراة الثالثة. غافلين عن فؤاديهما المحتجين، كانا يقذفان نفسيهما في كل زاوية من زوايا الملعب. لم تكن هناك أخطاء غير قسرية، كل نقطة منتزعة من الآخر بالإكراه. المستهل يتوق الى تسجيل النقاط، إلا أنهما بخلاف ذلك لا يتكلمان. وبينما كان تسجيل النقاط يتصاعد، فإن أياً من الرجلين لم يتحرك أكثر من نقطةً واحدةً الى الأمام. لم يكن هناك شيء على الرهان – لم يكونا على سلّم نادي السكواش. هناك فقط الحافز المتعذر إنقاصه للفوز، حافز بايولوجي كالظمأ. وهو خالص، لأنه لم يكن ثمة أحد يشاهد، ما من أحد يبالي، لا أصدقاؤهما، لا زوجتاهما، ولا أولادهما. لم يكن حتى مبهجاً. ربما يصبح كذلك في استعادة لأحداث الماضي والتأمل فيها – وبالنسبة للفائز فقط. إذا أرادت عابرة سبيل أن تتوقف قليلاً عند الجدار الخلفي الزجاج كي تنظر، فيقيناً سوف تعتقد إن هذين اللاعبين المسنين كانا مثمنين ذات مرة، وحتى الآن ما يزالان

يملكان شيئاً من النار. ربما تتساءل أيضاً إذا ما كانت هذه مباراة ضغينة، لأن ثمة يأس مشدود من نوعٍ ما في اللعبة.

ما يبدو أشبه بنصف ساعة هو في الواقع اثنتا عشرةً دقيقةً. والنتيجة هي سبعة – وكل. بيروني يستهل ضرب الكرة من الصندوق الأيسر ويحرز النقطة. يقطع ساحة اللعب من جانب الى آخر كي يستهل المباراة. تركيزه جيد، ثقته بنفسه عالية لذا فهو يلعب إستهلالاً نشيطاً بظاهر اليد بزاوية ضيقة، قريباً من الجدار. شتراوس يضرب الكرة بحيث تتحرف الى اليمين، تقريباً أشبه بضربة كرة تنس، لذا تهبط الكرة الى مقدّمة ساحة اللعب. هي رمية جيدة، غير أن بيروني في موضعٍ ملائم وينطلق بسرعة الى الأمام من أجل ضربة قوية لا يستطيع الخصم أن يردها. يمسك الكرة وهي في حالة العلو ويضربها بقوة بساعده، الى الزاوية القريبة اليسرى. نهاية المباراة، والنصر. لحظةً يقوم بضربته، يتراجع ماشياً للوراء – ويصطدم بـ شتراوس. هي صدمة وحشية، وكلا الرجلين يترنح وعلى مدى لحظة لم يكن بوسعهما أن يتكلما.

عندئذ يقول شتراوس، متحدثاً بهدوء عبر أنفاس صقيلة، ((انها نقطتي، ياهنري.))

ويقول هنري، ((جي، انتهتْ. ثلاث مباريات مقابل اثنتين.))

ثانيةً توقفا قليلاً كي يتخذا الاجراءات الضرورية لهذا الاختلاف الفاجع.

يقول بيروني، ((ماذا كنتَ تفعل عند الجدار الأمامي؟))

يبتعد عنه جي ماشياً، الى الصندوق حيث، اذا كانا يلعبان النقطة ثانيةً، سوف يتسلم الاستهلال. يريد هو أن يحرّك الأشياء — بطريقته الخاصة. يقول، ((ظننتُ أنكَ تلعب رميةً هبوط الى يمينك.))

يحاول هنري أن يبتسم. فمه جاف، شفتاه لن تنزلقا بيسر على أسنانه. ((لذا فقد خدعتك. كنت بعيداً عن الموضع الملائم. ما كان بمستطاعك أن تعيدها.))

يهز الطبيب المخدر رأسه بالهدوء الراسخ الذي يجده مرضاه جد معيداً للطمأنة. إلا أن صدره كان يعلو. ((ارتددتْ عن الجدار الخلفي. كثير من الحيوية. هنري، كنتَ تماماً في طريقي.))

هذا النشر للاسم الأول لأحدهما الآخر كان ممسوساً بالسم. لا يستطيع هنري أن يقاومه هو نفسه مرةً أخرى. جعل يتكلم كما لو أنه يذّكر شتراوس بحقيقة نسيت من زمنٍ طويل. ((لكن جي، ما كان بمستطاعك أن تصل تلك الكرة.))

شتراوس يكبح نظرة بيروني ويقول بهدوء، ((هنري، كان بمستطاعي.))

ظلم الإدعاء فاضح جداً بحيث كان بيروني قادراً فقط على أن يكرر نفسه. ((كنتَ بطريقةٍ ما خارج الوضع الصحيح.))

يقول شتراوس، ((ذلك ليس ضد القواعد.)) بعدها راح يضيف قائلاً، ((هيا هنري. أعطيتك عون الشك في المرة الأخيرة.))

لذا يظن هو إنه يسترد ديناً. أسلوب بيروني الخاص بالحصافة يغدو أيضاً أكثر صعوبة في الإبقاء عليه. يقول بسرعة، ((لم يكنْ ثمة شك.))

((مؤكد كان ثمة شك.))

((أنظر، جي. هذا ليس نوعاً من محكمة الفرصة المتكافئة. نأخذ المسألة كما هي من غير تأثر بالعواطف الشخصية.))

((أنا موافق. ما من حاجة لإلقاء محاضرة.))

نبض بيروني الهابط جعل يرتفع بصورةٍ موجزة لدى التوبيخ – غضب مفاجئ حالي أشبه بنبضة قلب إضافية، طعنة غير نافعة من عدم اتساق النبض. لديه أشياء ينبغي له أن يفعلها. يحتاج الى أن يقود سيارته متجهاً الى مخزن بائع السمك، أن يذهب الى البيت ويستحم، ويخرج ثانيةً، يعود، يطهو وجبة طعام، يفتح قنينة نبيذ، يرحب بابنته، بوالد زوجته، ينهي الخلاف بينهما. إنما أكثر من ذلك، يحتاج الى ما كان يملكه قبلاً، اشترك في مباريتين وعاد منهما منقبض الصدر، ويظن إنه برهن لنفسه شيئاً ضرورياً في طبيعته الخاصة، شيئاً مألوفاً كان قد نسيه مؤخراً. الآن خصمه يوّد أن يسرقه، أو ينكره. يسند مضربه في الزاوية عند أشيائه القيّمة كي يُظهر أن المباراة انتهتْ. بالطريقة ذاتها، يقف شتراوس بصورةٍ مصممة في صندوق الاستهلال. لم يخوضا تجربةً كهذه من قبل. هل من المحتمل أن تكون التجربة عن شيء آخر؟ جي يتطلع إليه بنصف ابتسامة ودية عبر شفتين مزمومتين – وهو تعبير

ملفق تماماً مصمم كي يعزز إدعاءه. بوسع هنري أن يرى نفسه – معدّل نبضه يتسمّر ثانيةً عند هذه الفكرة – قاطعاً الباركية بأربع خطوات كي يمنح ذلك التعبير الراضي عن نفسه صفعةً سريعةً بقفا اليد. أو كان بوسعه أن يهز كتفيه استهجاناً ويغادر ساحة اللعب. غير أن نصره خالٍ من المعنى من دون موافقة. ناهيك عن الفانتازيا، كيف يستطيعان بأية حال أن يقررا هذا، من دون حَكَم، من دون سلطة مشتركة؟

إن أياً من الرجلين لم يتكلم نصف دقيقة. راح بيروني ينشر ذراعيه ويقول، بنبرة صوت اصطناعية كبسمة شتراوس، ((جي، لا أعرف ما الذي أفعله. أعرف فقط إنني بلغتُ النجاح.))

غير ان شتراوس يعرف على وجه الدقة ما الذي يفعله. جعل يرفع الأوتاد التي كانت تعلّم الحدود. ((هنري، كنت تواجه المقدمة. لم ترَ الكرة تأتي بعيداً عن الجدار الخلفي. فعلتُ ذلك لأنني كنتُ ذاهباً نحوها. لذا السؤال هو هذا: هل تدعوني كاذباً؟))

هكذا انتهى الحوار.

(تباً لك، شتراوس))، يقول بيروني ويلتقط مضربه ويذهب الى صندوق الاستهلال.

وهكذا جعلا يلعبان الضربة غير المحسوبة، وراح بيروني يستهل النقطة ثانيةً، ومثلما توقع حدوثه، خسرها، وبعدها جعل يخسر النقاط الثلاث التالية وقبل أن يعرف بالأمر، كان قد انتهى كل شيء، خسر، وها هو ذا في الخلف، في الزاوية، يلتقط محفظته

اليدوية، هاتفه النقال، مفاتيحه وساعته اليدوية. خارج الملعب، راح يلبس سروالهِ ويشدّه بحبل الشماع، يربط ساعته اليدوية حول معصمه ويرتدي كنزته السميكة وجزته الصوف. راح يفكر، إنما أقل مما فعله قبل دقيقتين خلتْ. يلتفت الى شتراوس الذي خرج من الملعب تواً.

((كنتَ جيداً بصورة لا ترحم. أنا متأسف فيما يتعلق بالجدال.))

((تباً لذلك. كان من المحتمل أن تكون مباراة أي فرد. هي واحدة من أفضل مبارياتنا.))

دسا مضربيهما في علبتيهما وأغلقا عليهما بالزمام المنزلق (السحاب). تحررا من الخطوط الحمر والجدران البيض الساطعة وقواعد المباراة، جعلا يسيران على طول ساحات اللعب الى ماكينة (الكوكي). يشتري شتراوس علبةً له. بيروني لا يريد أن يشرب واحدةً. عليك أن تكون أمريكياً كي تريد، بوصفك بالغاً، أي شيء شديد الحلاوة تماماً.

بينما كانا يغادران المبنى يقول شتراوس الذي توقف قليلاً كي يأخذ جرعةً طويلةً من (الكوكي)، ((انهم ينهارون من جراء الزكام وأنا المخدّر الخافر هذه الليلة.))

يقول بيروني، ((هل رأيت قائمة الأسبوع القادم. هي قائمة ضخمة أخرى.))

((أجل. تلك السيدة العجوز وورم الخلايا النجمية في الدماغ. هي

لن تجري العملية، أليس كذلك؟))

كانا يقفان على درجات السلّم فوق الرصيف في شارع (هنتلي). الآن هناك المزيد من السُحب، والهواء بارد وندي. ربما ستمطر كثيراً على التظاهرة. اسم السيدة هو فيولا، ورمها في منطقة الغدة الصنوبرية. هي في الثامنة والسبعين، وتكشف لاحقاً إنها كانت في حياتها العملية فلكية، وذات نفوذ في (مصرف جودريل) في ستينيات القرن الماضي. في الردهة، بينما كان المرضى الآخرون يشاهدون التلفاز، كانت تطالع كتباً في الرياضيات ونظرية السلسلة(٣٧). واعياً بالضوء المنخفض، غسق آخر النهار، ومن دون أن يرغب في أن يوزع شهرةً سيئةً، تشويهاً للسمعة، يقول بيروني، ((في اعتقادي أن بوسعنا أن نساعدها.))

مستوعباً كلامه، يبتسم شتراوس بسمةً عريضةً، يرفع يداً في تحية وداع، ويذهب الرجلان في طريقهما المنفصلين.

الفصل الثالث

حين رجع إلى العزلة المبطنة لسيارته المتضررة، كان محركها يدور بطريقةٍ غير ناقلة للطاقة وبصوتٍ غير مسموع في شارع (هنتلي) المهجور، ثانيةً يحاول الاتصال هاتفياً بـ روزاليند. إجتماعها انتهى، وذهبت مباشرةً كي ترى المحرر وما تزال معه، وبعد انقضاء خمس وأربعين دقيقة. السكرتيرة المؤقتة تطلب منه أن يبقى على الخط في ما هي تذهب لتكتشف المزيد. في أثناء انتظاره، يتكئ بيروني على مسند الرأس ويغمض عينيه. يشعر بحكة العرق الجاف على وجهه في الموضع الحليق. أصابع قدميه، التي يهزهزها بصورةٍ تجريبية، بدت مكسوةً بسائلٍ ما، بسرعة تصبح باردة باعتدال. أهمية المباراة تضاءلت الى لا شيء، وبدلاً منها هو ذا التوق للنوم. عشر دقائق فقط. كان اسبوعاً عسيراً جداً، ليلةً مضطربة، مباراة شاقة. من دون أن ينظر، يجد الزر الذي يصون السيارة. أقفال السيارة نُشطتْ في تتابع سريع، أصوات معدنية قليلة الرنين، أربع نصف نغمات ذات السن[1] تهدهده الى مدى أبعد. أزمة نشوئية موغلة في القدم: الحاجة الى النوم، الخوف

من أن يؤكل. حُلتْ أخيراً بواسطة الإقفال المركزي.

عبر السماعة متناهية الصغر التي يقربها من أذنه اليسرى يسمع همهمة مكتب الخطة المفتوحة، الخشخشة الرقيقة لمفاتيح الحاسوب، وفي موضع قريب صوت حزين لرجل يقول لامرئٍ ما خارج مرمى السمع، ((انه لا ينكر ذلك... لكنه لا ينكره... نعم، أنا أعرف. أجل، تلك هي مشكلتنا. هو لن ينكر شيئاً.))

بعينين مغمضتين يرى مكاتب الصحيفة، رقاقات السجاد مجعدة الحافة المبقعة بالقهوة، نظام التسخين الضاري الذي ينزف ماءً صدئاً بلغ درجة الغليان، المجموعات المتراجعة من المصابيح الكهربائية اللاصفة التي تضيء الزوايا الهيولية، أكداس الورق التي لم يمسها أحد، ذلك أن ما من أحد يبالي بمعرفة ما تحويه، ولأي غرضٍ موجوة هنا، والمكاتب المأهولة بصورةٍ مفرطة دُفعتْ قريبةً جداً من إحداها الأخرى. انها روح حجرة الفن المدرسية. الجميع مضغوطون بشدة كي يبدأوا الفرز عبر أكداس الغبار القديمة. المستشفى كما هو. الحجرات مليئة بالأشياء التافهة، الخزانات و ((كابينات)) الاضبارات التي لا يجرؤ أحد على فتحها. جهاز موغل في القدم في مأوى من صفائح قصدير (كريمية اللون، ثقيل جداً، غامض جداً كي ينقذف. بنايات عليلة، أُستخدمت على مدى زمن طويل جداً، بحيث أن التدمير وحده الذي يستطيع أن يشفيها. مدن ودول خارج نطاق الإصلاح. العالم كله يشبه حجرة نوم ثيو. نحن بحاجة الى سلالة من البالغين الناشئين خارج جو الأرض كي نقوّم الفوضى العامة، وبعدها نضع الجميع

في أسرّتهم في وقتٍ مبكر من الليل. ذات مرة كان من المفروض أن يكون (الله) بالغاً، الا انه في أثناء النقاشات تنحى جانباً بصورةٍ صبيانية. عندئذ بعث طفلاً حقيقياً، واحداً من أبنائه – الشيء الأخير الذي كنا نحتاجه. صخرة مدوّمة تعج باليتامى الآن...

((سيد بيروني ؟))

((ماذا ؟ نعم ؟))

((زوجتك سوف تتصل بك حالما تنتهي من عملها، في غضون نصف ساعة.))

منشطاً، ارتدى حزام المقعد العائد له، قام بدورة ثلاث نقاط وتوجه صوب (ماريليبون). المتظاهرون ما يزالون في صفوف مرصوصة في شارع (غوور)، إلا أن (طريق محكمة توتنهام) مفتوح الآن مع موجات هجوم من حركة المرور تندفع شمالاً. التحق بواحدةٍ من هذه الموجات مدةً وجيزةً، من ثم استدار غرباً وبعدها شمالاً من جديد وفي الحال أصبح حيث يلتقي شارعا (غووج) و (شارلوت) – وهي بقعة أحبها على الدوام، حيث قضيتا الفائدة والسعادة تتكثفان كي تجعلا اللون والفضاء أكثر سطوعاً: المرايا، الأزاهير، قطع الصابون، الصحف، أدوات التوصيل الكهربائي، أصباغ المنزل، ورشة لصب المفاتيح وضعت كورقةٍ بين ورقتي كتاب وبصورة مدينية بين مطاعم غالية، نبيذ، وحانات، وفنادق. من هو الروائي الأمريكي الذي قال إن الإنسان في وسعه أن يكون سعيداً إذا سكن في شارع (شارلوت) ؟ ينبغي لـ

ديزي أن تذكره ثانيةً. تجارة كبيرة جداً في حيز ضيق تصنع تلالاً نظامياً من النفايات الموضوعة في أكياس على الأرصفة. كلب ضال ينهش الأكياس – قاضماً قذارةً تبيّض الأسنان. قبل أن يستدير بيروني ثانيةً الى الغرب، يرى في عمق نهاية الشارع، ساحته، وفي جانبها البعيد، منزله مؤطراً بأشجار جرداء. الستائر في الطبقة الثالثة مسدولة– ثيو ما يزال نائماً. هنري ما يزال يتذكر، النوم الخفيف الرائع المتقلّب في وقتٍ متأخر من الصباح لسن المراهقة، ولم يشك في مطالبة ابنه بتلك الساعات، فهي لن تستمر طويلاً.

جعل يقطع (شارع بورتلاند العظيمة) المعتم – انها الواجهات الحجرية التي تجعله يبدو معتماً هنا – وفي (ساحة بورتلاند) مرَّ بإثنين ينتميان لـ (فالون غونغ)[٢] يحافظان على اليقظة في الجهة الثانية من السفارة الصينية. الايمان بكونٍ مصمم بحجم صغير يدور بصورة متواصلة تسع مرات الى الأمام، تسع مرات الى الخلف في أسفل بطن الطبيب شيء يهدد النظام الدكتاتوري. بالتأكيد، إنه رأي غير مادي. رد فعل الدولة هو الضرب الموجع، العذاب، التلاشيات والقتل، إلا إن التابعين الآن يفوقون عدد أعضاء الحزب الشيوعي الصيني. الصين ببساطة مزدحمة جداً، هكذا يفكر بيروني كلما يأتي في هذا الطريق ويشاهد الاحتجاج، كي تبقي (أي الصين) على نفسها في جنون العظمة على مدى زمن أطول. اقتصادها ينمو بصورة سريعة جداً، العالم الحديث مرتبط ارتباطاً شديداً بالحزب كي يبقيه تحت السيطرة. الآن نرى البر الصيني

الرئيس في (هارودز)، غارق بالبضائع الترفيهية. في الحال ستكون هناك الآراء، وشيء ما ينبغي أن يلد. وهي ذي الدولة الصينية، في غضون ذلك، تمنح المادية الفلسفية إسماً سيئاً.

عندئذ أصبحت السفارة بعددها الكبير المشؤوم من هوائيات السقف خلفه وهو ذا يمر عبر شبكة القضبان المتصالبة المنظمة للشوارع الطبية غرب (ساحة بورتلاند) – عيادات طبية خاصة وحجرات انتظار مزينة بقماش قطني مطبّع ذوات أثاث مستنتسخ مقوس السيقان ومجلات (الحياة الريفية). انه الايمان، قوي شأنه شأن أي عقيدة، يأتي بالناس الى شارع (هارلي). على مدى سنوات عدة استقبل مستشفاه وعالج – مجاناً بطبيعة الحال – عدداً لا حصر له من الحالات المرضية أُجريت بصورة غير متقنة من قبل بعض الأطباء كبار السن غير الكفوئين ممن يتقاضون أجوراً عالية في هذه المنطقة. منتظراً عند المصابيح الحمر جعل يراقب ثلاث هيئات بشرية ترتدي عباءات سوداً ينبثقن من سيارة أجرة عند (ساحة ديفونشاير). أحتشدن معاً على الرصيف يقارنن رقماً على أحد الأبواب بآخر على بطاقةٍ تحملها أحدهن. الهيئة التي في الوسط، المعاقة في الأرجح، التي يبدو شكلها منحنياً نوعاً ما، تترنح فيما هي تتشبث بساعدي رفيقتيها. الطوابير الثلاثة السود، المتصلبة بإزاء الوادي الضيق ذي الجص والطابوق (الكريميين)، رؤوسها تهتز، تتجادل بجلاء حول العنوان، لها مظهر هزلي، أشبه بأطفال يلهون في عشية عيد جميع القديسين. أو أشبه باخراج ثيو المدرسي لـ (ماكبث) حين انتظرت الاشجار المجوفة لـ (غابة بيرنام)

في الاجنحة كي تحتشد عبر خشبة المسرح الى (دونسنين). ربما هما شقيقتان تجلبان أمهما الى فرصتها الاخيرة. بقيت الاضواء حمراً بصورةٍ عنيدة. بيروني يدفع مبدل السرعة الى وضع ((الوقوف)). ما الذي يفعله، ضاغطاً الى الأسفل بقوة شديدة على الكابح، موتراً عضلته رباعية الرؤوس الطرية في مقدم الفخذ ؟ لم يستطع أن يحول دون نفوره العميق. كم هو كئيب، أن يكون الشخص، أي شخص، مرغماً على المشي منسياً تماماً. في الأقل هؤلاء السيدات لا يملكن الأنوف الجلد. انهن حقيقةً سببن له الغثيان. وماذا يقول النسبيون[٣]، المتشائمون المرحون من كلية ديزي؟ كونها مقدسة، تقليدية، وقفة ضد الاناقات المتكلفة للاستهلاكية الغربية ؟ الا ان الرجال، الازواج - كانت لـ، بيروني، علاقات مع سعوديين متباينين في مكتبه - يرتدون الأحذية الرياضية و(التراكسوتات)، أو (الشورتات) الفضفاضة وساعات (رولكس)، وهم رائعون تماماً ودنيويون وذوو تربية شاملة في كلا التقليدين. هل يبالون بأن يحملوا المشعل الفولكلوري، وأن يتعثروا هنا وهناك في الظلام في منتصف النهار ؟

الأضواء المتغيرة أخيراً، تبدُّل المشهد – أروقة معمدة جديدة، حجرات انتظار مختلفة – والاحتياجات المعتدلة لحركة المرور في تركيزه تبعده عن هذه الافكار القابضة. كان قد أوقع نفسه في شرك لوم عنيف ناشئ. لتكن شيفرات الزي الاسلامي ! ماذا سيبالي بشأن عباءات النساء ؟ الخمارات التي تورثه الغضب. لا، الغضب كلمة ضيقة جداً. الخمارات و (الجمهورية الصينية) تخدم

ذروة مزاجه السلبية المائلة برفق. في أيام السبت اعتاد أن يكون راضياً بصورة شاملة، وهنا للمرة الثانية هذا الصباح يمحّص عناصر مزاجٍ أكثر سوداوية. ما الذي يجعله يرتعد ؟ ليس المباراة الخاسرة، أو الاحتكاك مع باكستر، أو حتى الليلة المقطوعة، مع أن هذه كلها لا بد أن تملك بعض التأثير. أغلب الظن إنها حصراً الصورة الذهبية لما بعد الظهيرة حينما سيتوجه صوب عمق الضواحي المحيطة بـ (بيريفيل). بينما كانت هناك مباراة سكواش توضعتْ بينه وبين زيارته، شعر بأنه مصون. الآن هناك فقط صفقة السمك. والدته لم تعد تملك القدرات كي تعجل وصوله، وأن تميزه حين يكون معها، أو تتذكره بعد أن يغادر زيارة عقيمة. هي لا تتوقعه ولن تكون محبطة إذا أخفق في أن يظهر نفسه. فهذا يشبه بأخذ الأزاهير الى مقبرة – (الشغلة) الحقيقية هي مع الماضي. لكنها تستطيع أن ترفع كوباً من القهوة الى فمها، ومع أنها، لا تستطيع أن تضع اسماً لوجهه، أو أن تستحضر أي تداعٍ، هي مطمئنة بالجلوس معه هناك، مصغياً لحديثها غير المترابط. هي مطمئنة مع أي فرد. يبغض هو الذهاب لرؤيتها، ويكره أن يبقى بعيداً عنها مدةً طويلةً جداً.

لم يخطر بباله أن يفتح المذياع لسماع نشرة أنباء منتصف النهار إلا حينما أوقف سيارته عند (ماريلبون هاي ستريت). يقول رجال الشرطة إن مائتين وخمسين ألف مواطناً تجمعوا في وسط لندن. شخص ما أصر على القول في ما يتعلق بالجماهير المحتشدة أن عددهم سيبلغ مليونين في منتصف ما بعد الظهيرة. كلا المصدرين

يؤيد ان الجماهير ما تزال تتدفق. ثمة متظاهرة معجبة بنفسها، التي تبين أنها ممثلة ذائعة الصيت، ترفع صوتها فوق جلبة الترتيل والهتافات كي تقول إنه لم يحدث في تاريخ الجزر البريطانية أن تجمع مثل هذا الحشد الهائل. اولئك الذين بقوا في أسرّتهم صباح السبت هذا سوف يلعنون أنفسهم لأنهم لم يكونوا هنا. المراسل الصحفي الجاد يذكر المستمعين إن هذه اشارة الى خطبة القديس كريسبين النهارية التي كتبها شكسبير، التي ألقاها هنري الخامس قبل معركة (أجينكورت). التلميح ضاع على بيروني بينما هو يتحرك في الاتجاه المعاكس في حيز ضيق بين سيارتي (جيب) بأربع عجلات. هو يشك في ما إذا سيعلن ثيو ذاته. ولماذا يتوجب على متظاهر من أجل السلام أن يرغب باقتباس كلام ملك محارب ؟ تتواصل نشرة الأخبار بينما كان بيروني يجلس في مقعده ومحرك السيارة مطفأ، محدقاً الى نقطةٍ ذات توهجٍ أزرق – أخضر بين أزرار المذياع. عبر أوروبا، وفي أرجاء العالم كلها، يحتشد الناس كي يعبروا عن تفضيلهم للسلام والعذاب. هذا ما كان يود البروفيسور العراقي قوله – يستطيع هنري أن يسمع صوته الملحاح، الصادح – العالي. القصة التي يعدّها قصته هو تأتي لاحقاً. الطيار ومساعد الطيار أُحتجزا كي يتم استجوابهما في موضعين منفصلين في غرب لندن. لا يقول رجال الشرطة شيئاً آخر. ماذا يعني هذا؟ عبر الحاجب الزجاجي (الذي يقي السائق من الريح) الشارع المزدهر من الآجر الأحمر، الهندسة المتقلصة لشقوق الرصيف والأشجار الصغيرة الجرداء، تبدو كلها مؤقتة، مثل صورةٍ أُبرزت

على سطح لوحٍ من الثلج الخفيف. الآن موظف المطار يسلّم بأن أحد الرجلين من أصل (شيشاني)، لكنه ينفي الشائعة المتعلقة بوجود قرآن في ركن الطيار. وحتى إذا كان ذلك حقيقياً، يضيف قائلاً، فإن هذا لا يعني شيئاً البتة، إنه على الرغم من كل شيء، قلما يكون إثماً.

هكذا إذاً. يفتح هنري بابه بطقطقة. السلطة المدنية، غير مكترثة الى بلبلة الآلهة المختلفين، سوف تكفل الحريات الدينية. سوف تزدهر. آن أوان التبضع. على الرغم من الألم العضلي في فخذيه، كان يخطو خطوات واسعة وسريعة مبتعداً عن سيارته، مغلقاً إياها بجهاز التحكم عن بعد (الريموت) من دون أن يلتفت للوراء. ضوء شمس شتاء مفاجئ يوضح دربه على طول (الهاي ستريت) أكبر تجمع من البشر في تاريخ الجزر، على مبعدة أقل من ميلين، لا يقلق إطمئنان (ماريلبون)، وبيروني نفسه أُسترضي بينما هو يتنقل جيئةً وذهاباً حول الحشود المقتربة وكل كراسي الدفع مع أطفالها المرزمين بسكون. أزدهار كبير، السوق كله مكرّس للأجبان، الأشرطة، أثاث شاكر، هو حماية من نوع رديء. هذه الرفاهة التجارية نشيطة وسوف تدافع عن نفسها حتى النهاية. ليس المذهب العقلي هو الذي سيهزم المتعصبين الدينيين، إنما التبضع الاعتيادي وكل ما يستتبعه كنتيجة لا بد منها.

المهن أولاً، والسلام، وبعض الاحالات الى السعادات المدركة بوضوح، وعدّ الشهوات المشبعة في هذا العالم، وليس التالية. بالأحرى المخزن بدلاً من الصلاة.

يستدير حول الزاوية ليدخل شارع (بادنغتون) وينحني أمام عرض في الهواء الطلق لسمك على لوح ذي إنحدار شديد من الرخام الأبيض. يرى بنظرةٍ عجلى أن كل ما يحتاجه موجود هنا. وفرة هائلة من البحار المفرغة. على الأرض القرميدية عند المدخل المفتوح تتكدس في قفصين خشبيين أشبه بأشياء صناعية صدئه منبوذة، السرطانات وجراد البحر، وفي ارتباك الأجزاء الأساسية الحربية ثمة حركة يمكن تمييزها. على كلاباتها كانت ترتدي أشرطة جنائزية سوداً. أنه شيء محظوظ بالنسبة لبائع السمك وللزبائن أن الكائنات البحرية لم تكن مهيئة لاستخدام الامواج الصوتية وليس لها صوت. وإلا لكانت تصرخ من ذينك القفصين. حتى السكون وسط الحشد المتحرك حركةً ضئيلةً رقيقةً هو معكر ومقلق، أشاح بصره جانباً، صوب اللحم الأبيض الخالي من الدم، والأشكال الفضية منزوعة الأحشاء بنظراتها غير المتهِمة، وأسماك البحر – العميق مرتبة بشرائح متراكبة ملائمة لاستعمالات مختلفة ذوات لون وردي طاهر، مثل صفحات كرتونية للكتاب الأول لطفلٍ من الأطفال. بطبيعة الحال، بيروني صياد السمك بطُعم أشبه بالذباب، فهم الأدب الحديث: مواضيع ذات مواقع مؤلمة بأشكال عدة أشبه بمواقعنا الكائنة في الرأس والعنق ذوات السلمون المرقط القزحي. كان مناسباً ذات مرة أن نفكر بصورة تتعلق بالكتاب المقدس، أن نؤمن بأننا مطوقون من أجل فائدتنا بواسطة أتمتات صالحة للأكل على اليابسة والبحر. الآن تبين أنه حتى السمك يشعر بالألم. هذا هو التعقيد المتنامي للحالة الحديثة،

الدائرة المتسعة للانسجام الاخلاقي. ليس الناس البعيدين وحدهم هم أشقاؤنا وشقيقاتنا، بل الثعالب أيضاً، وفئران المختبر، والآن الأسماك. يستمر بيروني في إمساكها وأكلها، ومع انه لم يسقط أبداً جراد البحر حياً في الماء المغلي، كان مهيئاً لأن يطلب واحداً في مطعمٍ ما. الحيلة، كما هو شأنها دوماً، المفتاح المؤدي الى النجاح الانساني والهيمنة، تكون اختيارية في رأفاتك. ذلك أن كل الكلام الفطن، هو الختام الجاهز للاستعمال، الشيء الواضح الذي يبذل القوة الطاغية. وما لا تراه.. لهذا السبب في (ماريلبون) الوديعة يبدو العالم بكل ما في الكلمة من معنى في حالة سلام.

السرطان وجراد البحر لم يكونا على لائحة أطعمة هذه الليلة. اذا كانت البطلينوسات[٤] وبلح البحر التي يشتريها حيةً، فإنها كسولة ومغلقة بصورةٍ لطيفة. يشتري سمك القريدس المطبوخ بأصدافه، وثلاثة ذيول سمك (أبو الشص)[٥] تكلف أكثر قليلاً من سيارته الأولى. بصورةٍ لا يمكن إنكارها، كدس من الخردة. يطلب عظام ورأسي سفنين[٦] كي يغليها من أجل المرق. بائع السمك رجل مؤدب، مجد، يعامل زبائنه بوصفهم أعضاء فرع أنيق من الارستقراطية المالكة أرضاً. يطوي كل صنف من السمك بصفحات عدة من جريدة ما. هذا هو نوع السؤال الذي ودَّ هنري أن يطرحه على نفسه حينما كان تلميذاً: ما هي فرص هذه السمكة المستقلة، من تلك المياه الضحلة، بعيداً عن ذلك الافريز القاري[٧] لتنتهي في صفحات، كلا، في هذه الصفحة من نسخة من الـ (ديلي ميرر)؟ شيء ما أقل قليلاً من اللانهاية بواحد. بصورةٍ مشابهة،

حبات الرمل على شاطئ ما، مرتبة هكذا تماماً. التنظيم العشوائي للعالم، الخلافات التي لا يمكن تصورها بإزاء أي حالة مستقلة، ما تزال تسره. حتى حينما كان طفلاً، وبخاصة بعد (أبيرفان)، لم يكن يؤمن بالمصير أو العناية الإلهية، أو المستقبل الذي يصنعه شخص ما في السماء. بدلاً من ذلك، في كل لحظة، تريلون التريليون[٨] من المستقبلات (جمع مستقبل) الممكنة ؛ قطف الفرصة الخالصة والقوانين الفيزياوية بدا أشبه بالتحرر من تدبير مكيدة رب متشائم.

الكيس اللدائني الأبيض الذي يضم غداء العائلة ثقيل، كثيف باللحم والورق المشبع بالماء، والمقبضان يوجعان باطن راحته بشدة بينما هو يسير عائداً الى سيارته. بسبب الألم الكائن في صدره، لم يكن قادراً على نقل الثقل الى يده اليسرى. مبتعداً عن روائح العشب البحري شديد الرطوبة لمخزن بائع السمك، يعتقد هو أن بوسعه أن يتذوق عذوبة الهواء، مثل قش دافئ يتيبس في الحقول في شهر آب (أغسطس). الرائحة – مؤكد وهم ولّده التباين – تستمر، حتى مع حركة المرور وبرودة شباط (فبراير) المعتدلة. كل تلك الأصياف (جمع صيف) العائلية في مدينة عمه (والد زوجته) في مقاطعة (أرييج)، في الركن الجنوبي – الغربي من فرنسا حيث تبدأ اليابسة بالتموج والانفتاح قبل (البيرينيز)[٩]. بيت (سانت فيلكس) الريفي الضخم ذو حجر دافئ، وردي فاتح، وبرجان مدوران وشظية خندق مائي هو المكان الذي انسحب إليه جون غراماتيكوس حين انتقلت زوجته الى العالم الآخر وحيث تفجع

عليها مع أغاني الحب الحلوة – الحزينة المجموعة في مجلدٍ حمل عنوان ((ما من جنازة)). لم يكن المجلد ذائع الصيت بالنسبة لـ هنري بيروني، الذي لم يكن يقرأ الشعر في حياته البالغة حتى بعد أن نال عماً شاعراً. بطبيعة الحال، شرع بمطالعة الشعر ما إن اكتشف هو نفسه كان أباً لشاعرة. إلا ان ذلك كلفه مجهوداً من طراز لم يألفه من قبل. فحتى أول بيت شعر يمكن أن ينتج ضيقاً خلف عينيه. الروايات والأفلام السينمائية، كونها حديثة بصورةٍ متواصلة، تدفعك الى الأمام أو الخلف عبر الزمن، عبر الأيام، السنوات أو حتى الأجيال. إنما كي ينجز ملاحظاته وأحكامه، يوازن الشعر نفسه على ثقيب اللحظة. متمهلاً، موقفاً نفسك كلياً، كي تقرأ وتفهم قصيدة أشبه بمحاولة إكتساب مهارة عتيقة الطراز مثل بناء جدار من الحجر الجاف أو دغدغة السلمون المرقط.

حينما خرج غراماتيكوس من الحداد، قبل أكثر من عشرين سنة خلت بدأ سلسلةً من العلاقات الغرامية ما تزال مستمرةً حتى الآن. النمط ترسخ جيداً. امرأة أصغر سناً، انجليزية في أكثر الأحيان، وغالباً فرنسية، يتخذها بوصفها سكرتيرة ومدبرة منزل، وتدريجياً تصبح نوعاً من زوجة. بعد ثلاث أو أربع سنوات سوف تفرّ، غير قادرة على تحمل المزيد، وسوف تنال بديلتها ترحيب عائلة بيروني في أواخر تموز (يوليو). روزاليند تنتقد بقسوة في كل تحوّل، تفضل دوماً السابقة على اللاحقة، بعدها، بمرور الوقت، ينمو ولع ما. على أي حال، هي قلما تكون غلطة الواصلة

الجديدة. الأطفال، كليا من دون قرار، حتى وهم مراهقون، يكونون عطوفين حالاً معها. بيروني، المرغم بنيوياً على أن يحب امرأة واحدة طوال حياته، تأثر تأثيراً هادئاً، بخاصة بينما كان العجوز يتقدم الى عقده السبعيني. لعله يتمهل أخيراً، من أجل تيريزا، وهي امرأة رائعة في الأربعين، ليبرالية من (برايتون)، كانت معه على مدى أربع سنوات تقريباً.

وجبات الطعام في الهواء الطلق في الغسق اللامتناهي، الدواليب المعطرة من القش في الحقول الصغيرة شديدة الانحدار التي تطوّق الحدائق، والرائحة الأخف لكلور المسبح على جلد الأطفال، والنبيذ الأحمر الدافئ من (كاهورس) أو (كابريريه) – لا بد أن الموضع كان الفردوس بعينه. هو تقريباً كذلك، ولهذا السبب واصلوا زيارته. إلا أن جون بوسعه أن يكون صبيانياً، رجلاً مستبداً، فناناً من الطراز الذي يكفل لنفسه رخصة تقلب المزاج بطيف كامل. يمكنه أن يهاجر في فضاء زجاجة نبيذ أحمر من النوادر الوامضة الى البزوغ المفاجئ، وبعدها يرجع ساخطاً الى مكتبه – ذلك التراجع الطويل بظهر محني عبر المرجة في المكان المظلم صوب المنزل المضاء، صحبة بيتي أو جين أو فرانسين، والآن تيريزا تتبعه الى الداخل كي تمهد الأشياء. لم يكن يملك تماماً براعة الحوار، وكان ميالاً الى أن يسمع في الآراء المخالفة، مهما كانت معتدلةً، نوعاً من إهانة، دعوةً الى النزاع القاتل. السنوات والمشروبات الروحية لم تهدئه. وبطبيعة الحال، بينما كان يهرم ويكتب أقل، أصبح أقل سعادةً. كان منفاه في فرنسا عبوساً

متطاولاً، أوقع الكآبة في النفس طوال عقدين من الزمن بواسطة تجاهلات متنوعة من البلد الأم. كانت هناك رقعة سيئة أمدها أربع سنوات حين نفدت طبعة كتابه ((قصائد مختارة)) وكان يجب العثور على ناشر آخر. لاحظ جون حينما رُفع سبندر وليس هو الى مرتبة فارس، حين نال رين وليس غراماتيكوس رئاسة التحرير في (فيبر)، حين فقد منصب بروفيسور أكسفورد في حقل الشعر الذي ناله فينتون، حينما تم تفضيل هيوز وفي ما بعد موشن بوصفهما شاعري البلاط، وقبل كل شيء حينما نال هيني جائزة نوبل للآداب[10]. هذه الأسماء لا تعني شيئاً بالنسبة لـ بيروني. غير أنه يفهم كيف أن الشعراء البارزين، على غرار الأطباء الاستشاريين الأكبر سناً، يعيشون في عالم مؤرق، غيور تكون فيه المكانات المرموقة ميالةً بانفعال وإن المرء يمكن أن ينحط بفعل حالة القلق. الشعراء، أو في الأقل، هذا الشاعر، هم دنيويون شأنهم شأن البقية.

على مدى صيفين عندما كان الأطفال ما يزالون صغاراً ذهب بيروني وزوجته الى مكان آخر، إلا أنهما لم يجدا شيئاً في جنوب أوربا بدرجة جمال (سانت فيلكس). فهناك أمضت روزاليند عطل طفولتها. كان البيت الريفي ضخماً وكان من اليسير أن يكونوا بعيدين عن طريق جون – كان الأخير يفضل أن يقضي ساعات عدة يومياً وحيداً. قلما كانت هناك أكثر من لحظتين سيئتين أو ثلاث في بحر أسبوع، وبمرور الوقت أصبحت أهميتها أقل. وحينما أصبح نمط حياته الغرامية راسخاً، كان لـ روزاليند دوافعها

الرقيقة الشخصية كي تبقى في اتصال حميم مع والدها. كان البيت الريفي يعود الى أجدادها من ناحية الأم وكان موضوع ولع حياة أمها. كانت من الطراز الذي حدّث المبنى وجدده. الشيء الذي كان يقلقها هو ما إذا كان العمر والمرض قد أرهقا جون ليتحول أخيراً الى الزواج من إحدى سكرتيراته، وربما تخرج ملكية البيت الريفي من نطاق الأسرة لتصبح في حوزة الوافدة. قوانين الوراثة الفرنسية ربما منعت حصول ذلك، إلا أن ثمة وثيقةً، وهي تأمين تكافلي[11] قديم، يكشف ان (سانت فيلكس) مستثناة، وان القانون الانجليزي هو السائد. بطريقته النزقة، يعيد جون طمأنة ابنته انه لن يتزوج ثانيةً وان البيت الريفي سيكون ملكاً لها، لكنه رفض أن يدون أي شيء على الورق.

خلفية القلق تلك ربما سيتم حلها. ثمة سبب آخر أكثر قوةً جعلهم يقصرون زياراتهم الصيفية على البيت الريفي هو أن ديزي وثيو اعتادا أن يصرا على زيارة المكان – كانت تلك سالف الأيام، قبل أن يتشاجرا جو وديزي. كانا يحبان جدهما ويعدّان أمزجته السخيفة برهاناً على اختلافه، عظمته – وهو رأي شاركهما فيه هو نفسه نوعاً ما. شغف بهما، ولم يرفع صوته عليهما، وأخفى عنهما أسوأ هيجاناته. منذ البداية عدَّ نفسه – بصورة صحيحة كما تبين لاحقاً – شخصيةً بارزةً في نموهما الفكري. ما إن أمسى واضحاً أن ثيو لن يكون مهتماً إهتماماً مؤدباً بالكتب حتى شجعه جون على البيانو، وعلمه على (البوغي) البسيط بالـ C. ثم اشترى له غيتاراً صوتياً وجرّ من السراديب علباً كارتونية من

تسجيلات (البلوز)، وأشرطة مصنوعة وصلت الى لندن في رزم منتظمة. في عيد ميلاد ثيو الرابع عشر، أخذه جده بالسيارة الى (تولوز) كي يسمع (جون لي هووكر) في واحدٍ من آخر ظهوراته (جمع ظهور). في مساء صيفي بعد العشاء أدى غراماتيكوس وثيو بالعزف والغناء ((مشفى القديس جيمس)) تحت سماء ساطعة من النجوم، كان الرجل العجوز يميل رأسه الى الخلف وينشد بلهجة أمريكية ذات صوت أجش جعلت عيني روزاليند تدمعان. ثيو، الذي كان ما يزال في الرابعة عشرة، أرتجل لحناً مفرداً (صولو) حلواً وكئيباً. بيروني، جالساً على مبعدة عنهما مع نبيذه عند المسبح، قدماه العاريتان في الماء، تأثر أيضاً ولام نفسه لأنه لم يأخذ موهبة ابنه بجدية كافية.

في خريف ذلك العام بدأ ثيو يسافر الى شرق لندن لتلقي الدروس مع شخصيات بارزة متنوعة كبيرة السن عن مشهد أغاني (البلوز) البريطانية، متصلاً عبر صديق لـ روزاليند مع صحيفتها. على وفق ما قاله ثيو، كان جاك بروس هو الأكثر تأثيراً لأنه كان له تدريب منهجي في الموسيقى، عزف على آلات موسيقية عدة، أحدث ثورةً في عزف الجهير، عرف كل شيء حول النظرية وسجل مع الجميع خلال الحقبة البطولية لأغاني (البلوز) البريطانية، في مطلع عقد الستينيات، الأيام القديمة جداً لـ (شركة أغاني البلوز المحدودة)). كان أيضاً، قال ثيو، صبوراً معه أكثر من الآخرين، وعطوفاً جداً. كان بيروني مندهشاً من كيف يمكن لشخصية رفيعة مثل بروس أن تتجشم عناء قضاء

الوقت في تعليم مجرد غلام. بصورةٍ ملطفة للنقمة، لم يرَ ثيو شيئاً إستثنائياً البتة في هذا.

عبر بروس التقى ثيو بعض الشخصيات البارزة الخرافية. سُمح له أن يجلس في صف (كلابتون) المخصص للأساتذة. مضى زمن طويل منذ أن أقبل جون بالدري من كندا من أجل إجتماع الشمل. كان ثيو يحب أن يسمع عن سيريل ديفيز و اليكسيس كورنر، وعن (منظمة غراهام بوند)، وعن أول حفلة موسيقية لـ (كريم). في حوادث غير متوقعة إشترك ثيو في حفلة موسيقية على مدى دقائق معدودة مع روني وود والتقى أخاه الأكبر، المدعو آرت. بعد مرور سنة طلب آرت من ثيو أن يلتحق بدورة اشتراك في الحفلات الموسيقية في نادي (ايل بيي) في حانة (كابيج باج) الواقعة في (توكنهام). في مدة لا تقل عن خمس سنوات يبدو أنه أمتلك العرف بأكمله. الآن، كلما يكون في البيت الريفي يعزف لجده ويريه آخر أعماله البارعة. يبدو أنه يحتاج موافقة جون والرجل العجوز يتفضل عليه بمنة. ينبغي لـ بيروني أن يسلمها له باليد، فتح شيئاً ما في ثيو بحيث أنه، بيروني، ربما لا يعرف عنه شيئاً البتة. الواقع إنه في عطلة الأمواج المنكسرة على الجسد في (بيمبروكشاير) حين كان ثيو في التاسعة، أراه هنري ثلاثة أوتار بسيطة على قيثار شخصٍ ما وكيف يتم عمل ألحان (البلوز) في E. كان ذلك مجرد شيء واحد جنباً الى جنب مع رمي الشيء الشبيه بصحن الفنجان من شخص الى آخر، التزلج على العشب، ركوب الدراجات الجماعي، تكوير الدهان، جعل الحجر يثب على وجه الماء،

والتزلج في خط معين. بعدها عمل بجد على لهو أطفاله يومذاك. لا بل حتى كسر ذراعه من دون أن ينقطع عن التزلج. إلا أنه لم يكن ليخمن أن تلك الأوتار الثلاثة سوف تصبح أساس حياة ابنه المهنية.

كان جون غراماتيكوس أيضاً قوةً في حياة ديزي، في الأقل، الى أن جرى بينهما شيء بطريقة خاطئة حينما كانت في الثالثة عشرة، تقريباً في الوقت الذي كان يعلم فيه أخاها عزف الـ (بوغي) في الـ (C)، طلب منها أن تخبره عن الكتب التي استمتعت بقراءتها. أرهف السمع إليها وأعلن لها انها تتمدد أقل من المطلوب – كان يزدري القصة المخصصة لـ((البالغين اليافعين)) التي كانت تقرأها. أقنعها بمحاولة مطالعة ((جين آير))، وقرأ لها الفصول الأولى بصوتٍ عالٍ، ورسم لها خريطة السعادات التي ستأتي. أصرتْ على موقفها، إلا أنها وافقت أخيراً لمجرد أن ترضيه. كانت اللغة غير مألوفة، والجمل طويلة، وكانت تكرر قائلة أن الصور في ذهنها، لا تغدو جليةً، حاول بيروني أن يطالع الكتاب وكانت له التجربة ذاتها تماماً. إلا أن جون أصر على أن تواصل حفيدته قراءة الكتاب، وأخيراً، بعد أن طالعت مائة صفحة، وقعت في غرام جين وقلما كانت تنقطع عن المطالعة في أثناء تناولها وجبات الطعام. حين مضت العائلة في نزهة راجلة عبر الحقول في ما بعد ظهيرة أحد الأيام، تركوها مع إحدى وأربعين صفحة بقيت لها من الكتاب. وحينما رجعوا وجدوها جالسةً تحت شجرةٍ عند برج الحمام تتشج، ليس بسبب القصة بل لأنها بلغت النهاية وبزغت من حلمٍ ما كي

تدرك إن ذلك كله كان من إبداع امرأة لن تلتقيها في يوم من الأيام[١٢]. قالت، إنها بكت تعبيراً عن إعجابها، عن فرحها بأن أشياءً كهذه من الممكن ابتكارها. أي نوع من الأشياء، يود غراما تيكوس أن يعرف. أوه جدي، حين يموت الأطفال اليتامى مع ان المناخ جميل جداً، وذلك الدور الصغير حين يتظاهر روشستر بأنه غجري، وحين تلتقي جين بـ بيرثا أول مرة وأنها أشبه بحيوان بري...

ناولها رواية كافكا ((المسخ))، والتي قال عنها أنها نموذجية لفتاة في الثالثة عشرة من عمرها. جعلت تقرأ هذه القصة العائلية الخرافية بعجالة وطلبت من والديها أن يطالعانها أيضاً. دخلت حجرتهما في البيت الريفي في ساعةٍ مبكرة جداً ذات صباح وجلست على السرير كي تندب ذلك المسكين غريغور سامسا، أفراد عائلته كانوا (بغيضين) جداً بالنسبة له. كم كان محظوظاً أن تكون له أخت تنظف غرفته وتجد له الأطعمة التي يشتهيها. تناولتها روزاليند في جرعة واحدة، كما لو كانت امرأً قضائياً شرعياً. بيروني، الذي كان بطبيعته يتخذ موقفاً عدائياً نحو حكاية تتعلق بتحول غير ممكن، أذعن بأنه خُدع في النهاية – لم يستطع أن يصوغ عبارته بصورةٍ أرقى. أحب الوحشية غير الدالة على التفكير لتلك الأخت في الصفحة الأخيرة، وهي تركب الترام مع والديها الى الموقف الأخير، ماطةً أطرافها اليافعة، مستعدةً للبدء بحياة حسية. بوسعه أن يؤمن بتحولٍ ما. كان هذا أول كتاب نصحته ديزي بقراءته، وأشر بداية تثقيفه الأدبي على يديها. ومع

أنه كان مجتهداً على مدى السنوات ويحاول أن يقرأ تقريباً كل شيء تضعه في متناوله، كان يعرف أنها تعتقد أنه رجل مادي، فظ، لا يمكن إعتاقه. في ظنها إنه يفتقد الى الخيال. ربما الأمر كذلك، إلا أنها لم تتخلَ عنه مع ذلك. الكتب تتكدس بجنب سريره وسوف تَصل مع المزيد منها (أي الكتب) هذه الليلة. لم يكمل حتى مطالعة سيرة حياة دراوين، أو يبدأ بقراءة كتاب كونراد.

من الصيف الذي قرأت فيه برونتي وكافكا فصاعداً، كان غراما تيكوس قد إضطلع بمسؤولية قراءة ديزي. كانت له آراء ثابتة، عتيقة الطراز حول المبادئ، وكان يعتقد أنها ليست جميعاً سارة جداً. كان يؤمن بتعليم الأطفال بواسطة الحفظ من دون فهم، وكان مستعداً لدفع المال لقاء ذلك. شكسبير، ميلتون وإنجيل الملك جيمس – خمسة باونات كل عشرين سطراً يتم حفظها عن ظهر قلب من الفقرات التي يحددها. هؤلاء الثلاثة هم منابع الشعر والنثر الانجليزي الجيد بكل معنى الكلمة ؛ علمها أن تدير المقاطع اللفظية حول لسانها وأن تشعر بقوتها الايقاعية. في صيف عيد ميلادها السادس عشر، حققت ديزي نجاح المراهقة في البيت الريفي، مترنمةً، وحتى مغنيةً، أجزاءً من ((الفردوس المفقود))، و ((سفر التكوين)) وتأملات كئيبة متنوعة من ((هاملت)). روت منتخبات من براوننغ، كلوغ، شيشرون وماسفيلد. في أسبوع جيد واحد كسبت خمساً وأربعين باوند، حتى الآن، بعد مضي ست سنوات على ذلك، وهي في عمر ثلاثة

وعشرين، تدّعي أنها قادرة على أن تتحدث بتدفق دون انقطاع على مدى أكثر من ساعتين. في الوقت الذي أصبحتْ فيه في الثامنة عشرة وتركت المدرسة يمكنها أن تطالع جزءاً مقبولاً مما يدعوه جدها مادةً واضحةً. لم يسمع عن ذهابها الى أي مكان لدراسة الأدب الانجليزي غير كلية الاوكسفورد خاصته. مع أن هنري وروزاليند توسلا اليه ألا يفعل، فربما أوصاها بذلك. بصرف النظر عن الموضوع، أخبرهما أنه في هذه الأيام النظام غير قابل للرشوة وليس بوسعه أن يفعل شيئاً حتى إذا أراد ذلك. إن اعتيادهما مهنتيهما الخاصتين أخبرهما أن هذا لن يكون حقيقياً بصورةٍ كاملة. إلا أن ملاحظةً مكتوبةً بخط اليد من معلم خصوصي الى مدير مدرسة ديزي هدأت ضميريهما تلك الملاحظة ذكرتْ أنها قدمتْ حواراً مدهشاً، داعمةً كل تبصر باقتباسٍ ما.

بعد مرور سنة ربما كان لها نوعاً ما نجاح كبير جداً في ما يتعلق بذائقة جدها. وصلتْ الى (سانت فيلكس) بعد وصول أسرتها بيومين، وجلبتْ معها القصيدة التي نالتْ عنها (جائزة نيودجيت) لتلك السنة. هنري وروزاليند لم يسمعا من قبل بهذه الجائزة، إلا أنهما بطبيعة الحال سُرا سروراً كبيراً. إلا أن الأمر عنى شيئاً أكثر، ربما شيئاً كبيراً جداً، بالنسبة لجد ديزي الذي كان نالها في الماضي في أواخر عقده الخمسيني. أخذ صفحات قصيدتها الى داخل مكتبه – سُمِحَ لوالديها في ما بعد برؤيتها. وصفت القصيدة بتفصيل تام التأملات الرقيقة لامرأة شابة في نهاية علاقة غرامية أخرى. مرةً أخرى نزعتْ الشراشف عن سريرها وأخذتها الى حجرة

صغيرة لغسل الملابس وكيها حيث تشاهد عبر ((النظارة المعتمة أحادية الزجاجة)) لماكينة الغسيل، ((لطخاتنا كلها سوف تُطهر)). هذه القضايا أيضاً تحولتْ، كالفصول، بصورةٍ سريعةٍ جداً ((الأخضر الراكض الى البني))، مع ((ما تسقطه الريح يتعفن بصورة جميلة الى نسيان)). اللطخات لم تكنْ حقيقةً آثاماً إنما ((علامات مائية للنشوة))، أو في ما بعد ((الألواح الممسوحة الحليبية)) وهكذا ليس من اليسير جداً إزالتها على الرغم من كل شيء. ورعةً بصورةٍ غامضة، إيروسيةً بصورةٍ معسولة، أوحت القصيدة لـ بيروني المُقلق بأن السنة الأولى لإبنته في الجامعة كانت مزدحمةً أكثر مما حدس في أي وقت مضى. ليس مجرد صديق، أو حبيب، بل سلسلة متوالية كاملة، الى درجة السكون. ربما هذا هو السبب الذي جعل غراما تيكوس يتخذ موقفاً مضاداً من القصيدة – محميته سحرتْ رجالاً آخرين وعثرت عليهم. أو ربما كان السبب هو نوبة لم يكن أخرى مثيرة للشفقة لحالة القلق – في صياغة ثقافة ديزي الأدبية ينوي أن ينتج فضلاً عن ذلك شاعرة منافسة أخرى. جائزة (نيودجيت) على أي حال كان قد فاز بها فينتون وموشن.

أعدتْ تيريزا عشاءً بسيطاً من سلطة نيسواز[١٣] مع سمك (التونة) الطازج من السوق في (باميرز). نُصبت مائدة العشاء خارج المطبخ مباشرةً، على حافة رقعة منفسحة من المرجة. كانت أمسية أخرى من الأمسيات الجميلة الرائعة جداً، مع الظلال الضارية للون الأرجواني للأشجار والشجيرات المتقدمة عبر العشب الجاف،

وكانت الجداجد قد بدأت تشغل مكان زيز حصاد حقبة ما بعد الظهر الذي غادر. كان غراماتيكوس هو آخر من ظهر، ويحدس بيروني، بينما كان والد زوجته يحني نفسه ليجلس في الكرسي بجنب ديزي، أنه كان قد احتسى زجاجة نبيذ أو أكثر. تأكد ذلك حين وضع يده على رسغ حفيدته، وبتلك الصراحة المتغطرسة التي يخطؤها السكيرون فيعدونها حميمية، أخبرها أن قصيدتها طائشة وليست من ذلك الطراز الذي نال عموماً جائزة (نيودجيت). لم تكن القصيدة جيدةً على الاطلاق، أخبرها، كما لو أنها يجب أن تعرف ذلك الآن وكانت مجبرة على أن تؤيده. كان، كما يحتمل أن يقول الطبيب النفساني، غير ممنوع[١٤].

في وقت أكبر يرجع الى سنتها الأخيرة في المدرسة الثانوية، حينما لم يكن عمرها سوى ثمانية عشرة سنةً، طالبة متفوقة ونجمة أكاديمية للصف السادس الثانوي، أظهرت ديزي سلوكها الرقيق والمستقل. كانت شابة رشيقة العظام، أنيقة وملتزة، ذات وجه صغير فاتن، وشعر أسود قصير وظهر مستقيم. تبدو رباطة جأشها منيعة. في عشاء تلك الليلة، عرف والداها وشقيقها كم كان هشاً ذلك المظهر المسيطر عليه. إلا أنها كانت هادئةً حينما سحبت يدها من دون عجل وتطلعت الى جدها، في انتظار أن يقول لها المزيد. أخذ جرعةً طويلةً من قنينة النبيذ العائدة له، كما لو كانت قِدراً ذا نصف لتر من البيرة الفاترة، واخترق سكونها. قال إن الإيقاعات غير محكمة وغير متقنة، أما طول المقاطع الشعرية فغير منتظم. نظر هنري الى روزاليند، راغباً أن تتدخل وتبدي رأيها.

إن لم تكنْ ترغب بذلك، فيتوجب عليه أن يقوم بذلك، وأن المسألة ستتخذ أهميةً كبيرةً جداً. ويالخجله، لم يكن متيقناً كلياً ماذا كان يعني ((المقطع الشعري)) الى أن نظر في أحد القواميس في وقت لاحق من تلك الليلة. لزمت روزاليند الصمت – إن قطع تدفق والدها في وقت مبكر جداً ربما سيسبب انفجاراً. كان ترويضه فناً دقيقاً. في ناحيتها من الطاولة، كانت تيريزا تعاني. في زمنها، وفي مناسبات عدة في السنوات التي سبقت زمنها، كان ثمة مشاهد شبيهة بهذا المشهد، مع إن أحدها لم يتطرق الى الأطفال. كانت تعرف إن هذا المشهد لن ينتهي نهايةً حسنةً. أراح ثيو فكه في راحة يده وتطلع الى طبقه.

صمت الحفيدة شجع جون على أن يمضي قدماً في كلامه المتدفق، يفعم سلطته بالنشاط، وبدا سلوكه حنوناً بصورة بلهاء. خلط بين الشابة الجالسة أمامه وبين فتاة في السادسة عشرة كان درسها تدريساً خصوصياً في موضوع الشعراء الاليزابيثيين(١٥) للعصر الفضي(١٦). لو تسنى له أن يعرف الأمر، فقد نسي ماذا يمكن أن تفعل سنة واحدة جيدة في الجامعة. كان بوسعه فقط أن يتخيل أنها شعرت بمثل ما شعر هو، وكان يقول لها ما هو جلي: كانت القصيدة طويلةً جداً، بذلت مجهوداً كبيراً كي تصدم، كان هناك تشبيه عرف كلاهما أنه معقد. توقف عن الكلام قليلاً ليحتسي من جديد جرعةً عميقةً، ومع ذلك لم تقلْ هي شيئاً.

ثم أخبرها أن قصيدتها ليستْ أصيلةً، وفي الختام كان لها رد فعل. وترتْ رأسها الأملس ورفعت أحد حاجبيها. ليستْ أصيلة ؟

بيروني وهو يرى ارتعاش دلالة في الذقن الوسيم، فكر أن السلوك الهادئ لن يستمر طويلاً. تحدثت روزاليند أخيراً، إلا أن والدها أقنعها بوجهة نظره. أجل، شاعرة معروفة قليلاً إلا إنها موهوبة - اسمها بات جوردان، من مدرسة (ليفربول)، كتبتْ فكرةً مشابهةً في عقد الستينيات – نهاية علاقة غرامية، الشراشف الدائرة بسرعة في حجرة صغيرة لغسل الملابس وكيها عُرضتْ أمام الشاعرة المستغرقة في التفكير. هل يحتمل أن غراماتيكوس كان يعرف كم كان سلوكه أحمق إلا أنه لم يكن بوسعه أن يتراجع؟ في عينيّ الرجل العجوز الضعيفتين كانت ثمة نظرة تملق أشبه بنظرة كلب، كما لو كان يروع نفسه وكان يتوسل الى شخص ما كي يكبحه. كان صوته يغدو أجش في ما هو يجهد نفسه من أجل الدماثة، وواصل الكلام، جاعلاً من نفسه مضحكاً أكثر. السكون المحيط بالطاولة الذي مكنه من التحدث أصبح الآن عقوبته، وبلواه. كان ثيو يتطلع إليه في ذهول، هازاً رأسه. بطبيعة الحال، كان جو يقول، أنه لا يتهم ديزي بالانتحال، لعلها قرأتْ القصيدة ونسيتها، أو ببساطة اخترعتها من جديد لنفسها. على أي حال، لم تكن تلك الفكرة الاستثنائية أو غير الاعتيادية جداً، بل هي بطريقة أخرى...

في الختام شعر بالارهاق، وأنه غير قادر على جعل الموقف أسوأ. سُرَّ بيروني وهو يرى ابنته لم تتحطم. كانتْ غاضبةً. كان بوسعه أن يرى الشريان ينبض في رقبتها تحت الجلد. إلا أنها لن تريح جدها بأي نوعٍ من الانفجار العاطفي. بغتةً، وبسبب كونه غير قادر

على تحمل الصمت، بدأ ثانيةً، متحدثاً بسرعة، محاولاً أن يلين قراره من دون أن يغيّره فعلاً. قاطعته ديزي قائلة أنهما يجب أن يخوضا في موضوعٍ آخر، الأمر الذي جعل غراماتيكوس يتمتم ببساطة ((أوه تباً !))، ونهض من كرسيه وذهب الى الداخل. راقبوه – مشهد مألوف، تلك الهيئة المتراجعة، إلا إنه مزعج أيضاً، لأنه حصل أول مرة في ذلك الصيف.

بقيت ديزي ثلاثة أيام أخرى، وهو وقت طويل بصورة كافية لجدها كي يفكر في طرائق عدة لإستئناف علاقتيهما. إلا أنه في اليوم التالي كان ناشطاً ومستغرقاً في التفكير بصورةٍ مرحة، وبدا أنه نسي الموضوع – أو أنه ببساطة تظاهر – شأنه شأن سكيرين كثيرين، انه ود أن يعتقد بأن أي يوم جديد رسم خطاً تحت اليوم الذي سبقه. حين غادرتْ ديزي متجهة صوب برشلونه – كان ذلك ترتيباً جرى تنظيمه منذ زمن طويل وفي الوضع المناسب – أجبرت نفسها على تقبيله قبلة الوداع على كلا خديه وأمسك هو بذراعها، وفي ما بعد كان قادراً على إقناع نفسه أن تسويةً ما قد حصلت. حين حاولتْ روزاليند وفي ما بعد هنري أن يقنعاه بأنه ما يزال أمامه واجب ما بإزاء ديزي، قال لهما أنهما كان يخلقان له مشكلةً. لا بد أنه ساءل نفسه يومذاك لماذا لم تظهر للعيان في (سانت فيلكس) في الصيفين التاليين. وجدت لها دوافع جديدة كي تسافر مع الأصدقاء والصديقات الى الصين والبرازيل. كان ينبغي له أن يكتب لها حين طبعتْ كتابها الأول، إلا انه حينذاك كان قد قطب جبينه رافضاً الكلام عن المسألة. لذا كانت

حركة محفوفة بالمخاطر حين بعثتْ له روزاليند نسخةً مصححةً من قصائد ديزي. ألم يكن مرغماً على كره القصائد ؟ بخاصة حينما كان ناشر كتابها هو الذي جعل ((قصائده المختارة)) تنفذ من المكتبات ؟

إذا كانت حماسته لـ ((مركبي الأنيق)) تكتيكية، فقد أخفاها بألمعية. رسالته الطويلة لها بدأتْ بتسليمه بأنه كان ((شخصاً فظاً مخزياً)) فيما يتعلق بقصيدة المكوى الصغير. لم تكن هذه القصيدة قد ضُمتْ في الكتاب، وساءل هنري نفسه، مع إنه لم يفعل ذلك بصوتٍ عالٍ، ما إذا كان جدها على صواب دائماً في ما يتعلق بتلك القصيدة. أخبرها في رسالته، أنها وجدتْ نبرةً حواريةً كانت مع ذلك غنية بالمعنى وتداعي الأفكار. بين الفينة والفينة في كل يوم، كان الصوت الهادئ تتم مقاطعته أبياتٍ من القوة العاطفية و ((السمو الدنيوي)). في ما يتعلق بهذا الشأن، وجد في كل مكان في قصائدها روح شاعره المحبوب لاركن، إلا أنها ((منشطة بحسية امرأة شابة))، ودعابةً أكثر كآبةً. في كتابته العادية غير المقروءة تقريباً أطرى ((القوة الفكرية))، ((جرأة التفكير المثابر والمستقل))، التي وشت بنظام قصائدها. أحب ((الفطنة القذرة)) لقصيدتها الموسومة ((ست أغانٍ قصيرة)). قال انه ((ضحك كأبله)) على ((بالاد العقل على حذائي)) – وهي قصيدة نتجت عن زيارة قامت بها ديزي ذات صباح لصالة العمليات الجراحية كي ترى والدها في أثناء عمله. وهي القصيدة التي أحبها هنري، بطبيعة الحال، أقل من القصائد كلها. كانت ابنته

حاضرة في أثناء ازالة تمدد واضح في الشريان المخي الأوسط. لم يضع شيء من مادة الدماغ السنجابية أو من المادة البيضاء. ظن أنه وجد في القصيدة العنصر الأساسي للفن إنما – توجب عليه أن يتصور – عدم إخلاص من الممكن الصفح عنه. بعثت ديزي الى جدها بطاقةً بريديةً رقيقةً أخبرته كم هي مشتاقة اليه وكم هي مدينة له. قالتْ إن ملاحظاته هزتها هزاً وراحتْ تقرأها المرة تلو المرة وإنها أُصيبت بالدوران من جراء مدحه.

الآن الرجل العجوز وديزي يتقاربان من تولوز وباريس. شركة تلفازية تريد أن تعمل برنامجاً حول حياته بأن تضع غراماتيكوس في اسلوبٍ ما في (كلاريج). عند العشاء هذه الليلة سوف تُختم المصالحة – هذه هي الفكرة، إلا أن بيروني، حاملاً بمشقة كيسه المليء بالسمك، متحركاً مع الحشود عائداً عبر الـ (هاي ستريت)، كان قد شارك والد زوجته وجبات طعام كثيرة جداً كي يكون متفائلاً ؛ وان المسائل تحركتْ في السنوات المنصرمة الثلاث. في أيامنا هذه يبدأ غراماتيكوس مساءاته أو أوقات عصره بالطريقة ذاتها التي اعتاد عليها، مع جرعات قليلة جدية من الجن قبل النبيذ – وهي عادة استطاع ان يعود اليها برهةً من الزمن في عقده الستيني. ثمة تطور آخر هو أقداح (السكوتش) التي تستمر طوال ساعات النهار، قبل أن يزور بيرة ((التنظيف)) في الوقت الذي يسبق النوم. إذا ما ظهر على عتبة الباب في حالة مرح أو إهتياج، فإنه سوف يشعر بأن كرهاً غير مفحوص لحالته يهيمن في منزل إبنته تجعله يشرب بصورةٍ أسرع. السكر هو رحلة تجعله مبتهجاً

عموماً في المراحل المبكرة – هو حسن العشرة، غير متحفظ، عابث وهازل، الشاعر الهرم ذائع الصيت، كان يسعد تقريباً في الاستماع مثلما يسعد في التكلم. لكن ما إن يتم اللقاء بالغاية، ما إن يُرسخ هناك على ذلك النجد غير المشمس، سكير مؤهل كلياً، حتى تسيطر الموزيات[١٧] الأكثر فحشاً، عفاريت العدوان، جنون العظمة، والاشفاق على الذات. الأمل الآن هو أن أمسيةً مع جون سوف تمضي بصورة سيئة نوعاً ما، ما لم يكن الجميع المحيطون بهم مهيئين لأن يكدحوا عند المزاح والإطراء وساعات الاصغاء بوجوه منجمدة. لن يكون أحد ما مهيئاً لذلك.

يصل بيروني سيارته ويُنزل الكيس كريه الرائحة في صندوق السيارة، بين جزمات وحزم الظهر التي تستخدمها العائلة في النزهات الطويلة الراجلة وكرات تنس الصيف الماضي. غالباً ما تخطر بباله فكرة غير مهنية مفادها أن أكثر اللمسات رأفةً للجميع، بضمنهم هو الرجل العجوز نفسه، هو أن ندس له مهدئاً ثانوياً بينما هو ما يزال في مسلك الصعود المرح، نوعاً من مشتق الـ (بنزوديازبين) ذي المفعول قصير الأمد يُذاب في نبيذ أحمر قوي مثل (ريوجا Rioja) وحينما تتضاعف تثاؤباته، يُقاد عبر درجات السلم الى حجرته، أو الى سيارة الأجرة الخاصة به – الشاعر العجوز الشهير يكون في فراشه قبل منتصف الليل بنصف ساعة، متعباً وسعيداً ومن دون أن يلحقه أذىً.

قاد سيارته مائتي ياردة عبر (ماريلبون) في حركة مرور بطيئة حين راح يلاحظ في مرآة المشهد الخلفي، خلف سيارتين، بي. أم.

دبليو حمراء. كل ما يستطيع أن يراه حقيقةً جناحها الأيسر وليس بوسعه أن يقول ما إذا كانت مرآة الجناح مفقودة. شاحنة مقفلة بيضاء أدخلتْ نفسها عند ملتقى طرق، ولم يعد بوسعه رؤية السيارة الحمراء على الاطلاق. ليس مستبعداً أن تكون تلك سيارة باكستر، لكنه لم يشعر بقلق استثنائي في ما يتعلق برؤيته من جديد. الواقع، لم يكنْ يبالي بالتحدث إليه. حالته المرضية ممتعة وعرض المساعدة كان صادقاً. ما يهمه أكثر هو أن حركة مرور صباح السبت لم تعد تتقدم – فثمة انسداد في الأمام. حينما راح ينظر ثانيةً، كانت السيارة الحمراء قد توارتْ عن الأنظار. وبعدها نسي أمرها ؛ استرعى انتباهه مخزن أجهزة التلفاز على يساره.

في عرض واجهته الزجاجية ثمة صفوف ذوات زوايا من الصور المماثلة على أنواع شتى من الشاشات – شعاع (الكاثود)، (بلازما)، محمولة باليد، سينما البيت. ما يُعرض على كل جهاز من الأجهزة هو حوار في (الاستوديو) مع رئيس الوزراء. الصور المقربة جداً للوجه تصبح بثبات صورة مقربة جداً للفم، الى أن ملأت الشفتان نصف الشاشة. كان قد أوحى في الماضي إنه إذا كنا نعرف بقدر ما كان يعرفه، فنحن أيضاً سنفضل خيار الحرب. ربما في هذه (الزوم) البطيئة كان المخرج يستجيب بصورةٍ واعيةٍ لحسابٍ كان جمهور المشاهدين يريد أن يعمله: هل يقول هذا السياسي الحقيقة ؟ إنما هل يستطيع أي إنسان أن يعرف حقيقةً علامة، دلالة رجل نزيه ؟ كان ثمة عمل جيد في هذه المسألة تحديداً. كان بيروني قد قرأ ما كتبه بول إيكمان في هذا

الشأن. في بسمة رجل يكذب على نفسه بعض عضلات الوجه لا يتم تحفيزها. إنها تنشط فقط اذا كان التعبير ينم عن إحساس أصيل. تكون بسمة المخادع، أي مخادع، مصدّعة، وغير كافية. لكن هل يمكننا أن نرى هذه العضلات المرتاحة هناك هامدةً حينما يكون هناك هذا التباين الموضعي الكبير جداً في الوجوه، دثارات الدهن، التجاويف الغريبة، الاختلافات في بنية العظم ؟ صعبة بصورةٍ خاصة حينما تكون أول وأفضل حركة لا واعية لكذاب مكرّس هو أن يقنع نفسه أنه صادق. وحينما يكون صادقاً، يتلاشى الخداع كله.

على الرغم من كل الصعوبات، الاجراءات المضادة الغريزية، نستمر في المشاهدة عن كثب، محاولين أن نقرأ وجهاً من الوجوه، ساعين الى ضبط النوايا. صديق أم عدو ؟ إنه انهماك موغل في القدم. وحتى إذا كنا. عبر الأجيال كلها، مصيبين فقط أكثر قليلاً من نصف المرات، فهو ما يزال يستحق الانجاز. أكثر من أي وقت مضى، الآن الوضع على شفير الحرب، مع إن البلد ما يزال يتصور إنه يستطيع أن يسحب هذا الفعل قبل أن يفوت الأوان. هل يعتقد هذا الرجل بصدق أن خيار الحرب سيجعلنا في وضعٍ أكثر أمناً ؟ هل يملك صدام أسلحةً ذوات إمكانية مروّعة ؟ ببساطة، رئيس الوزراء، ربما يكون صادقاً وخاطئاً. بعض ألد خصومه لا يرتابون بايمانه الجيد. ربما يكون على حافة خطأ - تقدير رهيب. أو ربما سوف يعمل بنجاح - يُهزم الدكتاتور من دون مئات الآلاف من الوفيات، وبعد سنة أو سنتين، يتم أخيراً احتضان

الديمقراطية، دنيوية كانت أم اسلامية، وسط الحكومات الاستبدادية المملة في الشرق الأوسط. منحشراً في حركة المرور جنباً الى جنب مع الوجوه المضاعفة، يعاني هنري من ازدواجيته الخاصة بوصفها شكلاً من أشكال الدوار، التردد مشوّش الذهن. في جراحة الأعصاب يختار مهنةً آمنةً وبسيطةً.

يعرف مرضى لا يعرفون حتى أن يميزوا، ناهيك عن أن يقرأوا، وجوه أقرب أفراد عائلتهم أو أصدقائهم. في معظم الحالات كانت تلفيفة الدماغ اليمنى الوسطية مغزلية الشكل قد تعرضت الى الخطر، عادةً بواسطة ضربة. لا يستطيع جراح الأعصاب أن يفعل شيئاً بإزاء ذلك. ولا بد أنها كانتْ لحظة تمييز ناقص لوجه ما – جهل تمييز الوجوه المؤقت – التي تم تضمينها في لقائه الوحيد مع توني بلير. كان ذلك في الماضي وتحديداً في أيار (مايو) سنة ٢٠٠٠، وهو زمن يكتسب الآن وميضاً لامعاً، زائفاً للبراءة. قبل الانشغالات الحالية، كان هناك مشروع وطني عُدَّ بصورةٍ واسعةٍ بوصفه نجاحاً. يبدو أن لا أحد ينكر أن شيئاً ما يسير في الاتجاه الصحيح. محطة طاقة مهملة في الضفة الجنوبية للـ (تايمز) أُكتشفت بكونها مفيدةً كمتحف للفن المعاصر. كان التحوّل جريئاً والمعياً. في الحفلة الافتتاحية لـ (تيت موديرن) كان هناك أربعة آلاف ضيفاً – مشاهير، سياسيون، العظام والجيدون – ومئات الشبان والشابات يوزعون الشمبانيا والخبز المحمص المفروش بالجبن أو الكافيار، وشعور عام بالنشاط غير ملطخ بالملاحظات الساخرة – وهي غير مالوفة في وقائع كهذه. كان هنري هناك بوصفه عضواً

فـي (الـكلية الملكية للجراحين). دُعيت روزاليند عبر صحيفتها. ثيو وديزي جاءا أيضاً، واختفيا في الحشد فور وصولهما. والـداهما لم يشاهداهما ثانيةً حتى الـصباح الـتالي. تجمع الـضيوف في الاتساع الصناعي لردهة التوربين القديمة حيث بـدت جلبـة آلاف الأصوات المستثارة وكـأنهـا تحمـل عاليـاً عنكبوتـاً عملاقـاً يرفـرف أسـفل العوارض الحديدية. بعد نحو ساعة، انفصل هنـري وروزاليـنـد عـن أصدقائهما وتاها مع كأسيهما المترعتين بالشراب وسط الأشياء المعروضة عبر صالات العرض المهجورة نسبياً.

هـكـذا كانـت سـعادتهما بحيـث إنـه حتـى الأشـياء التقليدية الحزينة من الفن المفاهيمي بدت جزءاً من المزاح، أشبه بمعروضات جدية لعمل طلابي في يوم مدرسـي مفتوح. أحـب بيرونـي ((سـقيفة منفجرة)) لـ كورنيليا باركـر – بنية هـازلـة، أشـبه بفكـرة ألمعيـة منبثقة من عقلٍ ما. دخلا حجرة أعمال فنية تعبيرية – تجريدية[١٨]، وعلى مدى دقائق معدودة بقيا هـادئين بصورة سـارة وسـط الألـواح العملاقة من اللونين الأرجواني القاتم والبرتقالي. ثم دلفا عبر مدخل واسع الى صالة العرض الملاصـقة وواجهـا مـا بـدا لأول وهلـة أشـبه بتركيب آخر. جزء منه، كدس واطئ من القرميد، كان حقيقةً عرضاً. كان رئيس الـوزراء واقفاً وراءه، عنـد النهاية البعيـدة مـن الحجرة الواسعة، والى جانبه مخرج صالة العرض. على بعد عشرين قدماً، عند الجانب القريب من القرميدات، مقيـدين إسمياً بحبـل مخمـل: أعـضاء فـرق الـصحافة – ثلاثـون مـصوراً فوتوغرافيـاً أو أكثر، ومراسلون صحفيون – وما يبدو أنهم أشبه بموظفي صـالة

العرض وهيئة شارع (دواننغ). دخل بيروني وزوجته في لحظة هادئة بصورة غريبة. ابتسم بلير والمخرج وتوضعا من أجل الكاميرات، التي سوف تضم صورها القرميدات الشهيرة أيضاً. لمعت (الفلاشات) بصورة عشوائية، إلا أن أياً من المصورين الفوتوغرافيين لم يُستدعى بالطريقة الاعتيادية. بدا هدوء المشهد إمتداداً لصالة عرض الأعمال التعبيرية – التجريدية المتاخمة.

عندئذ المخرج، ربما كان يفتش عن عذر لإنهاء الجلسة، رفع يداً محيياً روزاليند. كانا يعرفان أحدهما الآخر من خلال قضية قانونية انتهتْ سلمياً. قاد المخرج بلير حول القرميدات وقطع صالة العرض من جانب الى آخر متجهاً صوب بيروني وزوجته، وخلفهما انعطفت الحاشية، المصورون الفوتوغرافيون مع كاميراتهم المرفوعة الى الأعلى والجاهزة للتصوير، كُتابّ اليوميات مع دفاتر ملاحظاتهم فربما يحدث شيء ممتع في الختام. بصورةٍ عاجزةٍ، راقبهم بيروني وزوجته وهم يقتربون جميعاً. في ضغط مباغت من الأبدان تم تقديمهما الى رئيس الوزراء. صافح أولاً يد روزاليند ومن ثم يد هنري. كانت المسكة قوية ورجالية، ولدهشة بيروني كان بلير يتطلع إليه بتمييز واهتمام. كانت النظرة المحدقة ذكيةً وعميقةً، وفتيةً بصورةٍ غير متوقعة. ثمة شيء كثير سيحدث لاحقاً.

قال، ((إنني معجب حقيقة بالعمل الذي تقوم به.))

فرد عليه بيروني بآلية، ((شكراً)). غير انه كان قد تأثر. كان يعتقد، أنه شيء ممكن تصوره بكل معنى الكلمة، أن بلير

بذاكرته الجيدة وشهرته المتعلقة باستيعاب تفاصيل مختصرات وزارئه، أن يكون سمع بالتقرير الممتاز الخاص بالمستشفى الشهر الماضي – كل الأهداف تحققتْ – وحتى ما يتعلق بالذكر الخاص بالنتائج الاستثنائية لقسم جراحة الأعصاب. الإجراءات الجراحية تزيد ثلاثة وعشرين بالمائة مقارنة بالعام الماضي. في ما بعد أدرك هنري كم كانت تلك ملاحظة مضحكة.

رئيس الوزراء، الذي كان ما يزال يمسك بيده، أضاف قائلاً: ((الواقع، بحوزتنا لوحتان فنيتان لك معلقتان في شارع [دوانغ]. أنا وشيري نعبدهما.))

((لا، لا)، قال بيروني.

((نعم، نعم))، أصر رئيس الوزراء قائلاً، منتزعاً يده. لم يكن في مزاج يصلح للتواضع الفني.

((كلا، أعتقد إنك.))

((بأمانة. إنهما في حجرة الطعام.))

((أنت تقترف خطأً))، قال بيروني، ولدى تلك الكلمة مرت على ملامح رئيس الوزراء وعلى مدى لحظة وجيزة جداً نظرة تشي بذعر مفاجئ، بعدم ثقة بالذات سريعة الزوال. ما من شخص آخر رأى تعبيره يتجمد وعيناه تجحظان قليلاً. ظهر صدع طفيف في ثقة السلطة. ثم استمر كما في السابق، كان بلا ريب يقوم بحساب سريع أُعطي لكل أولئك الذين اندفعوا حولهم محاولين الإصغاء، بأنه لن تكون هناك عودة الى الوراء. لن نحرم من الصحافة

الساخرة.

((علي أي حال. هما حقيقةً لوحتان مدهشتان. تهانينا.))

إحدى المساعدات، وهي امرأة ببزة ذات سروال أسود، تدخلت وأردفت قائلةً: ((يا رئيس الوزراء، لدينا ثلاث دقائق ونصف. علينا أن نتحرك.))

أطلق بلير سراح يد بيروني ومن دون وداع وراء إيماءة رأس وزم جاف للشفتين، استدار وسمح لنفسه بأن يُقاد بعيداً. والطاقم، الصحفيون، الخدم، رجال الحماية الشخصية، مرؤوسو صالة العرض ومخرجهم اندفعوا خلفه، وفي غضون ثواني كان بيروني وزوجته يقفان في صالة العرض الخالية مع القرميدات كما لو أن شيئاً لم يحصل البتة.

مشاهداً من سيارته الصور المتلاحقة تغير اتجاهها بين المحاور والضيف، يسائل بيروني نفسه ما إذا كانت لحظات كهذه، طعنات ريبة باردة مذعورة، هي جزء متنامي من نهارات رئيس الوزراء، أو لياليه. ربما لن يكون هناك قرار ثانٍ للأمم المتحدة. تقرير مفتشي الأسلحة القادم ربما يكون أيضاً غير حاسم. ربما يستخدم العراقيون الأسلحة البايولوجية ضد قوة الغزو. أو، كما يصر باستمرار أحد المفتشين السابقين على القول بأنه لم يعد هناك أي من أسلحة الدمار الشامل على الاطلاق. هناك حديث عن مجاعة وثلاثة ملايين لاجئ، وانهم فعلاً يهيئون معسكرات لاستقبالهم في سوريا وايران. تتوقع الأمم المتحدة مئات الآلاف من

الوفيات بين صفوف الشعب العراقي. ربما ستكون هناك هجومات انتقامية على لندن. ومع ذلك ما يزال الأمريكيون غامضين في ما يتعلق بخططهم لما بعد الحرب. لعلهم لا يملكون أياً منها. في المجموع، صدام ربما يُطاح به بثمنٍ باهض جداً. إنه مستقبل لا أحد يستطيع أن يقرأه. وزراء الحكومة يتحدثون بصدق، صحف متنوعة تساند الحرب، ثمة درجة معتدلة من الدعم القلق في البلد جنباً الى جنب مع المعارضة، غير إنه ما من أحد يشك حقيقةً أنه في بريطانيا رجل واحد فقط يقود المسألة للأمام. تعرّقات ليلية، أحلام شنيعة، الفانتازيات المتهورة، المترنحة للأرق؟ أو الوحدة البسيطة ؟ كلما يراه الآن على الشاشة، يبحث هنري عن وعي بالهاوية، عن صدع طفيف، لحظة الجمود الوجهي، التلعثم الموجز الذي شهده شخصياً. غير أن كل ما رآه هو يقين، أو في أسوأ الأحوال جدية متوترة.

يجد حيزاً شاغراً لوقوف المقيمين عبر الطريق من بابه الأمامي. بينما هو يأخذ بضائعه من صندوق سيارته، يرى في الساحة، متكاسلين عند المصطبة القريبة جداً من منزله، الشبان أنفسهم الذين يكونون هناك في كثير من الأحيان في المساء المبكر، وبعدها ثانيةً في ساعة متاخرة من الليل. كان هناك اثنان من الهند الغربية واثنان، غالباً ثلاثة من الشرق الأوسط ربما يكونون اتراك. كلهم يبدون لطيفين وناجحين، ويستندون بصورة متكررة على كتف أحدهم الآخر ويضحكون بصوتٍ عالٍ. عند الحاجز الحجري من الطريق ثمة (مرسيدس)، من نفس طراز سيارة

بيروني، إلا أنها سوداء، وثمة شخص ما دوماً عند عجلة القيادة. بين الفينة والفينة يأتي شخص غريب ويتوقف ليتحدث مع المجموعة. يقطع أحدهم الطريق من جانب الى آخر متجهاً صوب السيارة، يتشاور مع السائق ويعود، سيكون هناك تشاور آخر، وبعدها يواصل الغريب مسيره. كانوا متحفظين تماماً وغير مهذبين، وتصور بيروني على مدى زمن طويل أنهم كانوا بائعين، يديرون مقهى على الرصيف يتعامل مع الكوكايين ربما، أو مع النشوة والماريجوانا. زبائنهم لا يبدون مسكونين بالهواجس أو مُنحلين بدرجة كافية كي يكونوا مستخدمي (هيروين) أو المفرقعات النارية. ثيو هو الذي صحح إعتقاد والده. كانت المجموعة تبيع بطاقات لرحلات متنوعة في عربة خفيفة يجرها جواد واحد حول حافات المدينة. كانوا يبيعون أيضاً الأقراص الليزرية اللاشرعية وبوسعهم أن ينظموا رحلات طيران طويلة المسافات بأسعار زهيدة فضلاً عن ترتيب مقدمة عقد لاشغال مبنى بسعر مخفض وفرسان اسطوانات[١٩] للحفلات، سيارات ليموزين للاعراس والمطارات وتأمين على الصحة والسفر بسعر منخفض؛ من أجل عمولةٍ ما يمكنهم أن يقدموا الباحثين عن مأوى والغرباء اللاشرعيين الى المحامين. المجموعة لا تدفع الضرائب أو نفقات مكتب عامة وهي تنافسية بدرجة كبيرة. في كل مرةٍ يرى فيها بيروني هؤلاء الأشخاص يشعر بصورة مبهمة، كما يشعر الآن، مجتازاً الطريق المؤدي الى باب مسكنه، أنه مدين لهم باعتذار ما. ذات يوم سيشتري منهم شيئاً ما.

ثيو في المطبخ الكائن في الأسفل، لعله يعد احدى وجبات فطوره المؤلفة من الفواكه واللبن المصفى (الزيادي). يترك هنري السمك عند أعلى درجات السلم، يطلق تحيةً ويصعد الى الطبقة الثانية. تبدو حجرة النوم محميةً أكثر مما ينبغي وضيقة، ومستنزفة من قبل ضوء النهار. تبدو مكاناً أفضل، أكثر رأفةً ومضاء بواسطة مصابيح أُضعفت أضواؤها، مع عمل اليوم المنجز ووعد النوم؛ أن يكون هناك في ساعةٍ مبكرة من وقت ما بعد الظهر يذكره بنوبة سيئة من الزكام. ينزع حذاءي التدريب، يخلع جواربه الندية ويسقطها في سلة المكوى، ويذهب الى النافذة الوسطى كي يفتحها. وهو ذي ثانيةً، أو واحدة أخرى، الى الأسفل منه مباشرةً، تدور ببطء حول زاوية المبنى السكني حيث يلتقي الشارع بالساحة. أغلب المنظر الذي رآه يتعلق بسقفها، وكان خط رؤيته الى المرآة الجانبية البعيدة محجوب تماماً، حتى وهو يدفع النافذة الى الأعلى ويميل الى الخارج. ولم يكن قادراً على رؤية السائق، أو أي من الركاب. كان يراقبها وهي تطوف على امتداد الجانب الشمالي للساحة وتنعطف يميناً لتدخل شارع (كونوي) وتختفي عن الأنظار. هذه المرة لم يشعر بأنه منفصل تماماً. ماذا كان يشعر إذاً ؟ مولعاً أو حتى منزعجاً بدرجة طفيفة ؟ إنه طراز شائع بدرجة كافية، وحتى قبل سنتين أو ثلاث خلت، كان اللون الأحمر إختياراً مألوفاً. من الناحية الأخرى، لماذا نستبعد احتمال كونه باكستر ؟ مأزقه رهيب وفاتن – لا بد أن حياة رجل الشارع الجلف حجبتْ الاشتياق الى نوعٍ أفضل من الحياة حتى قبل أن يُظهر

المرض الانحلالي أولى علاماته. يبتعد بيروني عن النافذة ويتجه صوب الحمام. قلما يحتاج باكستر الى ان يتعقبه. المرسيدس مميزة بدرجة كافية، وقد توقفت خارج المسكن تماماً. أجل، يود أن يرى باكستر ثانيةً، في ساعات عمله في مكتبه بالمستشفى، وأن يسمع منه المزيد ويعطيه وسائل إتصال مفيدة. غير أن هنري لا يريده أن يتسكع حول الساحة.

بينما كان ينتهي من خلع ثيابه، كان هاتفه النقال يرن من بين كوم الملابس التي جعلها تسقط عند قدميه. بحث عنه ووجده.

((حبيبي ؟)) تقول.

هي ذي روزاليند أخيراً. هل ثمة لحظة أفضل من هذه ؟ يأخذ الهاتف ويدلف الى غرفة النوم ويتمدد عارياً على ظهره على السرير نصف المرتب حيث قبل ساعات خلت مارسا الحب. موجات من الحرارة تأتي من المشعاعات فتلامس جلده العاري كما لو كانت نسيماً صحراوياً. كانت (الثرموستات) قد وُضعتْ على درجة عالية جداً. كان له نصف، أو ربما الواقع ربع انتصاب. لو أنها لم تكن تعمل اليوم، لو لم تكن هناك أزمة عطلة نهاية الأسبوع على الصحيفة، لو أن محررها ذا السلوك المعتدل لم يكن فظاً حين تبلغ المسألة الى الطبعة الصغيرة من حرية الصحافة، فلربما كانا الآن هي وهنري معاً. هكذا يمضيان غالباً ساعةً أو ساعتين من مدة بعد ظهيرة سبت شتائي. الصفة الجنسية لغسق الساعة الرابعة.

مرآة الحمام، بمساعدة الاضاءة الرحيمة وزاوية صحيحة تتيح لـ

هنري أن يتذكر أحياناً سنوات شبابه. غير أن روزاليند، بواسطة براعةٍ ما من الضوء الداخلي أو من خلال حماقته هو المحببة، ما تزال تبدو مشابهة بقوة، بثبات، للمرأة التي عرفها طوال هذه السنوات الخوالي. الأخت الأكبر سناً من روزاليند الشابة تلك، إنما لم تصبح حتى الآن أمها. كم سيستمر ذلك؟ في عناصرهما الأساسية، العناصر الفردية تبقى من دون تغير: الشحوب النيّر تقريباً لجلدها – أمها، ماريان، كانت ذات أصل سلتي[٢٠]، الحاجبان الهزيلان، الرقيقان – غير موجودين تقريباً؛ تلك النظرة الهادئة، الخضراء الرقيقة؛ وأسنانها، بيض كما في أي وقت مضى، (أما أسنانه فقد أصبحت رمادية اللون)، المجموعة العليا ذوات أشكال كاملة، السفلى، منحرفة قليلاً – وهو عيب بناتي لم تشأ أن تعالجه؛ الطريقة التي تتسع فيها البسمة غير المتكلفة من بداية خجولة؛ على شفتيها وميض برتقالي – وردي خاص بها؛ الشعر، بتسريحته القصيرة الآن، ما يزال بنياً – ضارباً الى الاحمرار. في حالة الاسترخاء يكون لها سيماء إدراك بهيج، ميل غير قليل للهزل. ما يزال وجهاً جميلاً. ككل فرد في عقده الرابع، كانت لها لحظات من الفزع، القلق حين تقف أمام المرآة في وقت النوم، وقد ميز في نفسه تلك النظرة، العقدة تقريباً، المتعلقة بالتقييم البدائي. كلنا من دون استثناء مسافرون في الاتجاه ذاته. بصورة عقلانية، لم تكن تقتنع تماماً حين يخبرها أن الانتفاخ اللين في وركيها ينال استحسانه نوعاً ما، شأنه شان الاكتناز في ثدييها. لكنه شيء حقيقي. أجل، سيكون سعيداً إذا ما استلقى

معها الآن على الفراش.

يحدس هو أن حالتها العقلية ستكون بعيدةً عن حالته هو – بثيابها السود الخاصة بالمكتب، تدخل وتخرج من الاجتماعات مسرعةً – لذا يسحب نفسه الى الأعلى ليكون في وضع الجلوس على السرير كي يتحدث بصورةٍ حساسة.

((كيف تسير الأمور ؟))

((توقف قاضينا في ازدحام مروري جنوب (جسر بلاكفريرز). إنها التظاهرة. لكنني أعتقد أنه سوف يمنحنا ما نريده.))

((يرفع الانذار القضائي ؟))

((أجل. صباح الأحد.)) بدتْ سريعةً ومسرورةً.

((أنتِ موهوبة))، يقول هنري. ((ماذا عن والدكِ ؟))

((لم أستطع أن ألتقطه من فندقه. إنها التظاهرة. الجحيم المروري. سوف يذهب في طريقه بسيارة أجرة.)) تتوقف قليلاً وتقول بصورة أبطأ قليلاً، ((وكيف حالك ؟)) الانخفاض في مقام الصوت وامتداد الكلمة الأخيرة هو إشارة حساسة، واضحة الى هذا الصباح. كان مخطئاً في ما يتعلق بمزاجها. كان يهم أن يقول لها إنه عارٍ على الفراش، وإنه يرغبها، لكنه بعدئذ يغيّر رأيه. هذا ليس زمن المداعبة الأولية بالهاتف، في حين يتوجب عليه أن يخرج من المنزل وينبغي لها أن تنهي عملها الخاص. وثمة أشياء أكثر أهميةً لم يقلها بعد لها، وإذا أراد أن يخبرها بها فعليه أن ينتظر بعد عشاء هذه الليلة، أو حتى صباح الغد.

يقـول، ((سـوف أتوّجـه الى [بيريفـال] حالمـا أنتهـي مـن الاستحمام.)) ولأن ذلك لم يكن جواباً على سؤالها، يضيف قائلاً، ((أنا على ما يرام، لكنني أتطلع الى قضاء بعض الوقت معك.)) حتى هذا لم يكن كافياً، لذا راح يقول، ((أشياء مختلفة جرت أحتاج الى أن أحكي لك عنها.))

((أي نوع من الأشياء ؟))

((ما من شيء رهيب. بالأحرى سوف أخبرك حينما أراك.))

((حسناً. إنما اعطني مفتاحاً للحل.))

((ليلة أمس حينما أصابني الأرق كنتُ عند النافذة. رأيتُ طائرة البضائع الروسية.))

((حبيبي لا بد أن ذلك كان مروّعاً. ماذا بعد ؟))

جعل يتردد، وراحت يده، بملء ارادتها، تعانق المنطقة المحيطة بالكدمة في صدره. ماذا سيكون العنوان، كما اعتادت أن تقول غالباً ؟ حسم نزاع غاضب في طريق ما. محاولة الهجوم من الخلف بقصد السلب. مرض عصبي. مرآة الجناح. مرآة المنظر الخلفي.

((خسرت مباراة في السكواش. أصبحت أكبر سناً في ما يتعلق بهذه اللعبة.))

راحت تقهقه. ((لا أعتقد أن هذه هي المسألة.)) لكنها بدت وكأنها أُعيدت طمأنتها. راحت تقول، ((ثمة شيء ربما نسيته. ثيو له تمرين ضخم بعد ظهيرة هذا اليوم. قبل بضعة أيام خلت سمعتك تعده بأن تكون هناك.))

((اللعنة. متى ؟)) هو لا يتذكر موعداً كهذا.

((في الخامسة في ذلك المبنى في [لادبروك غروف].))

((الأفضل لي أن أتحرك.))

ينهض من الفراش ويأخذ الهاتف معه الى الحمام ليقول لها وداعاً.

((أحبك.))

((أحبك)) تجيب، وتنهي الاتصال.

يخطو تحت الدش، شلال صغير قوي تدفق الى الأسفل من الطبقة الثالثة. حين تسقط هذه الحضارة، حينما يغادر الرومان أخيراً، أي قوم من البشر هذه المرة، وتبدأ العصور المظلمة الجديدة، ستكون هذه إحدى أولى وسائل الترف التي ستنتهي. المسنون الجاثمون عند نيرانهم المشتعلة من الخث[٢١]□سوف يخبرون أحفادهم الجاحدين أن يقفوا عراةً في منتصف الشتاء تحت تيارات الماء الحار الصافي المنسكب من الخراطيم، ويخبرونهم عن القطع المعينية من الصابون المعطر وعن العنبر اللزج والسوائل القرمزية التي يدعكونها بشعورهم كي يجعلوها لامعةً وأكثر غزارةً مما هي عليه فعلاً، ويخبرونهم عن المناشف البيض السميكة الضخمة كالثياب الرومانية الفضفاضة التي تنتظرهم على حواجز جرت تدفئتها.

يرتدي بزةً وربطة عنق خمسة أيام في الأسبوع. اليوم يرتدي سروال (الجينز)، كنزةً صوفيةً سميكةً وجزمتين بنيتين باليتين،

ومن ذا الذي يعرف انه نفسه ليس عازف الغيتار العظيم لجيله ؟ في ما هو ينحني ليشد أربطة حذاءيه، يشعر بألم حاد في ركبتيه. إنه شيء أحمق أن يصمد حتى بلوغه سن الخمسين. سوف يسمح لنفسه بممارسة لعبة (السكواش) ستة شهور أخرى وماراثون لندن واحد لا غير. هل سيكون قادراً على تحمله، كونه نال هذه التسليات في ماضيه فقط ؟ عند المرآة يكون مبذراً بـ (كولونيا) ما بعد الحلاقة – في الشتاء بخاصة، يكون هناك غالباً أريج في الهواء في دار المسنات بحيث يفضل أن يبطله.

يخطو خارج حجرة النوم وبعدها، وبصورةٍ منحرفة، يثب نازلاً المجموعة الأولى من درجات السلّم إثنتين في كل مرة، من دون أن يمسك بالدرابزون من أجل الأمان. إنه عمل بارع تعلّمه في عهد مراهقته، ويمكنه أن يقوم به أفضل من أي وقتٍ مضى. إلا ان كعب جزمة منزلق، عظم عصعص مهشم، ستة شهور على ظهره في الفراش، سنة لإعادة بناء عضلاته المصابة بالهزل – الفانتازيا المحذرة شغلت باله في أقل من ثانية، وقد نجحت. يهبط المجموعة الثانية من درجات السلم بالطريقة الاعتيادية.

في مطبخ السرداب كان ثيو قد أخذ السمك وخزنه في الثلاجة الكهربائية. كان التلفاز الصغير جداً يعمل بصوتٍ منخفض، ويعرض منظراً من طائرة عمودية للـ (هايد بارك). الحشود المكتلة تبدو كمسحة من اللون البني، كالأشنة على صخرة. كان ثيو قد رتب فطوره في طاس سلطة كبير يحوي ما يقرب من الكيلوغرام مؤلف من دقيق الشوفان، النخالة، الجوز، ثمار العنبية، توت

لوغان، الزبيب، الحليب، اللبن المصفى (الزبادي)، التمور المقطعة، التفاح، والموز.

أومأ ثيو الى طاسه، قائلاً: ((أتريد قليلاً ؟))

((سوف آكل بقايا الأطعمة.))

يأخذ هنري طبقاً من الدجاج والبطاطا المسلوقة من الثلاجة الكهربائية ويأكل واقفاً. ابنه يجلس على (ستول) عالٍ في جزيرة المركز، مقوساً ظهره فوق طاسه العملاق. وراء بقايا كسر الخبز، وأغلفة وقشور الفواكه هناك صفحات مخطوطة موسيقية بنغمات متآلفة مكتوبة بقلم الرصاص. كتفاه عريضتان والعضلة العنقودية تمط قماش قميصه القطني الأبيض النظيف. الشعر، جلد ذراعيه العاريتين، الحاجبان البنيان السميكان كلها ما تزال تملك الصفة المترفة، الناعمة حديثة الصنع ذاتها التي إعتاد بيروني أن يعجب بها حين كان ثيو في الرابعة من عمره.

يومي هنري الى التلفاز. ((أما يزال غير مغرٍ ؟))

((كنتُ أشاهده. مليونا إنسان. شيء مدهش حقيقةً.))

بطبيعة الحال، ثيو يناوئ الحرب في العراق. موقفه قوي ونقي على غرار عظامه وبشرته. ولأن موقفه قوي جداً لم يكن يشعر بحاجة كبيرة الى أن يذهب متسكعاً عبر الشوارع ليحقق غايته.

((ما هي آخر الأنباء المتعلقة بتلك الطائرة ؟ سمعتُ عن الاعتقالات.))

((لم يقلْ أحد شيئاً))، يُميل ثيو مزيداً من الحليب في طاسة

سلطته. ((إنما ثمة شاعات على [الانترنت].))

((حول القرآن.))

((الطياران إسلاميان متطرفان. أحدهما شيشاني، والآخر جزائري.))

يسحب بيروني (ستولاً) وبينما هو يجلس يشعر أن شهيته تضمحل. ينحي طبقه جانباً.

((إذاً كيف جرى ذلك ؟ أضرما النار في طيارتهما من أجل قضية الجهاد، بعدها هبطا بأمان في مطار [هيثرو].))

((تم حجزهما.))

((إذاً كانت فكرتهما نوع من الانضمام الى تظاهرة اليوم.))

((أجل. انهم يحققون غرضاً ما. شن الحرب على أمة عربية وهذا هو الشيء الذي سيحصل.))

لا يبدو هذا معقولاً ظاهرياً. إنما عموماً، الميل الإنساني هو أن تصدق. وعندما تتم البرهنة على إنه خطأ، اتخذ موقعاً جديداً. أو يكون لك دين، وتستمر في الايمان. بمرور الوقت، عبر الاجيال، ربما كان هذا الأكثر كفاءةً: اؤمن في الحالة فقط. طوال اليوم، بيروني نفسه ارتاب في القصة التي لم تكن تماماً مثلما بدت عليه، والآن يغذي ثيو إشتياق والده لسماع الانباء. من الناحية الأخرى، إذا كانت الشائعات المتعلقة بالطائرة أتت من [الانترنت]، فإن احتمالات عدم دقتها ازدادت.

يقدم هنري وصفاً مكثفاً حول احتكاكه بـ باكستر

وأصدقائه وحول أعراض مرض [هنتنغتون] والهرب السعيد.

يقول ثيو، ((لقد أخزيته. كان ينبغي أن تراقب ذلك.))

((ماذا تعني ؟))

((شبان الشارع هؤلاء بوسعهم أن يكونوا فخورين. كذلك، بابا، لا أصدق أننا سكنا هنا طوال هذا الزمن كله وأنت وماما لم تُهاجما من الخلف بقصد السلب.))

ينظر بيروني الى ساعته اليدوية وينهض على قدميه. ((ماما وأنا لا نملك الوقت. سأراك في [نوتنغ هل] في نحو الخامسة.))

((أنت قادم الى هناك. ممتاز !))

إنه جزء من سحر ثيو، أن لا يضغط عليه بالمجيء. وإذا لم يظهر والده نفسه، فإنه لن يذكر ذلك البتة.

((إبدأ من دوني. أنتَ تعرف ماذا يشبه المجيء من دار المسنات.))

((سوف نعمل الأغنية الجديدة. جاس سيكون هناك. سوف نبقي الأغنية حتى وصولك.))

جاس هو المفضل له بين أصدقاء ثيو، وأكثرهم ثقافةً أيضاً، كان في المرحلة الثالثة من دراسته لنيل شهادة في الانجليزية من جامعة (ليدز)، لكنه ترك الدراسة كي يعزف في فرقة موسيقية. حتى الآن حياته عجيبة – أم منتحرة، أب غائب، شقيقان، عضوان في طائفة (معمدانية)[٢٢] متزمتة – كل ذلك لم يسحق الطبيعة الطيبة والمسترخية التي يتمتع بها. شيء ما يتعلق باسم القديس كتس – القديسون، الأطفال، الهريرات[٢٣] – أنتج وفرةً من الرأفة

في شاب عملاق. منذ أن إلتقاه نما في داخل بيروني طموح مبهم لزيارة الجزيرة.

من ركن الحجرة يلتقط نبتةً موضوعةً في قدر فخارية مغلفة بنسيج رقيق، سحلبية غالية الثمن ابتاعها قبل بضعة أيام من بائع الزهور في منطقة (هيل). يتوقف عند مدخل الباب ويرفع يداً مودعاً ابنه. ((سوف أطهو هذه الليلة. لا تنسَ أن تعدّل المطبخ.))

((نعم.)) بعدها أضاف ثيو قائلاً من دون هجاء، ((ذكّر جدتي بي. بلغها محبتي.))

نظيفاً ومعطراً، مع وجع غامض، وسار تقريباً في أطرافه، قاد سيارته ناحية الغرب في حركة مرور خفيفة، يجد بيروني إنه يشعر بالتحسن لدى رؤيته أمه. يعرف هو الوتيرة جيداً. ما إن يستقرا معاً، وجهاً لوجه، بكوبيهما المليئين بالشاي البني الداكن، مأساوية وضعها سوف يتم حجبها خلف تفاهة التفصيل، تفاهة ادارة الدقائق الخانقة، الاصغاء غير المنتبه. أن يكون معها ليس بالأمر العسير جداً. الجزء الصعب هو حينما يأتي، قبل أن تندمج هذه الزيارة في ذاكرته مع الزيارات السابقة كلها، عندما كانت تلك المرأة تسكنه مرةً وهو يقف عند الباب الأمامي وينحني ليقبلها قبلة الوداع. ذلك حينما يشعر إنه يخدعها، تاركاً إياها وراءه في حياتها المنكمشة، منسلاً الى الثروة، الذخيرة السرية لوجوده الخاص. على الرغم من الذنب، لا يستطيع أن ينكر النشاط الصغير الذي يشعر به، خفة خطوته حين يدير ظهره ويمشي مبتعداً عن دار

المسنات ويتناول مفاتيح سيارته من جيبه ويعتنق الحريات التي لا يمكن أن تكون ملكاً لها. كل ما تملكه الآن يتلائم مع حجرتها الصغيرة جداً. ويصعب عليها أن تملك الحجرة لأنها غير قادرة على أن تجدها من دون مساعدة، أو حتى معرفة انها تملك حجرة. وحينما تكون فيها، لا تميز أشياءها. لم يعد ممكناً الإتيان بها إلى (الساحة) لأجل السكن، أو أخذها في رحلات قصيرة ؛ إن رحلةً قصيرةً تربكها أو حتى تروعها. يلزمها أن تبقى في موضعها، وبطبيعة الحال هي لا تفهم هذا أيضاً.

إلا أن فكرة الرحيل قُدُماً لا تزعجه الآن. هو ذا أخيراً مغمور بالشعور المعتدل بالخفة والنشاط الذي يعقب التمرين البدني. ذلك الأفيون المقدس ذاتي الصنع، بيتا – اندورفين، يهزم كل ضروب الوجع. كانت هناك بيانو قيثاري سكارلاتي[٢٤] بهيج في المذياع يرن من خلال تعاقب نغمات متآلفة لا يحل المسالة كلياً، ويبدو إنه يقوده إلى غايةٍ متقهقرة بصورة هازلة. في مرآة المنظر الخلفي، ليس ثمة (بي أم دبليو) حمراء، على طول هذا المدى، حيث يصبح الـ(ايوستون) (ماريلبون رود)، إشارات المرور منفذة على وفق خطة مرسومة، طراز مانهاتن، واندفع إلى الأمام على وفق حافة مرشدة من الأضواء الخضر، لوح ركوب على موجة كاملة من معلومة بسيطة: اذهب ! أو حتى، نعم ! الرتل الطويل من السياح – معظمهم من المراهقين والمراهقات – خارج متحف مدام توسو[٢٥] يبدو (أي الرتل) أقل انشغالاً بالتوافه مما هو مألوف ؛ جيل تربى على تأثيرات هوليود المدوية ما يزال يتحرق شوقاً لأن يقف وينظر ببلاهة الى

تماثيل الشمع، مثل فلاحي القرن الثامن عشر في سوق موسمي. الـ (ويستوي) الملعون، يتقهقر على دعامات كونكريتية مطلية ويصعد عليها بخفة الى مستوى الطبقة الثانية، يقدّم أفقاً مفاجئاً من غيمة البهلوانية فوق جلبة من سقوف البيوت. إنها واحدة من تلك اللحظات حينما تكون مالك سيارة في مدينةٍ ما، مالك هذه السيارة، وهي لحظة أثيرة. المبدلات الآلية ذوات السرعات السبع تتحرك بنعومة الى الأعلى. اشارة على جسر الاشارات في سكة الحديد فوق مجازات المرور تعلن (الغرب)، (الشمال)، كما لو أن قارةً كاملةً تقع هناك، ممتدةً وراء الضواحي، ووعد بقضاء رحلة على مدى ستة أيام.

حركة المرور لا بد أن تتوقف في موضعٍ آخر عند المسيرة. ذلك إنه على امتداد نصف ميل تقريباً يملك هو وحده هذا المدى من الطريق المرتفع. في غضون ثواني من غير انقطاع يعتقد إنه يفهم رؤية مبدعيه – عالَم أكثر نقاءً يداري المكائن فضلاً عن الناس. منحنٍ مستقيم يجرفه في محاذاة بنايات مكاتب حديثة من الزجاج والفولاذ حيث المصابيح مضاءة الآن في وقت مبكر من بعد ظهيرة يوم من شباط (فبراير). يلمح أناساً ناعمين كنماذج معمارية، عند مكاتبهم، أمام شاشاتهم، حتى في يوم السبت. هذا هو المستقبل الملائم للعناصر الهزلية من قصص الخيال العلمي في طفولته، الملائم لرجال ونساء ببزات القفز الضيقة عديمة الياقات– من دون جيوب، مخرّمات (دانتيلات) تزحف على الأرض أو قمصان غير مثبتة – يعيشون حياة ما وراء الاختلاط والتشوش، متحررين من

الضوضاء كي يقاتلوا الشر.

إنما من نقطة أفضلية على المعبر الفوقي للـ (وايت سيتي)، مباشرةً قبل أن يهبط الطريق الى الأرض وسط صفوف من المنازل ذوات القرميد الأحمر، يرى الأضواء الخلفية تتكتل أمامه وتبدأ بالفرملة. لم تكن أمه تبالي بأضواء المرور والتأخيرات الطويلة. قبل سنة واحدة لا غير كانت ما تزال في حالة صحية جيدة بصورة كافية – كثيرة النسيان، غامضة، إنما ليست مروعة – كي تتمتع بركوب سيارة تجوب بها شوارع غرب لندن. كانت الأضواء تمنحها فرصةً كي تعاين السائقين الآخرين وركابهم. ((انظر إليه. له وجه منقط.)) أو ببساطة تقول بصورة أنيسة، ((أحمر ثانيةً !))

كانت امرأةً خصصت حياتها للعمل المنزلي، لذلك الصف من الطرائق المحددة اليومية لـ التلميع، نفض الغبار، التنظيف بالمكنسة الكهربائية والترتيب، الطرائق التي كانت مألوفةً ذات مرة، وفي أيامنا هذه تُنجز فقط من قبل مرضى مصابين باضطرابات استحواذية إلزامية. يومياً، حينما يكون هنري في المدرسة، كانت تنظف منزلها تنظيفاً تاماً. كانت تكسب أعمق قناعاتها من صينية لحم بقري محمص جيداً، من القماش اللامع على مجموعة من الطاولات المتداخلة، من كومة الملاءات المكوية المخططة كالشوكولا المطوية في ألواح ناعمة، من موضع لحفظ الحوم والأطعمة ذي مؤن مرتبة ؛ أو من سترة حفلة صباحية محاكة أخرى لطفل آخر في المراكز الهامة الأبعد من العائلة. الجوانب غير المرئية، المواجهة، التحتية والأجزاء الداخلية من الأشياء كلها

كانت نظيفة. الفرن وحواجزه كانت تُدعك بعد كل استعمال. الترتيب والنظافة كانا التعبير الخارجي لمثل أعلى غير ملفوظ للحب. ما إن يضع جانباً الكتاب الذي يطالعه حتى يعاد الى رف الرواق في الطبقة العليا. صحيفة الصباح ربما تكون في صندوق القمامة وقت الغداء. قناني الحليب الفارغة التي تجمعها كانت نظيفة على غرار سكاكينها. لكل مادة درجها أو رفها أو كلاّبها، بضمنها مئازرها المختلفة، وقفازاتها الصفر المطاط المحمولة بواسطة مشجب ملابس، تتدلى قرب مؤقتة البيض ذات الشكل البيضوي.

بصورة مؤكدة بسببها كان هنري يشعر في البيت أنه في صالة عمليات جراحية. هي أيضاً كانت تحبذ الأرضية السوداء المشمعة، أدوات الفولاذ الجراحي المنظمة في صفوف متوازية على صينية معقمة، وحجرة التنظيف بطرائقها المحددة المتفانية - كانت ستعجب بالتفاصيل، غطاء الرأس النظيف، الأظافر القصيرة. كان ينبغي له أن يدخلها صالة العمليات الجراحية في المدة التي كانت ما تزال فيها قادرة على فعل ذلك. هذه الفكرة لم تدرْ بخلده أبداً. لم يخطر بباله أن عمله، تدريبه على مدى خمس عشرة سنة، لم يكنْ له أي صلة بما كانت تفعله.

ولا خطر ببالها. هو قلما عرف المسألة في الزمن المناسب، إلا إنه كان يعتقد دوماً ان ذكاءها كان محدوداً. اعتاد أن يعتقد أنها كانت من دون حب استطلاع. غير أن هذا لم يكن صائباً. كانت تحب المكاشفة الصريحة الجيدة مع جاراتها. كان هنري ذو

السنوات السبع يفضل الارتماء على البلاط خلف قطع الاثاث والاصفاء. كان المرض والعمليات الجراحية مواضيع مهمة، بخاصة تلك التي ترافق ولادة الطفل. كان ذلك حين سمع أول مرة التعبير الموجز ((تحت السكين)) فضلاً عن ((تحت الطبيب)). ((ما قاله الطبيب)) كان تعويذةً فعالةً. إستراق السمع هذا ربما وضع هنري في مهنته. بعدها كانت هناك وصوفات متدفقة لخيانات زوجية، أو شاعات حولها، وعن أطفال عاقين، ولا عقلانية الكبار، وما تركه والد (أو والدة) شخص ما في وصية، وكيف أن فتاةً معينةً جميلةً لا تستطيع أن تجد زوجاً محترماً. الناس الجيدون يجب نخلهم عن السيئين، ولا يكون الأمر سهلاً على الدوام أن نقول في البداية كيف هو هذا وكيف ذاك. بعدم إكتراث، المرض يصيب الجيدين والسيئين على السواء. في ما بعد، حين قام بمحاولاته المطيعة في (كورس) ديزي المخصص للطلبة غير المتخرجين في رواية القرن التاسع عشر، أدرك موضوعات أمه كلها، لم تكن إهتماماتها ضيقة التفكير. جين أوستن وجورج إليوت كلتاهما شاركت في هذه الإهتمامات أيضاً. لم تكن ليليان بيروني حمقاء أو تافهة، لم تكن حياتها سيئة الطالع ولم يكن يخطر بباله إبان عهد الشباب أن يتلطف عليها. غير أن الوقت متأخر للاعتذارات الآن. على خلاف ما يجري في روايات ديزي، لحظات الحساب الدقيق نادرة في الحياة الواقعية ؛ مسائل سوء الفهم لا يجري حلها في أحيان كثيرة. ولا تبقى بصورة ملحة من دون حل. إنها ببساطة تضمحل. الناس لا يتذكرون بجلاء، أو انهم يصبحون في عداد

الأموات أو أن المسائل تموت وتحل محلها مسائل جديدة.

فضلاً عن ذلك، كانت لـ ليلي حياة أخرى ما كان ليتوقعها أحد، أو ربما يخمنها قليلاً الآن. كانت سبّاحة. في صباح الأحد، الثالث من ايلول (سبتمبر) ١٩٣٩، في ما كان تشامبرلين[٢٦] يعلن في اذاعته من شارع (دوانن‌غ) بأن البلد في حالة حرب مع ألمانيا، كانت ليلي ذات الأربعة عشر ربيعاً في مسبح محلي قرب (ومبلي)، تتلقى أول دروسها مع رياضية عالمية في الستين من عمرها سبحت لـ بريطانيا في دورة الألعاب الأولمبية المقامة في ستوكهولم سنة ١٩١٢ – تلك هي أول مرة تشارك فيها امرأة في رياضة السباحة. وضعت الأخيرة ليلي في منطقة معينة في حوض السباحة وأبدت استعدادها لاعطائها دروساً مجانية، ودربتها تدريباً خصوصياً بالتوبيخ القاسي، على أصعب الحركات النظامية المتكررة بالنسبة لإمرأة. شاركت ليلي في مباريات محلية في أواخر الاربعينيات. في سنة ١٩٥٤ سبحت لـ (مدلسكس) في بطولة الأقليم. جاءت في المرتبة الثانية، وميداليتها الفضية الصغيرة وُضعتْ على ترس من خشب البلوط، كان منتصباً دوماً على رف الموقد بينما كان هنري في طور النمو. هو الآن على رف في حجرتها. ذلك الوسام الفضي هو أبعد، أو أعلى ما حازت عليه، بيد أنها كانت دوماً تسبح بصورةٍ جميلةٍ، بسرعةٍ كافيةٍ كي تدفع الى الخارج أمامها موجةً مقوسةً عميقةً ومتعرجةً.

علّمت هنري، بطبيعة الحال، إلا أن ذكراه المدخرة عن سباحتها هي التي احتفظ بها عندما كان صبياً في العاشرة، في

زيارة مدرسية ذات يوم الى حوض السباحة المحلي. هو وأصدقاؤه كانوا قد بدلوا ثيابهم واستعدوا للسباحة، وكانوا قد استحموا تحت الدش وغسلوا أقدامهم، وتوّجب عليهم أن ينتظروا على الآجرات ريثما تنتهي دورة تعليم البالغين. كان معلمان يقفان هناك، يسكتون ويقلقون، محاولين أن يكبحوا إهتياج الأطفال. في الحال كان هناك فقط شخص واحد في حوض السباحة، كان يرتدي قبعة بيضاء مطاط مع شريط زيني من التويجات لا بد أنه ميزه في وقت أبكر[٢٧]. طلبة صفه المدرسي كله أُعجبوا بسرعتها حين أصخبت مجاز السباحة، بالأخدود الذي تركته في الماء خلفها، مباشرةً عند الجزء الصغير من ظهرها، وبالطريقة التي تدير بها رأسها كي تتنفس من دون أن تتجاوز خطها في اليم. حين عرف أنها هي، أقنع نفسه أنه كان يعرف ذلك منذ البداية. ناهيك عن إبتهاجه الشديد، ما كان ينبغي له ان يطالب بها بصوتٍ عال. صاح أحدهم، ((تلك هي السيدة بيروني !)) بصمتٍ جعلوا يراقبون في ما كانت تصل نهاية مجازها مباشرةً عند أقدامهم وقامت باستدارة خاطفة للبصر تحت الماء غير مألوفة في حينها. لم تكن هذه حصراً نافضة الغبار عن الخوان. كان يراها تسبح في أحيان كثيرة، إلا أنها هذه المرة كانت مختلفةً تماماً ؛ كل أصدقائه كانوا هناك ليشهدوا طبيعتها فوق البشرية التي يشاركها فيها ابنها. مؤكد كانت تعرف وقدمت في النصف الأخير عرضاً ذا سرعة شيطانية له فقط. قدماها تتحركان باضطراب، ذراعاها البيضاوان الرشيقتان ارتفعتا وضربتا الماء الى الأدنى ضرباتٍ

سريعةً قويةً، موجتها المقوسة انتفخت، الأخدود تعمّق. جسدها شكلّ نفسه حول موجتها الخاصة في حرف (S) متموج ضحل. عليك أن تعدو بأقصى سرعة على طول حوض السباحة كي تجاريها. توقفت عند النهاية البعيدة ونهضتْ على قدميها، ووضعتْ يديها على الحافة وحركتْ نفسها بارتجاج خارج اليم. لا بد أنها كانت في نحو الأربعين وقتذاك، جلستْ هناك، قدماها ما تزالان مغمورتان بالماء، خلعت قبعتها، وأمالت رأسها، ابتسمتْ بخجل في اتجاههم. احد المعلمين أخذ يصفق حاثاً الأولاد على تصفيق وقور. مع ان ذلك كان في سنة ١٩٦٦ - كان شعر الأولاد ينمو سميكاً فوق آذانهم، الفتيات يرتدين سراويل (الجينز) من أجل الدرس - على وفق طراز الخمسينيات الذي كان ما يزال سائداً يومذاك. صفق هنري مع البقية، لكن حين تجمع أصدقاؤه حوله، كان مترعاً جداً بالفخر، مبتهجاً جداً كي يجيب عن أسئلتهم، وشعر بالارتياح حين دخل حوض السباحة حيث يكون بوسعه أن يخفي مشاعره.

في عقدي العشرينيات والثلاثينيات، أصقاع شاسعة من الأرض الزراعية الواقعة في غرب لندن اختفت قبل انقضاض تنمية الاسكان فائقة السرعة، وحتى الآن شوارع المباني السكنية ذوات الطابقين المعبسة، الجديرة بالإحترام لم تزعزع تماماً سيماءها الخاصة بالفجائية. كل مبنى سكني متماثل تقريباً ذو مظهر مضطرب، مؤقت، كما لو أنه يعرف كيف أن الأرض سوف تعود حالاً الى غلال الحبوب ورعي الماشية. ليلي تحيا الآن على بعد دقائق

قليلة فقط عن بيت عائلة (بيريفيل) القديم. يحب هنري أن يظن أنه في المنظر الطبيعي الضبابي لخبلها، ثمة إحساس بالحميمية ينبثق أحياناً ويعيد طمأنتها. على وفق معايير دور المسنين، (سفولك بليس) صغير جداً – أُزيلت الفواصل بين ثلاثة منازل لتصبح منزلاً واحداً، وتم إضافة ملحق. في الأمام، اسيجة من نباتات جنبة الرباط ما تزال تعلم حدود الحديقة القديمة وثمة شجرتا قوطيسوس ماتزالان باقيتين على قيد الحياة. إحدى الحدائق الأمامية الثلاث كُسيت بالسمنت كي يوفروا حيزاً لوقوف سيارتين. صناديق القمامة الأكبر من المعتاد خلف سياج مشبك هي المفاتيح[٢٧] المؤسساتية الوحيدة.

يوقف بيروني سيارته ويأخذ النبتة الموضوعة في قدر من المقعد الخلفي. يتوقف لحظةً قبل أن يقرع الجرس – ثمة نكهة في الهواء، لطيفة ومعقمة بصورة مبهمة، تذكره بسنوات مراهقته في هذه الشوارع، وبحالة عامة من الاشتياق، التوق للحياة كي يبدأها من هذه المسافة يبدو أمراً أشبه بالسعادة. كدأبها، تفتح جيني الباب. هي فتاة ايرلندية، ضخمة ومرحة ترتدي سترة قصيرة من الجنهام[٢٩] الازرق مطلوب منها أن تبدا بالتدريب كممرضة في أيلول (سبتمبر) القادم. يلقى هنري تقديرات خاصة بسبب عمله الطبي – ثلاثة أكياس شاي صغيرة إضافية في شراب مخمر سوف تجلبها حالاً الى حجرة أمه، وربما تجلب طبقاً من أصابع (الشكولاته). من دون أن يعرفا الكثير عن أحدهما الآخر، استقرا على أشكال مضايقة من المخاطبة.

((ان لم يكن الطبيب الجيد ؟))

((كيف هي فتاتي الايرلندية الشقراء ؟))

بعيداً عن الحيز الضيق للرواق الواقع في الضاحية، المطلي باللون الأصفر عند الزجاج المبطن بالرصاص للباب الأمامي، ثمة مطبخ من ضوء لاصف وفولاذ. من هناك ينبعث شذا ندي لوجبة الغداء التي تناولتها المقيمات في الدار قبل ساعتين. يعد تعرّض دام عمراً كاملاً، يملك بيروني ولعاً معتدلاً، أو في الأقل، فقداناً كاملاً للاشمئزاز، نحو طعام المؤسسات الاجتماعية. في الناحية الأخرى من رواق المدخل ثمة باب أضيق يفضي الى ثلاث حجرات جلوس متصلة ببعضها لثلاثة منازل. يمكنه أن يسمع الصوت المحصور لأجهزة التلفاز في الغرف الأخرى.

((هي في انتظارك))، تقول جيني. كلاهما يعرف أن هذا إستحالة عصبية. حتى السأم وراء متناول أمه.

يفتح الباب ويدلف. كانت أمه أمامه مباشرةً، جالسةً على كرسي خشب عند طاولة مستديرة مغطاة بقماش شنيل[٣٠]. ثمة نافذة خلفها، ووراءها نافذة المنزل الملاصق، على بعد عشرة أقدام. كانت هناك نساء أخريات مصطفات حول حافات الحجرة جالسات في كراسي مرتفعة الظهور ذوات مساند خشب منحنية. بعضهن كن يشاهدن، أو ينظرن في اتجاه، التلفاز المثبت على الجدار، بعيداً عن متناول الأيدي. أخريات يتطلعن الى الأرض. تحركن حركةً طفيفةً أو يبدو أنهن ترنحن بينما كان يدخل،

كما لو أن الهواء الذي أزاحه الباب ضربهن برفق. كان هناك رد عام، مرح على ((طاب عصركن، أيتها السيدات)) خاصته، ورحن يراقبنه باهتمام. عند هذه المرحلة ليس بوسعهن أن يكن متيقنات من أنه ليس واحداً من أقاربهن الحميمين. الى يمينه، في الموضع الأبعد من حجرات الجلوس المتصلة ببعضها، آني، وهي امرأة ذات شعر أشيب هائج يتشعب من رأسها في شعاعات زغبية. كانت تجر قدميها غير مستندة على شيء متجهةً إليه بسرعة. حين تصل نهاية حجرة الجلوس الثالثة سوف تعود، وتواصل الحركة جيئةً وذهاباً طوال اليوم الى أن تؤخذ عنوةً الى وجبةٍ من وجبات الطعام، أو الى السرير.

كانت أمه تراقبه عن كثب، مسرورةً ومتلهفةً بكل معنى الكلمة في الوقت نفسه تعتقد هي أنها تعرف وجهه – ربما يكون الطبيب، الرجل ذو المهنة الغريبة. هي في انتظار تلميح ما. جثا عند كرسيها وأخذ يدها التي كانت ناعمةً وجافةً وخفيفةً جداً.

((مرحباً ماما، ليلي. انه هنري، ابنك هنري.))

((مرحباً حبيبي. الى أين أنت ذاهب ؟))

((أتيتُ لرؤيتك. سوف نذهب نحن الاثنين ونجلس في غرفتك.))

((أنا متأسفة عزيزي. ليس لي غرفة. إني في انتظار الذهاب الى البيت. سآخذ الحافلة.))

يشعر بالوجع حينما تقول ذلك، مع إنه يعرف إنها تشير الى بيت طفولتها حيث تعتقد أن أمها في انتظارها. يطبع قبلةً على خدها

ويساعدها على الخروج من كرسيها، شاعراً بارتعاشات مجهود أو عصبية في ذراعيها. كدأبه، في اللحظات الأولى المرعبة من رؤيتها ثانيةً، يشعر بوخز في عينيه.

تحتج بوهن. ((لا أعرف الى أين يمكننا أن نذهب.))

يكره هنري التكلم بالمرح القسري الذي تستخدمه الممرضات في الردهات، حتى مع المرضى البالغين الذين لا يعانون من ضعف عقلي. ! فقط ضع هذا في فمك من أجلي !. لكنه يفعل ذلك على أية حال، جزئياً كي يخفي مشاعره. ((لكِ حجرة صغيرة محببة الى القلب. حالما ترينها، سوف تتذكرين. هذا الطريق الآن.))

ذراعاً بذراع، يسيران ببطء عبر حجرات الجلوس الأخرى، يقفان جانباً كي يسمحا لـ آني بالمرور. إنه شيء يعيد الطمأنة أن ليلي تلبس ثياباً مناسبةً. كانت مساعداتها يعرفن أنه آتٍ. كانت ترتدي تنورة حمراء قاتمة مع كنزة منسجمة معها من القطن المزأبر، رداءً محكماً وفردتي حذاء من الجلد الأسود. كانت دوماً حسنة الهندام. لا بد أن جيلها هو الأخير الذي كان يهتم بطبيعة الحال بالقبعات. كانت هناك دوماً صفوف داكنة منها، متماثلة تقريباً، على الرف العلوي من خزانة ملابسها، مصونة في مقدار قليل من كرة العث.

حينما يبلغان أحد الممرات، تستدير الى يسارها ويتوجب عليه أن يضع يده على كتفها الضيقة كي يعيدها عنوةً الى الخلف. ((هي ذي حجرتك. هل تميزين باب حجرتك ؟))

((لم أخرج من هنا قبلا.))

يفتح باب حجرتها ويساعدها في الدخول. مساحة الحجرة ثمانية أقدام بعشرة، ذات باب مزجج يؤدي الى حديقة خلفية صغيرة. السرير الأحادي مغطى بلحاف زهري محشو بزغب العيدر[٣١] ولعب ناعمة متنوعة كانت جزءاً من حياتها قبل مرضها بمدة طويلة. بعض حليها المتبقية- طائر أبو الحناء على زند خشب، سنجابان متضخمان بصورة هزلية من الزجاج - في خزانة مزججة ركنية. حلي أخرى مرتبة في خوان قرب الباب. على الحائط قرب المغسلة صورة فوتوغرافية مؤطرة لـ ليلي وجاك، والد هنري، يقفان في مرجة. في اللقطة فقط مقبض عربة أطفال، من المفترض أن يكون هنري المنسي راقداً فيها. هي جميلة في فستان صيفي أبيض، وكان رأسها ينتصب بتلك الطريقة الخجولة المضحكة التي يتذكرها جيداً. الشاب يدخن سيجارةً ويرتدي سترة فضفاضة وقميصاً ابيض مفتوح العنق. طويل القامة مع انحناء، وله يدان ضخمتان كنجله. كانت ابتسامته عريضة وغير معكرة. من المفيد دوماً أن نحصل على برهان قوي بأن المسنين حققوا نجاحهم في كونهم يافعين. إنما هناك أيضاً عنصر سخرية في التصوير الفوتوغرافي. يظهر الاثنان معرضين للهجوم، من السهولة أن يهزأ منهما المرء كونهما يبدوان أنهما لا يعرفان أن شبابهما هو حصراً حادثة عرضية، أو أن العنصر المحترق من دون لهب والجذاب في يد جاك اليمنى سوف يُسهم - بحسب نظرية هنري- في زمنٍ ما من تلك السنة نفسها في موته المفاجئ.

كونها أخفقت في تذكر وجود الحجرة، لم تندهش ليلي من أن تجد نفسها فيها. نسيت حالاً أنها لا تعرف شيئاً عنها. على أي حال، تتردد، غير متيقنة أين ينبغي لها أن تجلس. يريها هنري كرسيها ذا الظهر العالي عند النافذة الفرنسية ويساعدها في الجلوس عليه، ويجلس هو قبالتها على حافة السرير. كانت الحجرة شديدة الحرارة، وحتى أكثر حرارةً من حجرة نومه. ربما ما يزال دمه يتحرك بفعل المباراة، والدش الحار ودفء سيارته. كان قانعاً بأن يتمدد على السرير المزوّد بنوابض كثيرة وأن يفكر في وقائع نهاره، وربما ينعس قليلاً. يا له من شيء ممتع أن تظهر حياته بغتةً من حدود هذه الحجرة. في تلك اللحظة، ولحاف زغب العيدر تحته، ومع الحرارة، يشعر بثقل في عينيه ولا يستطيع أن يمنعهما من الاغماض. وزيارته بدأت تواً. كي يعيد النشاط الى ذاته، ينزع كنزته الصوفية، بعدها يري ليلي النبتة التي جلبها.

((انظري))، يقول. ((إنه نبات السحلب لغرفتك.))

بينما كان يقدمه اليها، والأزهار البيض الضعيفة تتمايل بينهما، ترتد ليلي.

((لماذا جئت بذلك النبات؟))

((إنه لكِ. سوف يبقى مزهراً طوال الشتاء. أليس جميلاً؟ إنه لكِ.))

((هو ليس لي))، تقول ليلي بثبات. ((لم أره من قبل البتة.))

كان له الحديث المربك ذاته في المرة الأخيرة. المرض يتقدّم

بواسطة مقادير صغيرة جداً غير ملحوظة في الأوعية الدموية الكائنة في الدماغ. بصورة متراكمة، الانسدادات تسبب انحداراً ممكن معرفته من خلال تمزيق الشبكات العصبية. كانت أمه تتحل بدرجات صغيرة. الآن لم تعدْ تدرك مفهوم الهدية، ومعه، السعادة. متبنياً ثانيةً نبرة الممرضة المرحة، يقول، ((سأضعه هنا حيث يمكنك أن تشاهديه.))

كادت تحتج، إلا أن انتباهها تشتت. شاهدت بعض القطع الزخرفية من الخزف الصيني على رف عُرِض فوق سريرها، خلف ابنها مباشرةً. بغتةً يصبح مزاجها استرضائياً.

((بحوزتي الكثير من الأكواب والصحون الصغيرة. لذا يمكنني دوماً أن أخرج مع واحدٍ منها. غير أن المسألة هي، الحيز الواقع بين الناس صغير جداً.)) – عرضتْ يدين مرتعشتين كي تريه فجوةً – ((ذلك انه قلما يكون ثمة حيز كافٍ كي يشق المرء طريقة بالضغط. هناك تماسك كثير جداً.))

((أوافقك))، يقول هنري وهو يستقر ثانيةً على السرير. ((ثمة تماسك كثير جداً جداً.))

الضرر الناجم عن تخثر الوعاء الدموي الصغير يميل الى التجمع في المادة البيضاء ويدمر الترابط العقلي. على طول الطريق، قبل أن تكتمل العملية بوقتٍ كافٍ، تكون ليلي قادرة على تقديم بحوثها المتنقلة بصورة مشتتة من موضوع الى موضوع، مونولوجات الهراء بجدية مؤثرة. لم تكنْ ترتاب في نفسها البتة. ولا حتى تعتقد أنه

غير قادر على استيعاب كلامها. كانت بنية جُملها سليمة، والأمزجة التي تغيرّ وصوفها المتنوعة أمر ذو معنى. يُسرها أن يومئ برأسه علامة الموافقة ويبتسم، ويقاطعها بين الفينة والفينة.

هي لا تتطلع إليه وهي تجمع شتات أفكارها، إنما مارةً به، تركز على مسألة متملصة، ترسل نظرةً كما لو أنها تحدق عبر نافذة تطل على مشهد غير محدود. تعتزم التحدث، إلا إنها تبقى صامتةً. عيناها الخضراوان الباهتتان، الغائصتان عميقاً في طاسات من الجلد الأسمر الفاتح المطوي بصورةٍ جميلةٍ، لهما صفة فاترة، كليلة، كاحجار مغبرة تحت الزجاج. تعطيان انطباعاً دقيقاً في عدم ادراك أي شيء. لا يستطيع أن يجلب لها أخبار العائلة — فذكر الأسماء الغريبة، أي اسم من الاسماء، يمكن أن يرعبها. لذا مع إنها لن تفهم، كان يحدثها في كثير من الأحيان عن العمل. ما يفعمها بالحيوية هو الصوت، النبرة العاطفية لأي حوار ودي.

كاد يصف لها فتاة (الشابمان)، وكيف انها تحسنت بعد اجراء العملية الجراحية، حين جعلت ليلي تتحدث فجأةً. مزاجها قلق، وحتى نكد قليلاً. ((وتعرف أن هذا.. تعرف، خالتي[٣٢]، ماذا يضع الناس على أحذيتهم كي يجعلوها.. تعرف ؟))

((ملمع الأحذية ؟)) لم يفهم لماذا تدعوه (خالتي)، ولا أياً من خالاتها الكثيرات هي التي كانت ترافقها باستمرار.

((لا، لا. يضعون على كل أجزاء أحذيتهم ويدعكون بقطعة قماش. حسن، علي أي حال، إنه نوعاً ما أشبه بملمع أحذية. إنه

شيء من ذلك الطراز. لدينا صفائح جانبية والله يعرف ماذا، على طول الشارع. لدينا كل شيء، إلا الشيء الصحيح، لأننا في المكان الخاطئ.))

بعدها تقهقه بصورة مفاجئة. أصبح الأمر أكثر جلاءً بالنسبة لها.

((إذا أدرتَ الصورة ونزعتَ الخلفية كما فعلتُ ستنال كثيراً من السعادة منها. هذا هو كل ما عنيته. والضحك الذي نلناه منها!))

وجعلت تقهقه بمرح، كما اعتادت أن تفعل، وبادلها الضحك. ذلك هو كل ما كان يعني. الآن مضت بعيداً، وهي تصف ماذا يمكن أن تكون ذكرى محطمة لحفلة شارع، ولوحة مائية صغيرة اشترتها ذات يوم في سوق خيرية.

بعدها بوقت قصير، حين تصل جيني مع المنعشات، راحت ليلي تنظر إليها من دون تمييز. يقف هنري ويخلي حيزاً على طاولة صغيرة. يلاحظ الشك الذي تظهره نحو ما تعدّه غريباً كلياً، ولذا، حالما تغادر جيني، وقبل أن يكون بوسع ليلي أن تتكلم، يقول: ((يالها من فتاةٍ محبوبةٍ. هي مساعدة دوماً.))

((إنها مدهشة))، تؤيده ليلي.

ذكرى من كان في الحجرة تبدأ بالاضمحلال. مفتاحه العاطفي للحل لا يُقاوم وراحت تبتسم حالاً وتشرع في الاسهاب بينما كان يغرف بملعقته أكياس الشاي الصغيرة الستة كلها من القدر المعدنية.

((هي دوماً تأتي راكضةً، حتى إذا كان المكان ضيقاً الى الأسفل. تريد أن تأتي بأحد الأشياء الطويلة[٢٣] إلا أنها لا تملك الأجر. بعثتُ إليها النقود، لكنها لم تملكها في يدها. تريد شيئاً من الموسيقى، وقلتُ لها أيضاً اعملي فرقة موسيقية صغيرة واعزفي فيها بنفسك. إني قلقة عليها مع ذلك.. قلتُ لها، لماذا تضعين الشرائح كلها في طاسة واحدة عندما لا يقف أحد ؟ لا يمكنكِ أن تفعلي ذلك بنفسك.))

يعرف هنري عمن تتكلم، وراح ينتظر المزيد. وبعدها يقول، ((يلزمك أن تذهبي وتشاهديها.))

مضى زمن طويل منذ أن حاول أخيراً أن يشرح لها أن أمها توفيت في سنة ١٩٧٠. من الأسهل الآن أن ندعم الوهم ونجعل الحوار يستمر قُدُماً. كل شيء ينتمي الى الحاضر. إن اهتمامه الفوري هو أن يمنعها من أكل كيس الشاي الصغير، الأمر الذي كادت تفعله في المرة السابقة. يكوّم الأكياس على سطح صحن صغير يضعه على البلاط عند قدمه. يضع كوباً نصف مملوء في متناولها ويقدم لها قطعة (بسكويت) ومنديل مائدة. تنشره فوق حضنها وبعناية تضع (البسكويتة) في وسطه. ترفع الكوب الى شفتيها وتشرب. في لحظاتٍ كهذه، حين تكون ماهرةً في الأعمال (الروتينية) الراسخة منذ أمد طويل، وتبدو محتشمةً في ثيابها ذوات الألوان المتناغمة، عجوز ذات ٧٧ عاماً ذات مظهر جيد وساقين مدهشتين بالنسبة لعمرها، ساقيّ رياضية، يمكنه ان يتيخل أن ذلك كله كان خطأً، كابوساً، وأنها سوف تغادر حجرتها

الصغيرة جداً وتأتي معه الى قلب المدينة وتتناول السمك المطهو بالغلي البطيء مع زوجة ابنها وحفيديها وتبقى مدةً من الزمن.

تقول ليلي، ((كنتُ هناك الأسبوع الماضي، خالتي، في الحافلة وكانت أمي في الحديقة. قلتُ لها ، يمكنكِ أن تتمشي هناك، وأن تري ما الذي تقدرين أن تكسبيه، والشيء التالي هو موازنة كل شيء كسبتهِ. لم تكنْ على ما يرام. قدماها. سأذهب الى هناك دقيقةً ولا أتمالك نفسي وهي تفقد ثوبها ! الجيرسي !.))

كم كان غريباً لأم ليلي، وهي المرأة المتحفظة، غير الأمومية، أن تعرف أن الفتاة الصغيرة بتنوارتها سوف تتكلم ذات يوم في مستقبل بعيد، في عصر قصص الخيال العلمي في القرن القادم، عنها طوال الوقت وتتوق لأن تكون معها في البيت. هل لينها ذلك ؟

الآن ليلي تهيء نفسها، سوف تواصل الحديث طوال مدة جلوسه هناك. يصعب علينا القول ما إذا كانت سعيدةً حقاً. تارةً تقهقه، وطوراً تصف نزاعات وشكاوى وهمية، ويغدو صوتها ساخطاً. في مواقف عدة تستحضر في ذهنها صورة شخص ما، تحتج على امرئ لن يرى معنىً لذلك الاحتجاج.

((أخبرته بكل شيء يؤيد الحرية وقال هو، لا أبالي. يمكنكِ أن تضحي به، وقلتُ لن أدعه يضيع في النار. وكل الأشياء الجديدة التي سوف يتم إلتقاطها.))

حين تصبح شديدة الاهتياج بفعل القصة التي ترويها، يقاطعها هنري ويضحك عالياً ويقول، ((ماما، ذلك حقاً مضحك جداً !))

كونها سريعة التأثر بأفكار الآخرين، سوف تضحك بصوتٍ عالٍ جداً ويتغير مزاجها، والقصة التي ترويها بعدئذ ستكون أكثر سعادةً. أما الآن، فهي في مزاج معتدل – ثمة ساعة جدارية، وثوب (جيرسي) ثانيةً، وثانيةً، حيز ضيق جداً للمرور من خلاله – وهنري، مرتشفاً الشاي البني الثخين، نصف مُصغٍ، نصف نعسان في دفء الحجرة الصغيرة الخالية من الهواء الطلق، يفكر كيف إنه هو في غضون خمس وثلاثين سنة أو أقل، مجرداً من كل ما يفعله ويملكه، ربما يكون هيئةً مرتجفةً تتسكع أمام ثيو أو ديزي، فيما هما ينتظران الوقت المناسب للمغادرة والعودة الى حياةٍ لن يكون مدركاً لها. ارتفاع ضغط الدم هو أحد المتنبئين الجيدين بالسكتات الدماغية. كان ضغطه في المرة الأخيرة مائة واثنان وعشرون على خمسة وستين. بوسع الضغط الانقباضي أن يكون أقل. الكولسترول الكلي خمسة واثنين بالعشرة. ليس جيداً بدرجة كافية. مستويات مرتفعة من البروتين الدهني– (أ) يقال إنها تزامنت بصورةٍ قويةٍ مع الخبل ذي الانسدادات المتعددة. لن يتناول البيض بعد الآن، ويضع طبقة خفيفة من الحليب في قهوته، والقهوة ذاتها يجب التخلي عنها ذات يوم. هو ليس مهيئاً للموت، ولا حتى مهيئاً لأن يموت نصف ميتة. يريد أن تكون مادته البيضاء الغنية بالنخاعين المتراصة بصورةٍ مذهلة سليمة، مثل حقل ثلج غير ملطخ. حينذاك لن يكون ثمة جبن. سيكون عديم الشفقة مع نفسه في سعيه وراء الصحة اللامحدودة كي يتجنب مصير أمه. الموت العقلي.

((أضع النسغ في الساعة الجدارية))، تقول له، ((كي أجعلها ندية.))

تمر ساعة، وبعدها يجبر نفسه على أن يكون في صحو تام وينهض على قدميه، بسرعة شديدة ربما، لأنه يشعر بدوار مباغت. علامة غير جيدة. يمد كلتا يديه صوبها، شاعراً بأنه غير مستقر وهو يبدو للعيان في شكل مضخم مقارنةً بشكلها الصغير جداً.

((هلمي، ماما))، يقول برفق. ((آن أوان مغادرتي. وأود أن ترافقيني الى الباب.))

بريئةً في طاعتها، تأخذ يديه ويساعدها في النهوض من كرسيها. يكدّس الصينية ويضعها خارج الحجرة، ثم يتذكر أكياس الشاي الصغيرة، نصف مخبأة تحت الفراش، ويضعها في الخارج أيضاً. ربما كانت ستتناولها كما لو كانت طعاماً شهياً. يقودها الى المجاز، معيداً طمأنتها طوال المدة القصيرة، مدركةً أنها تمشي في عالمٍ غريب. لم تكنْ لها أدنى فكرة عن الجهة التي يستديران إليها حينما يغادران غرفتها. لم تعلّق على البيئة غير المألوفة، لكنها راحتْ تمسك يده بصورة أقوى. في حجرة الجلوس الأولى، كانت ثمة امرأتان، إحداهما ذات شعر ثلجي بهيئة ضفائر، الأخرى صلعاء تماماً، تشاهدان التلفاز بصوت مغلق. اقتربت سيريل آتيةً من الحجرة الوسطى، كدأبها بربطة عنق وسترة رياضية، واليوم تحمل خزيرانة وتقلد خاتل الأيائل(٣٤). هي الرجل المقيم في الدار، عذب السلوك، عُزل في فانتازيا خاصة، واضحة المعالم: يعتقد أنه يملك (عزبة) واسعة وهو مجبر أن يتجول

زائراً الفلاحين الذين يستأجرون أراضيه وهو مؤدب بصورةٍ كثيرة الشكوك. لم يره بيروني حزيناً قط.

يرفع سيريل قبعته محيياً ليلي ويهتف، ((صباح الخير، عزيزتي. كل شيء على ما يرام ؟ هل ثمة شكاوى ؟))

يتوتر وجهها وتشيح نظراتها جانباً. على الشاشاة فوق رأسها يرى بيروني المسيرة – متنزه الـ(هايد بارك) ساكن، حشد هائل قبل مرحلةٍ مؤقتة، وفي المسافة البعيدة ثمة شخصية متناهية في الصغر عند (ميكروفون)، ثم اللقطة الشاهقة للموضوع نفسه، وبعدها المتظاهرون في طوابير يحملون أعلامهم، ما يزالون يصلون عبر بوابات المتنزه. توقف هو وليلي كي يسمحا لـ سيريل بالمرور. هناك لقطة لقارئه الأخبار عند مكتبها المخصص لعصر الفضاء، بعدئذ الطائرة كما شاهدها في الساعات المبكرة، جسم الطائرة المسوّد مفعم بالحيوية في بحيرةٍ من الزبد، مثل زينة عديمة الذوق على كعكة مكسوة بغطاء مؤلف من سكر وزبدة وحليب وبيض. الآن، مخفر شرطة (بادنغتون) – قيل انه آمن بإزاء الهجوم الارهابي. مراسل صحفي يقف في الخارج، يتحدث في (ميكروفون). ثمة تطور. هل حقيقةً أن الطيارين الروسيين هما مسلمان متطرفان حقاً؟ يصل بيروني الى المتحكم بالصوت، إلا أن ليلي تغدو مهتاجة على حين غرة وتحاول أن تخبره بشيء مهم.

((إذا أصبح جافاً جداً سوف يتجعد ثانية. أخبرته، وأخبرته أن عليك أن تنقعه بالماء، لكنه لم يكن لينزله.))

((هذا حسن))، يخبرها. ((سوف ينزله. سأقول له أن يفعل ذلك. أعدك.))

يحسم الأمر بإزاء التلفاز وينطلقان في مشيهما. يحتاج الى أن يركز على مغادرته، لأنه يعرف أنها سوف تظن بأنها آتية معه. سيقف مرةً أخرى عند الباب الأمامي، بتفسيره عديم المعنى أنه سوف يعود حالاً. جيني أو واحدة من الفتيات الأخريات يجب أن تصرف انتباهها في ما هو يمشي الى الخارج.

معاً يعودان عبر حجرة الجلوس الأولى. الشاي و (السندويتشات) الخالية من الأغلفة تم تقديمها للسيدات الجالسات الى الطاولة المستديرة ذات نسيج (الشنيل). يلقي التحية عليهن، إلا انهن يبدون غافلات جداً كي يرددن. ليلي أكثر سعادةً الآن، وتسند رأسها على ذراعه. في ما هما يدخلان الرواق يشاهدان جيني لافن عند الباب، وهي ترفع يدها الى قفل الأمان الثنائي العالي وتبتسم في اتجاههما. عندئذ فقط تربت أمه على يده بلمسة ريشية وتتبرى قائلةً: ((هنا فقط يبدو المكان أشبه بحديقة، خالتي، لكنه الريف حقيقةً ويمكنك أن تتنزهي سيراً على الأقدام على مسافة أميال. حين تمشين هنا تشعرين بأنكِ مرفوعةً، عالياً تماماً عبر النضد. لا أستطيع أن أتدبر هذه الأطباق كلها من دون فرشاة، غير أن الباري سوف يرعاكِ ويرى ماذا يمكنكِ أن تكسبي لأنه سباق السباحة. سوف تشقين طريقكِ بالضغط نوعاً ما.))

هي رحلة عودة بطيئة الى وسط لندن – يستغرق الوقت نحو

ساعة للوصول الى (ويستبورن غروف) من (بيريفيل). حركة مرور كثيفة تتوجه نحو المدينة من أجل متع ليلة السبت على غرار الموجة الأولى من الحافلات التي تأخذ المتظاهرين الى الخارج. خلال الزحف الطويل نحو الأضواء عند (مركز الفجر – جيبسي سنتر)، يخفض نافذته كي يتذوق المشهد بالكامل – الصبر البليد لإزدحام ما، النكهة الحادة الخادشة للأبخرة الثلجية، المكائن الراعدة التي تدور من دون فائدة في ستة أزقة شرقاً وغرباً، مصباح الشارع الأصفر يقصر اللون من العمل الرئيس، الضربة الأنيقة لأنظمة التسلية، ومصابيح الذيل الأحمر تمتد الى الأمام متوغلةً في المدينة، تتسكب منها مصابيح أمامية بيض. يحاول أن يراها، أو يتحسسها، بحسب المصطلحات التاريخية، هذه اللحظة في العقود الأخيرة من العصر النفطي، حين وصل جهاز من أجهزة القرن التاسع عشر الى الكمال النهائي في السنوات المبكرة من القرن الحادي والعشرين ؛ حين أصبحتْ الوفرة غير المسبوقة للجماهير في مسرحية جادة في المدينة الحديثة التي لا تعرف الصفح شيئاً جديراً بالمشاهدة لم يكن يتخيله أي عصر سابق. أناس اعتياديون ! أنهار من المصابيح! يرغب أن يجعل نفسه يراها، كما يحتمل أن يفعل ذلك نيوتن، أو معاصروه، بويل، هوك، ورين، ويليس – أولئك الرجال الأذكياء، المحبون للاستطلاع من (حركة التنوير الانجليزية) الذين على مدى سنوات قلائل حفظوا في عقولهم كل علم العالم تقريباً. مؤكد، لابد أن لهم ديناً في أعناقنا جميعاً. عقلياً، يُريهم ذلك: هذا ما فعلناه، هذا شيء اعتيادي في زمننا.

كل هذه الانارة المزدحمة ستكون مدهشةً لو كان باستطاعته فقط أن يشاهدها عبر عيونهم. لكنه لا يستطيع أن يحتال تماماً على نفسه فيها. لا يستطيع أن يتلمس طريقه مروراً بالثقل الحديدي للواقعي كي يرى ما وراء ضجر الازدحام المروري، أو التأخير الذي ساهم فيه، أو الآمال التجارية الرتيبة لاستعراضٍ من المخازن لصق بجانبها طوال خمس عشرة دقيقة. ليس له موهبة الشعر الغنائي كي يرى خلفها – فهو إنسان واقعي، ولا يستطيع أن يهرب. إنما بعدئذ، ربما شاعران في العائلة يكفيان.

ما وراء (أكتون) تصبح حركة المرور أسهل. في غسق العصر لوح وحيد من اللون الأحمر في السماء الغربية، مستطيل تقريباً، رمز العالم الطبيعي، رمز البرية في مكانٍ ما بعيد عن الأنظار، يضمحل ببطء وهو يطارده في مرآة المنظر الخلفي العائدة له. حتى إذا كانت المجازات الضيقة نسبياً المتجهة غرباً، والكائنة خارج المدينة، خاليةً، فهو سعيد لأنه لا يتجه الى تلك الناحية. يريد أن يصل البيت وان يلملم نفسه قبل أن يشرع بالطبخ. يريد أن يتأكد من وجود الشمبانيا في الثلاجة الكهربائية، وأن يجلب شيئاً من النبيذ الأحمر الى المطبخ كي يصبح دافئاً. الجبن أيضاً يجب تليينه في الهواء المسخن مركزياً. يحتاج الى الاستلقاء على مدى عشر دقائق. مؤكد ليس له مزاج لأغاني بلوز ثيو مضخمة الصوت.

إلا إن هذه أبوة، أي إنها شيء ثابت كالمصير، وأخيراً يوقف السيارة في الشارع بعيداً عن (ويستبورن غروف)، مائتي ياردة عن مسرح قاعة الموسيقى القديم. تأخر خمساً وأربعين دقيقة. حين

يصلها، البناية ساكنة وغارقة في الظلام والأبواب موصدة. لكنها تُفتح بسهولة حين يدفعها، لذا راح يمشي باضطراب في ما هو يدخل البهو. ينتظر قليلاً كي يجعل عينيه تعتادان الضوء الشحيح، يبذل مجهوداً قوياً كي يسمع الأصوات، واعياً بالرائحة المألوفة للسجاد المغبر. هل تأخر كثيراً جداً ؟ سيكون ذلك تقريباً أمراً يبعث على الارتياح. تغلغل عميقاً في صالة الاستقبال، ماراً بما يظن إنه حتماً مكتب قطع التذاكر، الى أن يأتي الى مجموعة أخرى من الأبواب الثنائية. يتلمس قضيباً معدنياً، يدفع الباب ويدخل.

على بعد مائة قدم، خشبة المسرح في ضوء ناعم ضارب الى الزرقة، مخترَق بواسطة ثقيبات من اللون الأحمر لحوامل مكبرة الصوت. عند الطبول، القبعة العالية تلتقط الضوء وتسلط قرصاً أرجوانياً طولياً عبر أرضية المسرح الذي من دون مقاعد. ليس ثمة ضوء آخر ما خلا علامة خروج برتقالية الى ما وراء الخشبة. ثمة أناس يتحركون ويجثمون عند الجهاز، ويتحركون حركةً بطيئةً بجنب وميض لوح مفاتيح. ثمة همهمة أصوات قابلة للتمييز فقط تعلو على همهمة غير واضحة واطئة لضفاف المتحدث. شخصية ظلية تقف في مقدمة الخشبة تضبط علو (ميكروفونين).

تحرك بيروني الى يمينه، وفي العتمة التامة جعل يتبع الجدار بيده الى أن أصبح يواجه منتصف الخشبة. يظهر شخص ثانٍ عند (الميكروفونين) يحمل (ساكسفون) الذي كانت خطوطه الخارجية المعقدة معلّمةً بوضوح بإزاء اللون الأزرق. استجابةٍ لنداءٍ ما، يطلق لوح المفاتيح (نوتة) مفردة، وقيثار جهير يدوزن وتره

الأعلى استجابةً لها. قيثار آخر يعزف نغمات متآلفة مفتوحة منقطعة – كلها في تناغم، ثم قيثار ثالث يفعل الشيء ذاته.

يجلس قارع الطبل ويقرّب صنوجه وكماناته من الدوّاسة على طبلة عظمى. همهمة الأصوات تتضاءل، والضوضاء تتلاشى في الأجنحة. ثيو وجاس في مقدمة الخشبة عند (الميكروفونين) يتطلعان عبر قاعة الاستماع.

في هذه النقطة تحديداً يدرك بيروني أنهما شاهداه يدخل وأنهما كانا ينتظران. ينطلق قيثار ثيو وحيداً مع جولة واهنة ذات فاصلتين موسيقيتين، خط بسيط هابط من العتب الخامس للقيثار يتدفق بسرعة واختلاط الى وتر غليظ ينز الى وتر ثانٍ ويبقى معلقاً هناك، وتر سابع مضمحل غير مصمم ؛ بعدها، بركلة حادة ودحرجة على الطبلة الصغيرة، وخمس نوتات مختلسة، متصاعدة من الجهير، تبدأ أغاني (البلوز). إنها من نوع أغاني [الاثنين العاصف] المتشائمة، إلا أن النغمات المتآلفة وافرة وتدين أكثر الى الجاز. ضوء الخشبة يتحول الى الأبيض. ثيو، عديم الحراك في نشوته المألوفة، يدور ثلاث مرات حول الفاصلات الأثنى عشرة. إنها نغمة ناعمة، كاملة، كثير من التغذية الاسترجاعية كي يقولب النوتات في عويلها النادب، مع وخز قليل في الهجوم على التعاقبات السريعة الأقصر للنغمات. البيانو وقيثار الايقاع يحفظان نغماتهما (الجازية) المتآلفة الوافرة. يشعر هنري بابهام خط الجهير في عظم القص العائد له ويضع يده على الرقعة المتقرحة هناك. انه بناء بصوت كبير، وهو غير مرتاح، ويقاومه. في حالته الحالية، يفضل

أن يكون في البيت مع ثلاثية موزارت على الـ((هاي – فاي))، ومع كأس من النبيذ الأبيض البارد الى حد بعيد.

لكنه لم يصمدْ طويلاً. شيء ما ينتفخ، أو يضيء في داخله في ما تتصاعد نوتات ثيو، وفي الجولة الثانية ترتفع الى تسجيل أعلى وتبدأ في التحليق. هذا هو ما كان يشتغل عليه الصبيان، ويريدون أن يسمعه، وقد تأثر. إنه يفهم الفكرة، زخم امتلائهم بالحماسة وخبرتهم. في الوقت ذاته يكتشف أن الأغنية ليست بالنمط المألوف لأغاني بلوز ذوات الفاصلات الاثنى عشرة. هناك جزء وسطي ذو لحن روحي يرتفع ويهبط في نصف نغمات. يميل جاس على ميكروفونه كي يغني مع ثيو في تآلف حميم، وغريب:

يا فتاة، يمكنك أن تختاري اليأس
أو يمكنك أن تكوني سعيدةً إذا تجرأت.
لذا دعيني آخذك الى هناك،
ساحة مدينتي، ساحة مدينتي

بعدها جاس، بكل براعاته الطازجة من نيويورك، يستدير جانباً، يرفع الساكسفون العائد له ويدخل بنوتة عالية همجية وخشنة، كصوت ينسحق بمرح يصمد ويصمد، ثم يضيق ويهبط في حلزون متجه الى الأسفل، مردداً صدىً داخل ثيو، ويسلم الفرقة الموسيقية ثانيةً الى جولة الاثنى عشرة فاصلة. جاس أيضاً يدور ثلاث مرات. الساكسفون منفعل، ذو ايقاعات ونوتات متقطعة صمدت بإزاء تغيرات الآلة الموسيقية، ثم تحرر في تعاقبات وحشية.

ثيو وعازف القيثار الجهير يعزفان في جوابات مقطعاً موسيقياً قصيراً ومميزاً أنيقاً مكرراً يتبدل بطرائق غير متوقعة ولا يعود تماماً الى نقطة بدايته. هذه أغاني البلوز في سرعة المشي، إلا ان ايقاع قيادة مركبة يتشيد الان. في جولة جاس الثالثة، يعود الغلامان الى الميكروفونين، الى اللازمة المرحة التي كانت تآلفاتها حميمةً جداً بحيث تكون تنافرات. هل كان ثيو يعزف اجلالاً لمعلمه، لـ جاك بروس من (كريم) ؟

لـــذا دعـــيني آخـــذك الى هنـــاك
ســـاحة المدينـــة، ســـاحة المدينـــة

بعدها تحل استراحة لوح المفاتيح، ويلتحق الآخرون بالموجة **riff** الصعبة، الدائرية.

لا يستطيع أن يتعب أكثر، يبتعد هنري عن الجدار حيث كان مستنداً، ويسير الى منتصف قاعة الاستماع المظلمة، صوب ماكينة الصوت الكبيرة. يجعلها تبتلعه. هناك هذه اللحظات النادرة حين يمس الموسيقيون معاً شيئاً أكثر عذوبةً مما وجدوه سابقاً في التمرينات أو العمل، وراء المتعاون حصراً أو الحاذق تقنياً، حين يغدو تعبيرهم سهلاً وجميلاً كالصداقة أو الحب. هذا حين يمنحوننا لمحةً خاطفةً عما يحتمل أن نكون عليه، عن أفضل ذواتنا، وعن عالم مستحيل تهب فيه كل شيء للآخرين، إلا أنك لا تفقد شيئاً من ذاتك. هناك في العالم الحقيقي توجد خطط

مفصلة، مشاريع حالمة من أجل ممالك مسالمة، النزاعات كلها حُلتْ، السعادة للجميع، الى الأبد – الأشياء الوهمية التي كان البشر مستعدين لأن يموتوا ويَقتلوا من أجلها. مملكة (المسيح) على الأرض، جنة العمال، دولة الاسلام المثالية. إنما في الموسيقى فقط، وفقط في مناسبات نادرة، تُرفع الستارة فعلاً عن هذا الحلم، حلم المجتمع، والذي تم استحضاره بصورة معذبة قبل أن يضمحل مع النوتات الأخيرة.

بطبيعة الحال لن يستطيع أحد أن يوافق حينما يحدث. سمعه هنري أخيراً لنفسه في (وغمور هول)، مجتمع يوتوبي تم ادراكه بصورة موجزة في (ثُمانية شوبيرت)، حينما أطلق عازفو آلات النفخ الموسيقية مع حركات صغيرة، منحنية، مهتزة لأجسادهم نوتاتهم عبر الخشبة عند قسم الآلات الوترية الذي أعادهم مهدئين. هو أيضاً سمعه منذ أمد بعيد في مدرسة ديزي ومدرسة ثيو، حين حاولت أوركسترا مدرسية نادبة بصورة متنافرة، مع هيئة استاذة وفرقة طلابية، عزف بورسل(٣٥)، وعملوا بنوتات مصدوعة وثاماً بريئاً وسعيداً للبالغين والأطفال. وفي هذا المكان الآن، عالم متماسك، كل شيء ملائم أخيراً. يقف مترنحاً في العتمة، رافعاً بصره الى الخشبة، ، يده اليمنى في جيبه تتلمس مفاتيحه. ثيو وجاس يرتدان الى مركز الخشبة كي ينشدا لازمة أغنيتهم السماوية. [أو يمكنكِ أن تكوني سعيدةً إذا تجرأتِ] يعرف ماذا عنت أمه. يمكنه أن يمشي مسافة أميال، يشعر بأنه مرفوع، عالياً تماماً عبر النضدة. لا يريد للأغنية أن تنتهي.

الفصل الرابع

لم يكن ليزعج نفسه في أن يوقف سيارته في الشوارع الخلفية. عوضاً عن ذلك، توقف مباشرةً خارج باب مسكنه الأمامي – إنه أمر مشروع في هذا الوقت من المساء أن يكون على خطٍ أصفر وهو يتحرق شوقاً لأن يكون في الداخل غير أنه يستغرق ثواني قليلة كي يعاين الضرر الذي لحق بباب الراكب – قلما كانت هناك علامة على الضرر. في ما هو يرنو ببصره من السيارة، يلاحظ أن البيت غارق في الظلام. بطبيعة الحال، ثيو ما يزال في التمرين (البروفة)، أما روزاليند فسوف تلتقط طريقها عبر الفعاليات الدقيقة الأخيرة من مرافعتها في المحكمة. رقائق ثلج قليلة متباعدة زمنياً تم تمييزها بواسطة ضوء الشارع تظهر بصورةٍ حيويةٍ بإزاء السواد اللامع للنوافذ. من المتوقع وصول والد زوجته وابنته ووقته ضيق. في ما هو يفتح الباب يحاول أن يتذكر أسلوب التعبير الدقيق للملاحظة التي أدلى بها ثيو في وقتٍ مبكر من ذلك اليوم التي لم تزعجه في حينها. إنها تضايقه بصورةٍ موجزةٍ الآن، إلا أن المجهود الفاتر للاستذكار نفسه يضمحل في ما هو يخطو الى داخل دفء

الرواق ويشعل المصابيح ؛ بصلة مصباح وحدها قادرة على أن تفجر فكرةً. يذهب مباشرةً الى رفوف قناني النبيذ ويأخذ أربع زجاجات. طريقته الخاصة في طهو السمك بالغلي البطيء تحتاج نبيذاً ريفياً قوياً – أحمر، وليس أبيض. عرّفه غراماتيكوس على نبيذ (توتافيل)، (قرى كوتيه دو روزيلون)، فجعل منه هنري نبيذه المنزلي – طيب المذاق، سعر الصندوق أقل من خمسين باون. إزالة سدادات الفلين من قناني النبيذ ساعات قبل شربها هو شكل من أشكال التفكير المشعوذ ؛ المنطقة السطحية المعرّضة للهواء متناهية الصغر ومن غير الممكن أن يحصل تغير ملموس فيها. على أي حال، لا يريد أن تكون الزجاجات أكثر دفئاً، وراح يحملها الى المطبخ ويضعها بالقرب من الموقد.

ثلاث زجاجات من الشمبانيا كانت في الثلاجة. يتخذ خطوةً نحو مشغل الأقراص الليزرية، ثم يغير رأيه لأنه يشعر بجذب الأنباء التلفازية التي باتت وشيكةً. إنها حالة أزماننا، هذا الدافع الذي لا يقاوم نحو سماع الكيفية التي تتخذها أوضاع العالم، وفي الانضمام الى الأغلبية، الى مجتمع القلق. أصبحت هذه العادة أقوى في هاتين السنتين الماضيتين ؛ تم وضع ميزان جديد لقيمة الأنباء بحسب المشاهد الرهيبة والمثيرة. إن إحتمال تكرارها هو أحد الخيوط التي تربط الأيام. ان رأي الحكومة – بأن هجوماً في مدينة أوربية أو أمريكية هو أمر محتوم – ليس فقط تنصلاً من المسؤولية، بل هو وعد متهور. الجميع يخشونه (أي الهجوم)، إنما هناك أيضاً توق أكثر كآبةً في العقل الجمعي، إشمئزاز من

معاقبة الذات ومن فضول تجديفي. على غرار المستشفيات التي تكون لها خطط أزمات، شبكات التلفاز أيضاً تقف مستعدةً للإرسال، وجماهيرها تنتظر. هجوم أكبر، أضخم، في المرة القادمة. من فضلكم لا تدعوه يحدث. إنما دعوني أراه مع ذلك، كما يجري بالضبط ومن الزوايا كلها، ودعوني أكن من بين أول العارفين. كذلك، يحتاج هنري الى أن يسمع عن الطيارين اللذين في الحجز القضائي.

مع فكرة الأنباء، وليست مفصولةً عنها، في الأقل عند نهايات الأسابيع، هناك الصورة الذهنية الشهيرة لكأس من النبيذ الأحمر. يفرغ نهاية قنينة (كوتيه دو رون) في كاس، يخفت صوت التلفاز ويشرع في تقشير ثلاث بصلات وتقطيعها. ينفد صبره بسبب الطبقات الخارجية الورقية، فيعمل شقاً عميقاً، يضغط إبهامه في عمق أربع طبقات ويمزقها، يفقد طبقةً ثالثة من اللب. يقطع الباقي بسرعة ويميله في طبق خزفي عميق القعر ذي مقبض مع كثير من زيت الزيتون. ما يحبه بشأن الطهو هو عدم دقته النسبية ونقص الانضباط – إنعتاق من متطلبات صالة العمليات الجراحية. في المطبخ، عواقب الفشل معتدلة: خيبة الأمل، شيء هزيل من العار، نادراً ما يتم الاعلان عنهما جهاراً. ما من أحد يموت فعلاً. يقشر ويقطع ثمانية فصوص سمينة من الثوم ويضيفها الى البصلات. من صيغ الطهو ينتقي فقط القواعد الأكثر تحرراً. كُتاب فن الطبخ الذين يعجب بهم يتحدثون عن ((حفنات)) و((رشة))، وعن ((رمي بحركة سريعة والى مسافة قريبة عادة)) من هذا الشيء أو ذاك.

يقدمون لوائح من المقومات البديلة ويشجعون على التجريب. يتقبل هنري الحقيقة القائلة أنه لن يُعد طاهياً مقبولاً، وإنه ينتمي الى ما تسميه روزاليند المدرسة المغذية. في راحة يده يفرغ عدداً من الفلفلات الحمر الجافة من قدرٍ ما ويسحقها بين كفيه ويجعل الرقاقات تسقط مع بذورها في الأبصال والثوم. تاتي الأنباء إلا إنه لا يمس زر تخفيف الصوت. إنها لقطة الطائرة العمودية ذاتها قبل أن يحل الظلام، الحشود نفسها ما تزال تسير أرتالاً في المتنزه، الاحتفال العمومي نفسه. فوق الأبصال وفصوص الثوم التي تم تليينها – مقادير ضئيلة من الزعفران، شيئاً من أوراق الغار، شعريات من قشور البرتقال، السمسق البري[1]، خمس شرائح طرية من الانشوفة[2]، علبتين من الطماطة المحفوظة المقشرة. على مسرح الـ (هايد بارك)الضخم منتخبات مكسرة الصوت من أحاديث لـ سياسي مهيب من اليسار، نجم (بوب)، كاتب مسرحي، عضو من نقابة مهنية. في الكفت[3] يريح هياكل ثلاث سمكات من نوع السفن. رؤوسها ما تزال سليمة، شفاهها مكتنزة بصورة بناتية. تصبح عيونها غائمة عند التماس مع الماء المغلي. ضابط شرطة برتبة عالية يجيب عن أسئلة تتعلق بالمسيرة. بسمته المشدودة وميلان رأسه يبدو مقتنعاً باليوم. من كيس الخيوط الأخضر لبلح البحر يأخذ هنري دزينةً أو نحوها ويسقطها مع سمك السفن. ما كان بوسعه أن يعلم ما إذا كانت بلحات البحر حية، وتشعر بالألم. الآن ذلك المراسل الصحفي الجاد نفسه، يتكلم بصمت عن كل ما ينبغي معرفته عن التجمع الذي لا نظير له. عصير الطماطة يغلي

برفق مع الأبصال والبقية، ويصبح برتقالياً ضارياً الى الاحمرار مع الزعفران.

بيروني، سمعه لم يعد كلياً الى وضعه السوي بسبب التمرين (البروفة)، مشاعره مبهمة، وحتى مخدرة، بفعل زيارته لأمه، يقرر أنه يحتاج الى الاصغاء الى شيء مؤثر، الى (ستيف ايرلي)، العقل المفكر لفرقة (بروس سبرنجستين)، بحسب ما قاله ثيو، إلا ان التسجيل الذي يريده، ((القلب El Corazon))، في الطبقة العليا، لذا راح يحتسي النبيذ بدلاً عنه، وجعل يتطلع الى التلفاز، منتظراً قصته. رئيس الوزراء يلقي كلمة (غلاسكو) الخاصة به. يلمس بيروني الـ (ريموت كونترول) في الوقت المناسب كي يسمعه وهو يقول أن عدد المتظاهرين اليوم ازداد بفعل ازدياد عدد الأموات على يد صدام. نقطة ذكية، الحالة الوحيدة التي كان ينبغي فهمها، إلا إنه كان يجب فهمها منذ البداية. الآن فات الأوان كثيراً. بعد (بليكس) يبدو الأمر (تكتيكياً). يغلق هنري الصوت. يخطر بباله كم هو راضٍ بأن يطهو الطعام – حتى الوعي بالذات لا يقلل الاحساس. في المصفاة الأضخم يسكب بقية بلح البحر ويدعكها بفرشاة خضار عند (السنك) تحت الماء الجاري. البطلينوسات الباهتة الضاربة للاخضرار من الناحية الأخرى تبدو لذيذة ونقية، وراح يغسلها حصراً. إحدى أسماك السفن قوست عمودها الفقري، كما لو أنها تنوي الهرب من الغليان. في ما كان يدفعها الى الأسفل بملعقة خشب، يتكسر العمود الفقري، أسفل الفقرة الصدرية الثالثة مباشرةً. الصيف الماضي أجرى عمليةً جراحيةً لفتاة مراهقة

كُسر ظهرها عند الفقرة العنقية الخامسة والصدرية الثانية إثر سقوطها من على شجرة في مهرجان (بوب)، في ما كانت تسعى للحصول على مرأى أفضل لـ (ريديوهيد radio head). كانت قد أنهت دراستها تواً وأرادت أن تدرس الروسية في جامعة ليدز. الآن، بعد ثمانية شهور من إعادة التأهيل هي في صحة جيدة. لكنه يصرف هذه الذكرى. إنه لا يفكر في العمل، يريد أن يطهو. من الثلاجة الكهربائية يأخذ قنينةً مملوءةً حتى الربع من النبيذ الأبيض، من علامة (سانكيري) ويقلبها فوق مزيج الطماطة.

على (بلوكة) تقطيع من الخشب، أوسع وأثخن، يرتب بيروني ذيول سمك الراهب ويقطعها الى قطع غليظة قصيرة ويقلبها في طاس أبيض كبير. بعدها يغسل الثلج عن سمك القريدس (الروبيان) ويضعها في الطاس أيضاً. في طاسٍ ثانٍ، يضع البطلينوسات وبلح البحر. كلا الطاسين يذهبان الى الثلاجة الكهربائية مع أطباق وليمة كأغطية. لقطة راسخة تظهر مبنى (الأمم المتحدة) في نيويورك، ولقطة تالية، كولن باول يدخل في (ليموزين) سوداء. انه حافز مضاد لقصة هنري، لكنه لا يبالي. إنه ينظف المطبخ، يزيل فوضاه من الجزيرة الرئيسة ليضعها في صندوق كبير، ويدعك ألواح التقطيع تحت الماء الجاري. بعدئذ آن أوان أن يسكب عصير الغليان بعيداً عن سمك السفن وبلح البحر في طبق الخزف العميق. حين يتم إنجاز ذلك يملك الآن، يظن هو، نحو لترين ونصف من المرق البرتقالي البراق الذي سوف يطهوه على مدى خمس دقائق أخرى. قبيل وجبة العشاء سوف يعيد تسخينه،

ويغلي ببطء البطلينوسات، سمك الراهب، بلح البحر وسمك الروبيان فيه مدة عشر دقائق. سوف يتناولون الطعام المغلي ببطء مع الخبز الأسمر، السلطة والنبيذ الأحمر. بعد نيويورك، كانت هناك الحدود الكويتية - العراقية وشاحنات عسكرية تتحرك في قافلة على امتداد طريق صحراوي، وشباننا يقفزون عند مسارات دباباتهم، بعدها يظهرون وهم يتناولون علب أطعمتهم المحفوظة في الصباح التالي. يأخذ كيسين من خس النعجة[٤] من أسفل الثلاجة الكهربائية ويفرغها في داخل خالط السلطة. يسكب ماء الحنفية البارد على الأوراق. ضابط، قلما يكون في عقده الثاني، يقف خارج خيمته يشير بعصا الى خارطة على حامل. لم يجرّب بيروني أن يلغي مخفف الصوت – هذه العناصر القادمة من الجبهة ذوات سيماء مرحة، مراقَبة تخفض معنوياته يدوّم السلطة ويقلبها في طاس. الزيت، الليمون، الفلفل والملح سوف يرميها فوقها لاحقاً. ثمة جبن وفواكه من أجل حلوى (البودنغ). ثيو وديزي يمكنهما أن يرتبا المائدة.

استعداداته أُنجزت، في ما كانت قصة الطائرة المحترقة تاتي بوصفها المادة الرابعة في نشرة الأخبار. باحساس مشوّش مفاده إنه بصدد أن يفهم شيئاً مهماً عن ذاته، يفتح الصوت ويقف مواجهاً الجهاز الصغير، مجففاً يديه في منشفة. إن وضع خبر الطائرة كمادة رابعة في النشرة ربما يعني أن ليس ثمة تطورات، أو أن هناك صمتا منحوساً من جانب السلطات؛ لكن في الواقع انكمشت القصة – يمكنك تقريباً أن تسمع في المقدمة النبرة

النادمة لمقدّم النشرة. هاهما هذان، الطيار، الشخص الذاوي وشعره الأملس الممشط للوراء ومساعده القصير والبدين يقفان خارج فندق بالقرب من (هيثرو). يشرح الطيار من خلال مترجم، أنهما ليسا شيشانيين أو جزائريين، هما ليسا مسلمين، هما مسيحيان، مع أنهما كذلك بالاسم فقط، ذلك أنهما لا يذهبان الى الكنيسة ولا يملكان لا القرآن ولا الانجيل. قبل كل شيء، إنهما روسيان وفخوران بهذه الحقيقة. إنهما بصورة مؤكدة ليسا مسؤولين عن الصور الإباحية للاطفال الأمريكيين التي عُثر عليها نصف تالفة في طائرة الحمل المحترقة. إنهما يعملان لصالح شركة جيدة، مسجلة في هولندا، وإن مسؤولياتهما الوحيدة هي طائرتهما. ونعم، بطبيعة الحال، إن صور الأطفال الإباحية شيء بغيض، إلا انه ليس جزءاً من واجبهما أن يفتشا كل رزمة أُدرجت في بيان حمولة الطائرة. أُطلق سراحهما من دون تهمة، وحين تخبرهما (سلطة الطيران المدني) أنه شيء مناسب، سوف يعودان الى (ريغا). كذلك كسد الجدال المتعلق بمسار الطائرة الى داخل المطار؛ كانت الاجراءات الصحيحة قد حصلت تباعاً. يصر الاثنان على القول أنهما عوملا بكياسة من قبل (شرطة العاصمة). يقول مساعد الطيار ممتلئ الجسم إنه يريد أن يستحم وأن يحتسي جرعةً كبيرةً من الشراب.

أنباء جيدة، لكنه في ما هو يمشي خارج المطبخ في اتجاه موضع لحفظ الأطعمة، لا يشعر هنري بسعادة خاصة، ولا حتى بالارتياح. هل جعلت منه ضروب قلقه مغفلاً ؟ إنه جزء من النظام الجديد،

هذا التضيق المتعلق بالحرية العقلية، المتعلق بحقه في التجوال. في وقتٍ ليس بالبعيد جداً كانت أفكاره قد صُنفتْ بصورةٍ لا يمكن التنبؤ بها بنحو متزايد، على لائحة أطول من الموضوعات. يرتاب في انه أصبح مغفلاً، مستهلكاً تلقائياً، محموماً لعلف الأنباء، الرأي، التامل العميق وكل كسر الخبز التي تجعلها السلطات تسقط. هو مواطن طيّع، يشاهد (اللوياثان) يغدو أقوى في ما يزحف هو تحت ظله من أجل الحماية. هذه الطائرة الروسية حلقت مباشرةً الى داخل أرقه، وكان فقط سعيداً جداً بحيث لم يجعل القصة وكل تغير عصبي صغير في عملية الأخبار اليومية يلونان حالته العاطفية. إنه وهم، ان يحسب نفسه فعالاً في القصة. هل يعتقد انه يساهم في شيء ما، مشاهدة برامج الأخبار، أو الاستلقاء على ظهره فوق الكنبة في أوقات ما بعد الظهر لأيام الآحاد، قراءة المزيد من أعمدة الآراء المتعلقة بالحقائق التي لا أساس لها، المزيد من المقالات الطويلة حول خلفيات هذا التطور أو ذاك، او حول ما سيحدث بصورة مؤكدة لاحقاً، التنبؤات يتم نسيانها حالما تُقرأ، قبل أن تثبت الوقائع بطلانها ؟ التنبؤات المتعلقة بـ مع أو ضد الحرب على الارهاب، الحرب في العراق، بنهاية طاغية كريه، وأفراد أسرته المجرمين، المتعلقة بالتفتيش النهائي عن الاسلحة، فتح معتقلات التعذيب، تحديد مواقع المقابر الجماعية، فرصة الحرية والازدهار، وتحذير للمستبدين الآخرين أو ضد إلقاء القنابل على المدنيين، مسألة اللاجئين المحتومين والمجاعة التي لا بد منها، الفعل الدولي غير الشرعي، غيظ الأمم العربية وتضخم صفوف

(القاعدة). في كلتا الحالتين، يساوي ذلك إجماعاً من نوع ما، معتقداً تقليدياً للاهتمام، استعباداً معتدلاً بحد ذاته. هل يظن أن ازدواجيته - إذا كانتْ هي حقيقةً كذلك - تستثنيه من الانسجام العام؟ كانت أعمق من غالبية الناس. أعصابه، كأوتار مشدودة، تهتز بإذعان مع كل ((انعتاق)) للأنباء. فقد عادات الشكوكية، أمسى مبهماً بفكرته المتناقضة، هو لا يفكر بصورة جلية، وبصورة سيئة يدرك أنه لا يفكر بصورةٍ مستقلة.

الطياران الروسيان يتم إظهارهما في التلفاز وهما يمشيان داخل الفندق، وهذا هو آخر ما سيراه منهما. يلتقط زجاجات قليلة من المقوي من موضع حفظ الأطعمة، يفحص مؤشر مكعب - الثلج والجن - ثلاثة أرباع اللتر تكفي يقيناً للفرد الواحد - وأطفأ الحرارة تحت مرقه. في الأعلى، في الطبقة الأرضية يسحب الستائر في حجرة المعيشة التي لها شكل حرف L، وينوّر المصابيح، ويشعل الغاز في نيران الفحم - الزائف. هذه الستائر السميكة، المغلقة بواسطة سحب حبل مثقّل بمقبض مزخرف سمين من النحاس الأصفر، لها طريقة في إقصاء الساحة والمشهد الشتائي وراءها بصورةٍ نظيفةٍ. الحجرة ذات السقف الشاهق بالألوان (الكريمية) والبنية ساكنة، مهدئة، لونها البراق الوحيد في الألوان الزرق والحمر الداكنة للسجاد وشق تجريدي من اللون البرتقالي والأصفر بإزاء اللون الأخضر في (هوارد هوجكن) على واحد من مقدّمات الموقد. الأشخاص الثلاثة في العالم الذين يحبهم هو، هنري بيروني، حباً جماً، والذين يبادلونه مثل هذا الحب، يكادون

يصلون الى البيت. إذاً ماذا جرى له ؟ لا شيء، لا شيء البتة. إنه رائع، كل شيء رائع. يتوقف قليلاً عند أسفل درجات السلم، سائلاً نفسه ما الذي ينوي أن يفعله لاحقاً. يصعد الى مكتبه في الطبقة الأولى، ويبقى واقفاً في ما هو ينظر الى شاشة حاسوبه كي يذكر نفسه بالتزامات الأسبوع المقبل. هناك أربعة أسماء في لائحة يوم الاثنين، وخمسة في قائمة الثلاثاء. الفلكية القديمة فيولا، ستكون الأولى، في الساعة الثامنة والنصف. جي محق ربما لن تفعلها. الأسماء كلها تستحضر تاريخاً يعرفه جيداً من الأسابيع أو الشهور الماضية. في كل حالة مرضية يعرف على وجه الدقة ماذا يرغب أن يفعل، ويشعر بالسعادة في الصورة الذهنية عما سيحدث له في عمله. كم هي الأمور مختلفة في ما يتعلق بالمرضى التسعة، بعضهم راقدون في ردهات المستشفى، بعضهم الآخر في منازلهم، والفريق الثالث يأتون مسافرين الى لندن غداً أو الاثنين، مع فزعهم المتعلق باللحظة المقتربة، النسيان يفعلا التخدير، وشكهم العقلاني القائل أنهم حين يخرجون من صالة العمليات لن يكونوا تماماً كحالهم في ما مضى.

من الطبقة السفلى يسمع قفل الباب الأمامي يدور، وبحسب صوت فتح الباب وغلقه – طراز دخول مكان ما بتنظيم، وطراز غلق الباب بهدوء وراءها – يعرف إنها ديزي. يا للحظ السعيد، إنها ينبغي أن تصل قبل جدها. في ما هو يسرع نازلاً السلم صوبها، يهتز بدنها قليلاً تعبيراً عن السرور.

((أنتَ في الداخل !))

في ما هما يتعانقان، يصدر ضوضاءً خفيضةً، متلهفةً، مدمدمةً، وهي ذات الطريقة التي اعتاد أن يستقبلها بها حينما كانت في الخامسة. وإنه جسد الطفلة الذي يحس به حين كان يرفعها تقريباً عن البلاط، طراوة العضلات تحت الثياب، المرونة التي يمكنه أن يحس بها في مفاصلها، القبلات اللاجنسية. حتى أنفاسها كانت أشبه بأنفاس طفلة. هي لا تدخن، وقلما تحتسي المشروبات الروحية، وهي على وشك أن تكون شاعرة ذات كتاب مطبوع. أما أنفاسه هو فكانت تفوح بوفرة برائحة النبيذ الأحمر. أي طفلين معتدلين هما اللذان أصبح أباً لهما.

((هكذا دعيني ألقي نظرةً عليكِ.))

الشهور الستة هي أطول مدة أمضتها ديزي بعيداً عن أسرتها. بيروني وزوجته، مع أنهما متساهلان بدرجة عالية، هما كذلك أبوان نزاعان الى الاستئثار بحب ابنيهما واهتمامهما. ممسكاً إياها بطول ذراعه، كان يأمل أن لا تلاحظ التلألؤ في عينيه أو العَبرة الصغيرة في حنجرته. لحظة رثائه ترتفع وتهبط في موجة ناعمة وحيدة، ومن ثم ذهبتْ. هو ما يزال يتمرن بوصفه مغفلاً قديماً، مبتدئاً لا غير. على الرغم من فانتازياته، هذه ليست طفلة. هي شابة مستقلة، تبادله النظر برأسٍ منتصب – شديدة الشبه بجدها في تلك الهيئة المائلة – الشفتان تبتسمان لكنهما ليستا منفرجتين، ذكاؤها كالدفء في وجهها. هذا هو وجع – سعادة إمتلاك طفلين بالغين حديثاً ؛ هما بريئان وقاسيانِ في نسيان تبعيتهما العذبة القديمة. لكنها ربما كانت تذكّره – في أثناء عناقهما أنها نصف

دعكتْ، نصف ربتت على ظهره، وهي إيماءة أمومية مألوفة خاصة بها. حتى حين كانت في سن الخامسة كانت تحب أن تعتني به كأم، وأن تحذره حين يعمل حتى ساعة متأخرة أو حين يحتسي النبيذ أو حين يخفق في (ماراثون لندن). كانت واحدة من الفتيات الصغيرات المهيبات، اللواتي يهززن الأصبع. والدها ينتمي اليها. الآن تدعك رجالاً آخرين وتربت على أكتافهم أو ظهورهم، نصف دزينة في الأقل في السنة الماضية، اذا كان ديوانها الشعري ((مركبي الأنيق)) وقصيدته ((ست أغان قصيرة)) دليلاً على ذلك. انها الحياة المنشطة لهؤلاء الأشخاص التي تساعده على السيطرة على دمعته الوحيدة.

ترتدي معطفاً واقياً من المطر جلدياً بالياً غير مزرر بلون أخضر قاتم. قبعة من الفراء الروسي تتدلى من يدها اليمنى. تحت المعطف جزمتان من الجلد الرمادي ترتفعان الى مستوى الركبتين، تنورة صوف رمادية داكنة، كنزة صوفية سميكة، مهلهلة النسيج ولفاع حرير رمادي وأبيض. الطعنة الموجهة الى الأناقة الباريسية لم تمتد الى أمتعتها – صرة الظهر المدرسية القديمة العائدة لها ترقد على جنبها عند قدميها. كان ما يزال يحملها من كتفيها، ساعياً الى تمييز ما تغير في ابنته في الشهور الستة الماضية. شذا غير مألوف، أكثف قليلاً أغلب الظن، أكثر حكمةً حول العينين، الوجه الرقيق أصبح أكثر ثباتاً. معظم حياتها لغز بالنسبة له الآن. غالباً يسائل نفسه ما إذا تعرف روزاليند عن ابنتها أشياءً لا يعرفها هو.

تحت تدقيقه، كان ضغط بسمتها ينمو، الى أن راحت تقهقه

وتقول، ((هيا، دكتور. يمكنك أن تكون معي بصورة متصلة. أصبحتُ عجوزاً شمطاء.))

((تبدين فائقة الجمال، وبصورةٍ ما ناضجة تماماً بالنسبة لذائقتي.))

((أنا مرغمة على أن أرجع سنوات عدة طيلة مدة بقائي هنا.)) أشارت خلفها الى حجرة الجلوس والمدخل، ((هل جدي هنا ؟))

((لم يصلْ بعد.))

تتلوى متحررةً من مسكته، تلف ذراعيها حول كتفيه وتطبع قبلةً على أنفه. ((أحبك وأنا جد سعيدة بعودتي.))

((أنا أحبك أيضاً.))

ثمة شيء آخر مختلف. لم تعدْ جميلةً حصراً، بل بارعة الجمال، وربما أيضاً، هكذا تقول له عيناها، متعلقة نوعاً ما برجل. هي في علاقة غرامية ولا تطيق الانفصال عن حبيبها. نحى هذه الفكرة. مهما يكن الأمر، من المرجح أن تخبر روزاليند أولاً بذلك.

على مدى ثواني قليلة يدخلان لحظةً من تلك اللحظات الخرساء، الفارغة التي تعقب اجتماع الشمل المتحمس – أكبر من أن يوصف، وإن إعادة ترسيخ وديعة مطلوبة، إستئناف المهنة الاعتيادية. ديزي تنظر في ما حولها في ما هي تخلع معطفها. الحركة تحرر مزيداً من عطرها اللامألوف. هدية من عشيقها. عليه أن يسعى بمزيدٍ من المثابرة إلى أن يحرر نفسه من هذا التعلق المرضي المورث كآبةً. هي مرغمة على أن تحب رجلاً سواه.

سيكون أسهل بالنسبة له إذا لم تكنْ قصائدها جد شهوانية – لم تكنْ قصائدها تحتفي فقط بالجنس المتهور، إنما تحتفي أيضاً بالابتكار المتواصل، بالحجرات والأسرّة التي تتم زيارتها مرةً واحدة وتتم مغادرتها فجراً، العودة الى البيت سيراً على الأقدام عبر شوارع باريس الندية التي كان تنظيفها الكفء من قبل سلطات المدينة فرصةً مناسبةً للاستعارات المتنوعة. طهارة البداية الطازجة ذاتها كانت في قصيدتها حول حجرة الغسيل التي نالتْ عنها جائزة (نيودغيست). أيعرف بيروني المناقشات القديمة حول المعايير المزدوجة، لكن ألا تناقش الآن بعض النساء المتحررات مسألة قوة التحفظ وقيمته؟ هل هي فقط البلاهة الأبوية التي تجعله يشك في أن فتاةً تنام جواره بمزيد من الجد لها فرصة مغتنمة في أن تنتهي مع ذكر من المرتبة السفلى، غير ملائم، وخاسر؟ أم أن خصوصيته هو في هذا الحقل، افتقاده هو إلى النشاط الإستكشافي، خُلق من أجل مسألة أخرى ذات صلة؟

((يا إلهي، هذا المكان حتى أكبر مما أتذكر.)) كانت ترنو ببصرها عبر أعمدة الدرابزين الى الثريا المدلاة من سقف الطبقة الثانية. من دون تفكير، يأخذ معطفها، يضحك، ويعطيها إياه من جديد.

((ما الذي أفعله ؟)) يقول. ((أنتِ تسكنين هنا. يمكنك أن تعلقيه بنفسك.))

تتبعه نازلةً الى المطبخ، وحين يستدير كي يعطيها كأساً من

الشراب، تعانقه ثانيةً، ثم تخطو خطوات واسعة بوثبة مسرحية صغيرة الى داخل حجرة الطعام، ومن ورائها، الى المستنبت الزجاجي.

((أحبه هنا)) نادته. ((أنظر الى هذه الشجرة الاستوائية! أحب هذه الشجرة. بم كنتُ أفكر، حين كنت أمكث بعيداً مدةً طويلةً جداً؟))

((هو ذا سؤالي بالضبط.))

كانت الشجرة هناك على مدى تسع سنوات. لم ير ابنته في هذا المزاج من قبل. هي ذي تؤوب ماشيةً نحوه، ذراعاها ممدودتان كما لو كانت تمشي على حبل البهلوان، متظاهرةً بالتمايل- إنه شيء من نوعٍ ما من المحتمل أن تقوم به شخصية مغمورة بصابون أمريكي حين تريد أن تُنتزع منها أنباء مهمة. الشيء التالي، سوف تدور دورات عدة على قدم واحدة حوله وتدندن بنغمات حفلة استعراضية. أشعر بأني بارعة. يأخذ كاسين من الخزانة وقنينة شمبانيا من الثلاجة الكهربائية ويلوي الفلينة بعنف منتزعاً إياها.

((الآن))، يقول. ((ليس ثمة سبب كي ننتظر الآخرين.))

((أحبك))، تقول ثانيةً، رافعةً كأسها.

((مرحباً بكِ في بيتنا حبيبتي.))

تحتسي الشمبانيا ويلاحظ هو، ببعض الارتياح، أنها لم تأخذ جرعةً كبيرةً. قلما تكون رشفة- فليس ثمة تغيير هناك. إنه في اسلوب يقظ، محاولاً أن يفهمها. لم يكن بمستطاعها أن تبقى

ساكنةً. هي ذي تتجول بكأسها حول الجزيرة الوسطى.

((خمن أين ذهبت في طريقي من المحطة))، تقول وهي ترجع إليه.

((أوم. الى [الهايد بارك] ؟))

((عرفت ! بابا، لماذا لم تكن هناك ؟ كان المتنزه ببساطة مذهلاً.))

((لا أدري. لعبتُ [السكواش]، زرتُ جدتك، طهوت العشاء، نقص في اليقين. شيء من ذلك القبيل.))

((لكنه شيء بربري تماماً، ماذا يوشكون أن يفعلوا. الجميع يعرفون ذلك.))

((ربما الأمر كذلك. ربما لن يفعلوا شيئاً. أنا بصراحة لا أعرف. أخبريني كيف كان الحال في المتنزه.))

((أعرف إنكَ لو كنتَ هناك لما راودك أي شك من الشكوك.))

يقول، راغباً بأن يكون مفيداً، ((شاهدتهم وهم ينطلقون في مسيرتهم صباح هذا اليوم. كلهم وديون جداً.))

تبتسم بسمةً عريضةً، كما لو إن ذلك ناجم عن الوجع. هي ذي أخيراً في البيت، ها هما يحتسيان الشمبانيا، ولا تستطيع أن تتحمل أن لا يرى الأمر بطريقتها نفسها. تضع كفاً على ذراعه. على خلاف كف والدها أو أخيها، كانتْ كفاً بالغة الصغر ذات أصابع مستدقة الأطراف، كل اصبع ذات بقية من نقرة صغيرة طفولية عند القاعدة. في ما كانت تتكلم يتطلع هو الى أظافر

أصابعها، مسروراً برؤيتها في حال جيدة. طويلةً بعض الشيء، ناعمةً، نظيفةً، مصقولةً، وغير مطلية. يمكنك أن تحكي الكثير من خلال أظافر الفرد، أي فرد. حين تبدأ الحياة بالانحلال، تكون الأظافر بين الأشياء الأولى التي تُستهلك. يأخذ كفها ويعصرها.

هي ذي تتضرع إليه. رأسها محشو بهذه المسألة كرأسه. الحديث الذي تدلي به هو ترتيب لكل ما سمعته في المتنزه، لكل شيء سمعه وقرأه كلاهما مائة مرة، تخمينات الحالة الأسوأ التي أمستْ حقائق من خلال التكرار، النشوات العذبة للتشاؤم. يسمع من جديد تقرير الأمم المتحدة الذي يخمن موت نصف مليون عراقي من جراء المجاعة وإلقاء القنابل، وثلاثة ملايين لاجئ عراقي، موت الأمم المتحدة، انهيار النظام العالمي إذا شنت أمريكا الحرب وحدها، بغداد تُدمر كلياً حينما تؤخذ شارعاً بعد شارع من (الحرس الجمهوري)، الأتراك يغزون العراق من الشمال، الايرانيون من الشرق، الاسرائيليون يقومون بتحركات من الغرب، المنطقة برمتها ستكون مشتعلة بالنيران، صدام يتم حصره في زاوية ما مطلقاً العنان لأسلحته الكيمياوية والبايولوجية – إذا كان يمتلكها، لأنه ما من أحد برهن على ذلك بصورةٍ مقنعة، كما لم يظهر أحد ارتباط النظام العراقي بـ (القاعدة) – وحين يجتاح الأمريكيون البلد، لن يكونوا مولعين بالديمقراطية، لن ينفقوا أي مبلغ من المال على العراق، سوف يأخذون النفط ويبنون قواعدهم العسكرية ويديرون البلد كمستعمرة.

في ما كانت تتكلم يتطلع هنري اليها بدفء وبشيء من الدهشة. كانا على وشك أن يخوضا واحداً من الموضوعات الأثيرة لديهما – وعاجلاً جداً. لم تكنْ تتحدث عادةً في السياسة، إذ لم تكن أحد موضوعاتها. هل هذا هو مصدر سعادتها المستثارة ؟ البشرة المتوردة تبرز من عنقها، وكل سبب إضافي تقدّمه في عدم شن الحرب يكتسب أهميةً من السبب السابق ويرفعها الى النصر. النتائج الوخيمة التي تؤمن بها تجعلها تشعر بالخفة والنشاط، إنها تقتل تنيناً بكل ضربة من ضرباتها. حين تصاب بالارهاق تعطيه دفعةً صغيرةً حنوناً على القسم الأمامي من ذراعه، كما لو أنها تهزه كي تجعله يستيقظ. ثم تُقطب وجهها بحزن كاذب. تتوق إليه كي تفهم ما هو الشيء الحقيقي.

واعياً بكونه يتخذ منزلةً، مهيئاً نفسه للنزاع، يقول، ((إلا إن هذا كله تخمين حول المستقبل. لماذا ينبغي لي أن أشعر بأنه يملك حقيقةً ما ؟ ماذا عن حرب قصيرة الأمد، الأمم المتحدة لن تتداعى، ولن تكون ثمة مجاعة، ولا لاجئين أو اجتياحات من قبل الدول المجاورة، لن يتم تسوية بغداد بالأرض وعدد أقل من الوفيات التي يسببها صدام لأبناء شعبه في السنة العادية ؟ وماذا يحدث لو حاول الأمريكيون أن ينظموا ديمقراطيةً ما، يضخون البلايين ويغادرون البلد لأن رئيس الجمهورية يريد أن يتم إنتخابه في السنة القادمة ؟ في إعتقادي انك ستبقين مناهضة للحرب، ولم تخبريني بالسبب حتى الآن.))

ابتعدتْ عنه وراحت تواجهه بنظرة اعجاب قلق. ((بابا، أنتَ ضد

الحرب، أليس كذلك؟))

يهز كتفيه بلا مبالاة. ((ما من رجل عقلاني يؤيد الحرب. إلا إننا في بحر خمس سنوات ربما لن نندم عليها. أحب أن أرى نهاية صدام. أنتِ محقة، ربما ستحل كارثة. لكنها ربما ستكون نهاية كارثة ما وبداية شيء أفضل. الأمور كلها تتعلق بالنتائج، وما من أحد يعرف ماذا ستكون هذه النتائج. لهذا السبب لا أتخيل نفسي أتظاهر في الشوارع منددأ بالحرب الوشيكة.))

إعجابها انقلب الى نفور. يرفع القنينة ويبدي رغبته في ملأ كأسها لكنها تهز رأسها نفياً وتضع كأسها المترعة بالشمبانيا وتبتعد أكثر. هي لا تحتسي الشراب مع العدو.

((أنتَ تكره صدام، لكنه من ابتكار الأمريكيين. أسندوه وزودوه بالأسلحة.))

((نعم، والفرنسيون، والروس، والبريطانيون فعلوا ذلك أيضاً. حصل خطأ فادح. العراقيون تم تضليلهم، بخاصة في سنة ١٩٩١ حين تم تشجيعهم على أن ينتفضوا ضد البعثيين الذين مزقوهم إرباً ارباً. ربما تكون هذه مناسبة لإعادة الأمور الى وضعها الصحيح.))

((أنتَ اذاً مع شن الحرب ؟))

((مثلما قلتُ، لستُ مع أي حرب. لكن هذه ربما تكون الأقل شراً. في بحر خمس سنوات سنعرف.))

((ذلك أمر جد نموذجي.))

يبتسم بعدم ارتياح. ((لأي شيء ؟))

((لكِ.))

هذا ليس بالضبط اجتماع الشمل الذي تخيله، وكما يحدث غالباً، يغدو جدالهما شخصياً. لم يعتد ذلك، فقد أضاع لمسته. يشعر بضيق فوق قلبه. أم إنها الرضة فوق عظم القص خاصته ؟ يحتسي كأس الشمبانيا الثانية، في حين قلما مستْ هي كأسها الأولى. تلاشت حوافز رقصها. تتكئ على مدخل الباب، ذراعاها مطويتان بإحكام، الوجه الصغير الفاتن متوتر غيظاً. تستجيب لحاجبيه المرفوعين.

((أنتَ تقول لندع الحرب تنطلق، وفي غضون خمسة أعوام إذا تكللت بالنجاح فأنتَ مؤيد لها، وإذا ما أخفقت، فلستَ مسؤولاً عنها. أنتَ رجل مثقف تحيا في ما نود أن نسميه ديمقراطية ناضجة، وحكومتنا تأخذنا الى الحرب. إذا كنتَ تعتقد إن تلك فكرة سديدة، حسن، لنقل هكذا، ناقش المسألة، إنما لا تعطِ جواباً قاطعاً عن رهاناتك. هل نرسل جنودنا الى الحرب أم لا ؟ المسألة تحدث الآن. وإن وضع التخمينات المتعلقة بالحرب هو ما تفعله أنتَ غالباً حين تحدد خياراً أخلاقياً. يُدعى هذا: التفكير من خلال النتائج. أنا ضد هذه الحرب لأنني أحسب أن أشياءً رهيبةً ستحدث. يبدو أنكَ تظن أن إرادةً جيدةً ستسفر عنها، لكنك لن تستمر في ظنك هذا.))

راح يفكر، ويقول، ((إنه شيء حقيقي. أعتقد بأمانة أنني ربما أكون مخطئاً.))

هذا الاعتراف، وسلوكه المرن، جعلها أكثر غضباً. ((إذاً لماذا تخاطر؟ أين هو المبدأ التحذيري الذي ثابرتَ عليه دوماً ؟ إذا كنت ترسل مئات الآلاف من الجنود الى الشرق الأوسط، فالافضل لك أن تعرف ما الذي أنتَ فاعله. وهؤلاء الحمقى المتبجحون الجشعون في [البيت الأبيض] لا يعرفون ما الذي يفعلونه، فليست لديهم أدنى فكرة عن الوجهة التي يقودوننا إليها، ولا أعتقد إنكَ تقف الى جانبهم.))

يسائل بيروني نفسه ما إذا كانا يتحدثان حقيقةً عن شيء مختلف. تعبيرها [جد نموذجي] ما يزال يزعجه. أغلب الظن الشهور التي قضتها في باريس منحتها الوقت الكافي كي تكتشف وجهات نظر طازجة عن والدها، ولم تكن تحبذها. يبعد الفكرة عن باله. إنه أمر جيد، إنه شيء صحي أن يكون لديهما واحد من نقاشاتهما القديمة، نقاشات الرأس بالرأس، إنها الحياة العائلية تُستأنف. وإن ما يجري في العالم يهمهما. معاً يريح نفسه على واحد من (الستولات) العالية عند الجزيرة الوسطى، ويومئ لها أن تحذو حذوه. تتجاهله وتبقى واقفةً عند الباب، ذراعاها ما تزالان متقاطعتين، ووجهها ما يزال مقفلاً. لا ينفع أن يصبح هو أهدأ وتغدو هي أكثر إهتياجاً، غير أن هذه عادته، المترسخة مهنياً.

((انظري ديزي، إذا كان الأمر بيدي، أولئك الجنود لن يكونوا على حدود العراق. قلما يكون هذا أفضل زمن لـ [الغرب] كي يشن حرباً مع أمة العرب. وليس ثمة خطة في المشهد لصالح الفلسطينيين. غير أن الحرب ستقع لا محالة، مع [الأمم المتحدة] أو

من دونها، مهما تقول هذه الحكومة أو تلك، وعلى الرغم من المظاهرات الجماهيرية الحاشدة هنا وهناك. الأسلحة المخبأة، سواء كانت موجودة أم لا، ليس لها صلة بالموضوع. الغزو سيحدث، والجيش مرغم على تحقيق النجاح. ستكون نهاية صدام ونهاية واحد من أكثر الأنظمة الكريهة التي عرفها البشر من قبل، وسأكون سعيداً بذلك.))

((إذاً العراقيون الاعتياديون نالوا عقوبةً من صدام، أما الآن فينبغي لهم أن ينالوها من الصواريخ الأمريكية، لكنه شيء رائع بكل معنى الكلمة لأنك ستكون سعيداً.))

لم يميز الفظاظة البلاغية، الصوت الأجش في حنجرتها. يقول، ((استمري))، لكنها لم تسمعه.

((هل تعتقد إننا سنكون في وضع أكثر أماناً بعد نهاية هذا كله ؟ سوف نكون مكروهين عبر العالم العربي برمته. كل أولئك الشبان الضجرين سوف يصطفون في أرتال كي يصبحوا إرهابيين...))

((فات الأوان كي نهتم بهذا الشأن))، يقول مقاطعاً إياها. ((مائة ألف مقاتل مروا عبر معسكرات التدريب الأفغانية. في الأقل عليك أن تكوني سعيدةً لأن ذلك وصل الى نهايةٍ ما.))

في ما كان يقول ذلك، يتذكر أنها حقيقةً كانت كذلك، وكونها إشمأزت من (طالبان) الباعثة على الغم، وجعل يسائل نفسه لماذا يقاطعها، مجادلاً إياها، بدلاً من أن يستنبط وجهات

نظرها وبصورة حنونة يلحق بها. لماذا يكون مناوئاً ؟ لأنه هو نفسه معذّب، ثمة سم في دمه، على الرغم من نبرته الرقيقة ؛ وإن الخوف والغضب، يضيقان أفكاره، جاعلين منه يتوق الى الشجار. لنترك هذا الموضوع ! إنهما يتشاجران على جيوش لن يروها ابداً، ولا يعرفان عنها شيئاً قط.

((سيكون هناك عدد أكبر من المحاربين))، تقول ديزي. ((وحين يضرب أول انفجار لندن فإن وجهات نظرك المؤيدة للحرب...))

((اذا كنت تصفين موقفي مؤيداً للحرب، عندئذ يلزمك أن تتقبلي أن موقفك مؤيد لـ صدام بصورة فعالة.))

((أي هراء لعين هذا.))

في ما كانت تشتم يشعر بجيشان مباغت في كينونته، تحفزها (أي كينونته) جزئياً الدهشة بأن حوارهما يتحرك خارج السيطرة، ويحفزها كذلك ابتهاج طائش مفعم بالحياة، انعتاق من الاكتئاب الذي أُبتلي به على مدى ساعات اليوم. تلاشى اللون من وجه ديزي والنمش القليل الذي كانت تملكه على امتداد عظم وجنتها فجأةً أصبح حيوياً في حصتها من برك الاضاءة النازلة في مطبخ السرداب. وجهها الذي يكون في مظهر مازح بصورة نموذجية في الحوارات، يواجهه الآن بوهج ثابت من الغضب.

على الرغم من الانتقال المفاجئ في احساسه، يبدو هادئاً وهو ياخذ جرعةً من الشمبانيا ويقول، ((ما عنيته هو ما يلي. إن ثمن

إزالـة صـدام هـو الحـرب، وثمـن عـدم شـن الحـرب هـو إبقـاؤه في السلطة.))

كانت فحوى كلامه غاية استرضائية، إلا أن ديزي لم تسمعها بتلك الطريقـة. ((انـه شـيء فـج، وقبيـح))، تقـول، ((حـين يـدعونا [الوبي] الحرب كوننا مؤيدين لـ صدام.))

((حسن، أنـتِ مـستعدة لأن تفعلـي شـيئاً واحـداً يفـضل هـو أن تقومي به، هو أن تتركيه في السلطة. إلا إنكِ لن تفعلي شيئاً سوى تأجيل المواجهة. هو أو نجلاه الرهيبان سوف يتم التعامل معهم ذات يوم. حتى كلينتون عرف ذلك.))

((أنتَ تقول إننا نغزو العراق لأن لـيس أمامنـا خيـار آخـر. بابـا، انني مندهشة من الـهراء الذي تتحدث به. انتَ تعـرف جيـداً هـؤلاء المتطرفين، المحتالين الجدد الذين هيمنـوا علـى أمريكـا. تـشيني، رامسفليد، وولـويتز. كـان العـراق علـى الـدوام مـشروعهم الأثـير. كـان التاسـع من أيلول فرصتهم الـكبيرة كـي يجعلوا بوش يتكلم. انظر الى سياسته الخارجيـة حتـى الآن. كـان فـأراً جـاهلاً مـلازماً بيتـه. لكـن لـيس ثمـة شـيء يـربط العـراق بالتاسـع مـن أيلـول، أو بـ(القاعدة) عموماً، ولـيس ثمـة دليـل مـروّع فعـلاً لـ أسلحة الـدمار الشامل. ألم تسمع بليكس أمس ؟ ألم يخطر ببالـك قبلاً إننـا في مهاجمتنا العراق نفعل الشيء عينه الذي أردنا أن نفعله أولئك الذين قـذفوا نيويـورك بالقنابـل – نـسلقهم بألـسنة حـداد، نخلـق أعـداءً أكثـر في البلـدان العربيـة ونجعـل الإسـلام متطرفـاً. لـيس ذلـك

حسب، نخلّصهم من عدوهم القديم، الطاغية الستاليني الكافر.))

((وفي اعتقادي إنهم يريدوننا أن ندمر معسكراتهم التدريبية ونخرج (طالبان) بالقوة من افغانستان، ونجبر بن لادن على الهرب، ونعطل شبكاتهم المالية ونحجز مئات من رجالهم الرئيسيين...))

تقاطعه وبصوت عالٍ تقول: ((توقف عن تحريف كلماتي. لا أحد يقف ضد ملاحقة [القاعدة]. نحن نتحدث عن العراق. لماذا كل أولئك الناس القليلين ممن التقيت بهم الذين كانوا ضد هذه الحرب الهرائية، اللامجدية كانوا كلهم فوق الأربعين ؟ ماذا بشأن أن تغدو متقدماً في السن ؟ ألا يمكنك أن تقترب من الموت في وقتٍ عاجل بدرجة كافية ؟))

يشعر بحزن مباغت، وبلهفةٍ الى إنهاء هذه المناقشة. آثر انهاء المناقشة منذ عشر دقائق خلت، حين أخبرته انها تكنْ له الحب. حتى الآن لم تره (البروفات) الطباعية لـ[مركبي الأنيق] والعمل الفني للغلاف.

لكنه لم يستطع أن يوقف نفسه. ((الموت في كل حدب وصوب))، يؤيدها. ((اسألي معذبي صدام في سجن [أبو غريب] والمائتي ألف نزيلاً فيه. ودعيني أطرح عليكِ سؤالاً. لماذا لا يوجد بين أولئك المليوني مثالي اليوم لم أرَ شعاراً واحداً، قبضةً واحدةً أو صوتاً واحداً ارتفع ؟ [أو ارتفعت] ضد صدام ؟))

((انه كريه))، تقول. ((الاحتجاج محدد ضد الحرب.))

((لا ليس كذلك. إنه منسي. لماذا أنتم بخلاف ذلك تغنون وترقصون في المتنزه ؟ الابادة الجماعية والتعذيب، المقابر الجماعية، جهاز الأمن، الدولة الشمولية المجرمة. الجيل الحالي لا يريد أن يعرف. لا تدع شيئاً يحول بينهم وبين اشتراكهم النشوان في النوادي والسفر الرخيص في الطائرات وتلفاز الواقع. لكن ذلك سيحصل، ان لم نفعل شيئاً. أنتِ تحسبين إنكم جميعاً محبوبون ووديعون وبريئون، إلا أن النازيين الورعين يكرهونكم. ماذا تعتقدين بشأن هدف قذف (بالي) بالقنابل ؟ أصحاب الهراوات ضَربوا بالهراوات. الاسلام المتطرف يكره حريتكم.))

تُقلد دور من أُخذ على حين غرة. ((أبتاه، إني متأسفة انتَ حساس جداً في ما يتعلق بعمرك. غير ان تفجير [بالي] كان من عمل [القاعدة]، وليس صدام. لا شيءَ مما قلته يبرر غزو العراق.))

كان بيروني قد احتسى جزءاً كبيراً من كأسه الثالثة من الشمبانيا. غلطة كبرى. هو ليس بالسكير المتمرس. إلا انه سعيد بصورة وحشية. ((ليس العراق وحده. انني أتحدث عن دول عديدة في الشرق الأوسط، صف عريض من الكبت، الفساد والتعاسة. تكادين أن تصبحي مؤلفة ذات كتاب منشور. لماذا لا تجعلين ذلك يقلقك قليلاً، الرقابة، وزملاؤك الكتاب في السجون العربية، في المنطقة عينها التي أُخترعتْ فيها الكتابة ؟ أم أَن الحرية وعدم كوننا معذبين هو تصنع [غربي] ينبغي لنا أن لا نفرضه على الآخرين ؟))

((أوه في سبيل الله، دعك من ذلك الموضوع النسبي. وانتَ ما تزال تحيد عن المسألة. لا أحد يرغب أن يودع الكتاب العرب في المعتقلات. غير ان إجتياح العراق لن يساعد في إطلاق سراحهم.))

((ربما. هنا ثمة فرصة في أن نغير بلداً واحداً. ازرعي بذرةً. شاهدي ما إذا تزهر وتنتشر.))

((لا يمكنك أن تزرع البذور مع صواريخ [الكروز]. سوف يكرهون الغزاة. المتطرفون الورعون سيغدون أقوى. ستكون الحرية أقل، ومزيد من الكتاب سوف يتم زجهم في المعتقل.))

((أراهن إنه بعد الغزو بثلاثة شهور ستكون هناك صحافة حرة في العراق، وشبكة (انترنيت) غير خاضعة للرقابة، الاصلاحيون في ايران سوف يتم تشجيعهم، أولئك الحكام في دول الشرق الأوسط سوف يصابون باهتياج عصبي بالغ.))

تقول ديزي، ((رائع. وانا أراهن بأنه ستكون هناك فوضى وحتى أنت ستتمنى أن الحرب لم تحصلْ.))

كانت لهما رهانات مختلفة بشأن المناقشات التي جرت في أثناء سنوات مراهقتها، كانت تنتهي عموماً بمصافحة رسمية – زائفة. وجد بيروني طريقةً في التسديد، حتى حين كان يكسب الرهان – وهو شكل من أشكال الإعالة المالية المخفية. بعد أن كانت إجابتها سيئةً على ما يبدو في أحد الامتحانات، راهنت ديزي ذات السبعة عشر ربيعاً بغضب بعشرين باوناً في عدم قدرتها على دخول جامعة اكسفورد. كي يبهجها رفع مبلغ الصفقة من جانبه الى

خمسمائة، وحين تحقق قبولها في الجامعة أنفقت المال في رحلة الى فلورنسا مع صديق. هل هي في مزاج ملائم للمصالحة الآن ؟ تبتعد عن الباب، تسترجع كأس الشمبانيا الخاصة بها وتتحرك الى الجانب البعيد من المطبخ وتبدو مولعةً بأقراص ثيو الليزرية عند (الهاي فاي). أدارت له ظهرها بثبات. يبقى هو على (ستوله) في الجزيرة الوسطى، يلهو مع كأسه، ولم يعد يفكر. كان له إحساس حقيقي ناجم عن مناقشته فقط نصف ما يشعر به. هو حمامة مع جي شتراوس، وصقر مع ابنته. ما هو المعنى الذي يخلقه ؟ وكم هو شيء مترف، أن يستنبط كلياً في البيت، في المطبخ تحديداً، التغييرات السياسية الطبيعية (الجيوبوليتيكية) والستراتيجية العسكرية، ولا يبقيها في نظر الاعتبار، من خلال الناخبين، الصحف، الأصدقاء، التاريخ. حينما لا تكون هناك عواقب، فكونك على خطأ هو تسلية ممتعة.

تأخذ قرصاً ليزرياً من علبته وتضعه في موضعه في جهاز التشغيل. راح ينتظر، عارفاً بأنه سينال مفتاحاً الى مزاجها، أو حتى رسالةً. ابتسم لدى سماعه المقدمة الموسيقية المعزوفة على البيانو. إنه تسجيل جلبه ثيو الى البيت منذ سنوات خلت، عازف البيانو القديم لـ جوك بيري، وهو جوني جونسون، منشداً ((تانكويري))، وهي اغاني بلوز مترهلة، عن اجتماع الشمل والصداقة.

حدث هذا منذ أمد بعيد،

لكنني عرفت أنني سأرى اليوم،

الـــــذي نجلـــــس فيـــــه أنـــــا وأنـــــت،
ونحتـــــسي كأســـــاً مـــــن (التـــــانكويري)

تلتفت وتأتي إليه جارة قدميها برقصة صغيرة. حين تصبح الى جنبه يأخذ يدها.

تقول، ((رائحتك أشبه برائحة مثير الحرب القديم وهو يطهو أحد أسماكه بالغلي البطيء. هل أستطيع أن أكون مفيدة ؟))

((المهدئة اليافعة يمكنها أن تصف المائدة. واعملي توابل السلطة إن شئتِ.))

كانت في طريقها الى جرار الصحون حين سمعا جرس الباب، نغمتين غير ثابتتين أطول مما ينبغي. تطلع كل منهما في وجه الآخر، إنه غير واعد ذلك النوع من الالحاح.

يقول، ((قبل أن تعملي ذلك، قشري الليمون. الجن هناك، المقوي في الثلاجة.))

تسلى بتدويرها عينيها بحركة مسرحية وبانفاسها العميقة.

((هو ذا آتٍ.))

((امكثي في مكانكِ))، ينصحها، ويصعد درجات السلم كي يرحب بوالد زوجته، الشاعر البارز.

مترعرعاً في الضواحي في عزلةٍ تقاسمها في حميمية مع أمه، لم يشعر هنري بيروني بفقدان أب. في العوائل التي تسكن من حوله في عقارات مرتهنة (بفتح الهاء)، كان الآباء بعيدين، شخصيات

أنهكها العمل ذوات شغف قليل بصورةٍ واضحةٍ بالنسبة لطفل، كانت الحياة العائلية في (بيريفيل) في منتصف عقد الستينيات منظمة بصورةٍ فريدةٍ من قبل أم، ربة بيت، يزور منزل صديقٍ له كي يلهو في نهايات الأسابيع أو العطل، إنكَ تدخل مملكتها، أنت تحيا مؤقتاً على قواعدها. كانت من الطراز الذي يمنح الإذن أو يمتنع عنه، أو الذي كان يسلمه باليد ((فكة النقود)). لم يكنْ له سبب جيد كي يحسد أصدقاءه على أب اضافي – حينما لا يكون الآباء غائبين، يبدون سريعي الغضب بصورة مغالى فيها، يمنعون العناصر الأفضل، الأخطر في الحياة بدلاً من أن يمكنوها. في سنوات مراهقته، حينما كان ينعم النظر في الصور الفوتوغرافية الموجودة القلائل لوالده، كان ذلك نرجسيةً أكثر مما هو اشتياق – كان يأمل أن يكتشف في تلك الملامح القوية، الخالية من حب الشباب بشير بنجاح لفرصه المستقبلية مع الفتيات. كان يريد الوجه، لكنه لا يريد النصيحة، الرفض، أو الأحكام. لعله كان مرغماً على أن يعد والد الزوجة بوصفه عبئاً ثقيلاً، حتى إذا كسب أحداً أقل مهابةً من جون غراماتيكوس بكثير.

مباشرةً منذ لقائهما الأول في سنة ١٩٨٢ حين وصل الى البيت الريفي الضخم بعد أن أكمل جماعه مع روزاليند في سرير في جدار معدّية (بلباو)، قرر رئيس الأطباء المقيمين بيروني ان لا يتم التفضل عليه، أن لا تتم معاملته مثل ابنٍ محتمل. كان رجلاً بالغاً ذا مهارات خاصة تستطيع أن تقف جنباً الى جنب مع مهارات أي شاعر. من خلال روزاليند، عرف عن (جبل فوجي)، أكثر قصائد

غراماتيكوس التي تم نشرها في المنتخبات الشعرية، إلا إن هنري لا يقرأ الشعر وقال ذلك من دون خجل في أثناء وجبة العشاء في تلك الليلة الأولى. حينذاك كان جون قد تغلغل عميقاً في قصيدته [ما من جنازة] – آخر حقبه الزمنية الطويلة الخلاقة كما ثبت في النهاية – وما لم يقرأه طبيب أدنى منزلةً في وقت فراغه أخفق في إثارة إهتمامه. كما لم يبدُ أنه يبالي أو حتى يلاحظ، في ما بعد حين كان (السكوتش) على المائدة، الطبيب نفسه لم يؤيده في ما يتعلق بالسياسة – كان غراماتيكوس نصيراً مبكراً للسيدة تاتشر – أو بالموسيقى – (البيبوب) خانت الجاز – أو الطبيعة الحقيقية للجاز الفرنسي – الذي كان فاسداً بالنسبة لأي إنسان.

قالت روزاليند صباح اليوم التالي أن هنري بذل مجهوداً كبيراً كي يسترعي إنتباه الرجل العجوز – على العكس مما قصده، وهي ملاحظة مسخطة جداً. لكنه مع ذلك كف عن أن يكون مولعاً بالجدل، لم يتغير الكثير بينهما بعد تلك الأمسية الأولى، وحتى بعد الزواج، وإنجاب الأولاد، وانقضاء أكثر من عقدين من الزمن. يحافظ بيروني على مسافةٍ معينة بينه وبين والد زوجته، وغراماتيكوس سعيد بهذا النظام، وينظر مباشرةً من خلال زوج ابنته الى ابنته، والى حفيديه. الرجلان تربطهما صلة صداقة سطحية وفي عمق كان كل منهما يشعر بالضجر من الآخر. لا يستطيع بيروني أن يفهم كيف أن الشعر – بوصفه عملاً منظوماً لمناسبة خاصة، كجني الكروم – يستطيع أن يشغل حياةً عمليةً كاملةً، أو كيف أن صرح شهرة أو إحترام الذات كهذا يمكن

ان يتكئ على شيء صغير جداً، ولماذا يتوجب على المرء أن يعتقد أن شاعراً مخموراً يختلف عن أي مخمور آخر، في حين أن غراماتيكوس – هكذا يحدث بيروني – يعدّه حِرفياً آخر، طبيباً غير مثقف ومضجراً، صنفاً من الرجال والنساء يرتاب فيه أكثر طالما أن اعتماده عليه ينمو مع العمر.

ثمة مسألة أخرى، بطبيعة الحال لم تتم مناقشتها. المنزل الواقع في الساحة، كالبيت الريفي الضخم، أصبح من نصيب ماريان، أم روزاليند، من خلال إرث والديها. حين تزوجت غراماتيكوس، أصبح المنزل اللندني بيت الأسرة حيث ترعرعت روزاليند وشقيقها. حين توفيت ماريان في حادث مروري، كانت تعابير وصيتها واضحةً – المنزل اللندني يصبح من نصيب الأولاد، أما البيت الريفي الضخم في (سانت فيلكس) فيصبح من نصيب جون. بعد زواجهما بأربع سنوات، سكنت فيها روزاليند وهنري في شقة صغيرة جداً في (آرج وي)، رفعت المبلغ المراهن به كي تشتري حصة أخيها الذي كان يريد شقةً في نيويورك. كان يوماً مبهجاً حين انتقل بيروني وزوجته وطفليهما الصغيرين الى المنزل الكبير. هذه الصفقات المتنوعة تم القيام بها من دون حقد. غير أن غراماتيكوس يميل الى أن يتصرف في أثناء زياراته التي كانت تحدث في مناسبات معينة كما لو أنه يعود الى البيت، كما لو أنه مالك أرض متغيب يرحب بمستأجري أراضيه، مدافعاً عن حقوقه. أو أغلب الظن هنري حساس جداً، كونه لا يملك موضعاً في عرفه لشخصية أب. كل واحدة من الحالتين ضايقته ؛ يفضل هو أن يرى والد زوجته، في أية

حال، في فرنسا.

وهو يمضي الى الباب الأمامي، يذكّر بيروني نفسه، بشأن الاستعداد لاحتساء الشمبانيا، كي يبقي مشاعره مخفيةً بصورةٍ جيدة ؛ إن هدف الأمسية هو تسوية الخلاف بين ديزي وجدها، بعد مرور ثلاث سنوات على ما أسماه ثيو، على شرف الأشياء المثيرة المتنوعة، ((رفض جائزة الـ نيودغيت)). كانت تريد أن تريه (البروفات) الطباعية وكان الرجل العجوز يريد أن يدّعي عن حق بدوره في نجاحها. عند تلك الفكرة الجيدة يفتح الباب ليرى غراماتيكوس على مبعدة بضعة أقدام، واقفاً في الطريق، بمعطف صوف طويل ذي حزام، قبعة لباد وخيزرانة، رأسه مائل الى الخلف، تقاسيمه الجانبية لُمحت في الضوء الأبيض الفاتر المنسكب من مصابيح الساحة. في الغلب كان يتوضع من أجل ديزي.

((آ هنري))، يقول – خيبة الأمل في الالتواء الى السفل – ((كنتُ أنظر الى البرج...))

لم يغير غراماتيكوس وضعه، لذا هنري وبصورةٍ لطيفة يخطو الى الخارج لينضم إليه.

((أحاول أن أره))، يتابع كلامه، ((عبر عينيّ روبرت آدم، حين كان يصمم الساحة، مسائلاً نفسه ما الذي سيصنعه منها. ماذا تعتقد؟))

كان البرج يرتفع فوق اشجار الدلب في الحدائق الوسيطة،

خلف الواجهة التي أُعيد انشاؤها في الناحية الجنوبية ؛ نُصب عالياً على الساق ذي الألواح الزجاجية، ست منصات مكدّسة دائرية الشكل تحمل صحونها العملاقة، وفوقها، تشكيلة من الدواليب أو الأكمام السمينة مقيدة في داخلها هندسة المصابيح اللاصفة. ليلاً، يكون كوكب (عطارد) الراقص لمسةً هازلةً. في سنوات صباه إعتاد ثيو أن يسأل ما إذا سيضرب البرج المنزل إذا ما سقط في إتجاههم، وكان يُسر دوماً يخبره والده إنه من المؤكد جداً أنه سينهال. بما أن بيروني وغراماتيكوس حتى الآن لم يحييا أو يصافحا أحدهما الآخر، كان حوارهما قد تحرر، مثل تبادل الآراء في حجرة التحادث من دون كلفة.

بيروني، المضيف اللطيف، ينضم الى اللعبة. ((حسن، لعله تبنى وجهة نظر مهندس. كل ذلك الزجاج، والعلو غير المسند، أذهلاه. وكذلك الضوء الكهربائي. لعله فكر بالبرج بوصفه ماكينة أكثر مما هو مبنى.))

يشير غراماتيكوس أن هذا ليس هو الجواب على الاطلاق. ((الحقيقة هي، كان تشابهه الجزئي الوحيد في نهاية القرن الثامن عشر هو برج كاتدرائية. كان مرغماً على التفكير به بوصفه مبنىً دينياً من نوع ما – لماذا توجب عليه أن يجعل المبنى عالياً جداً؟ توّجب عليه أن يفترض أن تينك الصحون زينية، أو أُستخدمتْ في الشعائر. دين المستقبل))

((في تلكم الحالة، ليس ذلك بالأمر المستبعد.))

يرفع غراماتيكوس صوته كي يرد عليه. ((إكراماً للباري، أيها الرجل. انظر الى تناسبات تلك الأعمدة، والنحت في تلك التيجان !)) هو ذا الآن يخز خيزرانته صوب واجهة المبنى في الجهة الشرقية من الساحة. ((ثمة جمال يقدمه لك. ثمة معرفة الذات.. عالم مختلف، وعي مختلف. كان آدم سيصاب بالذهول بسبب قبح ذلك الشيء الزجاجي. ما من معيار إنساني. القمة ثقيلة. ما من تناسق، ما من دفء. كان سيزرع الخوف في فؤاده. كان سيحدث نفسه قائلاً، إذا كان هذا سيصبح ديننا، إذاً سنكون ملعونين حقيقةً.))

كان المشهد الذي يريانه الخاص بالأعمدة الجيورجية لواجهة المبنى في ناحية الشرق يتضمن في الطليعة شخصيتين آدميتين على مصطبة تبعد نحو مائة قدم ترتديان سترتين جلديتين وقلنسوتي بحارين[٥] من الصوف. كانا يديران ظهريهما وكانا يجلسان قريبين من أحدهما الآخر، مقوسين جذعيهما الى الأمام، بحيث أن بيروني يخمن أن إتفاقاً ما يجري حالياً. لماذا توجب عليهما أن يجلسا هنا بتصميم في ليلٍ شباطي بارد ؟ يستبد به نفاد صبر مفاجئ ؛ قبل أن يتمكن غراماتيكوس من أن يستمر في لعن الحضارة التي يتقاسمانها، أو الابتهاج ابتهاجاً شديداً بحضارة أُخرى بعيدة جداً عن متناولهما، يقول: ((ديزي في انتظارك. إنها تهيئ لك كأساً قويةً.)) يأخذ مرفق والد زوجته ويدفعه بوداعة في اتجاه الباب المفتوح، الواسع المضاء بصورة ساطعة. كان جون في مرحلته الصريحة، الرقيقة نسبياً وما كان ينبغي لـ ديزي أن تتجو

منها. تسوية الخلاف لن تكون موضوعاً للمراحل المتأخرة.

يأخذ معطف زوجته، العصا والقبعة، يدلّه على حجرة الجلوس ويذهب لاستدعاء ديزي. كانت الآن في طريقها الى الأعلى وهي تحمل صينية – زجاجة جديدة من الشمبانيا جيدة شأنها شأن الزجاجة القديمة، الجن، الليمون، كأسان اضافيتان لـ روزاليند وثيو، وبندق في الطاس المصبوغ الذي عادت به من رحلة طلابية الى تشيلي. حين ألقت عليه نظرة استفهام أظهر وجهاً مبتهجاً: سيكون الأمر رائعاً. ظانةً أنها هي وجدها مجبران على العناق، يأخذ الصينية ويتبعها الى الداخل. إلا أن غراماتيكوس، الواقف في وسط الحجرة، يسحب نفسه بصورة رسمية نوعاً، وتتراجع ديزي. لعله ذُهل بسبب جمالها، كما ذُهل هنري نفسه؛ أو صُعق بحميميتها. مضى كل منهما نحو الآخر متمتمين على التوالي، ((ديزي.. جدي))، يتصافحان، وبعدها، بواسطة اتفاق فرضته حركة بدنيهما التي لم يكن بوسعهما أن يقاوماها ما إن بدأت، راحا يقبلان خدي أحدهما الآخر بصورةٍ غير بارعة.

يضع هنري الصينية ويمزج الجن مع المقوي. ((هو ذا أنتَ))، يقول ((دعنا نرفع كأساً. نخب الشعر.))

يلاحظ ان يد الرجل العجوز ترتجف بينما هو يأخذ كأسه. رافعين كأسيهما، مهمهمين أو مطلقين صوتاً كصوت الخنزير من دون أن يكررا تماماً الكلمات التي فقط مجبر العظام لا يحق له أن يطلقها، ديزي وجدها يشربان كأسيهما.

يقول له غراماتيكوس، ((هي أشبه بـ ماريان حين التقيتها أول مرة.))

يلاحظ بيروني، أن عينيه ليستا نديتين كما كانت عيناه هو، على الرغم من العاطفة وتقلبات المزاج، ثمة شيء تم التحكم به وواقع وراء المتناول، وحتى فولاذي يخص غراماتيكوس. كانت له طريقة ما في الابحار عبر اللقاءات غير المتوقعة، في أن يكون متغطرساً، حتى في العشرة الحميمة. على وفق ما قالته روزاليند، في زمن بعيد جداً، إبان ثلاثينياته، أظهر سلوك كبير السن والعظيم، في عدم الاكتراث بما يفكر به الانسان، أي انسان.

تقول له ديزي، ((تبدو معافى بإفراط.))

يضع يده على ذراعها. ((أعدتُ قراءة جميع القصائد في الفندق في ما بعد ظهيرة هذا اليوم. ديزي، إنها مذهلة بصورةٍ لا ترحم. ليس ثمة أحد مثلك.)) يشرب من جديد ويقتبس برتابة فضولية.

مـركبي[٦] الأنيـق، أدنـى منزلـةً مـن مركبـه
في بحـــرك العـــريض يظهـــر بجـــرأة.

كانت عيناه تومضان، وكان يضايقها بالطريقة التي إعتاد عليها. ((الآن كوني نزيهةً. من هو الشاعر الآخر الذي يملك موهبةً بحجم سفينة شراعية ضخمة ؟))

كان غراماتيكوس يبحث عن الثناء الذي يظن أنه يجب أن يكون له بحق. ما يزال الوقت مبكراً جداً في المساء. كان يمضي

سريعاً جداً. من الممكن تماماً أن ديزي أهدتْ كتابها الى جدها، مع أن بيروني له هموم في ما يتعلق بذلك. وهو السبب الآخر الذي جعله يرغب برؤية (البروفات) الطباعية.

كانت ديزي مشوشة الذهن. راحت تتحدث، وتغير فكرتها، ومن ثم تقول عبر بسمة متكلفة، ((عليك فقط أن تنتظر وترى.))

((بطبيعة الحال، شكسبير لا يعتقد حقيقةً أنه زورق إبحار صغير وسط المنافسة الملائمة لسفر في المحيطات. كان يجريها، كونه ساخراً، لذا من المحتمل إنكِ على غراره، يا فتاتي العزيزة.))

هي مترددة، مرتبكة، تكافح من أجل إتخاذ قرار. كانت تتخفى وراء كأسها المرفوعة. ثم تضعها على الطاولة وتبدو كما لو أنها حسمتْ رأيها.

((جدي، ليس ! يظهر بجرأة !.))

((بالطبع هو كذلك. فقد لقنتكِ تلك السونيتة[٧]))

((أعرف إنك فعلتَ. إنما كيف ينطبق البيت على موازين العروض[٨] مع كلمة !بجرأة!؟ إنه ! في بحرك العريض يظهر بمناد!.))

ببساطة تختفي الحركة السريعة في عيني غراماتيكوس. نظرته الثابتة تستقر على حفيدته، وتبادله هي النظر، كما كانت تفعل مع والدها في المطبخ. كانت تتكلم بروح الخيانة، وكانت تتحمل موقفها. بالنسبة لـ هنري كلمة (سكان scan) تُحدث ذكرى غير مرغوب بها، وخز قلق العمل المتعلق بمائة

وتسعين الف باون وهو المبلغ الذي نقصت فيه الموارد المالية لـ (التروست) التي ادخرها لشراء جهاز رنين مغناطيسي أكثر فاعلية. كتب المذكرات، وحضر الاجتماعات كلها، هل يوجد ثمة شيء آخر. ينبغي له أن يفعله؟ ربما يلزمه أن يبعث رسالةً بالبريد الالكتروني. في ما يتعلق بالـ سكانينغ Scanning، هو ليس في المنزلة التي تجعله يقول أن [بعناد] أفضل من [بجرأة].

يقول غراماتيكوس، ((حسن. هي ذي أنت. هذا التعبير لا ينطبق. كيف تم ذلك ؟ هنري، كيف هي الأمور في المستشفى ؟))

في حقبةٍ زمنية تزيد على عشرين عاماً لم يسأل عن المستشفى، ولم يكن هنري يسمح أن لا يتم الاكتراث بابنته. في الوقت نفسه، إنه شيء عجيب: مرت ثلاث سنوات وهذان الاثنان ما يزالان يتشاجران في الدقيقة.

يعطي هو انطباعاً مقبولاً ظاهرياً بكونه مُسلى وهو يقول بلامبالاة الى غراماتيكوس، ((ذاكرتي الشخصية تطلق من غير انقطاع خدعاً أسوأ بكثير من تلك.)) بعدها يلتفت الى ديزي. كانت قد تراجعتْ خطوةً وبدت كما لو أنها ربما كانت تفتش عن عذر لمغادرة الحجرة. صمم أن يبقيها هناك.

((أوضح لي هذا. كيف أن [بعناد] تنسجم مع الوزن و [بجرأة] لا تنسجم ؟))

هي ودية تماماً، تشرح حقائق الحياة لوالدها، وتصقلها لـ غراماتيكوس.

((في ابحرك العريض يظهر بعنادا[٩] خمس تفعيلات، خمس عمبقات[١٠]. كما تعرف تي – توم، ضعيف قوي. هناك دوماً خمس تفعيلات في بيت شعر من هذا النوع. ابجرأةا[١١] تترك ضربةً قصيرةً وهي لا تبدو صحيحةً.))

في أثناء حديثها كان غراماتيكوس يخفض نفسه على واحدة من كنبات الجلد مع تأوه جليّ يحجب جزئياً كلماتها الختامية.

يقول: ((لا تكوني صلبةً جداً على رجل عجوز. الم يكن ذلك حلماً، رقدتُ يقظةً تماماً]. هناك كثير من الأبيات الشعرية القصيرة عند شكسبير، دزينات منها في السونيتات. لو كتب [بجرأة]، لكنا [نجعل] الشخص التافه يوزن الكلمة.))

((ويات[١٢] ذاك الذي لا يرحم))، تتمتم ديزي على مسمع من الرجل العجوز.

يتطلع بيروني إليها ويرفع إصبعاً خفيةً. كسبت نقطتها وهي يقيناً تعرف أنها ستجعل جدها يقول الكلمة الأخيرة. ما لم ترغب بأن تواصل القتال حتى العشاء، وبعده.

((أعتقد إنك محق. سوف نتناقش في الأمر. جدي، أترغب بمزيد من الجن؟)) لم يكن في صوتها حرف مسموع.

يمرر غراماتيكوس كأسه إليها. ((سأقوم بإعداد المقوي بنفسي.))

حين تم فعل ذلك، سمحت ديزي لدقائق قلائل بأن تمر كي يقضي الصمت على تأثير ما قبله، ثم راحت تهمهم لوالدها،

((سأذهب وأكمل اعداد المائدة.))

ربما كان هنري جد مشغول البال، أو جد نافد الصبر، كي يقوم بالمهنة الكريمة لإجتماع الشمل هذا. هل يهم هذا؟ إذا كانت ديزي قد تخلصت من معلم خصوصي آخر في حياتها، ما الذي من المفروض أن يقوم به في ما يتعلق بذلك؟ حصل تغيير في شخصها لا يستطيع أن يفهمه، إهتياج معين يستمر في التلاشي متحوّلاً الى هدوء طبع، وهي درجة الاستعداد للقتال التي ترتفع وتتراجع. وهو لا يود أن يُترك وحيداً يحتسي الشراب مع والد زوجته. هو يتوق لوصول روزاليند الى البيت بكل مهاراتها البيتية – مهارات الأم، الابنة، الزوجة، المحامية.

يخاطب ديزي قائلاً: ((أحب أن أرى نسخة هذه [البروفة] الطباعية.))

((حسن.))

يجلس بيروني على الكنبة الأخرى، مواجهاً غراماتيكوس عبر الطاولة ذات الندوب، المصقولة الـ thakat ويدفع البندق نحوه. يرهفان السمع لشتمها الرقيق في ما هي تنقب في صرتها الظهرية في الرواق. لا يستطيع أي من الرجلين أن ينزعج بحديث قصير. حتى إذا استطاعا أن يؤيدا موضوع الكلام الجدير بالاهتمام، فإن أياً منهما لن يكون له أي شغف في رأي الآخر. لذا بقيا في صمتٍ دال على الرضا. جالساً بصورةٍ مريحة أول مرة منذ دخوله المنزل، قدماه تحررتا بابتهاج من ثقله، تسارع مزاجه بفعل النبيذ وثلاث كؤوس

من الشمبانيا على معدة خالية، سمعه ما يزال معطلاً بصورةٍ قليلةٍ بفعل فرقة ثيو، فخذاه يؤلمانه ثانيةً من جراء (السكواش)، بيروني يسلم نفسه الى موجةٍ وديعةٍ من الانفصال العقلي. لا شيء يهم كثيراً. أياً كانت هذه الأشياء التي تقلقه يتم حلها بصورة حميدة، الطياران روسيان عديما الضرر، ليلي تتم رعايتها بصورة جيدة، ديزي رجعت الى البيت مع كتابها المطبوع، أولئك المليوني متظاهر هم أشخاص طيبون، ثيو وجاس كتبا أغنيةً رائعةً، روزاليند سوف تكسب قضيتها في المحكمة يوم الاثنين وهي الآن في طريقها الى البيت، إنه شيء مستبعد احصائياً أن يقتل الارهابيون أفراد عائلته هذه الليلة، طعامه المطبوخ بالغلي البطيء، هكذا يظن، ربما يكون واحداً من أفضل ما طبخه، كل المرضى في لائحة الأسبوع القادم سوف يخرجون سالمين من صالة العمليات الجراحية. غراماتيكوس يعني جيداً حقيقةً، ويوم غد – الأحد - سوف يسلم هنري وروزاليند الى صباحٍ من النوم والانغماس في الشهوات الحسية. الآن هو اللحظة المناسبة لصب كأس أخرى.

كان قد تناول القنينة وفحص كأس والد زوجته حين سمعا هزهزة معدنية عالية من الرواق، زعيقاً من ديزي، صرخة باريتون[١٣] لـ ((يو !)) تبعتها انصفاق راعد للباب الأمامي الذي يرسل موجات صغيرة متحدة المركز عبر جن الشاعر؛ بعدها صوت مكتوم ناعم وصوت أشبه بصوت الخنزير ناجم عن إلتحام الأجساد. ثيو يعود الى البيت وهو ذا يطوق شقيقته. بعد ذلك بثواني، يدخلان حجرة الجلوس يداً بيد، الابنان على التوالي

يقدمان لوحةً حيةً لهواجسهما ومسيرتيهما، ولموهبيتهما النفيستين، هنري يسلم بذلك من دون غيرة، الآتيتين من جدهما: ديزي تحمل نسخة من (بروفة) طباعية مجلدة لمجموعتها الشعرية، شقيقها يمسك بقيثاره المحفوظ في علبته من العنق. من بين أفراد العائلة كلهم، ثيو حتى الآن هو الأكثر استرخاءً مع غراماتيكوس. كانا يشتركان في حب الموسيقى، وليس ثمة تنافس بينهما: ثيو يعزف، جده يصيخ السمع ويُعنى بأرشيف أغاني البلوز الخاص به – الآن تم تحويل الأرشيف بمساعدة الغلام إلى أقراص ليزرية.

((جدي، لا تنهض))، ينادي ثيو وهو يسند قيثاره على الجدار.

إلا إن الرجل العجوز يقوم على قدميه حين ينتهي ثيو من العزف، والاثنان يتعانقان من دون كبت. تأتي ديزي وتجلس جنب والدها وتزحلق كتابها إلى حضنه.

يمسك الجد بذراع حفيده وقد أُفعم حيويةً واستعاد شبابه بفعل حضوره. ((هكذا. لديكَ أغنية جديدة لي.))

(البروفة) الطباعية زبرجدية ذات حروف سود. في ما هو ينظر الى العنوان واسم مؤلفتها، يدس بيروني ذراعه حول كتفي ابنته ويعصرهما، وتدنو منه كي ترى كتابها من خلال عينيه. يراه من خلال عينيها ويحاول أن يتخيل صفة الإثارة. في سنها كان طالباً مجداً في المرحلة الخامسة من الكلية الطبية في كونٍ من الأسماء اللاتينية والحقائق الجسدية، بعيداً جداً عن هذه الإمكانات. بيده الطليقة يقلّب (البروفة) الى صفحة العنوان ومعاً يقرأان الكلمتين

من جديد، وهذه المرة هي مقيدة بمستطيل ذي حدين، ا مركبي الأنيقا، ديزي بيروني، وفي أسفل الصفحة اسم الناشر متبوعاً بـ لندن، بوستن. مركبها، مهما كان حجمه، اندفع بجرأة في الأنهار الواقعة ما وراء الأطلسي. يقول ثيو شيئاً ما، ويرفع بصره الى الأعلى.

((بابا، بابا ! الأغنية ما رأيك ؟))

حين كان الابنان صغيرين، كان الأبوان يتوخيان الحذر في التوزيع العادل للمديح. هذان الإبنان ذوا الإنجازات الرفيعة. كان يلزمه أن يناقش الأغنية في وقت أبكر حين كان يختلي بـ غراماتيكوس. غير أن هنري كان يحتاج الى نصف دقيقة متدفقة من دون جهد من تفكيره الحقيقي.

يقول، ((جرفتني الأغنية جرفاً.)) وبالدهشة الجميع، يميل ذقنه صوب السقف وينشد بدقةٍ جيدة نوعاً، ((دعيني آخذك الى هناك، ساحة مدينتي، ساحة مدينتي)).

يتناول ثيو من جيب سترته قرصاً ليزرياً ويسلمه الى جده. ((عملنا تسجيلاً للأغنية في ما بعد ظهيرة اليوم. هو ليس بالتسجيل المضبوط، لكنك ستستوعب الفكرة.))

يعيد هنري انتباهه الى ابنته. ((أحب هاتين الكلمتين: لندن، بوستن. هما أنيقتان.)) يتتبع باصبعه الحروف (الكابتال) شديدة الصغر المتلاصقة. على الورقة يقرأ الاهداء بإرتياح: ((الى جون غراماتيكوس)).

في كربي مباغت، تهمس ديزي في أذنه، ((لا أعرف ما إذا كان هذا الاهداء صحيحاً. كان يجب أن يكون لكَ أو لـ ماما. المسألة هي إنني لم أكن أعرف ما الذي أفعله.))

يهصرها ثانيةً. ويتمتم قائلاً: ((انه شيء صحيح تماماً.))

((لا أدري ما إذا هو كذلك. ما يزال بوسعي أن أغيره.))

((جدك يضعك على الدرب، إنه شيء ذو مغزى كامل سيكون غايةً في السعادة. كلنا غاية في السعادة. لقد فعلتِ الشيء الصحيح.)) وبعدئذ، في حالة عدم وجود اثر للندم في صوته، يضيف قائلاً: ((ستكون هناك كتب أخرى أيضاً. يمكنك أن تهدي أعمالك لأفراد الأسرة جميعاً.))

عند ذاك فقط وعى جيداً، من خلال الاتعاشات في هيئتها الجاثمة على هيئته وفورةٍ من دفء الجسد، أنها كانت تبكي. دفنتْ وجهها في الجزء العلوي من ذراعه. ثيو وجده في الجزء الآخر من الحجرة، عند رفوف الأقراص الليزرية، يناقشان عازف بيانو الـ (بوغي).

((هي، أيتها الصغيرة))، يقول في أذنها. ((ماذا يجري، حبيبتي؟))

راحت تبكي بصورة أشد، من دون صوت، وتهز رأسها، غير قادرة على التكلم.

((هل نصعد الى المكتبة ؟))

تهز رأسها من جديد، ويربت على شعرها وينتظر.

هل هي تعيسة في حبها ؟ حاول أن يقاوم التأمل. ليس ثمة لحظة خاصة من طفولتها بوسعه أن يتذكرها، إلا إنها تجربة مألوفة بصورة مبهمة منذ زمن طويل، منتظراً إياها ريثما تستعيد حالتها الطبيعية وتخبره بالسبب الذي يجعلها تنشج بالبكاء. كانت بليغةً دائماً. كل تلك الروايات التي طالعتها إبان طفولتها خاصة بعد أن شرع جدها يساعدها، ويروّضها على الوصف الدقيق للمشاعر. يميل هنري الى الوراء وبصبر، وبحب يضم ابنته. لم تعد تذرف الدمع، غير انها تواصل دفن رأسها في كتفه وعيناها مغمضتان. كتابها يرقد مفتوحاً في حجره، ما يزال مفتوحاً على صفحة الاهداء. خلفه، ثيو وجده يناقشان التسجيلات والأشخاص العاملين في الفرقة الموسيقية، ومثل تابعين متحمسين حقيقيين، يتحدثان في همهمات، جاعلين الحجرة تبدو هادئة. في يد غراماتيكوس كأس أخرى من الجن، لعلها كأسه الثالثة، إلا إنه غير ثمل بصورةٍ غريبة. بيروني يشعر بدبابيس وإبر تتحرك على طول الجزء العلوي من ذراعه حيث كان رأس ديزي مدفوناً. يخفض بصره ناظراً إليها بولع، إلى الجزء الصغير الذي يراه من وجهها. لم يكن يرى الآثار الأولى من الشيخوخة أو التجربة حول زاوية عينها المرئية، فقط الجلد الصافي المشدود، الأرجواني بصورة خفيفة، كحافات كدمة. المظهر الخارجي، الألاعيب الجديدة للنمو الجنسي تخفي الحقيقة القائلة أن الطفولة تتضاءل ببطء. كل لـ ديزي ثديان ودورات شهرية حينما كان سريرها ما يزال مختنقاً جداً بدببة من التبن وحيوانات ناعمة أخرى قلما كان هناك حيز لها. ثم كان لها

أول حساب مصرفي، شهادة جامعية، إجازة قيادة المركبات التي أخفتْ الطفلة المترددة، المتضائلة، الأب أو الأم وحدهما ما يزالان قادرين على تمييزها في الشابة البالغة التي تشكلت حديثاً. لكن وهو يراقبها الآن، يعرف هو أنها مهما التصقت بجانبه، فإن هذا ليس براءةً. في الأرجح ان عقلها يدور سريعاً، أسرع مما يستطيع عقله، ربما حول فسيفساء مكسورة من وقائع حديثه – أصوات مرتفعة في الحجرات، إلتماعات الشوارع الباريسية، حقيبة سفر مفتوحة على سرير مخلوع، أي شيء يضايقها. أنتَ تحدّق الى رأسٍ ما، غزارة من الشعر، ويمكنك فقط أن تحدس.

هذه المدة الفاصلة الحالمة الثانية لعلها استمرت خمس دقائق، وربما عشراً. في نقطة واحدة، حينما يبدأ منطق أفكاره في التحطم، راح يغمض عينيه ويسمح لنفسه أن يتزحزح الى الوراء والى الأسفل، إحساس سار مشوش بأفكار غامضة تتعلق بنهر عكر ذي مد وجزر، وبحلٍ بأصابع غير بارعة لحبل معقود هو أيضاً وسيلة من وسائل تحويل العملة المتداولة وتغيير نهايات الأسابيع الى أيام عمل. لكنه حتى وهو يستغرق في التفكير، يعرف إنه يلزمه أن لا ينام– ثمة ضيوف، ومسؤوليات أخرى لا يستطيع أن يعينها حالاً. لدى سماعه صوت فتح الباب الأمامي من قبل روزاليند يتحرك حركةً ضئيلةً وينظر بتوقع عبر كتفه اليسرى. ديزي ايضاً ترفع رأسها الى النصف، والحور بين ثيو وغراماتيكوس ينقطع. كان هناك توقف طويل بصورةٍ غير مألوفة قبل أن يسمعا من الرواق صوت إغلاق الباب. يعتقد بيروني أن

زوجته ربما تكون مثقلة بالتبضع أو بالرزم، أو بالحزم القانونية، ويكاد ينهض لمساعدتها حين راحت تدخل البيت. جعلت تتحرك ببطء، بتصلب، من الجلي حذرة مما توشك أن تجده. كانت تحمل محفظتها المسطحة من الجلد البني وهي شاحبة الوجه، وجهها مشدود، كما لو أن ايدي خفية تضغط وتسحب الجلد للوراء صوب أذنيها. عيناها واسعتان وكئيبتان، متلهفتان لأن تفشيا ما لم تقدر شفتاها، اللتان انفرجتا وانسدتا مرةً واحدة، على إفشائه. كانوا يراقبون في ما هي تتوقف وتنظر خلفها الى المدخل الذي أتت من خلاله.

((ماما ؟)) تنادي عليها ديزي.

بيروني يحل نفسه عن ابنته وينهض على قدميه. مع إن روزاليند ترتدي معطفاً شتائياً فوق بذلة العمل، يخيل له إنه يستطيع حقيقةً أن يرى تسارع نبضها – وهو انطباع استقاه من تنفسها السريع، السطحي. أفراد عائلتها ينادون باسمها ويبدأون في التوجه إليها، أما هي فكانت تبتعد عنهم، وتتراجع الى الوراء صوب جدار حجرة المعيشة العالي. تحذرهم بعينيها، بحركةٍ مختلسةٍ من يدها. ليس الخوف وحده الذي شاهدوه في وجهها، إنما الغضب أيضاً، وربما شاهدوا الاشمئزاز في توتر شفتها العليا. عبر فجوة ربع الإنج بين الجانب المفصل من الباب وإطاره، يرى بيروني في الرواق شبحاً ما، ليس أكثر من ظل، يتردد ثم يبتعد. من خلال رد فعل روزاليند شعروا بشخص ما يدخل الحجرة قبل أن يشاهدوه. ومع ذلك، الشبح الذي بوسع بيروني أن يراه في الرواق جعل يتردد: يدرك هو

قبل الآخرين أن ثمة شخصين اقتحما المنزل، وليس واحداً.

في ما كان الرجل يدخل الحجرة، يميز بيروني فوراً الملابس: سترة الجلد، قبعة البحار الصوفية. كان الإثنان الجالسان على المصطبة في انتظار فرصتهما. قبل أن يستطيع تذكر الإسم بلحظة، يميز الوجه أيضاً، وخصوصية طريقة المشي، الارتعاشات العصبية، المتململة، في ما يضع هو نفسه قريباً، قريباً جداً من روزاليند. بدلاً من أن تنفر منه، ظلت واقفةً بلا حراك. بيد إنه يتوجب عليها أن تبعد رأسها كي تجد أخيراً الكلمة التي كانت تسعى الى لفظها بوضوح. تلتقي عين زوجها.

((سكين))، تقول كما لو أنها توجه كلامها إليه وحده. ((بحوزته سكين.))

يد باكستر اليمنى تغوص عميقاً في جيب سترته. يلقي نظرةً عامةً على الحجرة والناس الذين فيها بتبويز شديد لبسمة، كما لو كان رجلاً يندفع لإلقاء مزحة. لا بد أنه طيلة مدة ما بعد الظهر كان يحلم بالقيام بهذا الدخول. بحركات رأس متعقبة متناهية الصغر راحت نظراته تتحول من ثيو وغراماتيكوس عند النهاية البعيدة من الحجرة، الى ديزي، وختاماً الى بيروني الواقف أمامها مباشرةً. طبعاً، إنه شيء منطقي ان يكون باكستر هنا. على مدى ثواني قليلة، فكرة بيروني الوحدية هي بصورة حمقاء تلك الـ ((طبعاً)). إنها تعني شيئاً ما. تقريباً كل عناصر يومه اجتمعتْ؛ انها تحتاج فقط الى أمه، وجي شتراوس كي يظهر بمضرب

(السكواش) الخاص به. قبل أن يبدأ باكستر بالكلام، يحاول بيروني أن يرى الحجرة عبر عينيه، كما لو أن ذلك ربما يساعده في توقع درجة المشكلة التي تنتظرهم. زجاجتا الشمبانيا، الجن وطاسا الليمون والثلج، السقف العالي بصورةٍ مستخفٍ بها، وجليه المعمارية البارزة او المقعرة، بصمات الـ [بريجيت رايلي] تحيط بالـ [هوجكن]، المصابيح المخففة، أرضية خشب الكرز تحت السجاجيد الفارسية، الأكداس المهملة من الكتب الجدية، عقود الصقل في طاولة الـ thakat. معيار الجزاء بالوسع أن يكون كبيراً. بيروني يرى كذلك عائلته عبر عينيّ باكستر: الفتاة والرجل العجوز لن يكونا مشكلةً؛ الغلام قوي لكنه لا يبدو بارعاً في استعمال اليدين. في ما يتعلق بالطبيب الطويل والهزيل، بسببه جاء الى هنا. طبعاً. كما قال ثيو، في الشوارع ثمة غرور، وهو ذا، يخفي سكيناً. حينما يستطيع أي شيء أن يحدث، فكل شيء ذو أهمية.

هنري على مبعدة عشرة أقدام عن باكستر. حين حذرت روزاليند من السكين، تجمدتْ نصف خطوته، في وضعٍ غير مستقر. الآن، كطفلٍ يمثل خطوات جده، يأتي بالقدم التي في الخلف كي تكون في مستوى القدم التي في الأمام، ويزرعها بعيداً عنها بصورة كافية. روزاليند، بعينيها وبهزةٍ طفيفةٍ من رأسها، تحثه على الابتعاد. هي لا تعرف خلفية الأحداث ؛ تحسب أن هذين الرجلين مجرد لصين ؛ وانه شيء معقول ان تجعلهما يأخذان ما يشتهيان وتامل أنهما بعد ذلك سوف يغادران المنزل. كما إنها لا

تعرف علم الأمراض. طيلة النهار، كان اللقاء غير المتوقع في شارع (الجامعة) يشغل باله، مثل نغمة بيانو مؤازرة. غير إنه نسي تقريباً ما يتعلق بـ باكستر، ليس حقيقة وجوده، طبعاً، إنما الواقع الجسدي المستثار، رائحة النيكوتين النافذة الكريهة، اليد اليمنى المرتجفة، السيماء القردية، التي تضاعفت الآن بواسطة قبعة صوف.

بنظرةٍ، جعله باكستر يعرف انه هو أيضاً كان سبب مجيئه الى هنا، غير أن ما يقوله هو، ((أريد أن تخرجوا هواتفكم النقالة من جيوبكم وتضعوها على الطاولة.))

وحينما لم يتحرك أحد جعل يقول: ((أنتما أيها الصغيران أولاً)). ويخاطب روزاليند قائلاً: ((هيا، أخبريهما.))

((ديزي، ثيو. أعتقد أن من الأفضل لكما أن تفعلا ذلك.)) كان ثمة غيظ أكثر من الخوف في صوتها الآن، وبعض العصيان في كلمة ((أعتقد)) التي كانت قد صرّحت بها بصورة أضعف مما تقتضيه الحقيقة. يدا ديزي تهتزان وكانت لديها مشكلة في إخراج الهاتف النقال من جيب تنورتها الضيق. أطلقت لهاثات صغيرة مغضَبة. يضع ثيو هاتفه على الطاولة ويهب لمساعدتها، خطوة جيدة، يظن والده، طالما إنها تأتي به الى جانبه. يد باكستر اليمنى ما تزال في أعماق سترته. اذا كان بوسعهم أن يؤيدوا حالاً، سيكونون في وضعٍ جيد كي يهجموا عليه.

إلا إن باكستر له الفكرة ذاتها. ((ضع هاتفها جنب هاتفك

وعُدْ الى حيث كنتَ واقفاً. هيا. ارجع حالاً. ارجع أكثر.))

في مكان ما في مكتب هنري، في جرار مليء بالأشياء التافهة، ثمة رذاذ فلفل اشتراه منذ سنوات طويلة خلت في (هيوستن). ربما ما يزال فعالاً. هناك في العقود (جمع عقد) الخارجية، وسط عدة التخييم واللعب القديمة، يوجد مضرب (بيسبول). في المطبخ يوجد عدد ما من السواطير إلا إن الكدمة الكائنة على عظم القص الخاص به توحي بأنه سيخسر قتالاً بالسكين في غضون ثواني.

يلتفت باكستر الى روزاليند. ((الآن هاتفك.))

تتبادل نظرةً مع هنري وتدس يدها في جيب معطفها. تضع الهاتف في راحة باكستر.

((الآن أنتَ.))

يقول بيروني، ((إنه يُشحن في الطبقة العليا.))

((لا تجعل الأمور أسوأ، ايها الجبان))، يقول باكستر. ((يمكنني أن أراه.))

السطح العلوي للهاتف مرئي فوق الفصال المنحني لجيب سرواله (الجينز). شكل الجزء الباقي تم تمييزه من خلال إنتفاخ في قماش (الدنيم).

((إذاً أنتَ قادر.))

((ضعه على الأرض وزحلقه إليّ.))

كي يشجعه، أخيراً يتناول باكستر السكين من جيبه. بقدر

ما يستطيع بيروني أن يقول، هي سكين مطبخ فرنسية قديمة الطراز، ذات مقبض خشب برتقالي ونصل مقوس من دون لمعان. كان يحرص على أن يقوم بكل حركاته من دون دهشة وببطء، يجثو على ركبتيه ويدفع هاتفه صوب باكستر. لم يلتقطه الأخير. بدلاً من ذلك، يصيح: ((هيا نايجي. يمكنك أن تدخل الآن. التقط الهواتف كلها.))

الشاب ذو الوجه الحصاني يتوقف قليلاً بوعي ذات في المدخل. ((هذا المكان حجمه لعين.)) حين يرى بيروني يقول. ((أوو. سيد غيظ الشارع.))[١٤]

في ما كان صديقه يجمع الهواتف النقالة، يقول باكستر، ((ماذا عن الجد المسكين هناك؟ لا تقل لي أنهم لا يبتاعون لك هاتفاً؟))

يأتي غراماتيكوس من الظلال ويتخذ خطوات قليلة صوبه. في يده اليمنى كأسه الفارغة. ((الحقيقة، أنا لا أملك واحداً. وإذا كنتُ أملك واحداً، كنتُ سأدعوكَ كي تدمر سلاحك الجبان.))

يقول باكستر موجهاً كلامه الى هنري: ((هل هذا والدك؟))

لم تكن هذه لحظة الاختلافات الدقيقة، ويعتقد إنه يجيب الإجابة الصائبة حين يقول، ((أجل)).

لكنه مخطئ تماماً. باكستر يمشي بصورةٍ غير منتظمة، بترنحه الشبيه بترنح المجذف بمردي الذي ينخفض فيه باعتدال، عبر الغرفة، يتوقف قليلاً فقط كي يسير حول نايجيل. السكين

التي في يده محمولة بثبات، متجهة الى الأسفل.

((هذا ليس بالأمر الحسن، من رجلٍ كبير السن وممتاز مثلك.))

شاعراً بالخطر، يحاول بيروني أن يندس بين باكستر وغراماتيكوس، إلا أن نايجيل يقف في طريقه، مبتسماً ابتسامة عريضة. لم يكن ثمة متسع من الوقت. يصرخ بيروني بسرعة، ((ليس لك خصام معه.))

إنما في ذلك الوقت كان باكستر قد وصل الى أمام الرجل العجوز، ومع أن ثيو، الذي حدس تواً ما الذي سيحدث، يطرح جانباً ذراعاً حامية، يد باكستر تنطلق بسرعة البرق في قوس أمام وجه الرجل العجوز. سمعوا قرقعة عظم خفيضة، على غرار كسر غصن أخضر. كل افراد عائلة بيروني جعلوا يصرخون ((أوه))، أو ((لا))، إلا أن مخاوفهم الأسوأ لم تفهم بوضوح. لم تكن اليد التي تحمل السكين التي ضربت غراماتيكوس. العظام الصغيرة المجرّدة في كف باكستر ببساطة كسرت أنف الرجل العجوز. حين انهارت ساقا الأخير وانخفض، راح ثيو يمسكه ويخفضه كي يركع على ركبتيه، ويأخذ الكأس منه. من دون صوت، من دون أن يمنح مهاجمه الرضا الناجم عن أنينٍ ما، يغطي غراماتيكوس وجهه بكفيه. الدم يقطر من تحت ساعة معصمه تحديداً.

حتى الآن، يفهم بيروني فجأةً، انه كان في حالة تشوش. كان

مندهشاً، وحتى حذراً. إلا انه لم يكن خائفاً بصورةٍ مميزة، ومفيدة. كان يحلم بطريقته المألوفة – بـ باكستر ((المهاجم)) مع ثيو، رذاذ الفلفل، مضارب الكرات، السواطير، وشتى ضروب الخيال الجامح. الحقيقة، التي تجلتْ الآن، هي أن باكستر حالة خاصة – رجل يعتقد أنه لا مستقبل له ولهذا فهو متحرر من العواقب. وهذا هو الاطار. في داخله الاضطرابات الفريدة، التعبير الفردي لحالته – إندفاع لا يقاوم، ضبط ضعيف للنفس، جنون العظمة، تقلبات المزاج، إكتئاب تمت موازنته بواسطة انفجارات الانفعال، بعض هذه، أو كلها وأكثر، ساعدته، أثارته، في ما كان يتذكر خصامه مع هنري صباح هذا اليوم. وهي التي تحث باكستر الآن. ليس هناك تدهور فكري واضح حتى الآن – العواطف تمضي أولاً، جنباً الى جنب مع التنسيق الجسدي. كل اولئك الافراد بتكرارات السايتوسين – الأدينين – الغوانين (CAG) تزيد على الأربعين بصورة مهمة، في وسط جين غامض في الكروموسوم الرابع مرغمون على أن يتقاسموا هذا المصير كل بطريقته الخاصة. ! انه شيء مكتوب !. ما من كميةٍ من الحب، العقاقير، صفوف دراسة الانجيل أو العقوبات بالسجن يمكنها أن تشفي باكستر أو تحوّله عن مساره. إنها تُكتشف في البروتينات الهشة، إلا إنه يمكن نحتها في الحجر، أو الفولاذ المسقى.

روزاليند وديزي تتجمعان على غراماتيكوس حيث كان راكعاً بجنب الكنبة. بعجز يضع ثيو يداً على كتف جده. طريق بيروني يبقى مغلقاً بواسطة نايجيل – لا يستطيع أن يشق طريقه من

دون كفاح جسدي. باكستر، السكين في يده اليمنى، يخطو جانباً، وبيده اليسرى المتململة، المرتعشة يخلع قبعته الصوف ويرخيّ سحاب سترته. بطريقة خرقاء، يشعل سيجارةً. وفي ما هو يدخن، يهزهز عروة السحاب ويتطلع الى المشهد حول الرجل الجاثي على الأرض، محوّلاً ثقله بصورةٍ لا متناسبة بين القدم اليسرى واليمنى. يبدو إنه ينتظر ماذا سيفعل هو نفسه لاحقاً.

إنما في ما يتعلق بالبراهين المخففة كلها، لا يستطيع بيروني أن يقنع نفسه بأن الجزيئات والجينات الخاطئة وحدها التي تروّع أفراد عائلته وهي التي كسرت أنف والد زوجته. بيروني نفسه مسؤول أيضاً عن ذلك. فقد أذل باكستر في الشارع أمام صديقيه الحميمين، وفعل ذلك حين خمن حالته مسبقاً. من الطبيعي، جاء باكستر الى هنا كي ينقذ سمعته أمام شاهدٍ ما. لا بد أنه أقنع نايجيل بالكلام، أو أعطاه رشوةً. الشاب أحمق في أن يجعل من نفسه تابعاً. كان باكستر يفعل كل ما بوسعه، فلا بد له أن يعرف ما مخبأ له. على مدى الشهور والسنوات المقبلة الـ athetosis، تلك الحركات اللاإرادية، غير المنضبطة، والرقاص – الاهتياج العصبي الضعيف، التكشير، الرفع المترنح للكتفين وثني أصابع اليدين والقدمين – سوف تقهره، تجعله مضحكاً جداً بالنسبة للشوارع. نوع إجراميته بسبب مغزى جسدي. في مرحلةٍ ما سيجد نفسه يتلوى ألماً ويهذي في فراش لن يغادره أبداً، في ردهة للأمراض النفسية طويلة الأمد، في الأرجح من دون أصدقاء، غير محبب بالتاكيد، وهناك سوف يتم تدّبر تدهوره البطيء، بفاعلية،

مندهشاً، وحتى حذراً. إلا انه لم يكن خائفاً بصورةٍ مميزة، ومفيدة. كان يحلم بطريقته المألوفة – ب باكستر ((المهاجم)) مع ثيو، رذاذ الفلفل، مضارب الكرات، السواطير، وشتى ضروب الخيال الجامح. الحقيقة، التي تجلتْ الآن، هي أن باكستر حالة خاصة – رجل يعتقد أنه لا مستقبل له ولهذا فهو متحرر من العواقب. وهذا هو الاطار. في داخله الاضطرابات الفريدة، التعبير الفردي لحالته – إندفاع لا يقاوم، ضبط ضعيف للنفس، جنون العظمة، تقلبات المزاج، إكتئاب تمت موازنته بواسطة انفجارات الانفعال، بعض هذه، أو كلها وأكثر، ساعدته، أثارته، في ما كان يتذكر خصامه مع هنري صباح هذا اليوم. وهي التي تحث باكستر الآن. ليس هناك تدهور فكري واضح حتى الآن – العواطف تمضي أولاً، جنباً الى جنب مع التنسيق الجسدي. كل اولئك الافراد بتكرارات السايتوسين – الأدينين – الغوانين (CAG) تزيد على الأربعين بصورة مهمة، في وسط جين غامض في الكروموسوم الرابع مرغمون على أن يتقاسموا هذا المصير كل بطريقته الخاصة. [انه شيء مكتوب]. ما من كميةٍ من الحب، العقاقير، صفوف دراسة الانجيل أو العقوبات بالسجن يمكنها أن تشفي باكستر أو تحوّله عن مساره. إنها تُكتشف في البروتينات الهشة، إلا إنه يمكن نحتها في الحجر، أو الفولاذ المسقى.

روزاليند وديزي تتجمعان على غراماتيكوس حيث كان راكعاً بجنب الكنبة. بعجز يضع ثيو يداً على كتف جده. طريق بيروني يبقى مغلقاً بواسطة نايجيل – لا يستطيع أن يشق طريقه من

دون كفاح جسدي. باكستر، السكين في يده اليمنى، يخطو جانباً، وبيده اليسرى المتململة، المرتعشة يخلع قبعته الصوف ويرخيّ سحاب سترته. بطريقة خرقاء، يشعل سيجارةً. وفي ما هو يدخن، يهزهز عروة السحاب ويتطلع الى المشهد حول الرجل الجاثي على الأرض، محوّلاً ثقله بصورةٍ لا متناسبة بين القدم اليسرى واليمنى. يبدو إنه ينتظر ماذا سيفعل هو نفسه لاحقاً.

إنما في ما يتعلق بالبراهين المخففة كلها، لا يستطيع بيروني أن يقنع نفسه بأن الجزيئات والجينات الخاطئة وحدها التي تروّع أفراد عائلته وهي التي كسرت أنف والد زوجته. بيروني نفسه مسؤول أيضاً عن ذلك. فقد أذل باكستر في الشارع أمام صديقيه الحميمين، وفعل ذلك حين خمن حالته مسبقاً. من الطبيعي، جاء باكستر الى هنا كي ينقذ سمعته أمام شاهدٍ ما. لا بد أنه أقنع نايجيل بالكلام، أو أعطاه رشوةً. الشاب أحمق في أن يجعل من نفسه تابعاً. كان باكستر يفعل كل ما بوسعه، فلا بد له أن يعرف ما مخبأ له. على مدى الشهور والسنوات المقبلة الـ athetosis، تلك الحركات اللاإرادية، غير المنضبطة، والرقاص – الاهتياج العصبي الضعيف، التكشير، الرفع المترنح للكتفين وثني أصابع اليدين والقدمين – سوف تقهره، تجعله مضحكاً جداً بالنسبة للشوارع. نوع إجراميته بسبب مغزى جسدي. في مرحلةٍ ما سيجد نفسه يتلوى ألماً ويهذي في فراش لن يغادره أبداً، في ردهة للأمراض النفسية طويلة الأمد، في الأرجح من دون أصدقاء، غير محبب بالتاكيد، وهناك سوف يتم تدّبر تدهوره البطيء، بفاعلية،

إن كان وافر الحظ. الآن، وهو ما يزال يحمل سكيناً، أقبل كي يؤكد كرامته، وربما حتى يحدد الشكل الذي يود أن يتم تذكره به. ! أجل، ذلك الرجل الطويل غريب الأطوار ذو المرسيدس اقترف خطأً لعيناً كبيراً حين رمى مرآة الجناح القديمة العائدة لسيارة باكستر في القمامة. ! ان قصة باكستر المهجور من قبل أصدقائه، المهزوم من قبل رجل غريب كان قادراً على أن يمضي في حال سبيله سالماً، كل تلك القصة سوف يتم نسيانها.

وما الذي كان يفكر به ذلك الغريب، حين عرف عن الحالة المرضية، ورأى مرضى زملائه الأطباء، وحتى تبادل الرسائل في سنوات قليلة خلت مع جراح أعصاب في لوس أنجلس حول إجراء جراحي جديد ؟ كانت الفكرة هو أن يرقع نسيجاً حياً بطريقة مجسمة في المناطق ذوات الذيل والبوتامين، مزيجاً من خلايا عنق جنينية من ثلاثة مصادر مختلفة، ونسيج عصبي مفروم من المريض. لم تنجح الفكرة حقيقةً، ولم تكنْ قد أغرتْ بيروني. لماذا لا يستطيع أن يفهم إنه من الخطورة أن تقهر رجلاً غير مستقر عاطفياً من مثل باكستر ؟ كي يفلت من ضربةٍ ما ويبدأ بممارسة لعبة (السكواش) الخاصة به. كان قد استخدم سلطته أو اساء استخدامها كي يتفادى أزمةً ما، وكانت أفعاله قد قادته الى أزمةٍ أسوأ بكثير. المسؤولية مسؤوليته ؛ دم غراماتيكوس على البلاط لأن باكستر يظن أن الرجل العجوز والد بيروني. كانت بداية جيدة تم القيام بها في إهانة الابن.

روزاليند وديزي تريضان بالقرب من غراماتيكوس حاملتين

المناديل الورقية.

((إنه أمر حسن))، يقول باكستر بصوت مكتوم. ((كُسر أنفي من قبل. على درجات سلم مكتبة لعينة.))

((أتعرف ما الأمر ؟)) يصرخ باكستر على نايجيل. ((نحن هنا طيلة هذا الوقت وما من أحد يقدّم لنا كاساً.))

هذه هي الفرصة المناسبة كي يتحرر من نايجيل وأن يتقدم شيئاً فشيئاً حول الطاولة الواطئة الى حيث تنتصب الصينية. هنري متلهف لأن يسحب باكستر الى جزء الغرفة الذي هو فيه، بعيداً عن المجموعة التي تحيط غراماتيكوس. ما كان يخشاه هو انفجار عاطفي من روزاليند أو أحد ولديه حين يقترب باكستر منهم. لامساً إحدى قناني الشمبانيا بسبابته، ينظر بيروني باستفهام الى باكستر وينتظر. ذراع روزاليند حول كتفي ديزي في ما كانتا تتوليان رعاية غراماتيكوس. على مقربة منهما، يقف ثيو ونظراته مثبتة على الأرض على مبعدة أقدام قليلة – بصورةٍ محسوسةٍ يتحاشى تبادل النظرات مع باكستر الذي استطاع ان يسحب يده المتململة بعيداً عن عروة السحّاب. سكينه عادت الى جيبه.

يقول: ((أجل. كأسان مليئتان بالجن الخالص، مع الثلج والليمون.))

ان نعمة تقليل المزيد من التنسيق الجسدي لـ باكستر يجب أن توضع بإزاء خطر جعل عدم الكبت الخاص به حتى أكثر فظاعةً. إنه خيار، حساب. بيروني في ذعره يجد إنه قادر على القيام بذلك.

ينحني كالصيدلي لإنجاز المهمة، ويملأ كأسي نبيذ حتى الحافة بـ (تانكويري)، ويضيف شريحة ليمون ومكعب ثلج لكل منهما. يمرر واحدةً الى نايجيل، ويرفع الثانية الى باكستر. الطاولة في الطريق؛ بطريقةٍ أراحت هنري، يتقدم باكستر الى الأمام، حول الكنبة والطاولة كي يأخذ الشراب.

يقول بيروني، ((انظر. في ما يتعلق بالخلاف، انني مستعد لقبول حقيقة إنني كنتُ مخطئاً هذا الصباح. إذا كنتَ ترغب بإصلاح سيارتك...))

((كنتَ تعيد النظر في الموضوع، أليس كذلك ؟))

لم تكن الكأس مستقرة في يد باكستر، وحين يلتفت ليغمز بعينه لـ نايجيل، تُراق كمية من الجن. لعلها عادته في إخفاء حالته المرضية هي التي جعلته يثبت كأسه على شفتيه ويفرغها في أربع جرعات متدفقة. في ذلك الزمن القصير، يفكر بيروني في خطوط الهواتف الأرضية في داخل المنزل وما إذا كان باكستر سيكلف نفسه عناء قطعها. هناك أيضاً زر الرعب المراقَب عند الباب الأمامي، وثمة زر آخر في حجرة النوم. هل هذا خيال جامح مرةً اخرى؟ المحنة تجعله يشعر بالغثيان. بمساعدة ثيو، كانت روزاليند وديزي تعينان غراماتيكوس على الوقوف على قدميه. مع ذلك يحاول بيروني بحركة مرتجة مختلسة من يده أن يلوح لهم في طرفهم من الحجرة، أن يأتوا به في اتجاه النار.

((جسده بارد.)) تقول روزاليند. ((يحتاج الى الاستلقاء.))

((هكذا كانت الخطة. الآن اجتمعوا ثانيةً. في الأقل ثيو تحت اليد. إنما بالتأكيد، تم الاقرار مسبقاً، إن مهاجمة باكستر حلم صبياني. نايجيل سوف يستل سلاحه. هذان الرجلان مقاتلان حقيقيان. ماذا بعد إذاً ؟ هل ينبغي لهما أن يقفا وينتظرا الى أن يستخدم باكستر سكينه ؟ يحسن هنري بنفسه أنه يتأرجح على قدميه بخوف وتردد. حافز قوي على التبول جعل يقتحم أفكاره برفق. يريد أن يلفت انتباه عين ثيو، لكنه يحس أيضاً أن روزاليند ربما تعرف شيئاً ما، أو لديها فكرة ما. الطريقة التي مست بها جنبه مساً خفيفاً ربما كانت مهمة. هي وراءه تماماً، توطن والدها على الكنبة. تبدو ديزي الآن أكثر هدوءاً – العناية بجدها ساعدتها. يقف ثيو بذراعين متقاطعتين، ما يزال يبحلق بتوتر في الأرض، لعله يعمل الحساب. الجزءان الأماميان من ذراعيه يبدوان قويين. كل هذه المواهب في الحجرة، إنما عديمة النفع من دون خطة ووسيلة إتصال. ربما يلزمه أن يتصرف لوحده، يصارع باكستر ويطرحه أرضاً وهو واثق بأن الاخرين سوف يدعموه. بصورةٍ أكثر (فانتازيةً)، ومع باكستر الجذل جداً، السعيد بصورةٍ وحشية، إحتمالات ايقاع الأذى لا تني تتضاعف. كل هذه الطبيعة البشرية المحبوبة وسريعة التأثر. أفكار هنري المبطلة للذات تتغير وتدور، ومن المستحيل ترتيبها. الشيء المناسب هو أن يضرب وجه باكستر بقوة بقبضةٍ مضمومةٍ ويأمل أن يتولى ثيو أمر نايجيل. إنما حين يتخيل هنري نفسه يكاد يفعل، ويرى نسخةً من محاربة شبحية لنفسه تثب من جسمه على باكستر، تتسارع

نبضات قلبه بحيث يشعر بأنه دائخ، ضعيف، وغير جدير بالثقة. في حياته كلها لم يحدث أن سدد لكمةً على وجه إنسان ما، حتى في سنوات طفولته. ولم يستخدم سكيناً من قبل الا على جلد مخدَّر في بيئةٍ منضبطة ومعقمة. هو ببساطة لا يعرف كيف يكون متهوراً.

((هيا إذاً، يا صاحب الدار.))

تلقائياً، ذلك إن هذا هو كل ما تبقى من استراتيجيته، يأخذ بيروني الجن ويملأ من جديد كاس باكستر الممدودة إليه ويترع كأس نايجيل حتى الحافة. وفي ما هو يفعل ذلك يغدو هنري واعياً بأن باكستر يتطلع مروراً به الى ديزي. ثبات النظرة، وتلك الابتسامة الصغيرة المكظومة ذاتها، تسبب تقلصاً ثلجياً عبر سطح فروة رأس هنري. يحتسي باكستر مزيداً من الجن في ما هو يرفع الكأس الى فمه. لم يحوّل أنظاره، حتى وهو يضع كأسه على الطاولة. بصورةٍ مخيبة للأمل، يرتشف جرعةً واحدةً فقط. لم يقلْ كثيراً منذ هجومه على غراماتيكوس، وفي الأرجح هو أيضاً من دون خطة ؛ زيارته عمل مرتجل. حالته المرضية تمنح نوعاً مكشوفاً من الحرية، لكنه أغلب الظن لا يعرف الى أي مدى هو مستعد للمضي.

الجميع ينتظرون، وباكستر يقول أخيراً، ((ما هو اسمك إذاً ؟))

((يا إلهي))، تقول روزاليند بسرعة. ((انتَ تقترب منها، عليك أن تقتلني أولاً.))

يدس باكستر يده اليمنى في جيبه ثانيةً. ((حسن، حسن))، يقول ببرم. ((سأقتلك أولاً.)) ثم يعيد نظراته الى ديزي ويكرر بالضبط بالنبرة ذاتها كما حصل من قبل. ((ما هو اسمك إذاً ؟))

تخطو متحررةً من أمها وتخبره باسمها. ينشر ثيو ذراعيه. يُستثار نايجيل ويقترب قليلاً منه. ديزي تصوب نظراتها الى باكستر - إلا إن نظراتها مروَّعة، صوتها مقطوع الأنفاس وصدرها يرتفع ويهبط بسرعة.

((ديزي ؟)) يبدو الإسم غير محتمل في شفتي باكستر، إسم مضحك، إسم دار حضانة عرضة للسخرية: ((وما هو هدف ذلك الإسم الناقص ؟))

((لا شيء.))

((آنسة لا شيء الصغيرة.)) يتحرك باكستر خلف الكنبة التي يستلقي فوقها غراماتيكوس، وبجنبها تقف روزاليند.

تقول ديزي، ((إذا غادرت المنزل الآن ولم تعدْ أقسم لك بأننا لن نتصل هاتفياً بالشرطة. يمكنك أن تأخذ أي شيء تريده. من فضلك. من فضلك اذهب.))

حتى قبل ان تنهي كلامها، باكستر ونايجيل يضحكان. هي ضحكة مبتهجة، غير ساخرة، وما يزال باكستر يقهقه وهو يمد يداً نحو الجزء الأمامي من ذراع روزاليند ويسحبه بحيث تسقط على الكنبة في وضع جلوس عند قدّمي غراماتيكوس. بيروني وثيو كلاهما انطلق نحوه. لدى رؤية السكين، تطلق ديزي صرخةً

قصيرةً مكبوتةً. باكستر يحملها في يده اليمنى التي تستريح برقة على كتف روزاليند. تحدّق بصرامةٍ الى الأمام.

يقول باكستر لـ بيروني وثيو، ((أنتما ترجعان الى الخلف عبر الحجرة. هيا. إلى الخلف. انظر إليهما، نايجي.))

المسافة بين يد باكستر والشريان السباتي المشترك الأيمن العائد لـ روزاليند أقل من أربعة انجات. نايجيل يحاول أن يدفع بيروني وثيو الى الزاوية البعيدة عند الباب، إلا إنهما يستطيعان أن يتراجعا عنه وأن يصلا الى زاويتين منفصلتين تتواجهان بصورة منحرفة، على مسافة عشرة أو اثنا عشر قدماً على ناحيتي باكستر – ثيو عند الموقد، ووالده بالقرب من أحد الشبابيك الطويلة الثلاثة.

يحاول هنري أن لا يخفي الرعب فقط عن صوته، بل التضرع أيضاً. يريد أن يبدو رجلاً عقلانياً. هو فقط ناجح جزئياً. معدل ضربات قلبه يجعل صوته واهناً ومتقطعاً، ويشعر بأن شفتيه متضخمتان وكذلك لسانه. ((إصغي الي باكستر، خلافك الوحيد معي. ديزي على حق. يمكنك أن تاخذ ما تشاء. لن نفعل شيئاً في ما يتعلق بهذا. خيارك هو سجن الطب النفسي. ولديك متسع من الوقت أكثر مما تعتقد.))

((تباً))، يقول باكستر من دون أن يدير رأسه.

إلا إن بيروني يستطرد قائلاً. ((بما إننا تحدثنا هذا الصباح اتصلتُ مع زميل لي. ثمة إجراء جديد من الولايات المتحدة

الأمريكية، اقترن بدواء جديد، غير متوفر في الأسواق حالياً، إنما وصل الى هنا لإجراء التجارب. النتائج الأولية من شيكاغو مذهلة. ثمانون بالمائة من الحالات المرضية تم تأجيلها. سوف يبدأون بمعالجة خمسة وعشرين مريضاً الشهر المقبل. يمكنني أن اضمك الى لائحة المرضى الذين يُجرّب عليهم الدواء.))

((ما الذي يتحدث عنه ؟))

لم يرد عليه باكستر، إلا إن بعض التوتر، سكون مباغت على طول خط كتفيه يوحي بأنه يدرس المسألة. ((أنت تكذب))، يقول أخيراً، إلا إن نقصاً في التوكيد يحث بيروني على مواصلة الكلام.

((إنهم يستخدمون تداخل الـ RNA الذي تحدثنا عنه هذا الصباح. جاءت النتيجة أسرع مما خطر ببال أي إنسان.))

ركب المخاطر، هنري متأكد من كونه ركب المخاطر. يقول باكستر، ((هذا ليس ممكناً. أعرف أن هذا ليس ممكناً.)) يقول هذا، ويريد أن يتم إقناعه.

يقول هنري بهدوء، ((حسن، اعتقدتُ ذلك أيضاً. لكنه يبدو ممكناً. التجربة تبدأ في الثالث والعشرين من آذار. تحدثت الى زميل لي بعد ظهيرة هذا اليوم.))

في موجة مباغتة من الاهتياج، يعترض باكستر سبيله. ((أنتَ تكذب))، يقول ثانيةً، وبعدها بصوتٍ أعلى، يصيح تقريباً، حامياً نفسه من إغراء الأمل. ((أنتَ تكذب وخير لك أن تخرس أو تراقب

يـدي.)) واليـد الـتي تحمـل الـسـكين تتحـرك مقتربـةً مـن حنجـرة روزاليند.

إلا إن بيرونــي لم يتوقــف. ((أعــدك بــأنني لا أكــذب. كــل المعلومات متوفرة في مكتبي في الطبقة العليـا. طبعتهـا بعـد ظهيرة هذا اليوم ويمكنك أن تصعد معي و...))

قاطعه ثيو. ((هذا يكفي بابا ! توقف عن الكلام. السكوت اللعين أو إنه سيفعلها.))

وهو على صواب. دفـع باكستر نـصل الـسكين مباشـرة بإزاء جانب عنق روزاليند. تجلس الأخيرة منتصبة القامـة علـى الكنبـة، تشبك يديها على ركبتيها، وجهها خالٍ من التعـابير، نظراتهـا مـا تزال مركزةً الى الأمام. فقط ارتعاشة في كتفيها تكشف فزعها. الحجرة ساكنة. غراماتيكوس عند النهاية الأخرى مـن الكنبـة رفع أخيراً يديه عن وجهه. الـدم المتخثـر فـوق شـفته العليـا يكثـف سيماء الرعب وعدم التصديق الباديين على سحنته. ديزي تقف عند مسند الذراع الذي يسند رأس جدها. شيء مـا ينـتفخ في داخلـها – صرخة أو نشيج – ومجهود كبحه يجعل مزاجها كئيباً. ثيو، على الرغم من الصيحات التحذيرية، تحرك مقترباً من وسـط الحجـرة. ذراعاه تتأرجحان من دون نفع الى جانبيه. على غرار والده، بوسعه أن ينظر فقط الى يد باكستر. بيروني يراقب ويحاول أن يقنع نفسه بأن صمت باكستر يوحي بأنه يتصارع مـع غوايـة تجـارب الـدواء، والإجراء الجديد.

من الخارج يأتي صوت طائرة عمودية تابعة لسلك الشرطة، أغلب الظن تراقب تبدد المسيرة. هناك كذلك صخب مبهج مفاجئ للأصوات ووقع الأقدام على الرصيف الخارجي أشبه بمجموعة من الأصدقاء المستثارين، طلبة جامعيين أجانب ربما، يدورون حول الساحة وينعطفون صوب شارع (شارلوت) حيث ستزدحم المطاعم والحانات بهم. مركز لندن استهل الآن مساء سبت آخر.

((إذاً، على أي حال. ما كنتُ أسعى للقيام به هو أن أحاور هذه المرأة الشابة هنا. الآنسة لا شيء.))

نايجيل، الذي يستمر بالنظر شزراً في وسط الغرفة، فجأةً دبتْ الحيوية في شفتيه النديتين ووجهه الحصاني، يقول بتملق: ((أتعرف ما الذي أفكر به ؟))

((نعم أعرف، نايجي. وكنت أفكر أنا نفسي بالشيء ذاته.))
ثم يقول موجهاً كلامه الى ديزي، ((أريدك أن تراقبي يدي...))

((لا))، تقول ديزي بسرعة. ((ماما. لا.))

((اخرسي. لم أكمل كلامي. تراقبين يدي وتصغين. حسن ؟ أنتِ تتدخلين في ما لا يعنيك، نحن منسيون. أنتِ تصغين بعناية. اخلعي قطع ثيابك كلها. هيا. كلها.))

((أوه يا الهي))، يقول غراماتيكوس بهدوء.

يصيح ثيو عبر الحجرة. ((أبتاه ؟))

يهز هنري رأسه. ((كلا. ابقوا حيث أنتم.))

((هذا صحيح))، يقول باكستر.

باكستر لا يخاطب ثيو بل ديزي. كانت تتطلع إليه غير مصدّقة، مرتجفةً، هازةً رأسها بصورةٍ خفيفة. خوفها يثيره، جسده كله ينخفض ويرتفع ثانيةً ويرتعد.

تستطيع ديزي أن تقول هامسةً، ((لا أستطيع خلع ثيابي. أرجوك. لا أستطيع.))

((نعم تستطيعين، حبيبتي.))

بالطرف المستدق لسكينه، يشرّح باكستر جرحاً بليغاً بطول قدم في الكنبة الجلد، فوق رأس روزاليند تماماً. انهم ينظرون الى جرح، الى ضربة شديدة شنيعة، انتفاخ على طول الجرح في ما كانت المادة البيضاء – المصفرة القديمة التي حشوت بها الكنبة تنز كدهن واقع تحت الجلد.

((دعكَ من الكنبة))، يتمتم نايجيل.

يد باكستر والسكين تعود الى كتف روزاليند. ديزي تتطلع الى والدها. ما الذي يلزمها أن تفعله ؟ لا يدري ماذا يقول لها. تنحني كي تخلع جزمتيها، إلا إنها لا تستطيع أن تفك السحاب، أصابعها جد خرقاء. بصرخة إحباط تضغط على إحدى الركبتين الى الأسفل وتشد السحاب بقوة الى أن يذعن. تجلس على الأرض كطفل ينزع ثيابه، وتنزع جزمتيها. وهي ما تزال جالسةً، تتلمس بارتباك المربطة في جانب التنورة، ثم تخفضها الى قدميها وتخطو خارجها. في ما هي تخلع تنورتها كانت تنكمش بمذلة على نفسها. روزاليند تهتز بغير كياسة في ما كان باكستر يميل فوق كتفها

ويثبت اليد المتململة مع نصلها على رقبتها. إلا أنها لم تشحْ أنظارها عن ديزي، على العكس من ثيو الذي يبدو جد مبتلى بحيث أنه لا يطيق النظر الى شقيقته وهي تنضو عنها ثيابها. يبقي نظراته مركزةً على الأرض. غراماتيكوس هو الآخر يرسل بصره بعيداً. ديزي شرعت تسرع الآن، نازعةً رداءها المحكم[١٥] بلهاث نافد الصبر، تكاد تمزقه، ثم راحت ترميه الى الأسفل. كانت تنزع برعب، تنزع كنزتها الصوفية الغليظة السوداء وترميها أرضاً هي الأخرى. هي الآن في ثيابها الداخلية – بيضاء، تم كيها حديثاً من أجل رحلةٍ من باريس – لكنها لم تتوقف قليلاً. بحركةٍ غير منقطعة تحل حمالة صدرها وتفك كلاّب سروالها (النكرز) بابهامها، وتجعلهما يسقطان من يديها. حينذاك فقط تصوّب بصرها الى أمها، إنما بصورة موجزة. إنتهى الأمر. برأس منكس، تقف ديزي ويداها عند جنبيها، غير قادرة على النظر الى أي فرد.

بيروني لم يرَ أبنته عاريةً في مدةٍ تزيد على اثنتي عشرة سنة. على الرغم من التغييرات يتذكر هذا الجسد منذ زمن الاستحمام، وحتى في خوفه، أو بسببه، كان قبل كل شيء يرى الطفلة سريعة التأثر. لكنه يدري أن هذه المرأة الشابة ستكون واعيةً بعمق بما يكتشفه والدها في هذه اللحظة بعينها في التعريج المثقل والانتفاخ المكتنز لبطنها وتراص نهديها الصغيرين. كيف لم يخمن ذلك في وقت أبكر ؟ باللمعنى التام الذي يخلقه هذا التغير، تنوعات مزاجها، الشعور بالنشاط والخفة، والفكرة القائلة إنها يجب أن تبكي على إهداءٍ ما. يقيناً بدأت هي تقريباً ثلثها الثاني من الحمل

إنما ليس ثمة وقت للتفكير به. باكستر لم يغيّر وضعه. روزاليند تشكو من إرتعاشات في ركبتيها الآن. نصل السكين يمنعها من أن تدير وجهها نحو زوجها، لكنه يظن إنها تجهد نفسها كي تجده بعينيها.

ديزي قبالتهم ويقول نايجيل، ((ياللمسيح. في النادي. هي لك بكل معنى الكلمة، أيها الرفيق.))

((اخرس))، يقول باكستر.

من دون أن يشاهده أحد إتخذ بيروني نصف خطوة نحوه.

((حسن، حسن. انظر الى ذلك!)) يقول باكستر فجأةً. إنه يشير بيده الطليقة عبر الطاولة الى كتاب ديزي. يمكنه أن يخفي إرتباكه وعدم إرتياحه لمنظر امرأة حامل، أو يمكنه أن يتطلع الى سبل لإطالة الإذلال. هذان الشابان غير ناضجين، ربما من دون تجرية جنسية كبيرة. حالة ديزي أربكتهما. أغلب الظن أثارتْ فيهما الإشمئزاز. إنه مجرد أمل. باكستر أوصل الأمور عنوةً الى هذا الحد البعيد، ولا يدري ما الذي يفعله. الآن يرى (بروفة) كتابها راقدةً على الكنبة المقابلة، وينتهر فرصةً.

((مررّ إليَّ ذلك، نايجي.))

ويتحرك نايجيل كي يسترد الكتاب، يجر هنري قدميه مقترباً. ثيو يفعل الشيء ذاته.

((! مركبي الأنيق !. تأليف ديزي بيروني الأنيقة.)) يقلب باكستر الصفحات بيده اليسرى. ((لم تخبريني أنكِ تكتبين

القصائد. هذا كله عملكِ، أليس كذلك ؟))

((اجل.))

((لابد أنك شديدة الذكاء.))

يقدّم لها الكتاب. ((اقرأي واحدة. اقرأي أفضل قصيدة. هيا دعينا نسمع قصيدةً.))

وهي تأخذ الكتاب منه توسلتْ إليه قائلةً: ((سأفعل أي شيء تريده. أي شيء. إنما أرجوك ابعد السكين عن عنقها.))

((أسمعتَ ذلك ؟)) يقهقه نايجيل. ((تقول أي شيء. هيا، ديزي الأنيقة.))

((لا، معذرةً))، يقول باكستر لها، كما لو إنه مخيب الأمل شأنه شأن أي واحد آخر. ((شخص ما ربما يزحف فوقي.)) وينظر عبر كتفه الى بيروني ويغمز بعينه.

الكتاب يهتز في كفيها في ما هي تفتحه عشوائياً.

تجر نَفَساً وكانت على وشك أن تبدأ بالقراءة حين راح نايجيل يقول، ((لنستمع الى أكثر القصائد بذاءةً. شيء ما فاحش حقيقةً.))

لدى سماعها ذلك، انهارت عزيمتها. تغلق الكتاب. ((لا أستطيع أن أفعل ذلك))، راحت تبكي. ((لا أستطيع.))

((سوف تفعلين ذلك))، يقول باكستر. ((أم أنكِ سوف تشاهدين يدي. أتريدين ذلك؟))

يقول لها غراماتيكوس بهدوء، ((ديزي، استمعي إليّ. اقرأي

قصيدةً اعتدتِ على قراءتها لي.))

يصرخ نايجيل قائلاً، ((اخرس، أيها الجد.))

نظرتْ الى غراماتيكوس بانشداه حين تكلم، إنما الآن يبدو أنها تفهم ما قصده. تفتح الكتاب مرةً أخرى، وتقلّب الصفحات الى الوراء، تبحث عن موضع القصيدة، وعندئذ، مع نظرة الى جدها، تبدأ بالقراءة. صوتها أجش وخفيض، قلما تستطيع يدها حمل الكتاب بسبب الاهتزاز، وترفع اليد الأخرى كي تحمله أيضاً.

((كلا))، يقول باكستر. ((ابدأي من جديد. لم أسمع كلمةً من ذلك. لم اسمع شيئاً.))

لذا تشرع من جديد، نادراً ما كان صوتها مسموعاً. كان هنري قد تصفح كتابها مرات قليلة، غير أن هناك بعض القصائد طالعها مرةً واحدة فقط ؛ هذه القصيدة هو فقط نصف يتذكرها. الأبيات تدهشه – واضح، إنه لم يقرأها بانتباه كافٍ. إنها بصورةٍ غير اعتيادية: تأملية، منسابة برقة ومهجورة بصورة متعمدة. رمتْ نفسها للوراء في قرن آخر. الآن، هو في حالته المروّعة، يفتقد أو يسيء فهم الكثير، لكن في ما كان صوتها يرتفع قليلاً ويجد بدايات ايقاع هادئ، يحس بأنه ينزلق عبر الكلمات الى الأشياء التي تصفها. يرى ديزي على سطح بيت يطل على ساحل بحرٍ ما في ليلةٍ صيفية يبدد فيها ضوء القمر العتمة، البحر ساكن والمد عال، الهواء ذو رائحة ما، هناك توهج أخير للغروب. تنادي على عشيقها،

هو بالتأكيد الرجل الذي سيغدو ذات يوم أباً لطفلها، كي يأتي وينظر، أو، بالأحرى، أن يرهف السمع للمشهد. يرى بيروني شاباً ناعم البشرة، عارياً حتى الخصر، يقف الى جانب ديزي. معاً يصغيان الى الأمواج المتكسرة تهدر على الحصى، ويسمعان في الضجيج حزناً عميقاً يمتد للوراء بكل معنى الكلمة الى الأزمنة الموغلة في القدم. تعتقد هي أن ثمةَ زمناً آخر، حتى أكثر قدماً، حين كانت الأرض جديدةً. والبحر مسلياً، ولا شيء يتدخل بين الإنسان والباري. إنما هذا المساء العاشقان يسمعان فقط الحزن والضياع في صوت الأمواج وهي تتكسر على الساحل وتتراجع عنه. تلتفت إليه وقبل أن يقبل أحدهما الاخر تخبره إنه يجب أن تربطهما علاقة حب متبادل وأن يكونا وفيين، بخاصةٍ الآن وقد أصبح لهما طفل، وحينما لا يكون هناك سلام أو يقين، وحينما تقف جيوش الصحراء متأهبةً للقتال.

ترفع بصرها الى الأعلى. غير قادرة على السيطرة على التشنجات العضلية في ركبتيها، روزاليند ما تزال تنظر الى ابنتها. الجميع يراقبون باكستر، وينتظرون. إنه مندفع الى الأمام، يسند ثقله على مؤخرة الكنبة. مع إن يده اليمنى لم تتحرك عن عنق روزاليند، مسكته على السكين تبدو رخوةً أكثر، ووقفته، الزاوية الخاصة المطواعة لعموده الفقري، كلها توحي بانحسار محتمل للهدف. هل يمكن أن يحدث، في حدود الواقع، أن مجرد قصيدة لـ ديزي يمكن أن تؤدي الى تغير في المزاج ؟

في الختام يرفع رأسه ويقوّم جذعه قليلاً، وبعدها يقول فجأةً

بشيء من النكد، ((اقرأيها ثانية.))

تعيد صفحةً، وبمزيدٍ من الثقة، تجرب النبرة المغوية، المختلفة لراوية قصة تسلب لب طفل، وتبدأ بقراءة القصيدة من جديد. ((البحر هادئ، هذه الليلة. المد حافل، القمر يستلقي جميلاً فوق المضيق – على الساحل الفرنسي الضوء يومض ويختفي...))

أغفل هنري أول مرة ذكر جروف بريطانيا ((تومض الآن وفسيحة في الخليج الهادئ)). الآن يبدو أن ليس ثمة سطح بيت، إنما نافذة مفتوحة ؛ ليس هناك شاب، أب الطفل. بدلاً من ذلك يرى باكستر يقف وحيداً، مرفقاه مسندان على حافة النافذة، يصغي الى الأمواج ((تجيء بنغمة الحزن السرمدية)) هي ليست العصور القديمة بكل معنى الكلمة، انما فقط سوفوكليس الذي وحد هذا الضجيج مع ((المد والجزر المضطربين للبؤس الانساني)). حتى في حالته هذه، يتوقف هنري فجأة عند ذكر ((بحر الايمان)) و فردوس متألق لكمال ضائع في الماضي البعيد. ثم مرةً أخرى، عبر أذني باكستر يسمع ((كآبة البحر، هديره الطويل المرتد، يرجعان الى نَفَس ريح الليل، هابطين الحافات الفسيحة والحصى الموحش والعاري للعالم.)) يبدو ذلك أشبه بلعنة موسيقية. الالتماس من أجل أن يكونا مخلصين لأحدهما الآخر يبدو ميئوساً منه في غياب السعادة أو الحب أو الضياء او السلام أو ((العون لتخفيف الألم)). حتى في عالمٍ حيث ((الجيوش الجاهلة تتصادم ليلاً))، يكتشف هنري في الاستماع الثاني عدم ذكر صحراء ما. يصمم على أن رخام[١٦] القصيدة في خصامٍ مع تشاؤمها.

يشق علينا أن نقول، ذلك أن وجهه لم يكن ساكناً، الا أن باكستر يبدو فجأة مبتهجاً. كفه اليمنى ابتعدتْ عن كتف روزاليند والسكين عادتْ الآن الى جيبه. بقيت نظراته مركزةً على ديزي. الراحة التي تحس بها تستطيع أن تحوّلها، بواسطة عمل فذ من ضبط الذات والاخفاء (بقصد الخداع)، الى سيماء الحيادية، مظهرةً إياها فقط من خلال إرتعاشة في شفتها السفلى في ما هي تبادله النظرات. ذراعها تتدليان الى جنبيها من دون حماية. غراماتيكوس يقبض على يد روزاليند. الاشمئزاز الذي أصغى به نايجيل الى القصيدة ثاني مرة تلاشى تدريجياً من وجهه. يقول لـ باكستر، ((سآخذ السكين، في ما أنتَ تنجز العمل.))

يقلق هنري لأن أي تذكير من نايجيل بشأن هدف الزيارة، يمكن أن يؤدي الى انتقال ثانٍ للمزاج من حالٍ الى حال، إلى ردة ما.

بيد أن باكستر كسر صمته وراح يقول بتأثر، ((أنتِ كتبتِ ذلك. [كتبتِ] ذلك.))

انه تعبير، وليس سؤالاً. تتطلع ديزي إليه، منتظرةً.

يقول من جديد، ((كتبتِ ذلك)) وبعدها، بسرعة، ((إنه شعر جميل. أنتِ تعرفين هذا، أليس كذلك. انه شعر جميل. وأنت التي كتبته.))

لمْ تجرؤ على أن تقول شيئاً.

((جعلني أفكر في المكان الذي نشأتُ فيه.))

هنري لا يتذكر أو يبالي أين كان ذلك. يريد أن يصل الى

ديزي كي يحميها، يريد أن يصل الى روزاليند، إلا إنه خائف طالما أن باكستر باق قريباً منها. حالته العقلية متوازنة بدقةٍ شديدةٍ، مشوشة بسهولة. من المهم أن لا يدهشه أو يتوعده.

((أوي، باكستر.)) يميل نايجيل رأسه نحو ديزي ويبتسم ابتسامةً متكلفةً.

((كلا. غيّرتُ رأيي.))

((ماذا ؟ لا تكنْ جباناً.))

((لماذا لا ترتدين ثيابك))، يقول باكستر لـ ديزي، كما لو أن عريها كان فكرتها الغريبة.

على مدى لحظة لم تأتِ بأي حركة، وكانوا ينتظرونها.

((لا أستطيع أن أصدق))، يقول نايجيل. ((انتهينا من هذه المسألة كلها.))

تنحني كي تستعيد كنزتها الصوفية الغليظة وتنورتها وتبدأ بلبسهما.

يقول باكستر بتلهف، ((كيف استطعتِ أن تفكري بذلك ؟ أعني، كتبته بصعوبة.)) وبعدها راح يقولها ثانيةً، مرات عدة. ((أنتِ كتبته !))

تتجاهله. حركاتها فظة وهي ترتدي ثيابها، ربما هناك حتى غضب في الطريقة التي تركل فيها جانباً الثياب الداخلية التي تتركها مطروحةً على الأرض. تريد هي أن تغطي نفسها وأن تصل الى أمها، ليس ثمة شيء آخر تبالي به. باكستر لا يجد شيئاً

استثنائياً في تحوّل دوره، من أمير الارهاب الى معجب مشدوه. أو طفل مستثار. هنري يسعى الى أن يجذب إنتباه عين ابنته على أمل أن يحذرها بصمت من مغبة الاستمرار في مسايرة باكستر. لكنها هي وأمها الآن تعانقان إحداهما الأخرى. ديزي تجثو على الأرض، نصف مستلقية عبر حضن روزاليند، وذراعاها تطوّقان عنقها، وهما الآن تتهامسان وتستكنان في دعة ودفء، غافلتين عن باكستر المرفرف خلفهما، والذي كان يحني جسده إنحناءاتٍ صغيرةً مسعورةً. يغدو الآن ممسوساً، يتلعثم بكلماته، ويحوّل وزنه بسرعة من قدمٍ الى أخرى. سمحت ديزي لكتابها أن يسقط على المنضدة حين مضت الى روزاليند. الآن باكستر ينطلق بسرعة الى الأمام ويمسك به، يلوّح به في الهواء، كما لو أن بوسعه أن يهز المعنى منه.

((آخذ هذا))، يصيح. ((قلتِ أن بوسعي أن آخذ أي شيء أريده. لذا فإنني آخذ هذا. حَسن ؟)) يوجه كلامه الى مؤخرة عنق ديزي.

((براز))، يهسهس نايجيل.

انه من جوهر عقلٍ منحط، أن يفقد بشكل دوري كل الادراك المتعلق بذاتٍ مستمرة، ومن هنا فقدان أي إحترام لما يفكر به الآخرون في افتقادك للاستمرارية. نسي باكستر أنه أرغم ديزي على أن تتجرد من ثيابها، أو كونه توّعد روزاليند. مشاعر فعالة طمست الذاكرة. في الاندفاع العاطفي المفاجيء لتقلب مزاجه، يقيم في الضوء الموضعي الساطع المحدود للحاضر. هذه هي اللحظة

المناسبة للهجوم عليه. يحدق هنري من جانب الى آخر ناظراً الى ثيو الذي يومئ برأسه إيماءةً بطيئة الحركة تعبيراً عن الموافقة. على الكنبة، يجلس غراماتيكوس، يداه فوق كتفي ابنته وحفيدته. روزاليند وديزي ما تزالان في عناقهما – يشق علينا أن نصدق أنهما بمنأى عن الخطر، أو انهما من خلال تجاهل باكستر تجعلان نفسيهما أكثر أماناً. يصمم هنري، إنه الحمل، حقيقته الساحقة. آن أوان الفعل.

باكستر يصيح تقريباً من جديد. ((لن آخذ أيَّ شيء آخر. أتسمعينني ؟ هذا فقط. هذا هو كل ما أريده.)) يتشبث بالكتاب كطفل شره يخشى أن يسحبوا منه متعةً ما.

يحدق هنري من ناحية الى أخرى ناظراً الى ثيو من جديد. يتقدّم إليه شيئاً فشيئاً ويبدو متوتراً، متهيئاً للقفز. نايجيل يقف بينهما، يراقب – إلا أنه ساخط وثمة فرصة إنه لن يفعل شيئاً. وفضلاً عن ذلك، هو، بيروني، أقرب الى باكستر ومن المؤكد سيصل إليه قبل أن يكون بوسع نايجيل أن يتدخل. مرةً ثانيةً، يشعر بيروني أن نبضات فؤاده تقرع في أذنيه، ويرى دزينةً من الطرائق التي من الممكن ان يسير فيها الأمر في الطريق الخاطئ. ينظر هنري مرةً أخرى الى ثيو، ويقرر أن يحسب في باله الى الرقم ثلاثة، وبعدها ينطلق، مهما تكن العواقب. واحد....

فجأةً يستدير باكستر. إنه يلعق شفتيه. ابتسامته ندية وشديدة الابتهاج، عيناه ساطعتان. الصوت دافئ، ويرتعش باحساس

مكثف.

((سأخضع لتلك التجربة. أعرف كل شيء عنها. هم يحاولون أن يجعلوها منعزلةً وبعيدةً عن الأنظار، لكنني أعرف كل ما يتعلق بها. أعرف ماذا يجري بالضبط.))

((تباً))، يقول نايجيل.

بيروني يبقي على نبرته صريحةً. ((أجل.))

((سوف تريني ما يتعلق بالتجربة.))

((نعم، التجربة الأمريكية. إنها في الطبقة العليا، في مكتبي.))

كاد ينسى كذبته. ينظر ثانيةً الى ثيو الذي يبدو الآن إنه يحفزه بعينيه على الاستمرار في هذا النهج. الا أنه لا يدري أن ليس ثمة تجربة. وسيكون ثمن تخييب أمل باكستر باهضاً.

يضع الكتاب في جيبه ويخرج السكين ويلوح بها أمام وجه بيروني.

((هيا اصعد، اصعد ! سأكون وراءك مباشرةً.))

إنه في وضع معنوي عالي، يمكنه أن يطعن أي امرئ في خضم سعادته. إنه يتكلم مثرثراً كالطفل أو كالمعتوه.

((التجربة. تريني كل شيء. كل ما يتعلق بها، كل ما يتعلق بها....))

يريد هنري أن يذهب الى روزاليند، يمس يدها، يتحدث اليها، يقبلها – أصغر تغيير سيكون كافياً – غير أن باكستر أمامه

مباشـرة الآن، بتلـك الرائحـة المعدنيـة الخاصـة لأنفاسـه. الفكـرة الرئيسة هـي أن يسـحبه بعيداً عن الآخرين، وأن يفصله عن نايجيل. ليس ثمة سبب يمنعه من إنجاز ذلك. لذا، مع نظرةٍ يائسةٍ أخيرةٍ في إتجاه روزاليند، يستدير هنري ويمشـي ببطء صوب الباب.

((تقـوم أنـتَ بمـراقبتهم))، يقـول باكسـترلـ نايجيـل. ((كلـهم خطرون.))

يتبـع بيرونـي عـبر الـرواق، ويأخـذان في صـعود درجـات الـسلم، خطواتهما ترن في الوقت نفسه على الحجر. يحاول هنري أن يتذكر أي الأوراق الملقاة هنـا وهنـاك على مكتبـه الـتي بوسـعه أن يمررهـا بصورة معقولة ظاهـرياً.لا يستطيع أن يتـذكـر، وأفكـاره مرتبكـة بسبب الحاجة الى وضع خطة. هناك مثقلة تمنـع الـورق من التطـاير بوسعه أن يرميها ومشك سلكي[(١٧)] ضخم وقديم. كرسـي مكتب تجبير الأعضاء ذو الظهر العالي سيكون أثقل من أن يرفع. هو حتى لا يملك سـكين ورق. باكسـتر خلفـه بخطـوة واحـدة، مباشـرةً وراء كعبيه. أغلب الظن ركلة الى الوراء ستكـون هـي الحل.

((أعـرف إنهـم يبقونهـا منعزلـة وبعيـدة عـن الأنظـار))، يكـرر باكسـتر. ((إنهم يرعون ذويهم، أليس كذلك ؟))

كانـا قـد وصـلا منتـصف الطـريق الـصاعد. حتـى إذا كانـت التجربة موجودة، لماذا يعتقد باكستر أن هذا الطبيب سيفي بعهده بدلاً من أن يستدعي الشرطة ؟ لأنه مبتهج فضلاً عن كونه متهوراً بـسبب اليـأس. لأن عواطفـه طائـشة وتـصميمه موجـود. بـسبب

الاضعاف في نواته الشبيهة بالذيل والبوتامين العائد له وفي منطقتيه الجبهية والصدغية. بيد أن أياً من هذا ليس له صلة بالموضوع. يحتاج بيروني الى خطة، وأفكاره عجولة جداً، وافرة جداً – والآن هو وباكستر على المنبسط العريض للسلم خارج غرفة المكتب، التي هيمنت عليها النافذة الطويلة التي تطل على الشارع، تحديداً في الموضع الذي يلتقي فيه بالساحة.

يتردد هنري لحظةً عند العتبة، على أمل أن يرى شيئاً من المحتمل أن يستخدمه. مصابيح المكتب لها قواعد ثقيلة، إلا أن أسلاكها المتشابكة سوف تقيّده. على رفٍ من رفوف الكتب ثمة تمثال حجر صغير عليه أن يقف على أطراف أصابعه كي يبلغه. بخلاف ذلك، الحجرة أشبه بمتحف، بمعبد، مكرّسة لعصر آخر، خالٍ من الهم – على الأريكة المغطاة بسجادة بخارى يرقد مضرب (السكواش) العائد له حيث رماه حين أقبل الى هنا ليرى لائحة عمليات يوم الاثنين. على الطاولة الضخمة عند الجدار، حافظة الشاشة – تلك الصور المأخوذة من تلسكوب (هوبل) للفضاء الخارجي البعيد، سحب الغاز على مبعدة سنوات ضوئية، نجوم ميتة وكائنات خرافية ضخمة حمر تخفق في تقليل الهموم الدنيوية. على المكتب القديم عند النافذة، ثم أكداس من الأوراق، لعلها الأمل الوحيد.

((استمر إذاً))، يدفعه باكستر في الجزء الصغير من ظهره، ويدخلان الحجرة معاً. إنه إحساس حالم، في أن يمضي بهدوء، بلا مبالاة، من دون احتجاج موجه الى التحطيم. لا يرتاب هنري في أن

باكستر يشعر بأنه حر بدرجة كافية كي يقتله.

((أين هي ؟ أرني.))

إلحاحه وثقته طفوليان، إلا إنه يلوح بسكينه. لسببيهما المختلفين، كلاهما يتوق الى دليل على تجربة طبية ودعوة لـ باكستر للانضمام الى الجماعة المتمتعة بالامتيازات. يمضي هنري الى المكتب الكائن عند الشباك حيث يوجد كدسان من المجلات وطبعات جديدة منفصلة لمقالات ظهرت أصلاً في المجلات، كل كدس يتكئ على الآخر. مخفضاً نظره، يرى تقريراً عن إجراء جديد للالتصاق الفقري، وتقنيةً جديدةً لفتح الشرايين السباتية المسدودة، وشيئاً من الشك المرجح حول إصابة الكرة الشاحبة[١٨] بضرر جراحي خلال معالجة مرض الباركنسون. يختار التقرير الأخير ويرفعه الى الأعلى. لم تكن له أدنى فكرة حول ما يفعله بعد أن يؤخر اللحظة الحاسمة. أفراد أسرته في الطبقة السفلى، ويشعر بوحدة شديدة.

يبدأ حديثه قائلاً: ((هذا التقرير يصف البنية.)) يرتجف صوته، كما يحتمل أن يكون صوت الكذاب، أي كذاب، إلا أن ليس ثمة ما يستطيع أن يفعله غير الاستمرار في التكلم. المسألة هي هذه. الكرة الشاحبة هي شيء جميل نوعاً، في أعماق العقد العصبية القاعدية، واحدة من أقدم أجزاء الجسم المخطط[١٩]، ومقسّم الى فصين هما....))

إلا أن باكستر لم يعد ينتبه — أدار رأسه كي يرهف السمع.

من الطبقة السفلى يسمعان وقع أقدام ثقيلة سريعة تقطع الرواق، ثم صوت الباب الأمامي يُفتح ويُغلق بعنف. هل تم التخلي عنه للمرة الثانية هذا اليوم؟ يسرع عبر حجرة المكتب ويخطو مسرعاً صوب منبسط السلم. يلقي هنري المقالة ويتبعه. ما يشاهدانه هو ثيو آتياً إليهما ركضاً، واثباً على درجات السلم ثلاثاً في كل وثبة، ذراعاه ترتفعان وتنخفضان كمقبض المضخة، كاشفاً عن أسنانه بصورة وحشية في ما هو يقوم بهذا المجهود. يطلق صيحةً عاجزةً عن الافصاح تبدو أشبه بأمر. كان هنري قد بدأ بالحركة. باكستر يسحب السكين من جديد. يمسك هنري برسغه بكلتا يديه، مثبتاً الذراع في موضعها. هو ذا التماس يحدث أخيراً. بعد لحظة، يندفع ثيو بقوة الى الامام من درجتين في الأسفل ويأخذ باكستر من عروتي سترته الجلد، وبحركة مجدولة سوطية من بدنه يجرّه مزعزعاً توازنه. في الوقت نفسه، بيروني، الذي ما يزال قابضاً على الذراع، يدفع بكتفه، ومعاً راحا يرميانه الى الأسفل فوق درجات السلم.

يسقط الى الوراء، بذراعين ممدودتين، ما يزال يحمل السكين في يده اليمنى. ثمة لحظة، يبدو أنها تتجلى للعيان تدريجياً وتتمدد بترف، حين يغدو كل شيء هادئاً وساكناً، حين يصبح باكستر منقولاً كلياً في الجو، معلقاً في الزمن، ينظر مباشرةً الى هنري بتعبير لا يمت بصلة كبيرة الى الهول، مثلما يمت بها الى الرعب. ويعتقد هنري إنه يرى في العينين البنيتين الواسعتين إتهاماً حزيناً بالخداع. هو، هنري بيروني، يملك الكثير جداً - العمل، المال، المنزلة الاجتماعية، البيت، وقبل كل شيء، الأسرة – الابن

اللطيف المعافى بيدي عازف القيثارة القويتين جاء لينقذه، الشاعرة الجميلة فضلاً عن كونها ابنته، التي لا يمكن الوصول إليها حتى في عريها، والد زوجته ذائع الصيت، الزوجة الموهوبة، المحببة الى القلب، وهو لم يفعل شيئاً، لم يعطِ شيئاً لـ باكستر الذي يملك القليل جداً مما لم يتلفه جينه المصاب بالخلل، وإنه حالاً سيملك حتى أقل مما سبق.

سلسلة درجات السلم قبل الاستدارة طويلة، الدرجات أحجار صلدة. بصوتٍ مترقرق، أشبه بالجرس، قدم باكستر اليسرى تقوم بحركات سريعة مفاجئة على طول صفٍ من أعمدة الدرابزون الحديد، قبل أن يضرب رأسه بلاط نصف المنبسط ويصطدم بالجدار، إنجات قلائل أعلى لوح إزار الحائط.

كانوا في أشكالٍ شتى من الصدمة، وظلوا هكذا على مدى ساعاتٍ من مغادرة رجال الشرطة وبعد أن أخذ نظراء الأطباء باكستر بعيداً في سيارة الاسعاف الخاصة بهم. إنفجارات مفاجئة من التذكر الملح، المليء بالدموع تخللتها ضروب الصمت اللامبالية. ما من أحد يريد أن يبقى وحيداً، لذا مكثوا في حجرة الجلوس معاً، أُوقعوا في شركٍ في حجرة انتظار، منطقة إنسان نكرة تعزل محنة كل واحد منهم، وتمنعهم عن استئناف حيواتهم. بمرونة الشباب وسرعة تكيفهم، ينزل ثيو ومعه ديزي الى الأسفل حيث المطبخ ويعودان مع زجاجات النبيذ الأحمر، الماء المعدني وطاس من ثمار شجر البلاذر الغربي، فضلاً عن الثلج وقطعة قماش لعمل كمادة لأنف جدهما.

بيد أن الكحول، مع كونه لذيذاً، قلّما يؤثر تأثيراً قوياً. ويجد هنري أنه يفضل أن يشرب الماء. ما يلبي احتياجهم هو التماس – إنهم يجلسون، كل واحد منهم قريب من الآخر، يتماسكون بالأيدي، يتعانقون. كانت الكلمات الختامية للضابط الخافر لدائرة المباحث الجنائية هي أن زملاءه سوف يأتون صباحاً كي يأخذوا إفادات رسمية منهم بصورة منفردة. وهكذا فإنهم لن يناقشوا أو يقارنوا شهادتهم. إنها وصفة طبية ميئوس منها، ولم يخطر ببالهم أن يتبعوها. ما من شيء يفعلونه سوى التكلم، إلتزام الصمت، ومن ثم التكلم من جديد. كان لهم إنطباع في أن يديروا تحليلاً دقيقاً لوقائع المساء الرهيبة. لكنها إعادة تشريع أبسط، وأكثر حيوية. جل ما يفعلونه هو الوصف: متى دخل الرجلان الحجرة، متى إستدار، متى خرج الطويل ذو الوجه الحصاني من المنزل... إنهم يريدون أن يصفوا الأحداث كلها ثانيةً، من وجهة نظر أخرى، وأن يعرفوا أن الأحداث التي جرت لهم هي حقيقية بكل معنى الكلمة، وأن يشعروا في هذه المقارنات الدقيقة للإحساس والملاحظة بأنه تم تحريرهم من كابوس شخصي وإنهم عادوا الى شبكة العلاقات الاجتماعية والعائلية الطبيعية، التي من دونها يكونون لا شيء. كانوا قد أُكتسحوا وتمت الهيمنة عليهم من قبل متطفلين لأنهم لم يكونوا قادرين على الإتصال والعمل معاً؛ الآن أخيراً بوسعهم أن يفعلوا ذلك.

يعتني بيروني بأنف والد زوجته. جون يرفض الذهاب الى شعبة الطوارئ تلك الليلة، ولم يحاول أحد أن يقنعه. الورم يجعل

التشخيص عسيراً، الا أن أنفه لم يتزحزح عن وضعه في الخط الأوسط، ويخمن بيروني حدوث كسر طفيف في بروزات الفك الأعلى – فذلك أفضل من الغضروف الممزق. أغلب هذه المدة الزمنية من المساء يمضيها هنري جالساً بالقرب من روزاليند. تريهم رقعةً حمراء وجرحاً صغيراً في عنقها، وتصف لحظةً كفتْ فيها عن أن تكون مروّعة وأمست غير مكترثة بمصيرها.

((شعرتُ بنفسي أعوم))، تقول. ((بدا كما لو كنتُ أراقب أنفسنا جميعاً، بضمنهم أنا نفسي، من زاويةً ما في الحجرة، عالياً في السقف. وفكرتُ، إنه إذا ما قيّض للأمر أن يحدث، فلن أحس بشيء، لن أبالي.))

((حسن، انحن ! كنا سنبالي))، يقول ثيو، يقهقهون بصوت عالٍ، عالٍ جداً.

تتحدث ديزي بمرح سريع الزوال حول التجرّد من الثياب أمام باكستر. ((حاولتُ أن أتظاهر بأنني كنتُ في سن العاشرة، طالبة مدرسة ابتدائية، أغيّر ملابسي كي أمارس لعبة [الهوكي]. كنتُ أكره معلمة الألعاب الرياضية وكنتُ أبغض نزع ثيابي حين تكون حاضرة. إلا إنني أتذكرها كونها مدّتْ لي يد العون. ثم حاولتُ أن أتخيل انني كنتُ في حديقة البيت الريفي الضخم، ألقي الشعر في حضرة جدي.))

المسألة التي لم يتم التكلم عنها هي حمل ديزي. يعتقد هنري، إنها سابقة لأوانها، لأنها (أي ديزي) لم تشرْ إليها، ولا حتى

روزاليند فعلت ذلك.

يقول غراماتيكوس من خلف الكمادة، ((كما تعرفون، يبدو الأمر مجنوناً تماماً، غير إنه جاءت مرحلة بعد أن ألقت ديزي قصيدة [أرنولد] للمرة الثانية حين بدأتُ حقيقةً أشعر بالأسف على ذلك الشخص. أعتقد، عزيزتي، إنكِ جعلته يقع في شباك حبك.))

((من هو أرنولد ؟)) يقول هنري، ويجعل ديزي وجدها يقهقهان. يضيف هنري، لكن يبدو أنها لا تسمع، ((كما تعرفين، لا أعتقد أنها واحدة من أفضل قصائدك.))

يعرف ما يعنيه غراماتيكوس؛ وبوسعه أن يبدأ بإخبارهم جميعاً حول حالة باكستر المرضية، غير أن هنري نفسه يخضع الى تحوّل في المشاركات الوجدانية، منظر الكشط في عنق روزاليند يحجر فؤاده. أي ضعف، أي حماقة تضليل، أن تسمح لنفسك بالتعاطف مع إنسان ما، مريضاً كان أم لا، يجتاح منزلك بهذه الطريقة. في ما يجلس مصغياً للآخرين، الغضب يتنامى، الى أن يبدأ تقريباً بالندم على العناية التي قدّمها بصورةٍ روتينية لـ باكستر بعد سقوطه من درجات السلم. كان بوسعه أن يتركه يموت بسبب نقص في وصول الاوكسجين الى أنسجة الجسم، عدم القدرة على الدفاع من خلال الصدمة. بدلاً من ذلك، نزل مباشرةً مع ثيو، ليجد باكستر نصف واعي، فتح مجراه التنفسي بأن دفع فكه الاسفل بقوة ؛ مفترضاً حصول أذى في العمود الفقري، أوضح لـ ثيو كيف يمسك برأس باكستر في ما كان يرتجل صنع ياقة من المناشف

الموجودة في حمام نصف – المنبسط. في الطبقة السفلى، كانت روزاليند تستدعي سيارة اسعاف – الخطوط الأرضية لم يتم قطعها. مع ثيو الذي ما يزال يمسك برأس باكستر، دحرجه بيروني الى وضع الشفاء، وتطلّع الى علامات حيوية أخرى. لم تكن هذه جيدة جداً. كان التنفس ضاجاً، النبض بطيء وضعيف، بؤبؤا العينين غر متساويين نوعاً ما. خلال هذه الآونة، كان باكستر يغمغم مع نفسه في ما هو راقد هناك بعينين مغمضتين. كان قادراً على الاستجابة حينما نودي باسمه، وحين أُمر بأن يضمّ قبضته – يضع بيروني [مقياس غيبوبة غلاسكو] عند الدرجة الثالثة عشرة. مضى الى مكتبه واتصل حالاً بشعبة الطوارئ، تحدث الى الطبيب المقيم الأقدم وأخبره بما يتوقعه وأن يكون مستعداً لطلب إجراء فحص المفراس الحلزوني وأن ينبه جراح الأعصاب الخافر. عندئذ لم يكن هناك ما يفعله سوى أن ينتظر الدقائق الأخيرة. خلال ذلك الوقت استطاعا أن يسهلا إخراج كتاب ديزي من جيب باكستر. واصل ثيو اسناد رأسه الى ان وصل شابان من المستشفى يرتديان بذلتين خضراوين، وضعا شريطاً على زنده وبحسب أمر بيروني زرقوا سائلاً شبه غروي في وريده.

وصل شرطيان دعماً لسيارة الاسعاف، وبعد مرور دقائق قليلة، حضر رجل دائرة المباحث الجنائية. بعد أن إلتقى أفراد الأسرة، وسمع وصف بيروني الذي قال لهم أن الوقت متأخر جداً، وأن الجميع قلقون جداً الآن بحيث إنهم لا يستطيعون أن يقدّموا إفادات. أخذ من هنري رقم لوح ترخيص الـ (بي أم دبليو) الحمراء وسجل

ملاحظة عن الـ (سبيرمنت راينو). عاين الجرح البليغ في الكنبة، ثم عاد الى الطبقة العليا، جثا بجانب باكستر، إنتزع السكين من يده واسقطها في كيس لدائني معقم. أخذ مسحةً للدم المتيبس من برجميات كف باكستر اليسرى- كان في الأرجح دم أنف غراماتيكوس.

قهقه رجل البوليس السري بصوتٍ مرتفع حين سأله ثيو ما اذا إقترف هو ووالده أي جريمة في رميهما باكستر من درجات السلم.

مس باكستر بطرف حذائه المستدق. ((أشك في ما اذا سيرفع شكوى. ونحن بالتأكيد لن نفعل هذا.))

اتصل رجل البوليس السري بمخفره كي يرتبوا إرسال شرطيين الى المستشفى كي يقفا حارسين على باكستر في أثناء الليل. حين يستعيد وعيه سيتم إعتقاله. الواجبات الرسمية ستأتي لاحقاً. بعد أن حذروهم بخصوص تقاسم الدليل، غادر رجال الشرطة الثلاثة. نظراء الأطباء ثبتوا باكستر بساندة وقولبوه على لوح فقري وحملوه الى سيارة الاسعاف.

يبدو أن روزاليند كانت تستعيد وضعها السوي بصورة مؤثرة. أغلب الظن فقط نصف ساعة بعد أن غادر رجال الشرطة وسيارة الاسعاف حين اقترحتْ إنه ربما خير للجميع أن يأتوا ويتناولوا الطعام. ما من أحد له شهية، الا أنهم تبعوها نازلين الى المطبخ. في ما كان بيروني يسخن مرقه من جديد ويأخذ من الثلاجة الكهربائية البطلينوسات، بلح البحر، سمك القريدس وسمك

الراهب، رتب الابنان المائدة، راحت روزاليند تقطع الخبز الى شرائح وتصنع توابل للسلطة، ويضع غراماتيكوس كمادة الثلج العائدة له كي يفتح قنينةً أخرى من النبيذ. هذه الفعالية المشتركة سارة، وبعد مرور عشرين دقيقة كانت وجبة الطعام جاهزة، وها هم جائعون أخيراً حتى إننا بصورةٍ ضعيفة نستطيع ان نؤكد من جديد أن غراماتيكوس في طريقه الى السكر، مع إنه يبقى عند مرحلة حميدة. تقريباً في هذا الوقت، في ما هم يجلسون لتناول الطعام، يعرف هنري اسم الشاعر، ماثيو أرنولد، وان قصيدته التي ألقتها ديزي، الموسومة بـ ((شاطئ دوفر))، حاضرة في جميع المنتخبات الشعرية وعادة يتم تلقينها في المدارس كلها.

((على غرار قصيدتك اجبل فوجي!))، يقول هنري، وهي ملاحظة تسر غراماتيكوس سروراً عميقاً وتحثه على أن يقف كي يقترح نخباً. جون باسلوبه المتحرك برشاقة، وهو تأثير ضاعفه أنفه المتوّرم الشبيه بأنف مهرج. يبدو المساء كما لو أنه بدأ من جديد، ذلك أنه في يده كانت (البروفة) الطباعية لـ امركبي الأنيق!.

((انسوا كل ما حدث. نحن نرفع كؤوسنا نخب ديزي))، يقول. ((قصائدها تؤشر بدايةً مشرقةً لمسيرة أدبية وأنا جد فخور بوصفي جداً لـ ديزي ولكون الكتاب مهدى لي. من كان يعتقد أن القصائد التعليمية المحفوظة عن ظهر قلب لقاء مصروف الجيب ستغدو نافعةً جداً يوماً ما. بمقتضى هذه الليلة أعتقد انني مدين لها حتماً بخمس باونات أخرى. نخب ديزي.))

((نخب ديزي))، يردون، وفي ما هم يرفعون كؤوسهم تقبله، يعانقها بدوره – تمت تسوية الخلاف، تم نسيان I رفض جائزة الـ نيودغيتI.

هنري يمس النبيذ بشفتيه، لكنه يكتشف إنه فقد شهيته للكحول. في ما كانت ديزي وجدها يجلسان، يرن الهاتف، وبما إنه الأقرب، يجتاز هنري المطبخ كي يتسلم المكالمة الهاتفية. بسبب كونه في حالة غير اعتيادية، لم يميز حالاً الصوت الأمريكي.

((هنري ؟ هل أنتَ هنري ؟))

((أوه، جي. اجل.))

((اسمع. لدينا إصابة خارج الأم الجافية، ذكر، في منتصف العشرينات، سقط من على درجات السلم. سالي مادن مضت الى بيتها بسبب الزكام قبل ساعة خلت، لذا عندي رودني. الغلام قوي وهو في حالة جيدة ولا يريد أن تكون هنا. لكن هنري، لدينا كسر منخفض فوق التجويف مباشرةً.))

يتنحنح هنري. ((ورم سبخ ؟))

((في البقعة تحديداً. لهذا السبب تدخلت. رأيتُ جراحين عديمي الخبرة يمزقون التجويف رافعين العظم، وأربعة لترات من الدم على البلاط. أريد جراحاً أعلى مقاماً هنا وأنتَ الأقرب إلينا. فضلاً عن كونك الأفضل.))

عبر المطبخ يأتي ضحك عال، غير طبيعي، مضخم كالسابق،

أجش الصوت نوعاً ما ؛ هم لا يتظاهرون حقيقةً بكونهم نسوا خوفهم – هم ببساطة يرغبون أن يعيشوا بعده. هناك جراحون آخرون كان بوسع (جي) أن يتصل بهم هاتفياً ، وكقاعدة عامة ، يتحاشى بيروني اجراء العمليات الجراحية لإناس يعرفهم. غير أن هذه حالة مختلفة. وعلى الرغم من التقلبات المختلفة في موقفه من باكستر، بدأ يتشكل شيء من الوضوح، وحتى بعض التصميم. يعتقد أنه يعرف ما الذي يريد أن يفعله.

((هنري ؟ هل انتَ هناك ؟))

((أنا في طريقي اليكم.))

الفصل الخامس

اعتاد أفراد الأسرة على مغادرات بيروني بعد وجبة العشاء، هذه المغادرات تحدث من حين الى آخر – وفي حالتنا هذه كان هناك حتى شيء من إعادة التوكيد، إيحاء بعالمٍ يعود الى وضعه العادي، في إعلانه بكونه أُستدعي الى المستشفى.

يميل على كرسي ديزي ويقول في اذنها، ((لدينا الكثير مما نتحدث عنه.))

من دون أن تلتفت، تأخذ يده وتعصرها. يكاد يقول لـ ثيو، ربما ثالث مرة في ذلك المساء، أنقذتَ حياتي، لكنه بدلاً من ذلك يبتسم نصف ابتسامة لابنه ويقول، ((أراك لاحقاً.)) لم يبدُ ثيو لطيفاً جداً، جميلاً جداً من قبل مثلما هو الآن. ذراعاه العاريتان الهزيلتان تضطجعان عبر الطاولة ؛ العينان البنيتان الصافيتان، الوقورتان، وأهدابهما المقوّسة، الكمال المستتر لـ الشعر، البشرة، الأسنان، العمود الفقري غير المحني، غير المصاب بعلةٍ ما – يومض في نصف الضوء الخاص بالمطبخ. يرفع كأسه – الماء المعدني – ويقول، ((بابا، أأنتَ متأكد من كونك أهلاً لذلك ؟))

يقول غراماتيكوس، ((هو على حق، كما تعرف. كانت ليلةً طويلةً. كان يمكنك أن تقتل فتىً مسكيناً.)) بشعره الفضي المدفوع للوراء وكمادة الأنف يشبه أسداً ذا لصقة تغطي جرحه في كتابٍ للأطفال.

((أنا في وضع ممتاز.))

كان ثمة حديث حول احضار ثيو لـ قيثارته السمعية كي يرافق جده في ((مشفى سانت جيمس))[1]، ذلك أن غراماتيكوس في مزاج مؤيد لتقليد [دوك واتسون]. روزاليند وديزي ترغبان سماع تسجيل أغنية ثيو الجديدة، ((ساحة المدينة)). كان هناك جو من الابتهاج غير الطبيعي يحيط بالمائدة، من الانطلاق المتهور الذي يذكر هنري بعائلةٍ ما كانت تخرج الى المسرح السنة المنصرمة — أمسية ذات أفعال فظيعة ودموية ومروّعة في (رويال كورت). عند العشاء بعدها أمضوا الأمسية في تذكر جذل لعطل الصيف، وفي الافراط في إحتساء المشروبات.

حين يلقي عليهم تحايا الوداع. ويتأهب للمغادرة، يصيح غراماتيكوس وراءه، ((سنبقى هنا حينما ترجع.))

يعرف بيروني أن هذا غير مرجح، لكنه يومئ برأسه بمرح. روزاليند وحدها التي تحس بالتبدل الأعمق في مزاجه. تنهض على قدميها وتتبعه الى درجات السلم وتراقبه وهو يرتدي المعطف ويجد محفظة الجيب العائدة له وكذلك المفاتيح.

((هنري، لماذا قلتَ نعم ؟))

((إنه هو.))

((لماذا وافقتَ إذاً ؟))

يقفان عند الباب الأمامي بأقفاله الثلاثة والوهج المساعد لدثار المفتاح. يقبلها، ثم تسحبه اليها من طيتي صدر السترة ويتبادلان قبلةً ثانيةً، أطول وأعمق. إنها رسالة تذكير، إستئناف لممارستهما الحب صباحاً، وهي كذلك وعد ؛ هكذا يقيناً ينبغي لهما أن ينهيا يوماً كهذا. كان مذاقها ملحياً، الأمر الذي أثاره. في الأعماق السحيقة لرغبته، يتمدد إنهاكه ككتلة من حجر الجرانيت في قاع البحر. إنما في أزمنةٍ كهذا الزمن، في طريقه الى صالة العمليات، هو خبير مهنياً في مقاومة الاحتياجات كلها.

حين يبتعد أحدهما عن الآخر يقول، ((احتككتُ سيارتي بسيارته صباح هذا اليوم.))

(استنتجتُ ذلك.))

((وكان لنا حسم أحمق للقضية على الرصيف.))

((هكذا ؟ لماذا تشترك في معالجته ؟)) تلعق سبابتها – يحب هو هذه اللمحة من لسانها – وتعدّله له حاجبيه. ان غزارةً، مع حوالق[٢] جامحة بنية، رمادية وبيضاء غير ملطخة تميل الى أن تكون عمودية، هو دليل على التيستوستيرون المتخثر الذي بوسعه أيضاً أن يجعل شعر الأذن والمنخر ينمو على غرار بردي الشتاء. دليل آخر على الانحطاط.

يقول: ((عليَّ أن أواصل هذا الأمر حتى النهاية. أنا مسؤول.))

وفي ردٍ على نظرتها الإستفهامية يضيف قائلاً: ((هو عليل جداً. ربما يعاني من مرض هنتنغتون.))

((هو بصورة جلية شخص غريب الأطوار وفضلاً عن ذلك هو مقرف. لكن هنري. ألم تشرب قبل مجيئي الى البيت ؟ هل تستطيع حقاً أن تجري عمليةً جراحيةً ؟))

((مضى على ذلك مدة كافية. في اعتقادي إن الأدرينالين صحى رأسي نوعاً ما.))

تمس بأصابعها طية صدر سترته، مبقية إياه قريباً منها. هي لا تريده أن يغادر المنزل. يراقبها بوداعةٍ، وبشيء من الدهشة، ذلك أن محنتها جرت قبل ساعتين أو ثلاث وهي ذي الآن، تتظاهر بانها هي نفسها تماماً و، كدأبها دوماً، شديدة التوق الى معرفة مكونات قرار غير اعتيادي، وأن تغرم به بطريقتها الدقيقة، المضبوطة، بوصفها محامية حتى النخاع. يرغم نظرته على تحاشي التوطن على الكشط الكائن على حنجرتها.

((هل ستكون على ما يرام ؟))

تخفض عينيها في ما هي ترتب أفكارها. حينما ترفعهما يرى نفسه، بواسطة خداع ضوئي معين، معلقاً في نسخة مصغرة جداً على الجزء المتوسط الأسود من بؤبؤيها، مطوّقاً بحقل صغير جداً من القزحية نصف الخضراء.

تقول، ((أعتقد ذلك. انظر، أنا قلقة بخصوص مشاركتك في معالجته.))

((أتعنين ذلك حقاً ؟))

((أنت لا تفكر بأن تفعل شيئاً ما، بنوعٍ معين من الإنتقام، أليس كذلك ؟ أريدك أن تخبرني.))

((بطبيعة الحال، لا أفكر بالإنتقام منه.))

يسحبها إليه ويتبادلان قبلةً أخرى، وهذه المرة لسانهما يمس أحدهما الآخر وينزلق كل منهما جنب الآخر – في قاموسهما الشخصي كان هذا نوعاً من الوعد. الإنتقام. بغتةً يرتاب في كونه سمع الكلمة على لسانها من قبل. في كلام روزاليند مقطوع الأنفاس نوعاً، الكلمة ذاتها، تبدو (ايروتيكية). وما الذي يفعله، وهو يغادر المنزل؟ وحتى وهو يتصور المسألة، يعرف هو إنه ذاهب ظاهرياً، إنه زخم بسيط – جي شتراوس وأعضاء الفريق الطبي سيكونون الآن في غرفة الطبيب المخدر، بادئين العمل على مريضه. يملك هنري صورةً ليده اليمنى وهو يفتح الأبواب الدوّارة المؤدية الى حجرة التنظيف. في معنىً ما، كان قد غادر قبل الآن، مع إنه ما يزال يقبل روزاليند. عليه أن يسرع.

يتمتم قائلاً، ((لو أنني تعاملت مع الأشياء بصورةٍ أفضل هذا الصباح، فلربما ما كان سيحدث أيٌّ من هذه الأشياء. الآن دعاني جي، أشعر أنني يجب أن أذهب. وأريد أن اذهب.))

تنظر اليه باشمئزاز، وهي ما تزال تحاول أن تقدّر أهدافه، وحالته العقلية على وجه الدقة، وقوة الرابطة بينهما في تلك اللحظة تحديداً.

لأنه فضولي بصورةٍ أصيلة كي يعرف القصة، انما كذلك كي يصرف انتباه زوجته، يقول بعدئذ، ((إذاً سوف نصبح جدين.))

كان ثمة حزن في بسمتها. ((هي في أسبوعها الثالث عشر وهي في علاقة غرامية. جيوليو في الثانية والعشرين، من روما، يدرس علم الآثار القديمة في باريس. والداه أعطوهما مبلغاً كافياً كي يشتريا شقةً صغيرةً.))

يتبارى هنري مع أفكار أبويه، مع حنق ناشئ من إعتداء هذا الايطالي المجهول على سلام العائلة وتماسكها، من كونه أودع بذرته بوقاحة من دون أن يحضر نفسه للفحص، والتقييم – أين هو الآن، في سبيل المثال ؟ والسخط الذي كان يجب أن تعرفه عائلة هذا الفتى قبل عائلة ديزي، ذلك أن الترتيبات كانت قيد التحضير الآن. شقة صغيرة. ثلاثة عشر أسبوعاً. يضغط بيروني يده على المقبض المزخرف لقفل الباب القديم جداً المصنوع من النحاس الأصفر. وأخيراً حمل ديزي – موضوع المساء الذي ظل مخفياً – يبرز أمامه في الضوء الصافي، فاجعة وإهانة ودمار، موضوع ضخم جداً بحيث لا يستطيع أن يواجهه أو يتفجع عليه الآن، حيث ينتظرون قدومه واقفين على الطريق.

((يا إلهي. يالها من فوضى. لماذا لم تخبرنا ؟ هل كانت تفكر في إنهاءٍ ما ؟))

((في الظاهر، إنه شيء مستحيل. حبيبي، لا تبدأ بالغليان حينما

تكون على وشك القيام بعملية جراحية.))

((كيف سيعيشان ؟))

((كما عشنا.))

في نعيم من الجنس وفقر خريجي الجامعة، يتخذ سبيله مع الفتاة ديزي كما تسابقا هما معاً بصورةٍ دائمة النشاط عبر شهادة القانون وأول وظيفة قانونية، والسنوات المبكرة من جراحة الأعصاب. يتذكر نفسه بعد تغير استمر ثلاثين ساعة، حاملاً دراجته الهوائية أربع طبقات صاعداً سلماً إسمنتياً صوب البكاء المؤرق لوليدٍ تنبت أسنانه اللبنية. وفي تلك الشقة ذات حجرة نوم واحدة في (آرج وي)، يطوي لوح الكي بعيداً كي يمارس الجنس في ساعةٍ متأخرة من الليل على بلاط حجرة المعيشة بالقرب من نار مشتعلة بالغاز. ربما قصدتْ روزاليند مثل هذه الذكريات كي تهدئه. يقدّر محاولتها هذه، لكنه يشعر بالقلق. ماذا سيحل بـ ديزي بيروني، الشاعرة ؟ هو وروزاليند شبكوا جداول مواعيدهم وعملوا بجد ومثابرة في تقاسم العبء الأسري. الرجال الايطاليون، من الناحية الأخرى، هم Pueri aeterni، يأملون أن تحل زوجاتهم محل أمهاتهم، ويكوين قمصانهم ويبلين سراويلهم الداخلية بالحك. جيوليو اللامبالي هذا بوسعه أن يدمّر أمنيات ابنته.

يكتشف هنري إنه يضمّ قبضته. يرخيها ويقول بصورةٍ غير صادقةٍ: ((لا أستطيع أن أفكر في هذا الموضوع الآن.))

((هذا صحيح. لا أحد منا يستطيع.))

((الأفضل لي أن أذهب.))

يتبادلان قبلةً جديدةً، هذه المرة بصورة لا ايروتيكية، بكل تحفظ الوداع، أي وداع.

في ما كان يفتح الباب تقول، ((ما زلتُ قلقةً بشأن اشتراكك في عملية جراحية كهذه. أعني، في هذا المزاج. عدني، بأن لا يكون هناك شيء أحمق.))

يلمس ذراعها. ((أعدكِ.))

في ما كان الباب ينغلق وراءه ويخطو مبتعداً عن المنزل، يشعر بابتهاج مروّق في جو الليل البارد، الندي، في مشيته الهادفة و، يستطيع أن يعترف بذلك، في كونه وحيداً على مدى زمن وجيز. ياليت لو كان المستشفى أبعد قليلاً. بصورةٍ لا مسؤولة، يطوّل مشيته نصف دقيقة باجتبازه الساحة، بدلاً من أن يذهب في شارع (وارين). رقائق الثلج القليلة التي رآها وقتٍ أبكر تلاشت عن الأنظار الآن، وخلال المساء هطل المطر ؛ أحجار رصف الساحة وبالوعات جانب الطريق المرصوفة بالحصى تلمع بصورةٍ نظيفة في ضوء الشارع الأبيض. غيمة دخانية منخفضة تمس مساً عابراً قمة (برج دائرة البريد). الساحة مهجورة، وهذا أيضاً أدخل السرور الى قلبه. في ما هو يسرع على طول الجانب الشرقي، بالقرب من الدرابزونات المرتفعة للحدائق، تحت أشجار الدلب العارية التي كانت تتحرك حركةً ضئيلةً وتصر، الساحة الخالية تحوّلت الى إتساعها والى بساطة الخطوط المعمارية والأشكال البيض الرزينة.

يحاول أن لا يفكر في جيوليو. بدلاً من ذلك يفكر في روما، حيث حضر ندوةً في جراحة الأعصاب قبل سنتين، في حجرات تطل على (كامبو دي فيوري). كان رئيس البلدية نفسه، والتر فلتروني، وهو رجل متحضر، وهادئ، له شغف بالجاز، الذي افتتح محضر الجلسة. اليوم التالي، على شرف الضيوف، أتيح لهم مشاهدة قصر نيرون، (دومس أوريا)، الجزء الكبير منه ما يزال مغلقا أمام العامة، وفلتروني مع أمناء متاحف مختلفين وفروا للجراحين جولةً خاصة. بيروني، الذي لا يعرف شيئاً عن العصور الرومانية القديمة، شعر بخيبة الأمل ذلك أن الموقع بدا له تحت الأرض، تم الدخول اليه بواسطة حفرة ذات بوابة في منحدر تلٍ من التلال. هذا ما لم يفهمه من خلال قصر ما. أُرشدوا عبر نفق يعبق برائحة الأرض ومضاء بمصابيح كهربائية متوهجة وعارية. على الجانبين كانت هناك حجرات نوم معتمة حيث يجري ترميم على أجزاء من قرميدات أحد الجدران. شرح أمين متحف – ثلثمائة حجرة نوم من الرخام الأبيض، اللوحات الجصية الجدارية، فسيفساء ذات طرز معقدة، مسابح، نافورات ولمسات أخيرة عاجية، إنما ليس هناك مطابخ، حمامات أو مراحيض. في الختام دخل الجراحون مشهد العجائب – ممرات رسمت عليها الطيور والأزاهير وتصاميم متكررة معقدة. شاهدوا لوحات جصية جدارية كانت تظهر بصعوبة من تحت وحل من الوسخ والفطر. لم يُكتشف القصر إلا بعد خمسمائة سنة. إذ كان مطموراً تحت كسر الحجارة، حتى بواكير عصر النهضة الأوروبية. على مدى

السنوات العشرين الماضية كان مغلقاً بسببب أعمال الترميم، وكان فتحه الجزئي جزءاً من الاحتفال الألفي لـ روما. لفت أنظارهم أمين متحف ما الى ثقب مثلم فوقهم في سقف ذي قبة عميقة. عبر هذا المكان حفر لصوص القرن الخامس عشر كي يسرقوا مصراع ذهب لأحد الأبواب. فيما بعد رافائيل وميخائيل أنجلو أنزلا نفسيهما على الحبال ؛ بصورةٍ مذهلة، استنسخا التصاميم والرسوم التي كشفتها مشاعلهم المدخنة. كان عملهما الخاص قد تأثر بصورةٍ عميقة. بهذه الغزوات. من خلال مترجمه، قدّم سينيور فلتروني صورةً ظنَّ أنها ربما تنال استحسان ضيوفه ؛ الفنانان حفرا عبر جمجمة الآجر هذه كي يكتشفوا عقل روما الموغلة في القدم.

يغادر بيروني الساحة ويتجه شرقاً، يجتاز (طريق محكمة توتنهام) ويمشي صوب شارع (غوور). ليت رئيس البلدية كان مصيباً، ذلك أن ثقب الجمجمة يُبرز للعيان ليس الدماغ إنما العقل. ثم خلال هذه الساعة هو، بيروني، ربما يفهم المزيد عن باكستر؛ وبعد اجراءات حياتية روتينية سيكون واحداً من أكثر الرجال حكمةً على البسيطة. هل يكون حكيماً بدرجة كافية كي يفهم ديزي؟ ليس باستطاعته أن يتحاشى الموضوع. يرفض هنري الحقيقة القائلة إنها ربما اختارتْ أن تكون حبلى. لكن من أجلها هو بحاجة الى أن يكون واقعياً وسمحاً. جيوليو الروماني ربما هو أشبه بتلك النماذج الرائعة المتكيفة مع المرجل التي رآها في حجرات النوم المظلمة لـ (دومس أوريا)، يمسون آجرات الفسيفساء

بفرش الأسنان العائدة لهم – علم الآثار القديمة مهنة مشرفة. يحسب هنري أن من واجبه أن يحاول أن يحب والد حفيده أو حفيدته. نهاب إبنته. حين يتلطف أخيراً بأن يزوره، سيحتاج الشاب جيوليو الى أن يمارس مزيداً من السحر الوطني.

في شارع (غوور) كانت فرق التنظيف ما تفتأ تعمل، مؤديةً واجبها بعد التظاهرة. أغلب الظن بدأت عملها الآن فقط. من عربات خفيضة مسطحة ذوات ضجيج، ومصابيح تسلط أضواءً قوسية الشكل تشتغل بطاقة المولدات الكهربائية تنير أكداساً من الطعام، وأغلفةً لدائنية واعلانات مرمرية، هذه العربات التي يدفعها رجال ذوو ستر بلونين أصفر وبرتقالي الى الأمام ذوات مكانس عريضة. آخرون يجرفون الأكداس الى الشاحنات. الدولة تفرض قبضتها بشكل واسع، متأهبة للحرب، مستعدة للتنظيف بعد المعارضين. والأنقاض ذات شغف آثاري معين – لافتة [ليس بإسمي] ذات الساق المكسور ترقد بين أكواب (البوليسترين) و(سندويتشات) لحم البقر والنشرات الإعلانية الموزعة على نطاق واسع وغير المفسدة (بفتح السين) لـ(الجمعية البريطانية للمسلمين). هذه (السندويتشات) والنشرات تُركتْ مهجورةً على الأرض. على كومٍ ما مشى من حوله ثمة لوح (بيتزا) ذو شرائح (أناناس)، علب بيرة من الصفيح مرسومة بشكل متكرر على قماش (الطرطان)، سترة من (الدنيم)، علب حليب كارتونية فارغة وثلاث علب صفيح غير مفتوحة من الذرة السكرية. التفاصيل ثقيلة الوطأة بالنسبة له، الأشياء تبدو جد نيرة الحافات ومضغوطة الى أبعد حد،

مستعدة للانبجاس من الرزم التي وضعت فيها. حتماً هو في حالة صدمة متباطئة أكثر مما ينبغي. يميز أحد الكناسين كونه الرجل الذي شاهده هذا الصباح ينظف الأرصفة في شارع (وارين): اليوم كله خلف المكنسة، والآن، هو ذا يتعامل بلطف مع وقائع العالم القذرة، عمل اضافي جدي من نوعٍ ما.

حول مدخل المستشفى الأمامي هناك التجمع المألوف للهزيع الأخير من ليلة السبت، وحارسا أمن يقفان بين مجموعتي الأبواب. بصورةٍ نموذجية، يبرز الناس، مع إنهم لا يبرزون كلياً، من حلمٍ ثمل ويتذكرون أنهم أخيراً يشاهدون صديقاً يُرفع الى مؤخرة سيارة الأسعاف. إنهم يجدون المستشفى، عادةً المستشفى الخاطئ، وبتوكيدٍ يطالبون برؤية هذا الصديق. مهنة الحراس هو أن يبعدوا مثيري المتاعب، المؤذين جسدياً أو العاجزين، اولئك الذين من الأرجح أن يظهروا في طبقة حجرة الانتظار، أو أن يباغتوا السلطة بلكمةٍ، يسددونها الى ممرضة فليبينية هزيلة البدن أو طبيبة مقيمة مرهقة في الساعات الأخيرة من مناوبتها. هم مرغمون كذلك على إبعاد النائمين غير المهذبين الذين يريدون مصطبةً أو قطعةً من الأرض في دفء المؤسسة. إن نموذج العامة الذين يؤمون المستشفى، أي مستشفى، في ساعة متأخرة من ليل نهاية الأسبوع ليس دوماً مؤدباً، عطوفاً أو ممن يقدّر الأشياء حق قدرها.. كما يتذكر هنري، ان العمل في شعبة (الحوادث والطوارئ) هو درس في بغض الجنس البشري. اعتادوا أن يتحملوا، محاولات الاعتداء وكذلك أولئك الذين يتخذون من مصاطب المستشفى أسرّةً مؤقتةً

لهم، الذين كانت لهم زاوية صغيرة خاصة بهم في (أ) و (هـ). إنما في السنوات الأخيرة القليلة تغيرتْ ما يصطلح الآن على تسميتها بـ الثقافة. الكادر الطبي يملك كفايته من هذه الثقافة. إنه يريدون الحماية. السكيرون والصخابون يتم رميهم على الرصيف من قبل رجالٍ أُستخدموا في المسارح أو الفنادق لإخراج الأشخاص غير المرغوب بهم، والذين يعرفون عملهم. إنها سلعة مستوردة أمريكية أخرى، وهي ليست سيئة على أية حال – التحمل صفر. إنما هناك دوماً خطر طرد مريض أصلي؛ إصابات الرأس، فضلاً عن حالات نقص الدم أو نقص غير سوي في مقدار السكر في الدم، هذه كلها يمكن أن تظهر بوصفها سُكراً.

يشق بيروني طريقه عبر عقدة صغيرة من الناس. حين يصل الباب الأول، الحارسان ميتش وتوني كلاهما هندي غربي، يميزانه ويسمحان له بالمرور.

((كيف تسير الأمور ؟))

توني الذي فارقت زوجته الحياة بسبب سرطان الثدي السنة الماضية والذي يفكر في التدريب كنظير للطبيب، يقول: ((هادئة، كما تعرف، نوعا ما.))

((أجل)) يقول ميتش. ((حصلنا تواً على عربدة هائلة الليلة.))

يقهقه كلا الرجلين ويضيف ميتشل، ((الآن سيد بيروني، كل الجراحين الحكماء أُصيبوا بالزكام.))

((أنا غير حكيم حقيقةً))، يقول هنري. ((ثمة حالة ضرر خارج

الأم الجافية.))

((لقد شاهدناه.))

((أجل. الأفضل أن تصعد الى هناك، سيد بيروني.))

إنما بدلاً من أن يذهب مباشرةً الى المصاعد الرئيسة، يقوم بتحويلة مؤقتة سريعة عبر منطقة الانتظار صوب حجرات المعالجة، فلربما هبط جي أو رودني لرؤية حالة مرضية أخرى خلال مدة انتظارهما قدومه. المصاطب العمومية هادئة، إلا أن الحجرة الطويلة لها مظهر منهك، ومعطوب من جراء الاستعمال العنيف، كما لو كانت في نهاية حفلة ناجحة. الهواء رطب وعذب. هناك علب مشروبات روحية مرمية على البلاط، وجورب امرئٍ ما وسط أغلفة لوح (شوكولاته) من آلات البيع[٣]. فتاة تلف ذراعها حول صديقها المنحني للأمام، رأسه بين ركبتيه. سيدة عجوز تتصنع ابتسامةً ثابتةً، وضعيفةً تنتظر بصبر وعكازاها يستقران في حجرها. كان هناك فرد واحد أو اثنان ينظران الى الأرض وشخص ما يتمدد بكامل قامته، نائم على احدى المصاطب، ، مغطياً رأسه بسترة. يمشي بيروني ماراً بمهاجع العلاج الى حجرة حوادث الارتطام حيث كان ثمة فريق طبي يعمل على رجل ينزف بغزارة من عنقه. في الخارج، في منطقة الارشد سناً، عند قاعدة الكادر الطبي، يرى فارس، الطبيب المقيم الأقدم الخافر لـ (أ) و (هـ) الذي تحدث في الهاتف.

في ما كان بيروني يقترب، يقول فارس. ((أوه صحيح. ذلك

الصديق الذي اتصلتَ هاتفياً بشأنه. كشفنا الفقرات العنقية. فحص المفراس كشف ضرراً خارج الأم الجافية في كلا الجانبين مع كسر منخفض محتمل. سقط من على درجتين لذا قمنا بإستقراءات عاجلة. أخذوه الى الأعلى قبل نصف ساعة.))

أشعة سينية للعنق – أول إجراء استقصائي – توحي بأنه لن تكون هناك تعقيدات بخصوص تنفس باكستر. مستوى وعيه كما قيس بواسطة (مقياس غيبوبة غلاسكو) هبط – وهذه علامة غير جيدة. طبيب مخدر – ربما المقيم الأقدم للدكتور جي – أُستدعي كي يعدّه لإجراء عملية جراحية طارئة تتطلب، من بين أشياء أخرى، إفراغ معدة باكستر.

((كم يبلغ قياس وعيه الآن ؟))

((أحد عشر بعد أن كان ثلاثة عشر حين جيء به.))

شخص ما نادى باسم فارس من حجرة حوادث الارتطام، يمنح الأخير نفسه حرية الانصراف ويقول وهو يغادر، ((قتال بقناني المشروبات الروحية في طابور حافلة. وآ نعم. سيد بيروني. اثنان من رجال الشرطة صعدا الى الأعلى مع صديقك.))

أخذ بيروني المصعد الى الطبقة الثالثة. ما إن شرع يمشي في المنطقة الواسعة التي تفضي الى الأبواب المزدوجة لجناح جراحة العصاب، حتى شعر بأنه في وضع أحسن. هو ذا في البيت آتياً من البيت. مع إن الاشياء تسير سيراً خاطئاً في بعض الأحيان، بوسعه أن يتحكم بالنتائج هنا، فله وسائل، حالات تم التحكم بها. الأبواب

مواربة. بحلق عبر الزجاج فلم يستطع أن يرى أحداً في الجوار. بدلاً من أن يقرع الجرس، يسلك طريقاً طويلاً عبر مجاز سوف يأتي به عبر العناية الفائقة. يحب هذا المكان في الساعات الأخيرة من الليل – الضوء المخفت، السكون الشامل، المحترس، الهدوء الوقور لأفراد الكادر الطبي الليلي القليلين. يمر في الحيز العريض بين الأسرّة، وسط الأضواء الوامضة والأصوات المستمرة لأجهزة المرقاب المصحوب بالاشارات. لا أحد من هؤلاء المرضى مريضه. الآن تلك الـ (اندريا شابمان) تم نقلها من هنا، جميع أفراد قائمة الأمس أُعيدوا الى ردهاتهم. ذلك شيء مقنع، في المنطقة المنتظمة خارج وحدة العناية الفائقة، يبدو الحيز خالياً بصورةٍ غير طبيعية. الضوضاء المعهودة للعربات أُزيلت – غداً ستعود من جديد، وكل النشاط الصاخب، الهواتف التي ترن باستمرار، الغضب الثانوي مع الحمالين. بدلاً من أن يستدعي رودني أو جي من صالة العمليات الجراحية، وكي يوفر الوقت، يمضي مباشرةً الى حجرة تبديل الملابس.

يختار شيفرةً في القفل الرقمي، ويدخل ماشياً في قذارة ضيقة وبسيطة، نوع ذكوري خاص من زريبة خنازير توحي بدزينات عدة من الأحداث الجانحين البعيدين عن البيت. يستخدم مفتاحاً كي يفتح دولابه ويبدأ بخلع ثيابه بسرعة. ليلي بيروني كانت ستصاب بالرعب – تبعثرت على البلاط فرش قاسية بعضها نظيفة، وبعضها الآخر مستخدم، تدخل جنباً الى جنب مع الأكياس اللدائنية، احذية تدريب، منشفة، كنزة صوفية غليظة قديمة، سروال

(جينز)، فوق سطوح الدواليب علب (الكوكي) الفارغة، حشد من مضارب (التنس) الموغلة في القدم، جزءان لا صلة لأحدهما بالآخر من قضيب صيد الذباب مطروحان هناك منذ شهور. على الجدار ثمة ملاحظة برمة مطبوعة بالحاسوب تسأل،]هل من الممكن أن ترمي المناشف والملابس الخضر بالأسلوب المناسب؟[شخص مضحك كتب ((لا)) أسفل الملاحظة. ثمة إشارة أخرى رسمية أكثر تنصح،] لا تخاطر بأشيائك الثمينة [. كانت هناك دوماً إشارة على باب المرحاض تقول،]من فضلك ارفع المقعد[. الآن ثمة إشارة تقول، بترويض،] للشكوى حول حالة المرحاض اتصل بالهاتف الامتدادي[4] على الرقم (٤٠٤٠) [. ان مريضاً جراحياً محتملاً لن يشعر بالاطمئنان بجانب رفوف القباقيب البيض، الملطخة بالأصفر، الأحمر والبني، مع طبقات صغيرة متيبسة صلبة من الدم المتخثر، وأسماء الـ (بايرو) أو الحروف الأولى من الأسماء المتلاشية، المكتوبة بصورة غير بارعة. قد يشعر المرء بالارتباك عندما يكون في عجلة من أمره فلا يجد فردةً نظيرةً. هنري يحفظ قبقابه الخاص في دولابه. يأخذ فرش التنظيف، القطع العلوية والسفلية من الكدس ((الكبير)) ، ويلبسها، ويصر على وضع الكيس اللدائني في الخزانة. على الرغم من الهيولى المحيطة به، هذه الأفعال تهدئه، على غرار تمارين عقلية قبل لعبة الشطرنج. بالقرب من الباب يأخذ قبعة جراحية نبيذة من كدسٍ ما و يثبتها خلف رأسه في ما هو يمضي على طول المجاز الخالي.

يدخل صالة العمليات الجراحية من خلال حجرة الطبيب المخدر.

كانا ينتظرانه، جالسين بالقرب من آلتهما، جي شتراوس وطبيبه المقيم الأقدم جيتا سيال. حول الطاولة كانت هناك إميلي، ممرضة التنظيف، جوان مشغله آلة التخدير، و رودني – يبدو أشبه برجلٍ يكاد يتم البدء بتعذيبه. يعرف بيروني من خلال تجربته الشخصية كم يشعر الطبيب المقيم الأقدم بأنه ضئيل حين يتوجب حضور طبيبه الاستشاري، حتى حينما تكون هناك ضرورة واضحة. في هذه الحالة لم يكنْ حتى وجوب الحضور قرار رودني. جي شتراوس له الأفضلية في اتخاذ القرار. كان رودني مجبراً على الشعور بأن جي كساه بالعشب. على طاولة العمليات الجراحية، محجوباً بواسطة أجواخ (جمع جوخ) جراحية، باكستر، يرقد ووجهه الى الأسفل. كل ما هو مرئي منه هو المنطقة الواسعة من رأسه التي تم حلاقتها حتى مؤخرة قمة الرأس، أعلى الجمجمة. ما إن يُكسى مريض ما بالجوخ، حتى يختفي الإحساس بوجود شخص ما، فرد ما في صالة العمليات. هذه هي سطوة حاسة البصر. كل ما يتبقى هي تلك الرقعة الصغيرة للرأس، حقل العملية الجراحية.

في الحجرة تسود حالة ضجر، حالة كلام قليل تم استهلاكه. أو أغلب الظن أن جي كان يبدي رأيه حول ضرورة الحرب الوشيكة. أما رودني فكان يكره التعبير عن آرائه المعارضة للحرب مخافةَ أن يتم تحليلها.

يقول جي، ((خمس وعشرون دقيقة. هذا شيء جيد الى حدٍ ما، أيها الرئيس.))

يرفع هنري يداً محيياً زملاءه، ثم يومئ للطبيب المقيم الأقدم الشاب كي يصاحبه الى صندوق الضوء حيث كانت صور باكستر المفراسية معروضةً. على صفحة واحدة، ست عشرة صورة، ست عشرة شريحة لحم خنزير مقدد عبر مخ باكستر. الخثرة الدموية، وقعتْ في شرك بين الجمجمة وبطانتها الداخلية الغشائية المتينة، الأم الجافية، تجلس (أي الخثرة) عبر الخط الأوسط، الفاصل بين نصفي كرتي المخ. تقع إنجين أو نحو ذلك أسفل قمة الرأس وهي كبيرة الحجم، تقريباً دائرية تماماً، وتظهر بيضاء خالصة في الصورة، وذات حافات دقيقة محززة. الكسر مرئي بجلاء أيضاً، بطول سبع إنجات، يمتد بزوايا قائمة مع الخط الأوسط. في مركزه، جالساً مباشرةً فوق ذلك الخط الأوسط، عظم مهشم، حيث الجمجمة مجوفة جزئياً. مباشرةً تحت ذلك الكسر المنخفض، معرضاً للجرح بسبب الحافات الحادة للعظم الذي تحرك من موضعه والمائل على غرار صحون معمارية يمتد وعاء دموي رئيس، هو الجيب السهمي الأعلى. يمتد هذا الجيب على طول الطية – المثول – حيث تلتقي نصفا الكرتين، وإنه الوريد الرئيس الذي يفرّغ الدم بعيداً عن المخ. يجلس بصورة مريحة في الأخدود المتكون حيث تحيط الأم الجافية بكل نصف كرة بصورةٍ منفصلة. عدة مئات من المليلترات في الدقيقة تجري عبر الجيب ويستطيع الطبيب الجراح أن يمزقه في ما هو يرفع العظم المكسور بسبب الدم الغزير الذي ينز منه، لا يمكنك أن ترى كي تقوم باصلاحٍ ما. هذا الأمر يمكن أن يصيب طبيباً مقيماً

أقدم طوال سنتين بالرعب. ولهذا السبب اتصل جي شتراوس هاتفياً بـ هنري.

في ما هو ينظر الى صور المفراس، يقول هنري لـ رودني، ((حدّثني عن المريض.))

يتحنح رودني. يبدو لسانه سميكاً وثقيلاً. ((ذكر، في العشرينات، سقط من على درجات السلم قبل ثلاث ساعات تقريباً. كان خاملاً في شعبة الحوادث، بدرجة ثلاث عشرة على مقياس غلاسكو للغيبوبة نزل الى إحدى عشرة. تمزقات في الجمجمة، لم يُسجل أي أذى آخر. أشعة الفقرات العنقية طبيعية. عملوا فحصاً مفراسياً، طلبوا اجراء استقراء للتهشم وأرسلوه مباشرةً الى الأعلى.))

يتطلع بيروني من فوق كتفه الى أجهزة المرقاب على آلة التخدير. نبض باكستر يشير الى خمسة وثمانين وضغط الدم مائة وثلاثين على أربعة وتسعين.

((وفحص المفراس ؟))

يتردد رودني، ربما كان يسائل نفسه ما إذا كان ثمة صعوبة مخبوءة، شيء ما لم يلاحظه من الممكن أن يضاعف ذلك. هو شاب نبيل، يشعر بين الفينة والفينة وبصورة مؤثرة بالحنين الى وطنه غويانا حيث له طموحات بتأسيس وحدة إصابات الرأس يوماً ما. كانت له ذات يوم أمنيات بممارسة لعبة (الركبي) ضمن تشكيلة فريق جدي الى أن استوحذ عليه الطب وجراحة الأعصاب. له

ملامح ودية دالة على الذكاء، وتقول الشاعة أن النساء يعبدنه وأنه يقلق نفسه. يرتاب بيروني في أنه سوف يتحسن في قابل الأيام.

((انه كسر منخفض في الخط الأوسط، ضرران أحدهما خارج الأم الجافية و -)) يشير رودني الى صورةٍ في أعلى الصفحة والى كتلة صغيرة بيضاء تشبه فارزة - ((تحت الأم الجافية أيضاً.))

رأى فقط السمة الوحيدة غير الاعتيادية نوعاً ما، خثرة دم أسفل الأم الجافية فضلاً عن الخثرة الأكبر فوقها.

((جيد))، يتمتم بيروني، وبتلك الكلمة الوحيدة تم انقاذ أمسية رودني. هناك، على أي حال، شيء شاذ ثالث لم يلاحظه الطبيب المقيم الأقدم. في ما يتقدّم الطب بعض الخاصيات التشخيصية يتم اهمالها وسط الأطباء الأصغر سناً. في إطار يقع أعلى الصفحة، النواة المذيلة في ناحيتي المخ تفتقد الى التحدب المألوف، الانتفاخ الصحي الطبيعي في القرن الأمامي للتجاويف الجانبية. قبل فحص الـ DNA[5]، هذا الانكماش كان توكيداً مفيداً لـ (مرض هنتنغتون). لم يشكّ هنري بأنه محق، إلا أن الدليل المادي يمنح قناعته المكشوفة.

يقول هنري لـ جي، ((هل ثمة دم في الجوار ؟))

يجيب جيتا سيال، ((بحوزتنا دم كثير في الثلاجة الكهربائية.))

((هل المريض مستقر من ناحية الفعالية الدموية ؟))

((ضغط الدم والنبض هما على ما يرام. وتحاليل الدم قبل إجراء

العملية جيدة، ضغط منفذ الهواء جيد))، يقول جي. ((نحن مستعدون للبدء بالعمل، أيها الرئيس.))

يلقي بيروني نظرةً على رأس باكستر كي يتأكد من أن رودني حلقه في الموضع الصحيح بالضبط. التمزق مستقيم ونظيف – جدار، لوح ذو حاشية، منبسط سلم طبقة حجرية بدلاً من الصخر الرملي والقذارة اللذين تراهما في الجروح بعد حادث مروري – وقد تم خياطته من قبل (أ) و (هـ). حتى من دون أن يلمسه، يمكنه أن يرى أن قمة رأس مريضه لها منطقة مكوّنة من انتفاخ سبخ – الدم يتجمع بين العظم وفروة الرأس.

مقتنعاً بعمل الطبيب المقيم الأقدم، يقول له وهو يغادر، ((ارفع الخيوط في ما أقوم بدعك يديّ.)) يتوقف هنري قليلاً في الركن كي يختار شيئاً من موسيقى البيانو. يقر عزمه على ا تنويعات غولدبيرغ ا. بحوزته هنا أربعة تسجيلات، ولم يخترْ الأعمال المزوقة غير التقليدية لـ (غلين غولدن)، إنما العزف الحكيم والحريري لـ (أنجيلا هيوت)، الذي يتضمن كل المقاطع الموسيقية التي يتعين تكرارها.

بعدها بأقل من خمس دقائق، في رداء وقفازات وكمامة، كلها نبيذة، يعود الى طاولة العمليات. يومئ لـ غيتا كي يبدأ بتشغيل جهاز الأقراص الليزرية. من العربة الفولاذ التي وضعتها إميلي بجانبه، يأخذ إسفنجة بملزم ويغطسها في طاس يحوي محلول (البيتادين). اللحن الرقيق، الحزين بدأ يتفتح وينتشر، بتردد

على ما يبدو في البدء، ويجعل صالة العمليات تبدو حتى أرحب. عند اللمسة الأولى تحديداً لأصفرار زهرة الشمس على الجلد الشاحب، يستوطن رضا مألوف على هنري ؛ إنه سرور المعرفة الدقيقة بما يفعله، في رؤيته الأدوات الجراحية مرتبةً على العربة، في كونه مع شركته في الهدوء المكبوت لصالة العمليات، همهمة تصفية الهواء، الهسيس الأكثر حدة لمرور الأوكسجين في الكمامة المثبتة على وجه باكستر بعيداً عن الانظار تحت الأجواخ، ونقاء المصابيح الواقعة فوق الراس. إنها رسالة تذكير من الطفولة تتعلق بالافتتان المقفل للعبة لوحية.

يضع الفرشاة ويقول بهدوء، ((تخدير موضعي)).

تمرر له إميلي المحقنة تحت الجلدية التي كانت قد جهزتها. بسرعة يزرق أمكنةً عدة تحت الجلد، على طول خط التمزق وابعد منه. هذا ليس بالأمر الضروري تماماً، إلا أن الأدرينالين في اللغنوكايين يساعد في تقليل النزف. في كل موضع تنتفخ الفروة حالاً الى أورام. يضع محقنة تحت الجلد ويفتح يده. لا ينبغي له أن يطلب – إميلي تضع في مسكته سكين الجلد المُرازة بصورة جميلة. بواسطته يمدٌ التمزق بضع إنجات، ويعمقه. رودني قريب منه والى جانبه بآلة الكي ثنائية القطب، يسد مواضع النزف في مكانين أو ثلاثة. عند كل تماس ينبعث صوت، وذيل خفيف من الدخان الضارب الى الرمادي يصعد مع رائحة حادة للحم المُحرق سطحياً. على الرغم من جسمه الضخم، يتجنب رودني بذكاء ملأ حيز مستشاره ويضع مشبك (راني) الأزرق الصغير الذي يقرص

بإحكام الجلد المنفصل ويسد جريان الدم.

يطلب بيروني أولى أدوات الإبعاد الضخمة التي تُثبت ذاتياً ويضعها في المكان. يسمح لـ رودني أن يلمس الثانية – والآن الشق الطويل يُمط كفمٍ مفتوح على وسعه كي يكشف الجمجمة والضرر كله.

يمتد الكسر مستقيماً بعض الشيء. الدم، الدم المتغير، ينبثق من خلاله. ما إن غسل رودني المنطقة بالمحلول المالح ونشفه، حتى أصبح بوسعهم أن يروا أن الصدع في العظم بعرض مليمترين تقريباً – هو يشبه شق زلزال تتم مشاهدته من الجو، أو صدع في مجرى متيبس لنهر ما. الكسر المنخفض في الوسط له فلقتان من العظم في ميلانٍ ما مع ثلاثة صدوع أخرى أرفع تشع منها، لن تكون ثمة حاجة لحفر ثقب بمثقاب. سيكون بيروني قادراً على أن يدس منشار القص في الشق الأكبر.

تقدّم إميلي مثقاب القحف، إلا انه لايحبذ مظهر جزء – القدم – إذ يبدو منحرفاً بعض الشيء. تسرع جوان الى حجرة الإستعدادات وتعود بآخر. إنه مقنع وفي ما هي تفكه من الغلاف المعقم وتفسح مكاناً له، يقول لـ رودني، ((سوف نفصل جزئياً قطعةً من النسيج، ونجعلها حرةً، حول الكسر المنخفض بحيث يكون لنا سيطرة تامة على الجيب.))

يقال انه ما من جراح يفتح أسرع من هنري بيروني. الآن يمضي هو حتى أسرع من الحالة الاعتيادية لأنه ليس ثمة خطر من إيذاء

الأم الجافية – الخثرة الدموية تضغط عليها، دافعةً إياها بعيداً عن الجمجمة. مع إن رودني يميل بمحقنة (ديكن) كي يغطس الحافة القاطعة بالمحلول المالح، رائحة العظم المحرق سطحياً تملأ صالة العمليات. هي رائحة يجدها هنري غالباً ملتصقةً بطيات ثيابه حين يخلع ملابسه في نهاية يوم طويل. يتعذر الحديث عن عواء مثقاب القحف ذي طبقة الصوت العالية. بعينيه يشير الى رودني أن عليه أن يلاحظ عن كثب. إهتمام استثنائي مطلوب الآن في ما هو يقود المنشار عبر الخط الأوسط. يبطئ، ويميل جزء – القدم من المثقاب الى الأعلى – بخلاف ذلك يكون هناك خطر من إنه سوف يمس الجيب ويمزقه. إنها أعجوبة أن الأمخاخ تصاب بأي ضرر مهما كان خارج صالة العمليات حين تكون مغطاة بصورةٍ سميكة جداً بالعظم. في النهاية يقص شكلاً بيضوياً كاملاً خلف قمة رأس باكستر. قبل أن يرفع قطعة من النسيج المفصولة يفحص شظايا الكسر المنخفض. يطلب مبضع (واتسون تشيني) ويرفعها بوداعة الى الأعلى بطريقة العتلة. تأتي بسهولة ويضعها في الطاس كلوي الشكل المليء بالبيتادين (اليود) الذي أعطته إميلي إياه.

الآن، مستخدماً المبضع ذاته، يرفع قطعة النسيج المنفصلة الحرة بأكملها بعيداً عن الجمجمة، قطعة كبيرة من العظم كقطعة من جوز الهند، ويضعها في الطاس مع الكسر الأخرى. الخثرة الدموية واضحة للعيان تماماً، حمراء وبسبب الظلام المحيط بها تبدو سوداء تقريباً، وذات قوام مربى متخثر حديثاً. أو، كما يعتقد بيروني غالباً، أشبه بالمشيمة. إنما حول حافات الخثرة

الدموية، يتدفق الدم الآن بحرية ذلك لأن ضغط قطعة العظم المفصولة قد تم تخفيفه. إنه ينسكب من مؤخرة رأس باكستر على الأجواخ الجراحية وعلى الأرض.

((ارفع رأس الطاولة. اعطني أكثر ما تستطيع))، ينادي هنري جي. إذا كان النزف أعلى من القلب، الدم سوف يتدفق بغزارة أقل. الطاولة ترتفع، ويتراجع هنري ورودني بسرعة خطوةً الى الوراء عبر الدم الذي عند أقدامهما و، عاملين معاً، يستخدمان انبوباً مصاصاً ورافعة (أدسون) كي يزيلا الخثرة الدموية. يسقيان المنطقة بالماء المالح وفي الختام يحصلان على نظرة خاطفة للتمزق، بطول ربع إنج تقريباً، الكائن في الجيب. كانت قطعة العظم المفصولة موضوعة في مكانٍ جيد - الضرر في وسط التمرّض تماماً. الدم المتفجر يخفي من جديد رؤيتها حالاً. لا بد أن حافة عظم من الكسرة المنخفضة إخترقت الوعاء الدموي. في ما كان رودني يحتفظ بالأنبوب الماص في موضعه، يأخذ بيروني قطعةً من (السيرجيسيل)[٦] ويضعها فوق الخرق، يضع قطيلة[٧] فوق قطعة (السيرجيسيل) ويشير الى رودني كي يضغط عليها باصبعه الى الأسفل.

يسأل هنري جي، ((كم فقدنا من الدم ؟))

يسمع جي يسأل جوان كم مقدار المحلول المالح الذي أُستخدم للسقي. يحسبان معاً.

((لتران ونصف))، يقول المخدر بهدوء.

يكاد بيروني يطلب رافعة السمحاق، إلا أن إميلي تضعه الآن في يديه. يجد منطقةً مكشوفةً إنما غير متضررة من الجمجمة، وبواسطة الرافعة – وهي نوع من مكشطة – يحصد قطعتين طويلتين من سمحاق الجمجمة[٨]، الغشاء الليفي الذي يغطي العظم. يرفع رودني القطيلة، ويكاد يرفع أيضاً (السيرجيبسيل) من التمزق، إلا أن هنري يهز رأسه. ربما تتكون الآن خثرة دم ولا يريد هو أن يشوشها – برفقٍ يضع قطعة سمحاق الجمجمة فوق (السيرجيسيل)، ويضيف طبقة أخرى من (السيرجيسيل) والقطعة الثانية من سمحاق الجمجمة، ويضع قطيلةً جديدةً في القمة. وبعدها إصبع رودني. يغسل بيروني المنطقة ثانيةً بالمحلول المالح وينتظر. الأم الجافية الحليبية المزرقة غير الشفافة تبقى واضحةً. توقف النزف.

لكنهم لا يستطيعون أن يغلقوا حتى الآن. يأخذ بيروني مشرطاً ويعمل شقاً صغيراً في الأم الجافية، يفصلها قليلاً ويبحلق في الداخل. سطح دماغ باكستر مقطى حقيقةً بخثرة دموية، أصغر بكثير من الأولى. يمد الشق ورودني يثني الأم الجافية الى الخلف بواسطة خيوط سناد. يُسر يبروني بسرعة عمل طبيبه المقيم الأقدم الأصغر سناً. يستخدم رودني الـ (أدسون) ليزيل الدم المتخثر. يغسلان المنطقة بالمحلول المالح، يمصان المزيج وينتظران ليشاهدا ما إذا يستمر النزف – يشك بيروني أن إحدى الحبيبات الحمر[٩] العنكبوتية[١٠] القريبة ربما تكون مصدر النزف. لم يكن هناك شيء، لكنه لا يسد حتى الآن. يفضل أن ينتظر دقائق قليلة، لمجرد أن يتأكد.

في هذا الركود المؤقت، يذهب رودني الى طاولة بالقرب من باب حجرة الاستعدادات ويجلس ليشرب قنينة ماء. إميلي مشغولة بصينية الأدوات الجراحية، جوان تتعامل مع بركة الدم الواسعة على البلاط.

يقطع جي حواراً هامساً مع طبيبه المقيم الأقدم كي يقول لـ بيروني، ((نحن رائعون في هذا الموضع.))

يبقى هنري عند رأس الطاولة. مع انه كان واعياً بالموسيقى، إلا إنه الآن فقط يعيرها إنتباهه الكامل ثانيةً. مرَّ زمن أكثر من ساعة و (هيوت) كانت الآن عند (التنويع)[11] الأخير، (الكيودليبت the Quodlibet) – صاخب ومازح، وحتى داعر، بمحاكاتها الخاصة لأغانٍ ريفية عن الطعام والجنس. تلاشت آخر النغمات المبتهجة، سكون بضع ثوان، ثم يعود اللحن، متطابقاً على الصفحة، إلا إنه مستسلم كذلك، وأكثر حزناً، نوتات البيانو تطفو آتيةً من بُعد ما، كما لو من عالمٍ آخر، وتتضخم ببطء. يخفض بصره ناظراً الى جزء من دماغ باكستر. بيسر يستطيع أن يقنع نفسه أنها مقاطعة مألوفة، نوع من الوطن – الأم، بتلاله الواطئة والوديان المغلفة (بكسر اللام) للأخاديد، كل واحد منها ذو اسم ووظيفة منسوبة إليه، معروفة له (أي الاسماء والوظائف) كمنزله الخاص. الى يسار الخط الأوسط تماماً، ممتداً جانبياً بعيداً عن الأنظار تحت العظم، توجد القطعة الحركية، طويلة وضيقة. خلفها، ممتدةً جانبياً، القطعة الحسية. من السهل جداً أن تصاب بأذى، من عواقب كهذه فظيعة ومستمرة

مدى الحياة. كم أنفق من الوقت وهو يشق السبل كي يتحاشى هاتين المنطقتين، كمناطق مجاورة سيئة في مدينة أمريكية. وهذه الألفة تخدره يومياً الى درجة جهله، والى درجة الجهل العام. على الرغم من هذه التقدّمات (جمع تقدم) الحديثة كلها، ما يزال مجهولاً كيف أن هذا الكيلوغرام الواحد المحمي جداً من الخلايا، أو نحو ذلك، يشفر فعلاً المعلومة، كيف يحتفظ بالتجارب، الذكريات، الأحلام والنوايا. لا يشك هو في إنه في السنوات المقبلة، ستكون آلية التشفير معروفةً، مع إنها ربما لن تكون في زمن حياته. على غرار الشيفرات الرقمية الخاصة بتكرار الحياة المحفوظة في داخل الـ DNA، سر الدماغ الرئيس سوف يُكشف ذات يوم. وحتى إذا تم كشفه، سوف يبقى التساؤل، بأن المادة الندية حصراً تستطيع ان تجعل هذه السينما الداخلية الذكية للفكر، للرؤيا والصوت واللمس مكبلةً بتوهم حي بحاضر فوري، مع ذاتٍ ما، توهم آخر منتزع بذكاء، مرفرفاً كشبح في مركزه. هل يستطيع أحد أن يشرح لنا كيف تصبح المادة واعيةً؟ لا يستطيع أن يبدأ بتخيل سبب مقنع لكنه يعرف بأنه سوف يأتي، السر سيتم كشفه – على مدى عقود من الزمن، طالما أن العلماء باقون في أمكنتهم وكذلك المؤسسات، التفسيرات سوف تنقي نفسها الى حقيقة لا تقبل الجدل بشأن الوعي. إنه جارٍ الآن، العمل منجز في مختبرات لا تبعد كثيراً عن صالة العمليات هذه، والرحلة ستبلغ نهايتها. هنري متيقن من ذلك. هذا هو النوع الوحيد من الإيمان الذي يملكه. ثمة جلال في هذا

الرأي الخاص بالحياة.

ما من أحد آخر في صالة العمليات يعرف الحالة الميئوس منها لهذا الدماغ تحديداً. القطعة الحركية التي ينظر إليها الآن تعرضت للخطر بواسطة مرضٍ ما، في الأرجح من خلال تدهور في النواة ذات الذيل والبوتامين، في أعماق مركز الدماغ. يضع هنري إصبعه على سطح قشرة دماغ باكستر. غالباً يمس دماغاً في بداية عملية جراحية لسرطان. ما، فاحصاً قوام السرطان. يالها من حكاية مذهلة من حكايات الجان، كم كان مفهوماً وإنسانياً، حلم لمسة الشفاء. ببساطة إذا كان بالمستطاع إنجازها بملاطفة سبابة، فسوف يقوم بذلك الآن. إلا أن حدود البراعة، جراحة الأعصاب كما تقف اليوم، واضحة بدرجة كافية: واجهتها هذه الشيفرات المجهولة، هذه المجموعة الكثيفة والذكية من الدوائر الكهربائية، هو وزملاؤه يقدمون لها سمكرة ذكية.

عقل باكستر غير القابل للإصلاح، المكشوف تحت أضواء صالة العمليات، بقي غير ملطخ على مدى دقائق عدة – ما من علامة لأي نزف من الحبيبات الحمر للغشاء العنكبوتي.

يومئ بيروني لـ رودني. ((يبدو ممتازاً. يمكنك أن تسد.))

لأنه كان مسروراً معه، ويريد أن يشعر بأنه أفضل حالاً في ما يتعلق بالمساء، يسمح بيروني لطبيبه المقيم الأقدم أن يتولى القيادة. يخيط رودني الأم الجافية بخيط أرجواني – ٣ – صفر ماركة (فيكريل) – ويدخل مصرّف[١٢] خارج الأم الجافية. يعيد قطعة

العظم المنفصلة الى مكانها، جنباً الى جنب مع القطعتين المكسورتين من الكسر المنخفض. ثم يثقب الجمجمة كي يثبت (بواسطة برغي) ألواح التايتانيوم التي تبقي العظم محكماً. هذا الجزء من جمجمة باكستر يشبه الآن رصفاً مجنوناً، أو رأساً مكسوراً لدمية من الخزف الصيني تم اصلاحه بصورة خرقاء. يدخل رودني المصرف تحت القلنسوي ثم يشرع في خياطة جلد فروة الرأس بخيط ٢ – صفر ماركة (فيكريل) وينخس رزات الجلد. بيروني يجعل جيتا يضع ((أداغيو للأوتار)) من تأليف باربر[١٣]. تم عزفه الى أقصى حد في المذياع خلال السنوات الأخيرة، إلا أن هنري يحبه غالباً في المراحل النهائية من العملية الجراحية. هذه الموسيقى الباعثة على التراخي، التأملية توحي بعمل طويل يبلغ نهايته أخيراً.

يضع رودني كلورهكسدين على الجرح وحوله ويضع ضماداً صغيراً. في هذه النقطة تحديداً يتولى بيروني الأمر – يفضل أن يصنع ضمادة الرأس بنفسه. يحرر دبابيس ملزم الرأس واحداً واحداً. يأخذ ثلاث قطيلات شاش كبيرة مفتوحة للخارج ويضعها مستقيمةً على رأس باكستر. ينشر حول الرأس قطيلتي شاش بقيتا طويلاً. يحمل القطيلات الخمس بيده اليسرى، يبدأ بلف عصابة (كريب) طويلة حول رأس باكستر في ما هو يسنده على خصره. هذا العمل صعب تقنياً ومادياً، لأنه يجب أن يتحاشى المصرفين ويمنع الرأس من السقوط الى الأسفل. حين أصبحت عصابة الرأس في موضعها أخيراً، ومحكمةً، جميع الحاضرين في صالة

العمليات، أعضاء الشركة كلهم، يدورون حول باكستر – هذه هي المرحلة التي تعاد فيها هوية المريض، حين تعود منطقة صغيرة من الدماغ كشفت بعنف الى ملكية الشخص السالم. ان هذا الفض، فض المريض، يشير الى عودة الى الحياة، ولو لم يرها عدة مئات من المرات من قبل، يشعر بيروني بأنه كان بمستطاعه أن يخطأه تقريباً بوصفه ضعفاً. بينما كانت إميلي وجوان تسحبان بحذر الأجواخ الجراحية من حول صدر باكستر وساقيه، يتأكد رودني من أن الأنابيب، قطع الرصاص، والمصرّفين لم تزحْ من مواضعها. جيتا يرفع الدثارين الملصقين بشريطين فوق عيني المريض. يزيل جي البطانية المدفئة القابلة للنفخ من حول ساقي باكستر. يقف هنري عند نهاية الطاولة، واضعاً الرأس في يديه جاعلاً منهما مهداً. الجسم العاجز برداء المستشفى يكشف ويبدو ضئيلاً على طاولة العمليات. الانسجام الهابط، المتأمل للأوتار الاوركسترالية يبدو موجهاً الى باكستر وحده. تسحب جوان غطاءً فوقه. تحاذر أن لا تشبك المصرّفين: الذي خارج الأم الجافية والثاني تحت القلنسوي، يقلبون باكستر على ظهره. يحدث رودني شقاً صغيراً ضيقاً محشواً بهيئة حدوة حصان في طرف الطاولة ويريح هنري رأس باكستر فوقه.

يقول جي، ((تريدني أن أبقيه مُسكَناً طوال الليل؟))

((كلا))، يقول هنري. ((دعنا نوقظه الآن.))

الطبيب المخدر سوف يريح باكستر -- ببساطة من خلال سحب

الأدوية – بأن يجعله يتنفس من جهاز التهوية. كي يراقب الانتقال، يحمل شتراوس في راحة يده كيساً صغيراً أسود اللون، كيس الخزان، الذي من خلاله سوف تمر أنفاس باكستر. يفضل جي أن يعتمد على حاسة اللمس خاصته بدلاً من النظام الكهربائي في ماكينة التخدير. ينزع بيروني قفازي المطاط العائدين له وبصورة طقسية يئزهما عبر الحجرة صوب صندوق القمامة. يدخلان – هذه دوماً علامة جيدة.

يخلع رداءه ويقحمه في صندوق القمامة أيضاً، بعدها، وهو ما يزال معتمراً قبعته، يقطع المجاز كي يجد أنموذجاً يدوّن عليه ملاحظات العملية الجراحية. عند المكتب، يجد الشرطيين في انتظاره، ويخبرهما أن باكستر سوف يُنقل في بحر عشر دقائق الى وحدة العناية الفائقة. في غضون الوقت الذي يعود فيه، يكون هناك جو مختلف في صالة العمليات. موسيقى ريفية و (غربية) – بحسب ذائقة جي – حلتْ محل صموئيل باربر. إيميلاو هاريس تغني((جلمود الى برمينغهام)). إميلي وجوان تناقشان عرس صديقةٍ لهما في ما هما تنظفان صالة العمليات – في المناوبة الليلية هذه المهمة المملة تقع على عاتق ممرضات التنظيف. الطبيبان المخدران ورودني براوني يتحدثون حول الرهانات الموازنة (بفتح الزاء) ومعدلات الفائدة في ما هما يقومان بالتحضيرات الأخيرة لنقل المريض الى العناية الفائقة. باكستر يرقد بسلام على ظهره من دون أن يبدي أي علامة من علامات الوعي حتى الآن. يمسك هنري بكرسي ويبدأ بتدوين ملاحظاته. في حقل الاسم يكتب ((معروف

باسم باكستر))، وفي حقل تاريخ الولادة، ((العمر المقدّر خمس وعشرون سنة تقريباً.)) أما التفاصيل الشخصية الأخرى فتوّجب عليه أن يتركها فارغة.

((عليكما أن تتسوقا من الجوار))، يقول جي لـ جيتا وورودني. ((أنتما في سوق وكيل للمشتريات.))

((إنها سمرة مكتسبة بواسطة الرش))، تقول جوان لـ إميلي. ((غير مسموح لها أن تتعرض للشمس لأنها ستصاب بسرطانات الخلايا القاعدية. الآن أصبحت هي برتقالية ساطعة، الوجه، اليدان، كل شيء، والعرس سيكون يوم السبت.))

التكلم من غير كلفة يهدئ هنري في ما هو يكتب بعجالة، ((خثرة دموية خارج / تحت الأم الجافية، إصلاح الجيب السهمي العلوي، المريض منبطح، الرأس مرفوع وفيه دبابيس، الجرح جرى تمديده / سحبه، قطعة حرة منفصلة من العظم قُلبت...))

على مدى الساعتين الماضيتين كان في حلم استغراق أذاب كل معنى للزمن، وكل إدراك للأجزاء الأخرى من حياته. حتى إدراكه لوجوده هو إضمحل. كان قد تم تسليمه الى حاضر نقي، متحرر من عبء الماضي أو من كل ضروب القلق بشأن المستقبل. في استعادة الأحداث الماضية والتأمل فيها، مع إن ذلك لم يكنْ في الوقت المناسب له، يبدو أشبه بسعادة عميقة. إنه يشبه نوعاً ما الجنس، في كونه يشعر بانه في وسط آخر، إلا انه سار بصورةٍ أقل وضوحاً وغير حسي بجلاء. هذه الحالة العقلية تجلب الرضا

الذي لم يجده في أي شكل خامل من أشكال التسلية. الكتب، السينما، وحتى الموسيقا لا تستطيع أن تجلبه الى هذا. العمل مع الآخرين جزء واحد منه، وليس الرضا كله. هذا الانفصال الخيري يبدو أنه يستلزم صعوبةً، متطلبات مطوّلة في التركيز والمهارات، الإلحاح، قضايا ينبغي حلها، وحتى الخطر. يحس بأنه هادئ، مترف، مؤهل تماماً كي يحيا. إنه إحساس بالفراغ المصفى، بالسعادة العميقة، المخرَسة. بعودته الى العمل، وممارسته الحب ومنحياً أغنية ثيو جانباً، يحس أنه أكثر سعادةً من أي مرحلة أخرى من يومه الذي إنقضى، سبته النفيس. يستنتج وهو يقف على قدميه متهيئاً لمغادرة صالة العمليات، أنه حتماً ثمة شيء خاطئ فيه.

يأخذ المصعد نازلاً طبقةً واحدةً ويمضي على طول مجاز مصقول، ومظلم قليلاً الى الردهة العصبية حيث يعرّف نفسه للممرضة المناوبة. ثم يدخل الردهة، ويتوقف قليلاً خارج حجرة ذات أربعة أسرّة كي ينظر من خلال الزجاج. يرى ضوء قراءة فوق أقرب سرير، يفتح الباب بهدوء ويدخل. كانت جالسةً تكتب في دفتر ملاحظات ذي غلاف لدائني (بلاستك) وردي اللون. في ما يجلس هنري بقرب سريرها وقبل أن يكون لها الوقت الكافي كي تسد دفترها، يلاحظ أنها رسمت لكل نقطة من حرف (i) قلباً ذا تفاصيل دقيقة. وهبته ابتسامة ترحيب ناعسةً. صوته قلما يكون أعلى من همسة.

((لا تستطيعين النوم ؟))

((أعطوني قرص منوّم، إلا إنني لم أستطعْ أن أوقف عقلي.))

((حصل لي ذلك أيضاً. الواقع، حصل لي ليلة أمس. كنت ماراً من هنا، إذاً – إنها فرصة طيبة أن أقول لكِ ذلك بنفسي. العملية الجراحية الحقيقة سارت سيراً حسناً.))

ببشرتها الرائعة داكنة السمرة، ووجهها المستدير المحبوب، والضمّادة (الكريب) السميكة التي لفها حول رأسها بعد ظهيرة أمس، كان لها مظهر جليل، وكئيب. ملكة أفريقية. تلوّت في الفراش وسحبت الأغطية حول كتفيها، كطفلةٍ تستعد لسماع قصة وقت النوم المألوفة. تضم دفتر ملاحظاتها الى صدرها.

((هل إستأصلته كله مثلما قلتَ ؟))

((تبدّى للعيان كحلم. إنبسط. حتى آخر قطعة صغيرة منه.))

((ما هي الكلمة التي قلتَها من قبل، حول الكيفية التي ستسير بها الأمور؟))

أُثير فضوله. تغير سلوكها، دفئها الاتصالي، هجر كلام الشارع الجارح، ببساطة ليس بوسعه أن يكون كارهاً لمعالجتها، أو تعبها. المنطقة التي أجرى فيها العملية، دودة المخيخ، ليس لها تأثير على الوظيفة العاطفية.

((التكهن[١٤]؟))

((صحيح. اذاً دكتور، ما هو التكهن؟))

((ممتاز. فرص شفائك التام هي مائة بالمائة.))

هزت نفسها عميقاً في أغطية فراشها. ((أحب أن أسمعك تقول

ذلك. افعل ذلك ثانيةً.))

يذعن جاعلاً صوته رناناً وجازماً بقدر إستطاعته. قرر أن الاشياء كلها التي تغيرتْ في حياة أندريا شابمان مدوّنة في دفتر ملاحظاتها نقر باصبعه على غلاف الدفتر.

((ما الذي تودين الكتابة عنه؟))

((إنه سر))، تجيب بعجل. بيد أن عينيها ساطعتان وشفتيها منفرجتان كما لو أنها تهم بالكلام. ثم تغير رأيها وتزم شفتيها بإحكام وبنظرة عابثة تنظر مروراً به الى السقف. تتحرق شوقاً لإخباره.

يقول، ((أنا جيد جداً في ما يتعلق بالاسرار. عليكِ أن تكوني كذلك عندما تصبحين طبيبة.))

((لن تخبر أحداً، صحيح ؟))

((صحيح.))

((قسماً بالانجيل تعدني أن لا تخبر أحداً ؟))

((أعدك أن لا أخبر أحداً ؟))

((هذا هو السر. صحيح ؟ صممتُ. سأكون طبيبةً.))

((هذا شيء مثير للإعجاب.))

((طبيبة جرّاحة. جراحة دماغ.))

((هذا أفضل. إنما إعتادي أن تسمي نفسك جرّاحة أعصاب.))

((صحيح. جرّاحة أعصاب. الكل، ارجعوا للوراء ! سأكون جرّاحة أعصاب.))

لن يعرف أحد كم عدد المسيرات الطبية الحقيقية أو المتخيلة التي انطلقت إبان الطفولة خلال دوار ما بعد العملية الجراحية. على مدى سنوات عدة، أولاد قليلون أفشوا عن طموح كهذا لـ هنري بيروني في أثناء جولاته السريرية عليهم، الا إن أحداً لم يكتوي تماماً به كما تفعل أندريا شابمان الآن. هي مستثارة جداً بحيث لا تستطيع أن ترقد مغطاة. هي ذي تكافح فوق السرير، تزرع مرفقها في الفراش، وبأفضل ما تستطيع بمصرّفها الذي ما يزال في موضعه، تريح رأسها على يدها. نظراتها مخفضة الى الأسفل، وهي ذي تفكر بعناية قبل أن تطرح سؤالها.

((هل أجريتَ عملية جراحية تواً ؟))

((أجل. رجل هوى من على درجات السلم وضُرب رأسه بشدة.))

لكنه ليس المريض الذي شغفتْ به. ((هل كان الدكتور براوني هناك ؟))

((نعم، كان هناك.))

أخيراً. ترفع بصرها ناظرةً الى هنري وعلى محياها تعبير الاخلاص المتوسل. ها هما الآن عند قلب سرها.

((أليس هو طبيباً مدهشاً جداً ؟))

((أوه، إنه جيد جداً. الأفضل. أنتِ تكنين له المودة، أليس كذلك ؟))

غير قادرة على التكلم، تومئ برأسها علامة الإيجاب، وينتظر برهةً جيدةً.

((أنتِ تحبينه.))

لدى نطق الكلمات المقدّسة تجفل، ثم تتأمل وجهه بحثاً عن الهزء. تجده رزيناً بصورةٍ لا سبيل الى فهمها.

يقول بوداعة، ((ألا تعتقدين أنه كبير السن نوعاً بالنسبة لك؟))

((أنا في الرابعة عشرة))، تحتج قائلةً. ((رودني في الحادية والثلاثين لا غير. والمسألة هي هذه..))

هي الآن جالسة في السرير، ما تزال تضغط على دفترها الوردي على صدرها، فرحةً بكونها تخاطب أخيراً الموضوع الحقيقي الوحيد.

((... يأتي ويجلس حيث تجلس أنتَ الآن، ويقول لي كيف أنني اذا ما أردتُ أن أكون طبيبة عليّ أن أصبح جادةً في ما يتعلق بالدراسة وما إلى ذلك، وأن أتوقف عن الذهاب للنادي وما الى ذلك، وهو حتى لا يعرف ما يجري بيننا. الأمر يجري من دونه. ليس له أدنى فكرة ! أعني إنه أكبر سناً مني، هو هذا الجراح المهم وما إلى ذلك، لكنه جد [ساذج] !))

راحت توجز خططها. ما إن تنال مؤهلاتها كطبيبة إستشارية في غضون خمس وعشرين سنة، على وفق حساب هنري الخاص – حتى تلحق بـ رودني في غويانا كي تساعده في إدارة عيادته الخاصة. بعد مضي خمس دقائق أخرى من مجيء رودني، ينهض بيروني إستعداداً للمغادرة. حين يصل الباب تقول، ((أتتذكر إنكَ كنتَ تودّ أن تصوّر عمليتي الجراحية بالفيديو؟))

((أجل.))

((هل يمكنني رؤيتها ؟))

((أعتقد ذلك. لكن هل أنتِ متيقنة من كونك ترغبين بذلك؟))

((أوه يا إلهي. سأصبح جرّاحة أعصاب، أتذكر ؟ انا فعلاً أحتاج الى رؤية العملية الجراحية. أريد أن أرى ما في داخل رأسي. بعدها سأري العملية لـ رودني.))

في طريقه وهو خارج، جعل بيروني المرضة تعرف أن أندريا يقظة ونشيطة، ثم يأخذ المصعد الى الأعلى صوب الطبقة الثالثة من جديد وراح يقطع الممر الطويل الذي يمتد خلف جناح جراحة الاعصاب ويقوده عبر المدخل الرئيس الى العناية الفائقة. في كآبةٍ مهدئة يمضي على طول الجادة العريضة للأسرة بآلاتها اليقظة وأضوائها الوامضة الملونة. تذكر لافتات (النيون) في شارع مهجور – الحجرة الواسعة لها الهدوء سريع الزوال لمدينةٍ ما قبيل الفجر. عند المكتب يجد المرضة المسؤولة، بريان ريد، (جيوردية)[١٥]، منشغلة بملأ نماذج (استمارات)، ويفهم أن كل أعراض باكستر جيدة وإنه يفيق من إغمائه وإنه دائخ الآن. تومئ ريد برأسها بمغزى للشرطيين الجالسين في الظلال قرب سرير باكستر. كان بيروني ينوي الذهاب مشياً صوب البيت حالما يقتنع أن مريضه في حالة صحية مستقرة، لكنه في ما كان يبتعد عن المكتب، يجد نفسه يلتقي بالشرطيين بالمصادفة. لدى إقترابه، الأخيران كانا ضجرين أو نصف نائمين، ينهضان على أقدامهما ويوضحان بأدب أنهما

سوف ينتظران خارجاً في المجاز.

باكستر مستلقٍ على ظهره، ذراعاه مستقيمتان إلى جانبيه، مثبت بكلاب الى الأنظمة كلها، يتنفس بسهولة عبر أنفه. يلاحظ بيروني أن ليس ثمة إرتعاش في يديه. النوم هو الانقاذ المؤقت الوحيد. النوم والموت. ضمادة الرأس لا تعظم باكستر كما فعلتْ مع أندريا. بلحيته الكثيفة التي لم تُحلقْ منذ أيام والورم الداكن تحت عينيه يبدو أشبه بمحارب صرعه قاتل بضربةٍ قاضيةٍ، أو بطاهٍ مرهق، يقوم بمعالجة السمك بالشق والتنظيف والتمليح والتدخين في المخزن بين المناوبات. أرخى النوم فكه الأسفل واضعف المظهر القردي لخطم حيوان ما. فقد الجبين تقطيبته الاعتيادية بإزاء الظلم الشائن لحالته المرضية، وكسب له بعض الوضوح في الاسترخاء.

يجلب بيروني كرسياً ويجلس عليه. ثمة مريضة في الطرف البعيد تصيح، ربما في نومها، صيحة دهشة تكررت ثلاث مرات. من دون أن يلتفت يدرك أن الممرضة تذهب إليها. ينظر بيروني الى ساعته. الثالثة والنصف فجراً. يعرف أن عليه أن يذهب، وإنه ينبغي له أن لا ينام في الكرسي. لكنه الآن هنا، بالمصادفة تقريباً، يجدر به أن يمكث برهةً، وانه لن يدوخ لأنه يحس بأشياء كثيرة جداً، إنه مدرك لحوافز متناقضة كثيرة جداً. إتخذت أفكاره صفة معقدة، متمعجة، مدفوعة بواسطة القوة المتموجة ذاتها التي تجعل المكان في الحجرة الطويلة يترقرق، فضلاً عن الأرض الواقعة أسفل كرسيه. المشاعر تصبح في هذا الشأن أشبه بالضوء نفسه – موجية، كما اعتادوا أن يقولوا في صف الفيزياء خاصته.

يحتاج الى البقاء هنا و، بسلوكه المألوف، يحللها (أي المشاعر) الى مكوّناتها، الكمّات، ويكتشف كل الأسباب البعيدة والقريبة ؛ عند ذاك فقط سوف يعرف ما الذي يفعله، وما هو الصحيح. يدس يده حول رسغ باكستر ويتحسس نبضه. هذا شيء غير ضروري على الاطلاق لأن المرقاب يُظهر القراءة بأعداد زرق ساطعة – خمس وستون نبضة في الدقيقة. يفعلها لأنه يرغب بذلك. إنه أحد الأشياء الأولى التي تعلم أن يفعلها وهو طالب في الكلية الطبية. شيء بسيط. مسألة ذات إحتكاك أولي، تعيد طمأنة المريض – طالما إنه تم تأديتها بنفوذ غير متلعثم. يعدّ ضربات القلب، وقعات الأقدام الناعمة تلك، على مدى خمس عشرة ثانية، ثم يضربها في أربعة. الممرضة ما تزال عند النهاية البعيدة من الردهة. الشرطيان في الممر يمكن رؤيتهما فقط من خلال نافذةٍ في الأبواب المتحركة للوحدة. تمضي أكثر من ربع دقيقة أخرى. بمغزى، يمسك بيد باكستر في ما يسعى الى أن يمحص أفكاره ويرتبها ويقرر على وجه الدقة ما الذي ينبغي فعله.

تركتْ روزاليند مصباحاً مشتعلاً في حجرة النوم، بالقرب من الكنبة، تحت المرآة ؛ زر المعتام[١٦] تم تحويله الى درجة واطئة وكانت بصلة المصباح تهب ضوءاً أقل من الشمعة. كانت ترقد مجعدّةً على جنبها، والأغطية منتفخة على معدتها، والوسائد مرمية على البلاط – علامات أكيدة على نوم مضطرب. يراقبها من قدم السرير دقيقةً من الزمن أو نحو ذلك، ينتظر رؤية ما إذا عكر نومها لدى دخوله الحجرة. تبدو يافعةً – شعرها إنسدل

للأمام عبر وجهها، مانحاً إياها سيماءً مبتهجةً، فاجرةً. يذهب الى الحمام وينزع ثيابه في شبه عتمة لأنه لا يريد أن يرى نفسه في المرآة – إن رؤية وجهه المنهك يمكن أن يحمله على التفكير ملياً في الشيخوخة، الذي ربما يفسد نومه. يأخذ (دشاً) كي يزيل عرق التركيز وكل بقايا المستشفى – يتخيل غباراً دقيقاً منبعثاً من جمجمة باكستر إستقر في مسامات جبينه – ويصوبن نفسه بقوة. في ما هو يجفف بدنه يلاحظ إنه حتى في الضوء الشحيح، الكدمة على صدره مرئية وتبدو أنها قد انتشرت، كبقعة في قطعة قماش. مع ذلك هي توجعه أقل حين يلمسها. تبدو الآن كذكرى بعيدة، جرتْ منذ شهور عدة، حين تلقى تلك الضربة وشعر بالقمة الحادة لموجة صدمة تخترق جسده. كانت الضربة إهانة أكثر مما هي ألم. ربما ينبغي له أن يشعل المصباح على الرغم من كل شيء ويفحص الكدمة.

لكنه يدخل حجرة النوم، وهو ما يزال في منشفته، ويطفئ المصباح. أحد مصاريع النافذة يقف مفتوحاً جزئياً بقدر إنج، ملقياً قضيباً غائماً من الضوء الأبيض الضعيف عبر البلاط والبصر أعلى الجدار المواجه. لم يكلف نفسه عناء إغلاق المصراع – الظلام التام، الحرمان من حاسة البصر، ربما يحفز أفكاره. من الأفضل أن يتطلع الى شيء ما، ويأمل أن يشعر بأن أجفانه بدأت تصبح ثقيلة. الآن، يبدو تعبه هشاً، أو غير جدير بالثقة، كألمٍ يأتي ويذهب. يحتاج الى أن يعززه، وأن يتجنب الأفكار مهما كلف الأمر. واقفاً عند جانبه من السرير، يتردد؛ ثمة ضوء كافٍ كي

يرى أن روزاليند أخذت الأغطية كلها، وعقدتها تحتها وعلى صدرها. إن سحب الأغطية سوف يرغمها على الاستيقاظ، إلا إن الطقس بارد جداً بحيث لا يستطيع أن ينام من دونها. يجلب من الحمام مبذلين سميكين للتنشيف كي يستخدمهما كبطانيتين. مؤكد إنها سوف تتقلب حالاً في سريرها، وعندئذ سوف يإخذ نصيبه من الأغطية.

لكن في ما هو يندس في الفراش، تضع يدها على ذراعه وتهمس قائلةً، ((كنتُ أحلم باستمرار إنه أنت. الآن أنت حقيقةً هنا.))

ترفع الأغطية وتسمح له بدخول خيمة دفئها. جلدها حار، أما جلده فبارد. يرقدان على جنبيهما، وجهاً لوجه. قلما يستطيع أن يراها، إلا أن عينيها تظهران نقطتي ضوء، إجتمعتا من قمة القضيب الأبيض الصاعد على الجدار الواقع خلفه. يطوقها بذراعيه وفي ما هي تدنو منه، يطبع قبلةً على رأسها.

تقول، ((رائحتك طيبة.))

يطلق صوتاً كصوت الخنزير، معبراً بصورةٍ غامضةٍ عن عرفانه بالجميل. ثم ران صمت، في ما هما يجريان إمكانية إنهما يستطيعان أن يعاملا هذه الليلة كأي ليلة مضطربة أخرى وأن يناما في ذراعي أحدهما الآخر. أو أغلب الظن إنهما ينتظران فقط أن يبدأا.

بعد برهة صغيرة يقول هنري بهدوء، ((أخبريني بماذا تشعرين)). في ما هو يقول هذا، يضع يده في الجزء الصغير من ظهرها.

تزفر زفيراً حاداً. وجه إليها سؤالاً صعباً. ((أنا غاضبة))، تقول له أخيراً. لأنها تقول ذلك همساً، يبدو كلامها غير مقنع. تضيف قائلةً، ((وما زلتُ مروَّعة، بسببهما.))

في ما هو يبدأ بإعادة طمأنتها بأنهما لن يعودا، تقاطعه. ((كلا، كلا. أعني، إنني أشعر أنهما في الحجرة. ما يزالان هنا. ما زلتُ خائفةً.))

يشعر أن ساقيها تأخذان بالاهتزاز ويجذبها إليه أكثر ويقبل وجهها. ويتمتم ((حبيبتي)).

((معذرةً. هذا الاهتزاز جرى لي في وقتٍ أبكر، حين أتيتُ الى الفراش. ثم هدأ. يا إلهي. أريده أن يتوقف.))

يصل الى الأسفل ويضع يديه على ساقيها – يبدو الإرتجاف وكأنه ينبثق من ركبتيها في تشنجات شديدة، صريحة، كما لو أن عظامها كانتْ تصر في مفاصلها (أي مفاصل العظام).

((أنتِ في حالة صدمة))، يقول في ما هو يدلك ساقيها.

((يا إلهي))، واصلتْ القول، ولا شيء آخر.

تمر دقائق معدودة قبل أن يخمد الارتعاش، خلالها يضمها إليه ويهزها، ويخبرها أنه يحبها.

حين تهدأ أخيراً تقول بصوتها المألوف، والهادئ. ((أنا غاضبة أيضاً. لا أستطيع أن أتمالك نفسي، لكنني أريده أن ينال العقاب. أعني، إنني أكرهه. أريده أن يموت. سألتني عما شعرتُ به، وليس ما أفكر به. ذلك الرجل الشرير، البغيض، ما الذي فعله بـ جون،

ويجبر ديزي ما إلى ذلك، ويحمل السكين عليّ، ويستخدمها كي يجعلك تصعد درجات السلم. ظننتُ إنني ربما لن أراك حياً من جديد...))

تتوقف عن الكلام، وينتظر هو. حين تتكلم من جديد تكون نبرتها مدروسةً أكثر. إنهما يرقدان وجهاً لوجه ثانيةً، يمسك هو بيدها، مداعباً أصابعها بإبهامه.

((حين تحدثت إليكَ عند الباب الأمامي، أقصد عن الانتقام، كنتُ خائفةً من مشاعري. ظننتُ إنني لو كنتُ في موضعك لفعلتُ شيئاً رهيباً حقاً له. كنتُ مدركة أنكَ كنتَ تملك الآراء ذاتها، بكونك وقعتَ في مشكلة خطيرة.))

ثمة أشياء كثيرة يود أن يخبرها بها، يناقشها معها، غير أن هذا ليس هو الوقت المناسب. يعرف هو إنه لن ينال منها نوع الجواب الذي يريده. سوف يفعل ذلك غداً، حين تكون أقل قلقاً واضطراباً، قبل أن يأتي رجال الشرطة.

بأطراف أصابعها تجد شفتيه وتقبله. ((ماذا حدث في العملية الجراحية ؟))

((سارت الأمور سيراً حسناً. عملية رتيبة الى حدٍ ما. فقد دماً غزيراً، أصلحناه على عجل. كان أداء رودني جيداً، إلا إنه كان من المحتمل أن يواجه مشكلةً لو أنه تعامل معها وحيداً.))

((اذاً هذا الشخص، باكستر، سوف يحيا كي يواجه التهم الموجهة إليه.))

لم يردْ هنري على هذا السؤال أبعد من همهمة أنفية غير ملتزمة تدل على شبه الموافقة. من المفيد أن يفكر ملياً في اللحظة التي سوف يفتح فيها الموضوع ؛ صباح الأحد، القهوة في كوبين كبيرين أبيضين، المستنبت الزجاجي مغمور بأشعة شمس الشتاء الساطعة، الصحف التي يستهجناها لكنهما يطالعانها، وحين يصل الى الأمام كي يلمس يدها ترنو ببصرها إليه ويرى في وجهها ذلك الادراك الهادئ، مركزاً، مستعداً للصفح. يفتح عينيه في الظلام، ويكتشف أنه كان نائماً، ربما على مدى ثواني قليلة.

تقول روزاليد، ((أصبح هو سكراناً بصورةٍ فظيعة، ثملاً بحيث جعل يهذي، الهراء المألوف. كان يصعب العناية بأي شيء آخر. إلا إن ابنينا كانا رائعين. أعادوه في سيارة اجرة وظهر طبيب فندق ونظر الى أنفه.))

كان لـ هنري إحساس عابر بالسفر خلال الليل. ذات مرة أخذ هنري وروزاليند قطاراً للنوم من مارسيليز الى باريس وإنحشرا معاً في سرير علوي غير مريح حيث اضطجعا على صدريهما كي يشاهدا فرنسا النائمة تمر بجانبهما وراحا يتحدثان حتى الفجر. الليلة، الحديث هو الرحلة.

في حالته المريحة، المنجرفة يشعر بالدفء فقط نحو والد زوجته. يقول، ((على الرغم من ذلك كان مهيباً جداً. لم يستطيعا أن يرعباه. وقال لـ ديزي ما ينبغي لها أن تفعله.))

((كان جريئاً بكل معنى الكلمة))، أيدتْ. ((لكنك كنتَ

مذهلاً. من البداية تماماً كنتُ أفهم أنك تخطط وتحسب. رأيتك تنظر الى ثيو، من جهتك الى جهته.))

يأخذ يدها ويقبل أصابعها. ((لا أحد منا فعل ما فعلته انتِ. كنتِ رائعةً.))

((أبقتني ديزي ثابتة العزيمة. كانت تملك تلك القوة آنذاك...))

((وثيو كذلك، حين أقبل طائراً فوق درجات السلم تلك...))

على مدى بضع دقائق تحوّلت وقائع المساء الى مغامرة ملونة، مسرحية من الارادات القوية، الثروات الباطنية، الصفات الجيدة لشخصيةٍ تكشفت تحت الضغط. اعتادا أن يتحدثا بهذه الطريقة بعد تسلق أفراد العائلة للجبال في (الويست هايلاندز) بإسكتلندا – الأمور تسير دوماً في الاتجاه الخاطئ، إنما بصورةٍ ممتعة، ومسلية. الآن، أُفعما بالنشاط فجأةً، إبتهاجا بإطراء، ولأنه شيء مألوف، وأقل عبثاً من أن يمدح أحدهما الآخر، يحتفلان بابنهما وبنتهما. طوال عقدين من الزمن أمضى هنري وروزاليند ساعاتٍ عدة يفعلان شيئاً كهذا – وحدهما معاً، يحبان أن ينهمكا في القيل والقال حول ابنهما وبنتهما. هذه المآثر المتأخرة جداً تلمع في الظلام – حين أمسك ثيو بطيتي سترة باكستر، حين نظرتْ ديزي مباشرةً في عينيه. أي أولاد محبوبين هؤلاء، هاتان الطبيعتان الانسانيتان المحبوبتان، ياله من حظ أن يكونا والديهما. بيد أن الحوار المستثار لا يمكنْ أن يستمر طويلاً، شرعتْ كلماتهم تبدو فارغةً وغير واقعية في مسمعيهما، وراحا يخمدان. لا يستطيعان أن

يلفيا مدةً أطول شخصية باكستر في جوهر محنتهم – فظاً، ضعيفاً، عديم المعنى، يحتاج الى من يواجهه. كذلك، إنهما يتحدثان عن ديزي ولم يوجها كلامهما الى حملها. إنهما غير مستعدين تماماً، مع إنهما قريبان من أحدهما الآخر.

بعد توقف قصير، يقول هنري، ((المسألة كما يلي، بالتأكيد. عقله موجود، وكان يعتقد أنه آتٍ كي يحسم موضوعاً. من يعرف أي عواطف شبحية متعذر ضبطها تلك التي كانت تدفعه.)) يعدها شرع يصف لها بالتفصيل اللقاء غير المتوقع في شارع (الجامعة)، ويضم في وصفه كل الأشياء التي يعتقد أنها ربما كانت وثيقة الصلة بالموضوع – رجل الشرطة الذي يلوّح له بمواصلة السير بالمركبة، المتظاهرون في شارع (غوور) وأصوات الطبول الجنائزية، ومواهبه التنافسية قبل المواجهة. في ما هو يتحدث، كانت يدها تستريح على خده. كان بوسعهما أن يشعلا المصابيح، إلا إنه يريحهما، هذا الظلام الحميم الموثوق، التشاور والتكلم اللاجنسي، والطفولي في الليل. إعتاد ديزي وثيو أن يفعلا ذلك، في الطبقة العليا مع أصدقائهما النائمين – أصوات صغيرة ما تزال تدمدم في الساعة الثالثة فجراً، يتلعثمان بإزاء النوم وبجرأة ينشطان من جديد. حين كان هنري صبياً في العاشرة، إحدى قريباته وهي تصغره بسنة واحدة أقبلتْ كي تسكن شهراً معهم في ما كانت أمها راقدةً في أحد المستشفيات. بما إنه يملك سريراً مزدوجاً في غرفته وليس ثمة مكان آخر، وضعتها أمه معه. تجاهل هنري وقريبته أحدهما الآخر خلال ساعات النهار – كانت (مونا) ممتلئة

الجسم، ذات عوينات سميكة العدسات، وأحد أصابع يديها مفقود، وقبل كل شيء كانت فتاة – إنما في الليلة الأولى، صوت هامس غير مشخص من كومة دافئة في الجهة الثانية من السرير حبك ملحمة زيارة مدرسية لمعمل حلويات، و (الشوكولاته) تسقط كالشلال عبر انبوب مائل الى الأسفل، ملحمة الماكينات التي كانت تدار بسرعة شديدة بحيث كانت لا مرئية، ثم قطع الأوصال السريع، الخالي من الألم، رذاذ الدم ((أشبه بنافض الريش)) الذي لوّن سترة المعلم، والأصدقاء الذين فقدوا وعيهم، وكبير العمال على يديه وركبتيه تحت الماكنة، يفتش عن ((الجزء)) المفقود. مستثاراً، يجيب هنري على الأسئلة ليس أكثر من بثرة شُقتْ بمبضع، إلا أن (مونا) كانت تقدّر الأمور حق قدرها بروحٍ رياضية، وهكذا انطلقا في كبسولة الزمن الخاصة بهما، حياتاهما القصيرتان وبعض الابتكار كافيان لأن يبقياهما في نوادر مرعبة خلال الليل كله حتى حلول الفجر الصيفي، ومع موضوعات مختلفة خلال الليالي الأخرى أيضاً.

حين يكمل وصفه للمواجهة، تقول روزاليند، ((بطبيعة الحال لم يكن ذاك إساءة استخدام الحق. كان بوسعهم أن يقتلوك.))

ليس هذا هو الإستنتاج الذي أراد أن تصل إليه – رتب التفاصيل كي يحثها في إتجاه آخر. كان يهم بأن يحاول من جديد، إلا إنها تبدأ قصتها. هذه هي طبيعة هذه الرحلات الليلية – الخطوات، النتائج ليست منطقية.

((في ما كانتُ أنتظرك هذي الليلة، قبل أن أنام، كنتُ أحاول

أن أستنبط فقط كم طول المدة الزمنية التي قرّبَ فيها السكين من حنجرتي. في ذاكرتي، هي غفلة من الزمن لا غير – ولا أعني إنها تبدو موجزةً. إنها غفلة من الزمن، لا تعد بالزمن، ليست دقيقةً أو ساعةً.. فقط حقيقة...))

حين تتذكر الحادثة، تعود الارتعاشات، إنما أضعف، ثم تضمحل. يمسك بيدها بإحكام.

((إني أتساءل ما إذا كان سبب ذلك هو إحساس بشيء واحد فقط – الرعب المحض، ما من تغيرات، عدم إحساس بمرور الزمن. لكن ليس هذا هو الأمر. شعرتُ بأشياء أخرى.))

توقفها طويل. كونه غير قادر على قراءة تعبيرها، يتردد في حثها على الكلام.

في الختام يقول، ((ما هي الأشياء الأخرى؟))

صوتها تأملي أكثر من كونه محزوناً. ((انتَ. كنتَ هناك. المرة الوحيدة الأخرى التي شعرتُ فيها بأنني فزعة جداً وعاجزة كانت قبل اجرائي العملية الجراحية، حينما كنتُ ما أزال أعتقد أنني سوف أغدو عمياء. حين هبطتَ معي كي ننتظر. كنتَ جد غير لبق وجاداً. كُمّا معطفك الأبيض قلما مرا بمرفقيك. كنتُ أقول ذلك دوماً حين وقعتُ في غرامك. أحسب أن ذلك صحيح. غالباً أظن أنني قررتُ ذلك، وكان هذا لاحقاً. إذاً الليلة، ثمة رعب أعظم، وهو ذا أنتَ ثانيةً، تحاول أن تتحدث اليّ بعينيك. ما زلتَ هناك. بعد هذه السنوات كلها. هذا هو ما أتشبث به. أنتَ.))

يشعر أن أصابعها تمس وجهه مساً عابراً رقيقاً، ثم تقبله. مضى وقت الأفعال الصبيانية، لساناهما يمس أحدهما الآخر.

((إلا أن ديزي هي التي أنقذتكَ. أدارت مزاجه بتلك القصيدة. أرنولد فلان ؟))

((ما ثيو أرنولد.))

يتذكر جسدها، شحوبه، الورم المحكم الذي يضم حفيده الذي يملك الآن قلباً، جهازاً عصبياً منظماً ذاتياً، انتفاخاً بحجم رأس الدبوس خاص بالدماغ – هذا ما يمكن أن تصير إليه مادة غير معتنى بها في الظلام التام لرحمٍ ما.

قارئةً معنى صمته، تقول روزاليند، ((تحدثت إليها ثانيةً. هي في علاقة غرامية، هي مستثارة، وتملك هذا الطفل. هنري، علينا أن نكون الى جانبها.))

يرد قائلاً، ((أنا الى جانبها. كلانا.))

عيناه مغمضتان وهو يصغي بتركيز لـ روزاليند. حياة هذا الطفل تتخذ شكلاً – سنة في باريس مع والديه المبهجين الى أقصى حد، ومن ثم الانتقال الى لندن حيث منح والده وظيفةً جيدةً في موقع مهم ينقب فيه عن الآثار – فيللا رومانية شرق (المدينة). ربما سينتقلون جميعاً الى هنا مدةً من الزمن ويسكنون في الساحة. يتمتم هنري بموافقته، هو سعيد – المنزل كبير، سبعة آلاف قدماً مربعاً، ويحتاج ثانيةً الى صوت طفل. يتحسس بدنه، حجم قارة، يتمدد بعيداً عنه أسفل السرير – هو ملك، هو ضخم، لطيف، ذو

مناعة، سيقول نعم لأي خطة لها رأفة ودفء في قلبه (أي الطفل). دع الطفل يخطو خطواته الأولى ويتكلم جملته الأولى هنا، في هذا القصر. ديزي تريد طفلها، اذاً دع الأمور تجري في أفضل طريقة ممكنة. إذا كانت ستصبح شاعرة، فسوف تصنع شعرها من هذه التجربة الخلاقة – هو موضوع جيد بوصفه خيطاً لعاشقين. لا يستطيع أن يحرك رأسه، قلما يستطيع أن يحرك يده كي يربت على يد روزاليند في ما هي تنشر المستقبل له، الترتيبات العائلية – إنه يتابع الأمور عن كثب، يصغي الى البهجة في صوتها. الصدمة الأولى إنتهت. هي تخرج من المحنة. وكان ثيو يتحدث عن خططه أيضاً، التي سوف تأخذه بعيداً على مدى خمسة عشر شهراً الى نيويورك مع (نيو بلو رايدر) كفرقة مقيمة في نادي (قرية الشرق). كان يجب أن يحدث هذا، موسيقى ثيو تحتاج الى ذلك وسوف يجعلونها تحرز مكانةً، وسيساعد ذلك ثيو على أن يجد مكاناً له، وأن نزوره هناك. الملك يدمدم بموافقته.

عبر الساحة، عواء سيارة إسعاف تسرع جنوباً في شارع (شارلوت) توقظه قليلاً. يسحب نفسه على أحد مرفقيه، ويتحرك مقترباً بحيث يصبح وجهه فوق وجهها.

((يلزمنا أن ننام.))

((نعم. يقول رجال الشرطة أنهم قادمون في العاشرة صباحاً.))

لكنهما حين إنتهيا من تقبيل أحدهما الآخر يقول، ((لامسيني.))

في ما كان الاحساس العذب ينتشر عبر أوصال جسده يسمعها تقول، ((قل لي إنكَ ملكي.))

((أنا ملككِ. ملككِ تماماً.))

((مس ثديي. بلسانكَ.))

((روزاليند. أريدكِ.))

في هذا الموضع تحديداً يؤشر نهاية يومه. اللحظة صارمة أكثر، نافذة أكثر من بداية السبت الكسولة، والرقيقة – حركاتهما سريعة ونهمة، ملحة أكثر مما هي مبهجة – يبدو الأمر كما لو أنهما عائدان من منفى، إنبثقا من مدةٍ أمضياها في سجنٍ قاسٍ كي يأكلا بنهم في وليمة. شهيتاهما ضاجتان، سلوكهما فظ. لا يستطيعا أن يثقا تماماً بحظيهما، يريدان كل ما يستطيعان الحصول عليه في وقتٍ قصير. هما يعرفان أيضاً أنه في الختام، بعد أن روض أحدهما الآخر، يوجد وعد النسيان.

في مرحلةٍ ما راحت تهمس له، ((يا حبيبي. كان بالمستطاع ان نُقتل وها نحن ما نزال حيين.))

إنهما حيان من أجل الحب، إنما لمدةٍ وجيزة حسب. تأتي النهاية في إنهيار مفاجئ، مركزةً جداً في مسرتها بحيث يكون شيئاً موجعاً أن نتحمله، متطفلاً بصورةٍ لا تطاق، كنهايات عصبية قُشرتْ وجُرّدت تماماً. بعد ذلك لم ينفصلا حالاً. هما ما يزالان يرقدان بلا حراك في الظلام، يشعران أن ضربات فؤاديهما بطيئة. يجرّب هنري تعبه الشديد والوضوح المفاجئ للإنعتاق الجنسي يتحد

مع حقيقة وحيدة بسيطة وصريحة كصحراء. عليه أن يبدأ بعبورها الآن، وحيداً، ولن يبالي. في النهاية يقول كل منهما للآخر ليلة هانئة بواسطة مصافحة واحدة باليدين – يشعران أنهما جاهلان جداً في التقبيل – بعدئذ تستدير روزاليند على جنبها، وفي غضون ثوانٍ معدودات تبدأ بالتنفس العميق.

النسيان لم يأتِ لـ هنري بيروني حتى الآن – ربما وصل الدرجة التي يمنعه فيها الإرهاق نفسه من النوم. يضطجع على ظهره، منتظراً بصبر، رأسه مُدار صوب قضيب الضوء الأبيض على الجدار، واعياً بضغط مزعج يقوى في مثانته. بعد دقائق عديدة يأخذ واحداً من المبذلين الساقطين على الأرض ويدخل الحمام. البلاط الرخامي ثلجي تحت قدميه، الستائر المفتوحة على النوافذ الطويلة المواجهة للشمال تظهر نجوماً قليلةً في سماءٍ ذات سحب متفرقة، مصطبغة باللون البرتقالي. الوقت الآن الخامسة وخمس عشرة دقيقة، وكان قد بدأ حفيف من حركة المرور في طريق (ايوستون). حين يريح نفسه، ينحني فوق المغسلة كي يشرب بعمق من حنفية الماء البارد. بعد عودته الى حجرة النوم يسمع دمدمة بعيدة لطائرة ما، أولى طائرات ساعة الازدحام الصباحية في (هيثرو)، هكذا يعتقد هو، منجذباً بالصوت، يمضي الى النافذة التي وقف عندها من قبل ويفتح المصاريع. يفضل أن يقف هنا دقائقَ قليلةً يتطلع الى الخارج على أن يبقى مستلقياً بلا حراك في فراشه، مجبراً نفسه على النوم. بهدوء يرفع النافذة. الهواء أكثر دفئاً من المرة السابقة، لكنه ما يزال يرتعد. الضوء أضعف

كذلك، ملامح الساحة، بخاصة أغصان أشجار الدلب في الحديقة، لم تكن واضحةً جداً، وتبدو مندمجةً بعضها ببعض. ماذا عن درجات الحرارة الواطئة التي تشحذ حافات الأشياء ؟

المصاطب فقدتْ سيماءها المتوقعة، صناديق الركام المبعثر أُفرغت، الرصيف كُنس تماماً. لابد أن الفريق النشيط بالسترات الصفر كان قد انتهى من عمله خلال المساء. يحاول هنري أن يجد إعادة الإطمئنان في هذا النظام، وفي تذكر الساحة في أفضل — أوقات الطعام في أيام الأسبوع (عدا السبت والأحد)، في المناخ الدافئ، حين تزدحم الدائرة من الانتاج المحلي، شركات الاعلان والتصميم تجلب شطائرها وسَلَطتها الموضوعة في صناديق، وتُفتح بوابات الحدائق. يتدحرجون على الحشائش، رجالاً ونساءً من مختلف الأجناس، معظمهم في العشرينات والثلاثينات، جريئون، مرحون، غير مضطهدين، أصحاء الجسم والعقل من التدريبات الجمبازية الخاصة، في منازلهم بمدينتهم. أشياء كثيرة تميزهم عن الهيئات البشرية المختلفة المنفصلة التي تلازم المصطبات بشكل مستمر. العمل علامة خارجية. لا يمكنْ أن يكون صنفاً أو فرصاً — السكارى وبائعو المخدرات المتجولون ينحدرون من كل صنوف الخلفيات، شأنهم شأن أناس الدائرة. بعض أسوأ الأشخاص المرضى كانوا قد تلقوا تعليماً خاصاً. بيروني، المصغر المحترف، لا يتمالك نفسه من التفكير أن هذا يتغلغل عميقاً الى الطيات والليات غير المرئية للشخصية، المكتوبة بالشيفرة، على مستوى الجزيئات. إنه مصير غير جلي، أن تكون نوعاً من شخص لا يستطيع أن

يكسب رزقاً، أو يرفض مشروباً آخر، أو يتذكر اليوم ما قرر أن ينجزه أمس. ما من كمية من العدالة الاجتماعية يمكنها أن تعالج أو تشتت هذا الجيش المضعَف الذي يلازم بشكل مستمر الأمكنة العامة لأي مدينة من المدن. اذاً، ماذا بعد ؟ يسحب هنري مبذله بصورةٍ أكثر قرباً حول نفسه. عليكَ أن تميز الحظ السيء حين تراه، عليك أن تفتش عن هؤلاء الناس. بعضهم يمكنك أن تخمنهم من خلال إدمانهم للمخدرات، البعض الآخر – جل ما تستطيع أن تفعله هو أن تجعلهم مرتاحين نوعاً ما، وأن تقلل بؤسهم.

نوعاً ما ! هو ليس مُنظّراً إجتماعياً و، بالطبع، هو يفكر بـ باكستر، تلك العقدة غير الملتقطة من البلوى. أغلب الظن إن التفكير به هو الذي يجعل هنري يشعر بالارتجاف، أو التأثيرات الجسدية للتعب – عليه أن يضع يده على حافة النافذة كي يثبت نفسه. يشعر بنفسه إنه يدور على عجلة هائلة، على غرار (العين) على الضفة الجنوبية لـ (التايمز)، يكاد يصل الى أعلى نقطة – يتوازن على مفصلة من الادراك، قبل السقوط، ويمكنه أن يرى الى الأمام بهدوء. أو إنه يتخيل إستدارة الأرض ناحية الشرق، مُحررةً إياه عند الفجر في سرعة مبجلة تبلغ ألف ميلاً بالساعة. إذا أدخل النوم في حسابه بدلاً من الساعة التي تقسم الأيام، إذاً فإن هذا ما يزال هو (السبت) الخاص به، يسقط بعيداً عنه الى الأسفل، عميقاً شأنه شأن عمر المرء. ومن هنا، من قمة يومه، يمكنه أن يرى بعيداً الى الأمام، قبل أن يبدأ الهبوط، الأحد لن يرن بنفس الوعد والقوة كاليوم الذي سبقه. الساحة الواقعة الى

الأسفل منه، مهجورة وساكنة، لا تمنح مفاتيح حل للمستقبل. لكن من الموضع الذي يقف فيه هنا ثمة أشياء يستطيع أن يراها يعرف أنها يجب أن تحدث. حالاً سوف يكون أوان والدته، الرسالة ستأتي من دار المسنات، أو أنهم سيبعثون في طلبه، هو وأفراد عائلته سيجلسون بجانب سريرها، في حجرتها الصغيرة جداً، مع حليها، محتسيةً الشاي البني الثخين، يراقبون نهايتها، قشرة السبّاحة القديمة، تنكمش في الوسائد. لدى فكرته هذه، لم يشعر بشيء الآن، إلا أنه يعرف أن الحزن سوف يدهشه، لأن ذلك حدث مرةً من قبل.

في وقت من أوقات انحطاطها حيث توجب عليه أخيراً أن يأخذها خارج منزلها، بيت العائلة القديم حيث ترعرع، وأن يتولى رعايتها. كان المرض يطمس وتائر ربة البيت التي آمنت بها يوماً ما. تركت الفرن مشتعلاً طوال الليل وبداخله طبق الزبد، تخفي مفتاح الباب الأمامي عن نفسها تحت الشقوق في ألواح الأرضية، لم تستطعْ التمييز بين (الشامبو) والقاصر. هذه كلها، ولحظات الانذهال الوجودي حين تجد نفسها في شارع ما، أو مخزن، أو منزل امرئ ما، من دون أن تكون عارفة من أي مكان أقبلتْ، من هم هؤلاء الناس، أين كانت تسكن، وما الذي يفترض بها أن تفعله لاحقاً. بعد ذلك بسنة نسيت حياتها فضلاً عن منزلها القديم. بيد ان الترتيبات التي أُتخذتْ من أجل بيعه تم الشعور بها وكأنها خداع، ولم يحرك هنري ساكناً. هو وروزاليند كانا يفحصانه، بيت طفولته، من حين الى آخر، وكان يجز المرج صيفاً. كل شيء

بقي في مكانه، ينتظر - القفازات المطاط الصفر تتدلى من كلاّبها، كلاّب الملابس الخشب، جرار المئازر المكوية ومناشف الشاي، حمار الفخار المزجج الذي يحمل سلة مليئة بعيدان نبش الأسنان. رائحة رتيبة للاهمال تبدأ بالتجمع، رثاثة اجتاحت ممتلكاتها التي لم تكن لها أي صلة بالغبار. حتى من الطريق كان لمنزل شكل محبط، وحين يقذف الأطفال حجرةً عبر شباك حجرة المعيشة في ما بعد ظهيرة يوم ما في تشرين الثاني (نوفمبر)، كان يعرف أن عليه أن يفعل شيئاً ما.

روزاليند وولده وابنته جاءوا معه كي يفرغوا المكان في نهاية أحد الأسابيع.كلهم يختارون تذكاراً - بدا أنه شيء غير متسم بالاحترام أن لا يفعلوا ذلك. ديزي تأخذ لوحاً من النحاس الأصفر من مصر، ثيو يأخذ ساعة مَركبة، روزاليند، طاس فواكه من الخزف الصيني غير المزخرف. أخذ هنري علبة حذاء مليئة بالصور الفوتوغرافية. قطع أخرى ذهبت الى أبناء وبنات الأقارب وبنات أخ الزوج. سرير ليلي، خوانها، خزانتا ثياب والسجاد والخزانات ذوات الأدراج كانت تنتظر شركة تفريغ المنازل. أفراد العائلة حزموا الثياب وادوات المطبخ والحلي غير المرغوب فيها لمخازن الإحسان - هنري لم يكن يعرف من قبل كيف تخلّد هذه الأمكنة الأموات. الأشياء الأخرى كلها أقحموها في بطانات الصناديق ورموها كي تُجمع مع النفايات. عملوا صامتين كالسلابين - لم يكن مناسباً أن يشغلوا المذياع. استغرقوا يوماً كاملاً كي يفككوا حياة ليلي.

كانوا يزيلون ((طقم)) مسرحية ما، دراما عائلية، متواضعة،

بيدٍ واحدةٍ من دون موافقة من شخصيات المسرحية. بدأوا بما كانت تدعوه غرفة الخياطة الخاصة بها – غرفته القديمة. هي لن تعود البتة، ولم تعد تعرف ما هي الحياكة، إلا أنهم يرزمون المقادير التي لا حصر لها من الإبر التي بحوزتها، عيناتها الألف، شالاً اصفر نصف منتهٍ لطفلة، كي يعطوها كلها لأناس غرباء كي يبعدوها عن العيش. عملوا بعجالة، تقريباً في جنون مؤقت. كان هنري يردد مع نفسه، إنها لم تمتْ بعد. غير أن حياتها، الحيوات كلها، بدت غامضةً حين رأى كم سريعاً، وبأية راحة، كل الحلي، كل التفاصيل الدقيقة لعمرٍ ما يمكن رزمها وبعثرتها، أو طرحها بوصفها بالية. الحاجيات تصبح أشياءً بالية حالما تنفصل عن مالكها وماضي كل واحدة منها – من دونها، كان إبريق الشاي القديم العائد لها منفراً، برسمه المتكرر الباهت لبيت المزرعة والبقع البنية الباهتة على القماش الرخيص، وكان إقحام ذلك الشيء واهناً بصورةٍ مثيرة للشفقة. ما إن تم إفراغ الرفوف والجرارات، وملأ الصناديق والحقائب، حتى رأى أن ما من أحد امتلك أي شيء فعلاً. الأشياء كلها تم تأجيرها، أو إعارتها. ممتلكاتنا تفوقنا قدرةً على الاستمرار، أما نحن فسوف نهجرها في خاتمة المطاف. عملوا طوال النهار، وطرحوا ثلاثاً وعشرين كيساً لجامعي القمامة.

يشعر بأنه هزيل وضعيف في مبذله، وهو يواجه الصباح الذي ما يزال مظلماً، ما يزال جزءاً من الأمس. نعم، سوف يحدث هذا، وسوف يقوم بالترتيبات. أخذته مشياً على الأقدام ذات يوم الى مقبرةٍ

قريبةٍ من منزلها كي تريهَ صفوف الصناديق المعدن الصغيرة المغلقة الموضوعة في جدارٍ ما حيث كانت ترغب أن يحفظ رمادها. كل ذلك سوف يحدث حتماً، وسوف يقفون برؤوس محنية، يرهفون السمع إلى (دفن الأموات). أم أنها ستخصص لحرق جثث الأموات؟ الإنسان المولود لامرأة لا يملك إلا وقتاً قصيراً كي يعيشه... يسمع هذا في كثير من الأحيان على مدى السنوات، إلا إنه لا يتذكر سوى أجزاءً صغيرةً. يتجنبه كما لو كان ظلاً.. يقطعه كزهرة. أجل، وعندئذ يأتي دور جون غراماتيكوس، واحد من تلك الأمراض التي تغير المظهر تأتي إلى رجل سكير، أو طعنة أخيرة للقلب أو الدماغ. كلهم سوف يأخذون تلك المسألة بجد كلٌّ بطريقته الخاصة، مع إن هنري أقل من الآخرين. كان الشاعر العجوز شجاعاً هذه الليلة، متظاهراً بأنه لا يعاني من أنفه، مانحاً ديزي فقط التذكرة الصحيحة. وحين يأتي دوره، عندئذ ستكون هناك أزمة البيت الريفي الضخم شريطة أن تتزوج تيريزا جون وتصر على مطلبها، وروزاليند، التي لها معرفة هائلة بالقانون، تلاحق حقوقها في المكان الذي خُلقت فيه أمها، المكان الذي أمضت فيه ديزي، ثيو، وروزاليند نفسها أصياف طفولتهم. وما هو دور هنري؟ الاخلاص الحكيم الذي لا سبيل الى تغييره.

وماذا يحدث أيضاً، بعد الوفاة؟ سوف يقوم ثيو بأول انتقال له من البيت، لن تكون هناك بطاقات بريدية أو رسائل أو بريد الكتروني (إيميلات)، بل مجرد إتصالات هاتفية. ستكون هناك رحلات الى نيويورك من أجل الاستماع إليه وفرقته الموسيقية تأتي

بأغانيها (البلوز) الى الأمريكيين – ربما لن يحبوها – وفرصة طيبة لرؤية الأصدقاء القدامى من أيام (مستشفى بيليفو). وسوف تنشر ديزي قصائدها وتنجب طفلاً أو طفلة وتأتي بـ جيوليو – ما يزال هنري يرى العاشق داكن البشرة، عاري الصدر من القصيدة التي أساء سمعها. طفل ومجموعته الضخمة من اللوازم كي يفعم الأسرة بالنشاط والحيوية، وشخص آخر، ليس هو، وليست روزاليند، ينهض من نومه في أثناء الليل. وليس جيوليو، ما لم يكنْ إيطالياً استثنائياً. كل هذا وفير. وبعدها، سوف يصبح هنري في سنته الخمسين ويتخلى عن ممارسة (السكواش) و (الماراثونات)، المنزل سيفرغ عندما تجد ديزي وجيوليو مكاناً للسكن، ويحصل ثيو كذلك على مسكن خاص به، وهنري وروزاليند سوف ينكمشان في أحدهما الآخر، يلتصقان بأحدهما الآخر بصورة محكمة أكثر، فمهمتهما في تنشئة الأولاد، وأخذهم بيد البالغين اليافعين، إنتهتْ. ذلك القلق، ذلك التوق الذي إمتلكه مؤخراً الى نوعٍ آخر من الحياة سوف يتلاشى. سوف يحل وقت حين ينجز عدداً أقل من العمليات الجراحية وحصةً أكبر من الأعمال الإدارية – ثمة طراز آخر من الحياة – وروزاليند سوف تتخلى عن الجريدة كي تدون كتابها، وسوف يحل وقت حين يجدان أنهما لن يعودا يطيقان الساحة، وبائعي المخدرات المتجولين وضجيج المرور والغبار. ربما قنبلة في قضية الجهاد سوف تجبرهم على الانتقال مع جميع ضعاف الأفئدة الآخرين الى الضواحي، أو الى أعماق الريف، أو الى البيت الريفي الضخم – سبتهم سوف يصبح يوم أحد.

وراءه، كما لو أنها أُثيرت بأفكاره، روزاليند تجفل، تئن، وتتحرك من جديد قبل أن تلتزم الصمت ويعود هو ثانيةً الى النافذة. لندن، جزؤه الصغير منها، تتمدد مفتوحةً على وسعها، يتعذر الدفاع عنها، تنتظر قنبلتها، شأنها شأن مائة مدينة أخرى. ساعة الازدحام ستكون وقتاً مناسباً لتفجيرها. ربما تشبه إنهيار (البادنغتون) – قضبان سكة الحديد ملتوية، حافلات الرحلات اليومية بين المدينة والضواحي منبعجة بفعل القوة الضاغطة، مرفوعة، نقالات الجرحى أو الموتى تم تسليمها عبر الشبابيك المكسورة، [خطة طوارئ] المستشفى على قدم وساق. برلين، باريس، لشبونة. السلطات تؤيد، الهجوم محتوم. يحيا في أزمنة مختلفة – لأن الصحف تقول هكذا لا يعني أن ذلك غير واقعي. إنما من قمة يومه، هذا مستقبل يصعب قراءته، أفق ذو إمكانات غير واضحة. قبل مائة سنة خلت، طبيب في منتصف العمر يقف عند هذه النافذة في مبذله الحرير، قبل فجر يوم شتائي بساعتين، ربما كان يفكر ملياً في مستقبل القرن الجديد. شباط (فبراير) ١٩٠٣. ربما تحسد هذا النبيل (الإدواردي) على كل ما لم يكنْ يعرفه حتى الآن. لو كان له غلمان يافعين، لكان بوسعه أن يفقدهما في غضون دزينة من السنوات، في سوم[١٧]. وكم يبلغ عدد ضحاياهم، هتلر، ستالين، ماو ؟ خمسون مليوناً، مائة مليوناً ؟ اذا وصفتَ الجحيم الذي يتمدد أمامك، إذا حذرته، الطبيب الطيب.

نتاج دمت للازدهار وعقود السلام – لن يصدقك. كن حذراً فإن اليوتوبيين، الرجال المتحمسين متأكدين من الدرب المؤدي الى

النظام الاجتماعي المثالي. ها هم أولاء ثانيةً، شموليون بشكل مختلف، ما يزالون مبعثرين وضعفاء، إلا إنهم يكبرون، ويغضبون، ومتعطشون لقتل جماعي آخر، نحتاج الى مائة سنة كي نحل المسألة. إلا أن هذا ربما يكون تساهلاً، (فانتازيا) عديمة الجدوى، منتفخة، فكرة ليلية حول اضطراب عابر في ذلك الزمن ومغزى جيد سوف يستقر ويعيد التنظيم.

الأرض الأقرب، الرعن[18] القريب جداً، من الأسهل قراءتهما – هو متيقن من ذلك كموت والدته، سوف يتناول الغداء مع البروفيسور طالب في مطعم عراقي بالقرب من (هوكستون). الحرب ستبدأ الشهر المقبل – لا بد أن الموعد الدقيق تم تحديده قبل الآن، كما لو أنه موعد حدث رياضي كبير خارج المباني. لو تأجل الموعد فسيكون المناخ حاراً جداً للقتل أو التحرير. بغداد تنتظر قنابل الحرب. أين هو ميل هنري الفطري لإزالة طاغية الآن ؟ في نهاية هذا اليوم، هذا المساء تحديداً، هو جبان، معرّض للهجوم، يواصل جرّ مبذله حول بدنه بمزيد من الإحكام. طائرة أخرى تتحرك من اليمين الى اليسار عبر مشهده، هابطة بطريقتها الرتيبة على طول خط (التايمز) صوب (هيثرو). من الأصعب الآن أن يتذكر؛ قوة شجاره مع ديزي – الحقائق تفككت الى نقاط جدال؛ العالم الذي وصفه البروفيسور لا يطاق، ذلك إنه مهما كانت الحوافز الأمريكية كثيرة الضباب، ربما تأتي ميتات دائمة جيدة وأقل عدداً من جراء تفكيكه. يسمع ديزي وهي تخبره، أن القوة ليستْ جيدةً بدرجةٍ كافيةٍ، وإنكَ سمحتَ لقصة

إنسان ما أن تدير رأسك. إن امرأة تحمل طفلاً لها نفوذها الخاص. هل سيعيد الى الحياة أمانيه من أجل فعل ثابت صباحاً ؟ كل ما يحس به الآن هو الخوف. هو ضعيف وجاهل، خائف من الطريقة التي تقفز فيها عواقب فعلٍ ما من سيطرتك وأن تلد أحداثاً جديدةً، عواقبَ جديدةً، الى أن تقاد الى مكانٍ لم تكنْ تحلم به ولم تختره – سكين عند الحنجرة. طبقة واحدة الى الأسفل من المكان الذي تحلم فيه اندريا شابمان أن يحملها بعيداً الغرام بعيد الاحتمال الذي تكنه لطبيب شاب، وأن تصبح هي نفسها طبيبةً، يرقد باكستر في ظلامه الخاص، يراقبه رجال الشرطة البريطانية. إلا أن نقطةً صغيرةً ثابتةً من القناعة تبقي هنري راسخاً. بدأتْ تتخذ شكلاً عند العشاء، قبل أن يقرع جي الجرس، واستقرتْ أخيراً حين جلس في العناية الفائقة، متحمساً نبض باكستر. يلزمه أن يقنع روزاليند، ومن ثمة بقية أفراد العائلة، وبعدها الشرطة، أن لا يلاحقوا التهم المواجهة الى باكستر. المسألة يجب التخلي عنها. دعهم يتعقبون الرجل الآخر. باكستر له حصة متناقصة من حياةٍ تستحق العيش، قبل هبوطه الى الكابوس تبدأ الهلوسة. يستطيع هنري أن يحصل على زميل أو إثنين، اختصاصيين في هذا الحقل، كي يقنعا [خدمة مقاضاة التاج] أنه بمرور الوقت يجب عليها أن تغير وجهات نظرها، وأن باكستر لن يكون مهيئاً لتحمل المحاكمة، هذا الأمر ربما يكون أو لا يكون حقيقياً. بعدها النظام، المستشفى المناسب، يجب عليه أن يسحبه الى الداخل بأمان قبل أن يقترف مزيداً من الأذى. بوسع هنري أن يقوم بهذه

الترتيبات، يفعل كل ما بوسعه كي يريح المريض، نوعاً ما. هل هذا مغفرة ؟ ربما هي ليست كذلك، لا يدري، هو ليس ذلك الشخص الذي خُوّل بها على أي حال. أم إنه الرجل الذي يفتش عن المغفرة ؟ هو مسؤول، على الرغم من كل شيء ؛ قبل عشرين ساعة خلت قاد مركبته عبر شارع مغلق رسمياً أمام مرور المركبات، وأُقحم في سلسلةٍ متواصلة من الأحداث. أم إنه كان ضعفاً – بعد عمر معين، حين تتخذ السنوات الباقية أولاً مظهرها النهائي، وتبدأ أنت بنفسك بالشعور بالقشعريرة الأولى، تراقب رجلاً يحتضر بولع أكثر حميمية، وبمزيد من الأخوة. لكنه يفضل أن يعتقد إنها واقعية: كلهم سوف يُحط من قيمتهم من خلال جَلد رجل في طريقه الى الجحيم. من خلال إنقاذه حياته في صالة العمليات الجراحية، هنري ايضاً سلّم باكستر الى عذابه. الانتقام كافٍ. وهنا ثمة منطقة واحدة حيث يستطيع هنري أن يمارس السلطة ويعطي للأحداث شكلاً. يعرف هو كيف يعمل النظام – الاختلاف بين العناية الجيدة والسيئة لا متناهٍ تقريباً.

ألقت ديزي قصيدةً ألقت سحراً على رجلٍ واحد. ربما أي قصيدة كان بوسعها أن تؤدي العمل البارع، وأن تغير المزاج تغييراً مباغتاً. مع ذلك، باكستر خُدع بالسحر، تحجر بواسطته، وذُكر بالمدة الزمنية التي كان يريد أن يحياها. ما من أحد يستطيع أن يغفرله إستعماله للسكين. إلا أن باكستر سمع ما لم يسمعه هنري، ومن المحتمل سوف لن يسمع، على الرغم من محاولات ديزي كلها في تثقيفه. ثمة شاعر من شعراء القرن التاسع عشر – لم يكتشف

هنري ما إذا كان هذا الـ (أرنولد) ذائع الصيت أم مغموراً – فجرٌ في باكستر توقاً قلما بدأ بتعيينه. هذا الجوع هو مطلبه في الحياة، في وجود عقلي، وبما إنه لن يستمر زمناً أطول، لأن باب وعيه بدأ ينغلق، لا ينبغي له أن يتابع مطلبه من زنزانة سجن، منتظراً عبث محاكمته أن تبدأ. هذا هو مصيره المبهم، الثابت، أن يقوم بهفوة صغيرة جداً، خطأ في التكرار في شيفرات كينونته، في بنيته الوراثية، الشكل المختلف الحديث لفردٍ من الأفراد، وعليه أن يحل الخيوط – وهذه حقيقة أخرى يراها هنري نصب عينيه.

بهدوء، يخفض النافذة. الصباح ما يزال مظلماً، وهو أكثر الأوقات برداً الآن. لن يأتي الفجر إلا بعد السابعة. ثلاث ممرضات يتمشين عبر الساحة، يتحدثن بمرح، متجهات صوب مستشفاه كي يبدأن مناوبتهن الصباحية. يغلق مصاريع النافذة دونهن، ثم يمضي الى السرير ويجعل المبذل يسقط الى قدميه في ما هو يدخل الفراش. روزاليند تستلقي ووجهها بعيد عنه، أما ركبتاها فكانتا معقوفتين. يغمض عينيه. هذه المرة ليس ثمة مشكلة في السقوط صوب النسيان، ما من شيء يستطيع أن يمنعه الآن. لم يعدْ النوم مفهوماً، إنه شيء مادي، وسيلة موغلة في القدم من وسائل التنقل، حزام يتحرك بانسيابية، ينقله الى داخل يوم الأحد. يلائم نفسه حولها، منامتها الحرير، عطرها، دفئها، شكلها المحبوب، ويسحب نفسه مقترباً منها. بصورةٍ عمياء، يقبل مؤخرة عنقها. هناك دوماً هذه الفكرة، هذه هي أحد أفكاره الباقية. ومن ثم: توجد هذه فقط. وفي الختام، يخمد، مغمياً عليه: إنتهى هذا اليوم.

شاطئ دوفر

البحر هادئ، هذي الليلة.
المد حافل، القمر يستلقي جميلاً
فوق المضيق ؛ على الساحل الفرنسي الضوء
يومض ويختفي ؛ حروف بريطانية تنتصب،
وامضةً وضخمةً، في الخليج الساكن.
تعالي الى النافذة، عذب هواء الليل !
فقط، من الخيط الطويل للرذاذ
حين يلتقي البحر باليابسة التي كساها القمر بالبياض،
اصغي ! أنتِ تسمعين الهدير المزعج
للحصى الذي تجرفه الأمواج، وتقذفه بقوة،
عند عودتها، على الشاطئ العالي،
يبدأ، وينقطع، وبعدها يبدأ ثانيةً،
بإيقاع مرتجف بطيء، ويجلب
الى الداخل نغمة الحزن السرمدية.

سوفوكليس منذ زمن غابر
سمعه على شاطئ بحر ايجه، فأورد
الى باله المد والجزر العكرين،
للبؤس الانساني ؛ نحن
نجد أيضاً في الصوت فكرةً،
نسمعها عند هذا البحر الشمالي البعيد.

[بحر الايمان]
كان مرةً ايضاً، عند الحد الأقصى، وحول ساحل الأرض المدورة
اضطجع كطيات حزام براق ملفوف.
لكنني الآن أسمعُ فقط
كآبته، هدير الانسحاب الطويل،
يتراجع، الى نسمة
ريح الليل، أسفل الحافات الضخمة الموحشة
والحصى العاري للعالم.

آه، يا حبيبتي، لنكن مخلصين
لأحدنا الآخر! من أجل العالم، الذي يبدو
مستلقياً أمامنا كأرضٍ للأحلام،

جد متنوع، جد جميل، جد حديث،
حقيقةً لا يملك السعادة، ولا الحب، ولا الضوء،
ولا اليقين، ولا السلام، ولا العون لتخفيف الألم؛
ونحن هنا كما لو أننا على سهل مظلم
اكتسحته انذارات مرتبكة للصراع والهرب،
حيث الجيوش الجاهلة تتصادم ليلاً.

ماثيو أرنولد (سنة ١٨٦٧)

تشكرات

أعبر عن شكري الهائل لـ نيل كيتشن، دكتوراه في الطب، زميل في الكلية الملكية للجراحين (أس أن)، جرّاح الأعصاب الاستشاري والمدير السريري المرافق، في (المستشفى القومي لعلم الأعصاب وجراحة الأعصاب)، (كوين سكوين)، لندن. كان إمتيازاً أن أشاهد هذا الجراح الموهوب وهو يعمل في صالة العمليات الجراحية على مدى سنتين، وإنني أشكره على عطفه وصبره في ان يقتطع وقتاً من جدولٍ كثير المطالب كي يشرح لي تعقيدات مهنته، والدماغ، بأمراضه التي لا حصر لها. أنا ممتن أيضاً إلى سالي ولسون، زميلة في الكلية الملكية للتخدير، مخدرة الأعصاب الاستشارية في المستشفى نفسه، وإلى آني مكغوينيس، إستشارية، قسم الحوادث والطوارئ، مستشفى الكلية الجامعة، وإلى المفتش الرئيس آمون مكافي. على وصف استئصال الغدة النخامية ما وراء الإسفيني، أنا مدين الى فرانك. تي. فيرتوسيك، دكتوراه في الطب، وكتابه الممتاز ((حين يضرب الهواء دماغك: حكايات عن جراحة الأعصاب، نورتون، نيويورك، ١٩٩٦)). راي دولان، أكثر العلماء ولعاً بالأدب، على قراءته النسخة المطبوعة

على الآلة الكاتبة من ((السبت)) وإقتراحاته العصبية الدقيقة. تم غارتون آش وكريغ ريني كذلك طالعا هذه الرواية في مرحلة مبكرة وكانا نافعين جداً في تعليقاتهما. أنا شاكراً جداً لـ كريغ ريني كونه سمح لي بسخاء في أن أنسب الى ديزي بيروني الكلمات ((وعاء الارواء المستثار)) و((وردة مميزة)) من قصيدته ((دوبيتات جنسية)) [الدوبيت: مقطع شعري مؤلف من بيتين – م.] و((كيف أن كل / وردة تنمو على ساق مبتلى بصورةٍ متفوقة)) من ((تقرأ رسالتها القديمة حول عرسٍ ما))، ((قصائد منتخبة))، سنة ١٩٧٨ – ١٩٩١، دار نشر بيكادور، لندن، سنة ٢٠٠٠. زوجتي، أنالينا مكافي، لقراءتها مراحل عديدة من المسوّدة، وأنا المستفيد المحظوظ من تعليقاتها التحريرية الحكيمة وتشجيعها الحنون.

إيان مكيوان

لندن، سنة ٢٠٠٤

الهوامش

هوامش الفصل الاول

١. الميكة mica : مادة شبه زجاجية يمكن أن تُشطر الى رقاقات تُستعمل عازلاً كهربائياً– المترجم.

٢. في النص : trigeminal neuralgia : أي ألم العصب القحفي الخامس - المترجم.

٣. في النص : a middle cerebral artery aneurysm - المترجم.

٤. في النص : schwannoma - المترجم.

٥. في النص pilocystic astrocytoma – المترجم.

٦. في النص : the superior celebellar vermis - المترجم.

٧. الهزع ataxia : عدم القدرة على تنسيق الحركات العضلية الارادية – المترجم.

٨. وردت في النص كلمة banshee اللاتينية وتعني : روح انثى ينذر عويلها خارج الدار بحلول الموت – المترجم.

٩. المخفتة : deadening : مادة لجعل الجدران عازلة للصوت – م.

١٠. الكنتاتة cantata : قصة تنشدها المجموعة على أنغام الموسيقى من غير تمثيل – المترجم.

١١. شرودنغر، اروين Schrodinger (١٨٨٧ – ١٩١٦): فيزياوي نمساوي صور نظرية ميكانيكية الأمواج – المترجم.

١٢. في النص Well – Tempered Klavier (بالألمانية das wholtemperiete). وهو عنوان منحه باخ لمقدماته الموسيقية وألحانه الموسيقية التي تتخللها الأصوات، حيث يقلد كل صوت الآخر- والتي تطلق عليها (أي الألحان والأصوات) كلمة fugu، هذه المقدمات والألحان عددها أربع وعشرون ألفها باخ سنة ١٧٢٢. كلمة klavier تعني بيانو أو آلة موسيقية ذات لوح مفاتيح– م.

١٣. في النص Partitas : مفردها تعني نغم وتنويعات عليه – المترجم.

١٤. المقصود هنا الرقع الصغيرة التي يتم لصقها على الحقائب وحاجيات المسافرين في الطائرات والبواخر – المترجم.

١٥. الخزف السبودي Spode : خزف انجليزي فاخر – المترجم.

١٦. البيبوب bebop : ضرب من موسيقى الجاز – المترجم.

١٧. هاي فاي hi – fi (high fidelity) : الأمانة البالغة : اعادة اصدار الصوت المستقبَل (في جهاز المذياع الخ) بدرجة عالية من الأمانة للأصل – المترجم.

١٨. المهاد : mulch : طبقة من النشارة أو التبن – م.

١٩. أبيرفان Aberfan قرية تكثر فيها مناجم الفحم الحجري، تقع في جنوب ويلز، في سنة ١٩٦٦ حصل فيها انهيار صخور تسبب في موت (١٤٤) فرداً – المترجم.

٢٠. يقصد المؤلف : الخليج العربي – المترجم.

٢١. الصينية الجوابة coaster : صينية مدورة، فضية عادةً، منصوبة على هيكل ذي عجلات (تستخدم لادارة الماء أو الخمر على الموائد بعد الطعام) – م.

٢٢. إيان بيسلي Ian Paisley : سياسي ورجل دين بروتستانتي في شمال ايرلندا، ولد سنة ١٩٢٦، قائد الحزب الديمقراطي الاتحادي – م .

٢٣. سجل القصاصات (scrapbook) : دفتر تُلصق على صفحاته الصور وقصاصات الصحف الخ – المترجم.

٢٤. وردت في النص عبارة: the bigger you think, the crappier it looks– م.

٢٥. بوغي boogie : نوع من الجاز السريع يعزف على البيانو يمتاز بلازمة جهيرة في جوابات مكسورة – المترجم.

٢٦. أرقام digits : أرقام تحت العشرة (٠، ١، ٢ – ٩) وهي أرقام الشقق السكنية التابعة لذلك المبنى – المترجم.

٢٧. شرفة مفرجة embattlement : جدار ذو فتحات على سطح حصن يطلق منه النار – المترجم.

٢٨. الاستبطانية inwardness : استغراق المرء في حياته العقلية أو الروحية – المترجم.

٢٩. مريط الحبال bollard : عمود تُشد اليه حبال المركب – المترجم.

٣٠. المقصود هنا شبح الأم – المترجم.

٣١. كاروسو Caruso، انريكو (١٨٧٣- ١٩٢١) : مغني ايطالي أوبرالي ذو صوت صادح (تنيور) يتمتع بشهرة هائلة- المترجم.

هوامش الفصل الثاني

١. المزابر raised : من (يزأبر): أي يجعل للقماش زئبراً أو زغباً – المترجم.

٢. الوشيع hedgerow : سياج من شجيرات أو أشجار – المترجم.

٣. الغُرير badger : حيوان ثديي قصير القوائم يحتفر في الأرض أوجرة يسكن فيها – المترجم.

٤. النبيذة disposable : تستعمل مرة واحدة وتطرح بعدها – المترجم.

٥. الجوبية jumper : سترة يرتديها العمال أو البحارة. وقد تعني ثوب من قطعة واحدة لا كمين له – المترجم.

٦. المجالد gladiatorial : صفة لكلمة gladiator : المجالد وهو شخص وبخاصة عبد أو أسير يقاتل حتى الموت، لإمتاع الناس في رومة القديمة– م.

٧. أمفيتامين amphetamine : مادة منبهة للجهاز العصبي المركزي – المترجم.

٨. هيستامين histamine : مادة يُعتقد إنها توسع الأوعية الدموية وتجعل جدرانها نفاذة أكثر وبذلك تسهل تفاعل الحساسية – المترجم.

٩. باينت pint : وحدة وزن تساوي نصف كوارت أو ثُمن غالون – المترجم.

١٠. غرادغرايند Gradgrind : احدى شخصيات رواية ((الأزمنة العصيبة)) لـ تشارلس ديكنز. وهو معلم مدرسة يشدد على الحقائق والأرقام – م .

١١. في النص EVD (extra ventricular drain) : يوضع في الدماغ لتصريف السائل المخي – النخاعي – م.

١٢. النواسة seesaw : لعبة من لعب الأطفال – المترجم.

١٣. هارولد بنتر Harold Pinter (ولد عام ١٩٣٠) : مؤلف مسرحي انجليزي حائز على جائزة نوبل للآداب لعام ٢٠٠٥. لمسرحياته صلة وثيقة بمسرح اللامعقول Absurd. من مسرحياته (الوكيل)، (حفلة شاي)، (الأرض الحرام) وغيرها – المترجم.

١٤. السير بيتر ميداوار Medawar : عالم بايولوجيا بريطاني، حاز جائزة نوبل للفلسفة أو الطب لسنة ١٩٦٠ – م.

١٥. مستبطن introspective : الاستبطان هو فحص المرء لأفكاره ودوافعه ومشاعره – المترجم.

١٦. البنط punt : قارب طويل ضيق مسطح القعر مربع الطرفين يسير عادةً بمردي (مجذاف) يضرب به قاع النهر ... الخ – م.

١٧. توماس هوبز Thomas Hobbes (١٥٨٨ – ١٦٧٩) : فيلسوف انجليزي. في كتابة (اللوياثان Leviathan) (١٦٥١) أنشأ فلسفة سياسية استندت على الرأي القائل أن الرجال انانيون بالضرورة وكي يهربوا من الفوضى الاجتماعية دخلوا في عقد اجتماعي، خضعوا بواسطته الى العاهل – المترجم.

١٨. اللوياثان Leviathan : وحش بحري يرمز الى الشر، في الكتاب المقدس. كما تعني هذه الكلمة الدولة ذات النظام الديكتاتوري – المترجم.

١٩. الخُدار narcolepsy : حالة مرضية تتميز بنوبات نوم عميق قصيرة – المترجم.

٢٠. أي وجود نقطة لسحب المال بواسطة بطاقة الائتمان (الفيزا كارد)– م.

٢١. ترابطي associative : متعلق بتداعي المعاني أو الخواطر – المترجم.

٢٢. بالانجليزية GABA : مادة كيميائية حياتية تساعد في نقل الايعازات العصبية – م .

٢٣. الرقاص chorea : اضطراب عصبي يتميز باختلاجات تشنجية في الوجه والأطراف.

٢٤. تحت غشاء الدماغ subdural: أي تحت الأم الجافية dura matter وهو الغشاء المغلف للدماغ والحبل الشوكي – المترجم.

٢٥. جزمة الدكتور مارتينز Doc Martens : علامة تجارية لجزمة قوية ذات شريط في الأعلى – م.

٢٦. athetoid : صفة لـ athetosis : وهي حركات لا إرادية تتميز بحركات لا إرادية بطيئة في أصابع اليدين والقدمين واليدين والقدمين بسبب مرض في الدماغ – م.

٢٧. السايتوسين الأدينين الغوانين : بالانجليزية CAG، هي مكوّنات الكروموسوم – م.

٢٨. العمه الحركي apraxia : فقد القدرة على القيام بحركات متسقة معقدة – المترجم.

٢٩. الشامان shaman : كاهن يستخدم السحر لمعالجة المرضى ولكشف المخبأ وللسيطرة على الأحداث – المترجم.

٣٠. يقصد المؤلف: هل تزور طبيباً ما في ما يتعلق بالمرض – المترجم.

٣١. مرض هنتنغتون Huntington's Disease : مرض وراثي يصيب

كـلا الجنـسين، في العقـدين الثالـث والرابـع مـن العمـر . وهـو اضطراب عصبي يتميز باختلاجات تشنجية في الوجه والأطـراف، ترافقها تكشيرة الوجه، عندما يتطور المرض تصبح الذراعان غير بـارعتين والمـشية غـير ثابتـة وتظهـر علامـات الجنـون مـع تغـير في الشخصية وفقدان الذاكرة والذكاء - م.

٣٢. خلية جذعية stem – cell : خلية غير مميزة تنشأ منها خلايا أخرى من النوع ذاته لكنها مميزة – م.

٣٣. RNA (Ribonucleic acid) : رايبـو نيوكليـك أسـيد وهـي مـادة كيمياوية موجود في نواة الخلية – م .

٣٤. التطبيب المشترك socialised medicine : تولي الدولة أو الجماعة المنظمـة القيـام بالخـدمات الطبيـة أو ادارتهـا لتـتلاءم مـع حاجـات جميع أفراد الشـعب كافة – المترجم.

٣٥. الباركية parquet : أرضية مفروشة بقطع خشبية مزخرفة تقوم مقام البـلاط – المترجم.

٣٦. منظـار الوقايـة goggles : نظاراتـان واقيتـان مـن أشـعة الـشمس أو الغبار – المترجم.

٣٧. نظرية السلسلة : string theory - المترجم.

هوامش الفصل الثالث:

١. نصف نغمة ذات السن semiquaver : هي النغمة، تعد مدلولاً زمنياً (النغمة السادسة في الولايات المتحدة الأمريكية)، تساوي نصف نغمة ذات السن مسندها يشار اليه بـ - المترجم .

٢. فالون غونغ Falun Gong : حركة روحية تتم مارستها من خلال التأمل والتنفس في هونغ كونغ – م.

٣. النسبيون relativisits : المؤمنون بالمذهب النسبي، أي النظرية التي تقول بأن الحقائق الأخلاقية تتفاوت تبعاً للفرد والزمان والظروف – م .

٤. البطلينوسات جمع بطلينوس clam : وهو حيوان من الرخويات أو السمك الصدفي – م.

٥. أبو الشص monkfish : سمك بحري ذو رأس ضخم مسطح وفم عريض، على رأسه شبه طُعم يغري به صغار الأسماك – المترجم.

٦. السفن skate : سمك مفلطح طويل الذيل – م.

٧. الافريز القاري Continental shelf : جزء من القارة مغمور بمياه البحر الضحلة نسبياً – م .

٨. ترليون trillion : رقم مؤلف من واحد الى يمينه ١٨ صفراً في بريطانيا– م.

٩. البيرينيز the Pyrenees : سلسلة جبلية تفصل بين فرنسا واسبانيا . تمتد على طول ٤٣٥ كيلومتراً بين الأطلسي والمتوسط – م.

١٠. المقصود هنا شيمس هيني Seamus Heaney : شاعر إيرلندي، ولد سنة ١٩٣٩ . نال جائزة نوبل للآداب لسنة ١٩٩٥ – م.

11. التأمين التكافلي tontine (بالفرنسية) : ضرب من التأمين يشترك بموجبه عدد من الأشخاص بحيث توزع حقوق أحدهم عند وفاته، على سائر رفاقه، حتى إذا توفوا جميعاً، إلا واحداً، انتقلت حقوقهم كلها إليه – م .

12. مؤلفة رواية ((جين آير)) هي الروائية الانجليزية شارلوت برونتي (١٨١٦ – ١٨٥٥) شقيقة إميلي برونتي (١٨١٨ – ١٨٤٨) مؤلفة (مرتفعات وذرنغ) – م .

13. سلطة نيسواز salad nicoise : سلطة من الخضر المطهوة والخيار والطماطة غير المطهوة والزيتون والسمك الصغير المملح ((الانشوفي)) وقطع صغيرة مطهوة من سمك التونة أو لحم الخنزير أو لحم الدجاج أو الروبيان مع عصير ليمون حامض وزيت الزيتون . توجد شكال متنوعة من هذه الوصفة – م.

14. من المعلوم طبياً أن المشروبات الكحولية بسبب تأثيرها على الجهاز العصبي المركزي تجعل السكران يقوم بأفعال معينة يمتنع عادةً عن القيام بها في أثناء صحوه ؛ أي أنها تشل تأثير المنع أو كما يدعى طبياً بـ inhibition effect - م.

15. الشعراء الاليزابيثيين Elizabethan poets : أولئك الشعراء الذين عاشوا في عصر اليزابيث الأولى (١٥٥٨ – ١٦٠٣) التي كانت ملكة انجلترا بين سنتي ١٥٥٨ و١٦٠٣. عاش في عصرها شكسبير، سيدني، سبنسر، ومارلو– م.

16. العصر الفضي silver age : فترة من التاريخ تتميز بمنجزات مهمة ولكنها ثانوية بالنسبة الى منجزات عصر ذهبي – م.

17. الموزيات جمع موزية muse : احدى الألاهات التسع الشقيقات

اللـواتي يحمـين الغنـاء والـشعر والفنـون والعلـوم في الميثولوجيـا الاغريقية – م.

١٨. وردت في النص كلمة Rothkos نسبة الى مارك روثكو Mark Rothko (١٩٠٣ – ١٩٧٠)، وهـو رسـام أمريكـي، مولـود في روسيا، منشيء التعبيرية التجريدية – م.

١٩. فارس الاسطوانات disc jockey (تختصر عادة بـ DJ) : من يعد برنامجـاً اذاعيـاً أو تلفازيـاً مؤلفـاً مـن مجموعـة مـن التـسجيلات الموسيقية ثم يقدمه مع تعليقات غير ذات صلة بالموسيقى – م .

٢٠. السلتي Celtic : أحد أفراد عرق هندي اوربي قطن في ما مضى أجزاءً واسعةً من أوربا الغربية – م.

٢١. الخث peat : نسيج نباتي نصف متفحم يتكون بتحلل النباتات تحللاً جزئياً في الماء – م.

٢٢. المعمـداني Baptist : أحـد أتبـاع مـذهب بروتـستانتي يقـول ان المعمودية يجب أن لا تتم إلا بعد أن يبلغ المرء سناً تمكنه من فهم معناها – م.

٢٣. في الانجليزية : Saints , Kids , Kittens - م.

٢٤. ساكارلاتي Scarlatti : اسم لموسيقيين ايطاليين همـا اليـساندرو سكارلاتي (١٦٦٠ – ١٧٢٥) وابنه جيوسيبي دومينيكو (١٦٨٥ – ١٧٥٧) – م.

٢٥. متحف مدام توسو : هو متحف الشمع – م.

٢٦. تـشامبرلين (١٨٦٩ – ١٩٤٠) : سياسـي بريطـاني . رئـيس الـوزراء (١٩٣٧– ١٩٤٠) . اتبع سياسة تهدئة بإزاء هتلر وموسوليني – م.

٢٧. هذا الشخص figure الذي ميزه الغلام هنري هو والدته – م .

٢٨. المفاتيح clues : المقصود هنا مفاتيح لحل الألغاز أو نحوها – م .

٢٩. الجنهام gingham : نسيج قطني مخطط – م.

٣٠. شنيل chenille : غَزل صوفي أو قطني أو حريري ذو زئبر ناتئ – م.

٣١. العيدر eider : بط ناعم الزغب – م.

٣٢. وردت في النص كلمة Aunty وهي تعني خالتي أو عمتي – م .

٣٣. المقصود هنا آلة موسيقية طويلة كالفيتار أو العود – م.

٣٤. خاتل الأيائل deertalker : من يصطاد الأيائل بالانسلال اليها من غير أن تحس به – م.

٣٥. بورسل Purcell : هنري (١٦٥٩ – ١٦٩٥) : موسيقي انجليزي –م.

هوامش الفصل الرابع :

١. السمسق البري oregano (بالاسبانية) : المردقوش، العترة، نبات عطري من الفصيلة الشفوية— م.
٢. الانشوفة anchovy : سمك صغير يشبه الرنكة – م.
٣. الكفت stockpot : قدر يعد فيه مرق اللحم إلخ – م.
٤. خس النعجة Mache (بالفرنسية): بقلة زراعية من فصيلة الناردينيات، تؤكل أوراقها نيئة – م.
٥. قلنسوة البحار watch cap : قلنسوة ضيقة يرتديها رجال الاسطول الامريكي في الجو العاصف البارد – م.
٦. وردت في النص كلمة bark : وهو مركب بثلاثة صواري – م .
٧. السونيتة sonnet : قصيدة تتألف من (١٤) بيتاً – م.
٨. استخدم المؤلف كلمة scan التي تعني ينطبق على موازين العروض – م.
٩. في النص (on your broad main doth wilfuly appear) . وما يتم مناقشته اعلاه بشأن العروض هو ما يخص النص الشعري الانجليزي الوارد في الرواية – م.
١٠. العمبق iamb : تفعيل عروضي مؤلف من مقطع قصير يتبعه مقطع طويل أو من مقطع غير مشدد النطق يتبعه مقطع مشدد النطق مثل (invent) – م.
١١. في النص bravely – في الشعر (أي انطباق الشعر على موازين العروض)– م .
١٢. ويات Wyatt (السير توماس) (١٥٠٣ – ١٥٤٢) : شاعر ورجل دولة

انجليزي . سونيتاته التي ربما كتبت في السجن هي أول السونيات المكتوبة بالانجليزية . استندت على أشعار بترارك وبخاصة في ما يتعلق بالشكل – م .

١٣. الباريتون baritone : الجهير الأول، وهو صوت رجالي اعلى من الجهير وأدنى من الصادح – م.

١٤. في النص Mr. road rage – م .

١٥. الرداء المحكم tights : ثوب ضيق يرتديه الراقص أو البهلوان وكذلك النساء – م .

١٦. أي كون القصيدة رخيمة، أو شجية – م .

١٧. مشك سلكي stapler : أداة صغيرة لضم مجموعة صغيرة من الأوراق – م .

١٨. الكرة الشاحبة : globus pallidus – م .

١٩. الجسم المخطط : corpus striatum : كتلة من المادة الرمادية تكون تحت القشرة في كل من نصفي المخ – م .

هوامش الفصل الخامس :

١. مشفى infirmary : حجرة أو بناية مخصصة للعناية بالمرضى أو المصابين بحادث ما ، وخاصة في مدرسة أو مؤسسة أو ملجأ — م .
٢. حوالق tendrils : مفردها حالق وهو جزء لولبي رفيع من النبتة المعترشة يساعدها على التعلق بسنادها — م .
٣. آلة البيع vending machine : آلة تعطيك السلعة باسقاط قطعة نقدية في الثقب — م .
٤. الهاتف الامتدادي extension : هاتف موصول بالخط الأصلي —م.
٥. DNA : ديوكسي نيوكليك أسيد مادة كيميائية (حامض) توجد في نواة الخلية — م.
٦. السيرجيسيل Surgicel : قطعة اسفنجية تساعد في ايقاف النزف — م
٧. القطيلة swab : كتلة من مادة ماصة تستخدم لمسح موضع من الجسم بدواء ما — م .
٨. سمحاق الجمجمة Pericranium : غشاء من النسيج الضام يكسو الجمجمة — م .
٩. الحبيبات الحمر granulation : هي تلك الحبيبات المتكونة على سطح الجرح عند إلتئامه — م .
١٠. العنكبوتية arachnoid : التي لها صلة بالغشاء العنكبوتي في الدماغ — م .
١١. التنويع Variation : لحن يكرر مع بعض التغيير — م .
١٢. مصرف drain : يستخدم لتسهيل خروج إفرازات الجراح — م .

١٣. أداغيو للأوتار Adagio for Strings : عنوان عمل أوركسترالي تم تقديمه أول مرة سنة ١٩٣٨ – الأداغيو (باللاتينية) حركة بطيئة – أبطأ من الأنداتي Andante وأسرع من لارجو Largo . باربر (صموئيل) موسيقي أمريكي، ولد سنة ١٩١٠، عمل مغنياً في بداية حياته . درس في ايطاليا وأمريكا – م .

١٤. التكهن prognosis : تكهن بالاتجاه المحتمل أن يتخذه مرض ما – م .

١٥. جيوردية Geordie : مواطنة تسكن في تاينيسايد Tyneside في الشمال الشرقي من انجلترا . سكان هذه المنطقة يتحدثون باللهجة الجيوردية – م.

١٦. المعتام dimmer : أداة لإضعاف التيار الكهربائي تدريجياً في المصابيح – م .

١٧. سوم Somme : نهر يقع في شمال فرنسا . حدث في هذا المكان قتال ضار في كلا الحربين الكونيتين، بخاصة في المدة بين حزيران (يونيو) – تشرين الأول (أكتوبر) ١٩١٦ حين أجبر الهجوم الفرنسي – البريطاني الألمان على التراجع في كلتا الضفتين . في سنة ١٩٤٠ جرت محاولة لإيقاف تقدم الألمان حنوباً – م .

١٨. الرعن promontory : قنة الجبل الخارجة منه والداخلة في البحر– م.

المترجم

- الكوت / واسط / ١٩٥٥.
- يمارس كتابة القصة القصيرة والرواية والترجمة منذ منتصف سبعينات القرن الماضي.
- نال جائزة الدولة في الترجمة سنة ٢٠٠١.

الأعمال المنشورة:

١. حفلة القنبلة/ رواية مترجمة/ غراهام غرين ـ بغداد ١٩٨٩.
٢. طبل من صفيح/ رواية مترجمة/ غونتر غراس ـ بغداد ٢٠٠٠.
٣. قط وفأر/ رواية مترجمة/ غونتر غراس ـ بغداد ٢٠٠١.
٤. قل لي كم مضى على رحيل القطار/ رواية مترجمة/ جيمس بولدوين ـ القاهرة ٢٠٠٣.
٥. جبل السحر/ رواية مترجمة/ ثلاثة أجزاء/ توماس مان ـ بغداد ٢٠٠٧.
٦. دلتا فينوس/ رواية مترجمة/ أناييس نن ـ دمشق ٢٠٠٧.
٧. الهولندي الطائر/ قصص/ تأليف ـ دمشق ٢٠٠٠.
٨. خميلة الأجنة/ رواية/ تأليف ـ بيروت ٢٠٠٨.
٩. أرابيسك/ رواية/ تأليف ـ عمّان ٢٠٠٩.
١٠. حدائق النصوص/ دراسات نقدية مترجمة/ مجموعة من الكتاب ـ دمشق ٢٠٠٩.
١١. بريدا/ رواية مترجمة ـ باولو كويلو ـ دمشق ٢٠٠٩.

البريد الالكتروني: draliabdulamir@yahoo.com



Al-yanabia
sweeden- stokholm

دار الينابيع
طباعة . نشر . توزيع